تفسير السعدي

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

تأليف العلامة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

(١٣٠٧هـ - ١٣٦٧هـ)

تهذيب وترتيب وتنسيق دون حذف أو اختصار

اعتنى به

إسلام بن منصور بن عبد الحميد

المجلد الثاني

تفسير السعدي

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

تأليف العلامة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

(١٣٠٧هـ - ١٣٦٧هـ)

تهذيب وترتيب وتنسيق دون حذف أو اختصار

اعتنى به

إسلام بن منصور بن عبد الحميد

المجلد الثاني

دار الحضارة

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عبد الحميد ، اسلام منصور

تفسير السعدي : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

المجلد الثاني / اسلام منصور عبدالحميد - الرياض ١٤٤٢هـ

٩١٢ ص ؛ ١٤× ٢٠ سم

ردمك: ٧-٦٥-٨٣١٣-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - التفسير الحديث أ-العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٥٧٧٦

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٥٧٧٦

ردمك: ٧-٦٥-٨٣١٣-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤١٦١٣٩- ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩

فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

تفسير سورة براءة، ويقال: سورة التوبة، وهي مدنية

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ٢﴾ [التوبة:١-٢]

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ هذه براءة من الله ومن رسوله..

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١﴾ إلىٰ جميع المشركين المعاهدين..

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أن لهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض علىٰ اختيارهم، آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم، ولا ميثاق.. وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر، أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر بزيادة علىٰ أربعة أشهر، فإنه يتعين أن يتمم له عهده إذا لم يَخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.. ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم..

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أنهم وإن كانوا آمنين، فإنهم لن يعجزوا الله ولن يفوتوه..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ٢﴾[التوبة:١-٢] وأنه من استمر منهم علىٰ شركه فإنه لا بد أن يخزيه.. فكان هذا **مما يجلبهم إلىٰ الدخول في الإسلام**، إلا من عاند وأصر ولم يبال بوعيد الله له.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ [التوبة:٣]

هذا ما وعد الله به المؤمنين، من نصر دينه وإعلاء كلمته، وخذلان أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة، من بيت الله الحرام، وأجلوهم، مما

لهم التسلط عليه من أرض الحجاز..

نصر الله رسوله والمؤمنين حتىٰ افتتح مكة، وأذلَّ المشركين، وصار للمؤمنين الحكم والغلبة علىٰ تلك الديار.

فأمر النبي مُؤَذِنَه أن يؤذن يوم الحج الأكبر..

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس، مسلمهم وكافرهم، من جميع جزيرة العرب، أن يؤذن بـ..

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وُجِدوا قُتِلوا.. وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة **تسع** من الهجرة.. وحج بالناس أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأذَّن ببراءة -يوم النحر- ابنُ عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.. **ثم رغب تعالىٰ المشركين بالتوبة**، ورهبهم من الاستمرار علىٰ الشرك فقال..

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ فائتيه، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين..

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ [التوبة:٣] مؤلم مفظع في الدنيا بالقتل والأسر، والجلاء.. وفي الآخرة، بالنار، وبئس القرار.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة:٤]

أي هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ واستمروا علىٰ عهدهم..

﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ ولم يجر منهم ما يوجب النقض، فلا نقصوكم شيئًا..

﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ ولا عاونوا عليكم أحدًا..

﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ فهؤلاء أتموا لهم عهدهم إلىٰ مدتهم، قَلَّتْ أو كثرت؛ لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر بالوفاء..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة:٤] **الذين أدَّوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة، وغيرَ ذلك من المعاصي.**

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة:٥]

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ **التي حرَّم فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة.. وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها.. فقد برئت منهم الذمة..**

﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ **في أي مكان وزمان..**

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ **أسرىٰ..**

﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ **ضيِّقوا عليهم، فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه، التي جعلها الله معبدًا لعباده.. فهؤلاء ليسوا أهلًا لسكناها، ولا يستحقون منها شبرًا؛ لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المنابذون له ولرسله، المحاربون الذين يريدون أن يُخلُو الأرض من دينه.. ويأبىٰ الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون..**

﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ **كلُّ ثَنِيَّة وموضع يمرون عليه.. ورابطوا في جهادهم وابذلوا غاية مجهودكم في ذلك.. ولا تزالوا علىٰ هذا الأمر حتىٰ يتوبوا من شركهم.. ولهذا قال..**

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ **من شركهم..**

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **أدُّوها بحقوقها..**

﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ **لمستحقيها..**

﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ **اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم..**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ **يغفر الشرك فما دونه للتائبين..**

﴿رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة:٥] **ويرحمهم بـ: توفيقهم للتوبة ثم قبولها منهم.**

📖 **الفـوائـد**

في هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة:٦]

لما كان ما تقدم من قوله ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥] أمرًا عامًا في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص منهم.. ذكر تعالى **أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم جاز**، بل وجب ذلك فقال..

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي: طلب منك أن تجيره، وتمنعه من الضرر، لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام..

﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ ثم إن أسلم، فذاك..

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ وإلا فأبلغه مأمنه، أي: المحل الذي يأمن فيه..

﴿ذَٰلِكَ﴾ والسبب في ذلك..

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة:٦] أن الكفارَ قومٌ لا يعلمون.. فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهلٍ منهم إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر اللهُ رسولَه وأُمَّته -أُسوَتَه في الأحكام- أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله.

📖 **الفـوائـد**

في هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة القائلين بـ: **أن القرآن كلام الله غير مخلوق**؛ لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها.. **وبطلان مذهب المعتزلة** ومن أخذ بقولهم: **أن القرآن مخلوق**.. وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۞٧﴾ [التوبة:٧]

هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين، فقال..

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ هل قاموا بواجب الإيمان؟ أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم؟ أمَا حاربوا الحقَّ ونصروا الباطل؟ أمَا سعوا في الأرض فسادًا؟ فيحق عليهم أن يتبرأ الله منهم، وأن لا يكون لهم عهد عنده ولا عند رسوله..

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ﴾ من المشركين..

﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإنَّ لهم في العهد -وخصوصًا في هذا المكان الفاضل- حرمة، أوجب أن يراعوا فيها..

﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۞٧﴾ [التوبة:٧] ولهذا قال..

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۞٨ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞٩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۞١٠ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞١١﴾ [التوبة:٨-١١]

﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق..

﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ والحال أنهم (إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) بالقدرة والسلطة، لا يرحموكم، و..

﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ لا ذمة ولا قرابة.. ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب، فهذه حالكم معهم لو ظهروا.. ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم..

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الميلَ والمحبةَ لكم.. بل هم الأعداء حقًا، المبغضون لكم صدقًا..

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨﴾ لا ديانة لهم ولا مروءة..

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ اختاروا الحظَّ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، والانقياد لآيات الله..

﴿فَصَدُّوا۟﴾ بأنفسهم، وصدُّوا غيرهم..

﴿عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩﴾ ..

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ﴾ أي لأجل عداوتهم للإيمان..

﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾ أي لأجل عداوتهم للإيمان وأهله، فالوصف الذي جعلهم يعادونكم لأجله ويبغضونكم هو الإيمان..

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾ فَذُبُّوا عن دينكم وانصروه، واتخذوا من عاداه لكم عدوًا، ومن نصره لكم وليًا، واجعلوا الحكم يدور معه وجودًا وعدمًا.. لا تجعلوا الولاية والعداوة طبيعية تميلون بهما حيثما مال الهوىٰ وتتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء ولهذا..

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن شركهم ورجعوا إلىٰ الإيمان..

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ وتناسُوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين؛ لتكونوا عباد الله المخلصين.. وبهذا يكون العبد عبدًا حقيقة.. لمَّا بين من أحكامه العظيمة ما بين، ووضح منها ما وضح، أحكامًا وحِكَمًا وحُكْمًا وحكمة قال..

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نوضحها ونميزها..

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾[التوبة:٨-١١] فإليهم سياق الكلام.. وبهم تعرف الآيات والأحكام.. وبهم عرف دين الإسلام وشرائع الدين.. اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون ويعملون بما يعلمون، برحمتك وجودك وكرمك وإحسانك يا رب العالمين.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا

نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة:١٢-١٣]

يقول تعالىٰ بعد ما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا علىٰ عهدهم فاستقيموا لهم علىٰ الوفاء..

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ أي: نقضوها وحلوها، فقاتلوكم أو أعانوا علىٰ قتالكم، أو نقصوكم..

﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ عابوه، وسخروا منه.. **ويدخل في هذا:** جميع أنواع الطعن الموجهة إلىٰ الدين، أو إلىٰ القرآن..

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: القادة فيه، الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان.. **وخصَّهم بالذكر:** لِعِظَم جنايتهم، ولأن غيرهم تبع لهم، وليدل علىٰ أن من طعن في الدين وتصدىٰ للرد عليه فإنه من أئمة الكفر..

﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ لا عهود ولا مواثيق يلازمون علىٰ الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين ناكثين للعهد، لا يوثق منهم..

﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ في قتالكم إياهم..

﴿يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه.. ثم حث علىٰ قتالهم، وهيَّج المؤمنين بذكر الأوصاف التي صدرت من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقتضية لقتالهم فقال..

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمًا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟! وهم همُّوا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه، وسعوا في ذلك ما أمكنهم..

﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ حيث نقضوا العهد وأعانوا عليكم.. وذلك حيث عاونت قريش -وهم معاهدون- بني بكر -حلفاءهم- علىٰ خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم.. كما هو مذكور مبسوط في السيرة..

﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ في ترك قتالهم..

﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣﴾[التوبة:١٢-١٣] فإنه أمركم بقتالهم، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد.. فإن كنتم مؤمنين فامتثلوا لأمر الله، ولا تخشوهم فتتركوا أمر الله.. ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب علىٰ قتالهم من الفوائد، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين علىٰ قتالهم، فقال..

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٍ مُّؤۡمِنِينَ ۝١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾ [التوبة:١٤-١٥]

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ بالقتل..

﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يُطلب خزيُهم ويُحرص عليه..

﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها..

﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٍ مُّؤۡمِنِينَ ۝١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ فإنَّ في قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهم؛ إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوالًا للغيظ الذي في قلوبهم.. وهذا يدل علىٰ محبة الله لعباده المؤمنين واعتنائه بأحوالهم، حتىٰ إنه جعل من جملة المقاصد الشرعية شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.. ثم قال..

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ من هؤلاء المحاربين بـ: أن يوفقهم للدخول في الإسلام، ويزينه في قلوبهم، ويُكرِّهَ إليهم الكفر والفسوق والعصيان..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾ [التوبة:١٤-١٥] يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقيه في غيه وطغيانه.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [التوبة:١٦]

يقول تعالىٰ لعباده المؤمنين بعد ما أمرهم بالجهاد..

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ﴾ من دون ابتلاء وامتحان.. وأَمر بما يبين به الصادقَ والكاذبَ..

﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ عِلمًا يُظهر مما في القوة إلىٰ الخارج، ليترتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته..

﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ﴾ أي: وليًا من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء.. **فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم**، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين..

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾[التوبة:١٦] يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم علىٰ أعمالكم خيرها وشرها.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ١٧ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [التوبة:١٧-١٨]

﴿مَا كَانَ﴾ ما ينبغي ولا يليق..

﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بالعبادة، والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات.. والحال أنهم شاهدون ومقرون علىٰ أنفسهم بالكفر، بشهادة حالهم وفطرهم، وعِلم كثير منهم أنهم علىٰ الكفر والباطل..

فإذا كانوا..

﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ وعدم الإيمان، الذي هو شرط لقبول الأعمال.. فكيف يزعمون أنهم عُمَّارُ مساجد الله والأصل منهم مفقود، والأعمال منهم باطلة؟! ولهذا قال..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بطلت وضلت..

﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ١٧﴾ .. ثم ذكر من هم عمار مساجد الله فقال..

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطن..**

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ **لأهلها..**

﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ **أي قصر خشيته على ربه، فكفَّ عمَّا حرَّم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة..** **فوصفهم بـ:** الإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أُمُّها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير.. **فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها..**

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾[التوبة:١٧-١٨] و(عسىٰ) من الله واجبة.. وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية لله، **فهذا ليس من عمار مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه.**

﴿۞أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [التوبة:١٩-٢٠]

لما اختلف بعض المسلمين، أو بعض المسلمين وبعض المشركين، في تفضيل عمارة المسجد الحرام، بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله، أخبر الله تعالىٰ بالتفاوت بينهما، فقال..

﴿۞أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾ **سقيهم الماء من زمزم، كما هو المعروف إذا أُطلق هذا الاسم، أنه المراد..**

﴿وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ **فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة؛** **لأن الإيمان أصل الدين،** وبه تقبل الأعمال، وتزكو الخصال، **وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع،** وينصر الحق ويخذل

الباطل.. **وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج،** فهي وإن كانت أعمالا صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، **وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد،** فلذلك قال:..

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.. **ثم صرح بالفضل** فقال..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة..

﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بالخروج بالنفس..

﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾[التوبة:١٩-٢٠] لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة:٢١-٢٢]

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ جودًا منه، وكرمًا وبرًا بهم، واعتناءً ومحبةً لهم..

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم بها كل خير..

﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجلّه، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدا..

﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ من كل ما اشتهته الأنفس، وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى.. **الذي منه:** أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم...

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبغون عنها حِوَلا..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[التوبة:٢١-٢٢] لا تستغرب كثرته على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ

﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٣-٢٤]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اعملوا بمقتضىٰ الإيمان، بـ: **أن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به**، و..

﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولىٰ وأحرىٰ، فلا تتخذوهم..

﴿أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾ اختاروا علىٰ وجه الرضا والمحبة..

﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لأنهم تجرؤوا علىٰ معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء.. **وأصل الولاية:** المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم علىٰ طاعة الله، ومحبتهم علىٰ محبة الله ورسوله.. ولهذا **ذكر السبب الموجب لذلك**، وهو أن محبة الله ورسوله يتعين تقديمهما علىٰ محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما فقال..

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ ومثلهم الأمهات..

﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ في النسب والعشرة..

﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ قراباتكم عمومًا..

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها.. خصَّها بالذكر؛ لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصًا عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كَدّ..

﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي: رخصها ونقصها.. **وهذا شامل لـ:** جميع أنواع التجارات والمكاسب، من عروض التجارات من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحروث، والأنعام، وغير ذلك..

﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم.. فإن كانت هذه الأشياء..

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ **فأنتم فسقة ظلمة..**

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ **انتظروا ما يحل بكم من العقاب..**

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ **الذي لا مرد له..**

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٣-٢٤] **الخارجين عن طاعة الله، المقدِّمين علىٰ محبة الله شيئًا من المذكورات.**

🕮 الفوائد

هذه الآية الكريمة أعظم دليل علىٰ وجوب **محبة الله ورسوله، وعلىٰ تقديمها علىٰ** محبة كل شيء، وعلىٰ **الوعيد الشديد** والمقت الأكيد، **علىٰ من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.**

وعلامة ذلك: أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوىٰ، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا لله ورسوله أو ينقصه، **فإنه إن قدَّم ما تهواه نفسه علىٰ ما يحبه الله، دلَّ ذلك علىٰ أنه ظالم،** تارك لما يجب عليه.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة:٢٥-٢٦]

يمتن تعالىٰ علىٰ عباده المؤمنين بـ: نصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواضع الحروب والهيجاء، حتىٰ في يوم (حنين) الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض علىٰ رحبها وسعتها.. وذلك:

أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه..

فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وممن أسلم من الطلقاء أهل مكة..

فكانوا اثني عشر ألفا، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم،

وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة..

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا علىٰ المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد علىٰ أحد..

ولم يبق مع رسول الله ﷺ، إلا نحو مائة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»(١)..

ولما رأىٰ من المسلمين ما رأىٰ، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السَمُرَة، يا أهل سورة البقرة..

فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم اللهُ المشركين، هزيمة شنيعة، واستولوا علىٰ معسكرهم ونسائهم وأموالهم.. وذلك قوله تعالىٰ..

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف..

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ لم تفدكم شيئًا، قليلًا ولا كثيرًا..

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمتم..

﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ علىٰ رحبها وسعتها..

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ منهزمين..

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والسكينة ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفظعات، مما يثبتها، ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة علىٰ العباد..

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين، يثبتونهم، ويبشرونهم بالنصر..

---

(١) اخرجه البخاري [٢٨٦٤]، ومسلم [١٧٧٦] وغيرهما من حديث البراء

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ **بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين علىٰ نسائهم وأولادهم وأموالهم..**

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦﴾ [التوبة:٢٥-٢٦] **يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلىٰ عذاب غليظ.**

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾ [التوبة:٢٧]

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ **فتاب الله علىٰ كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلىٰ النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم، وأولادهم..**

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾[التوبة:٢٧] **ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم، وقبول توباتهم.. فلا ييأسنَّ أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾ [التوبة:٢٨]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ **بالله الذين عبدوا معه غيره..**

﴿نَجَسٞ﴾ **خبثاء في عقائدهم وأعمالهم.. وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا** تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئا؟! وأعمالهم ما بين محاربة لله، وصد عن سبيل الله ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح.. **فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.. وليس المراد هنا نجاسة البدن،** فإن الكافر كغيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالىٰ أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها، والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها تَقَذُّرَهُم من النجاسات، **وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية بالشرك،** فكما أن التوحيد والإيمان،

طهارة، فالشرك نجاسة..

﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾ وهو سنة **تسع من الهجرة**، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه عليًا أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ (براءة) فنادىٰ أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان..

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المسلمون..

﴿عَيْلَةً﴾ فقرًا وحاجة من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسبابُ التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية..

﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فليس الرزق مقصورًا علىٰ باب واحد، ومحل واحد، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإنَّ فضل الله واسع، وجودَه عظيم، خصوصًا لمن ترك شيئا لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.. وقد أنجز الله وعده، فإن الله قد أغنىٰ المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك..

﴿إِن شَآءَ ۚ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأنَّ **الغنىٰ في الدنيا ليس من لوازم الإيمان**، ولا يدل علىٰ محبة الله، فلهذا علقه الله بالمشيئة.. فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين، إلا من يحب..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة:٢٨] علمه واسع، يعلم من يليق به الغنىٰ ومن لا يليق.. ويضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

📖 الفوائد

تدل الآية الكريمة، وهي قوله ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾ أن **المشركين بعد ما كانوا هم الملوك والرؤساء بالبيت..**

ثم **صار بعد الفتح الحكم لرسول الله والمؤمنين**، مع إقامتهم في البيت، ومكة المكرمة..

ثم نزلت هذه الآية..

ولما مات النبي ﷺ **أمر أن يجلوا من الحجاز، فلا يبقىٰ فيها دينان..**

وكل هذا **لأجل بُعْدِ كلِّ كافر عن المسجد الحرام،** فيدخل في قوله ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة:٢٩]

﴿قَٰتِلُواْ﴾ **هذه الآية أمرٌ بقتال الكفار من اليهود والنصارىٰ من..**

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ **إيمانًا صحيحًا يصدِّقونه بأفعالهم وأعمالهم..**

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ **ولا يحرمون ما حرم الله، فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات..**

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ **لا يدينون بالدين الصحيح.. وإن زعموا أنهم علىٰ دين،** فإنه دين غير الحق؛ **لأنه إما بين دين مبدل،** وهو الذي لم يشرعه الله أصلًا، **وإما دين منسوخ** قد شرعه الله ثم غيره بشريعة محمد ﷺ، **فيبقىٰ التمسك به بعد النسخ غير جائز..**

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ **فأَمَره بقتال هؤلاء،** وحث علىٰ ذلك، **لأنهم يَدعُون إلىٰ** ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب.. وغيَّىٰ ذلك القتال..

﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ أي: المال الذي يكون **جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين علىٰ أنفسهم وأموالهم،** بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كلٌّ علىٰ حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط.. كما **فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من** أمراء المؤمنين..

﴿عَن يَدٍ﴾ حتىٰ يبذلوها في حال ذلِّهم وعدم اقتدارهم، **ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادمًا ولا غيره،** بل لا تقبل إلا من أيديهم..

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[التوبة:٢٩] **فإذا كانوا بهذه الحال،** وسألوا المسلمين أن يقروهم

بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم المسلمون مما **ينفي عزهم وتكبرهم**، ويوجب ذلهم وصغارهم.. **وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم.. وإلا بأن لم يفوا، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا.**

📖 الفوائد

استدل بهذه الآية الجمهور: الذين يقولون: **لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب.. لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم.**

وأما غيرهم: فلم يذكر إلا **قتالهم حتى يسلموا.**

وأُلحِق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين **المجوس**: فإنَّ النبيَّ ﷺ **أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس.**

وقيل: **إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار** من أهل الكتاب وغيرهم، **لأن** هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين، والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخبارًا بالواقع، لا مفهوما له.

ويدل على هذا: أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب.. ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف، **من غير فرق بين كِتَابِيٍّ وغيره.**

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: ٣٠-٣١]

لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب، **ذكر من أقوالهم الخبيثة ما يهيج المؤمنين الذين**

يغارون لربهم ولدينه علىٰ قتالهم، والاجتهاد وبذل الوسع فيه، فقال..

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم، فقد قالها فرقة منهم.. فيدل ذلك علىٰ أن في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلىٰ أن قالوا هذه المقالة التي تجرأوا فيها علىٰ الله، وتنقصوا عظمته وجلاله.. وقد قيل: إن سبب ادعائهم في (عزير) أنه ابن الله، أنه لما سلَّط اللهُ الملوكَ علىٰ بني إسرائيل، ومزَّقوهم كلَّ ممزق، وقتلوا حَمَلَةَ التوراة، وجدوا عزيرًا بعد ذلك حافظًا لها أو لأكثرها، فأملاها عليهم من حِفظه، واستنسخوها، فادَّعوا فيه هذه الدعوىٰ الشنيعة..

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ﴾ عيسىٰ ابن مريم..

﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ قال الله تعالىٰ..

﴿ذَٰلِكَ﴾ القول الذي قالوه..

﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهانا.. ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي قول يقوله.. فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام.. ولهذا قال..

﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ يشابهون في قولهم هذا..

﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ قول المشركين الذين يقولون: الملائكة بنات الله.. تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم في البطلان..

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ كيف يُصرفون عن الحق، الصرف الواضح المبين، إلىٰ القول الباطل المبين.. وهذا وإن كان يستغرب علىٰ أمةٍ كبيرة كثيرة، أن تتفق علىٰ قول يدل علىٰ بطلانه أدنىٰ تفكر وتسليط للعقل عليه، فإن لذلك سببا وهو أنهم..

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم علماؤهم..

﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ العُبَّاد المتجردين للعبادة..

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يُحِلُّون لهم ما حرم الله فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.. وكانوا أيضًا يغلون في مشايخهم وعُبَّادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثانًا تعبد من دون الله، وتقصد بالذبائح، والدعاء والاستغاثة..

﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ اتخذوه إلهًا من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم علىٰ ألسنة رسله..

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانا..

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾[التوبة:٣٠-٣١] تنزه وتقدَّس وتعالت عظمته عن شركهم وافترائهم.. فإنهم ينتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالىٰ العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، مما ينافي كماله المقدَّس.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة:٣٢-٣٣]

فلما تبيَّن أنه لا حجة لهم علىٰ ما قالوه، ولا برهان لِما أَصَّلوه، وإنما هو مجرَّد قول قالوه، وافتراء افتروه، أخبر أنهم..

﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا..

﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ **ونور الله**: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب.. **وسماه الله نورًا لأنه** يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه عِلمٌ بالحق، وعَمَلٌ بالحق، وما عداه فإنه بضده.. فهؤلاء اليهود والنصارىٰ ومن ضاهوه من المشركين يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلًا..

﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا علىٰ إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميعُ نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريده بسوء، ولهذا قال: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾..

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئا.. ثم بين تعالىٰ هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال:..

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الذي هو العلم النافع..

﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح، **فكان ما بعث الله به محمدًا ﷺ مشتملًا على بيان الحق من الباطل، في**: أسماء الله وأوصافه وأفعاله.. وفي أحكامه وأخباره.. والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان، من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته.. والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.. والأعمال الصالحة والآداب النافعة.. والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة.. فأرسله الله بالهدى ودين الحق..

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ **يعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان..**

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾[التوبة:٣٢-٣٣] وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكرهم، فإنَّ المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوَعدُ الله لا بد أن ينجزه، وما ضَمِنَه لا بد أن يقوم به.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة:٣٤-٣٥]

هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان..

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ أي: العلماء والعباد..

﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ بغير حق.. ومِن أَخذِهم لأموال الناس بغير حق، **أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله**، فهؤلاء الأحبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصدهم الناس عن سبيل الله..

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس أو بذل الناس لهم من أموالهم فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هداهم وهدايتهم، **وهؤلاء يأخذونها**

ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها علىٰ هذا الوجه سحتًا وظلمًا، فإنَّ الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلىٰ الطريق المستقيم..

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ يمسكونها..

﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلىٰ الله.. وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة.. كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت..

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾ ثم فسره بقوله..

﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا﴾ علىٰ أموالهم..

﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فيحمىٰ كل دينار أو درهم علىٰ حدته..

﴿فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ﴾ في يوم القيامة، كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخًا ولومًا..

﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة:٣٤-٣٥] فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكنز.

🕮 الفوائد

ذكر الله في هاتين الآيتين، انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل: الذي لا يجدي عليه نفعًا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين علىٰ طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله: عن إخراجه في الواجبات، والنهي عن الشيء، أمر بضده.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ

فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة:٣٦]

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ **في قضائه وقدره..**

﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ **وهي هذه الشهور المعروفة..**

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ **أي في حكمه القدري..**

﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ **وأجرىٰ ليلها ونهارها، وقدَّر أوقاتها، فقسَّمها علىٰ هذه الشهور الاثني عشر..**

﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ **وهي:** رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسميت حُرُمًا لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها..

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾ ..

﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾ **يحتمل:** أن الضمير يعود إلىٰ **الاثنىٰ عشر شهرًا،** وأن الله تعالىٰ بيَّن أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تُعمَّر بطاعته، ويشكر الله تعالىٰ علىٰ مِنَّتِهِ بها، وتقييضها لمصالح العباد، **فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها.. ويحتمل:** أن الضمير يعود إلىٰ **الأربعة الحرم،** وأن هذا نهي لهم **عن الظلم فيها،** خصوصًا مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها.. **ومن ذلك:** النهي عن القتال فيها، علىٰ قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرام لم ينسخ تحريمه، عملًا بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها، ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ، أخذا بعموم نحو قوله تعالىٰ..

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ **قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين..**

﴿كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ﴾ **ولا تخصُّوا أحدًا منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلَّهم لكم أعداءً كما كانوا هم معكم كذلك،** قد اتخذوا أهل الإيمان أعداءً لهم، لا يألونهم من الشر شيئا.. **ويحتمل:** أن ﴿كَآفَّةً﴾ حال من الواو، **فيكون معنىٰ هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين،** فيكون فيها وجوب النفير علىٰ جميع المؤمنين، **وقد نسخت علىٰ هذا**

الاحتمال بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾ [التوبة: ١٢٢]..

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾ [التوبة:٣٦] بعونه ونصره وتأييده.. **فلتحرصوا على استعمال تقوى الله** في سرِّكم وعلنكم والقيام بطاعته، **خصوصًا عند قتال الكفار**، فإنه في هذه الحال ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٧﴾ [التوبة:٣٧]

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ النسيء: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم.. وكان من جملة بدعهم الباطلة أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا -بآرائهم الفاسدة- أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم، التي حرَّم اللهُ القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحلِّ ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلُّوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حرامًا، فهذا -كما أخبر الله عنهم- أنه..

﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ زيادة في كفرهم وضلالهم.. **لما فيه من المحاذير: منها**: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.. **ومنها**: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حرامًا، والحرام حلالًا.. **ومنها**: أنهم موَّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.. **ومنها**: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال..

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ ليوافقوها في العدد..

﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ زَيَّنت لهم الشياطينُ الأعمالَ السيئة، فرأوها حسنة، بسبب العقيدة المزيَّنة في قلوبهم..

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [التوبة:٣٧] **الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [التوبة:٣٨-٣٩]

اعلم أن كثيرًا من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك.. إذ ندب النبي ﷺ المسلمين إلىٰ **غزو الروم**.. وكان الوقت حارًا، والزاد قليلًا، والمعيشة عسرة، **فحصل** من بعض المسلمين من **التثاقل** ما أوجب أن **يعاتبهم الله تعالىٰ** عليه **ويستنهضهم، فقال تعالىٰ..**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ **ألا تعملون بمقتضىٰ الإيمان وداعي اليقين من المبادرة لأمر الله، والمسارعة إلىٰ رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، فـ..**

﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ **تكاسلتم، وملتم إلىٰ الأرض والدعة والسكون فيها..**

﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ **ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعىٰ لها ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها..**

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ **التي مالت بكم، وقدمتموها علىٰ الآخرة..**

﴿إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ **أفليس قد جعل الله لكم عقولًا تَزِنُون بها الأمور، وأيها أحق بالإيثار؟!** أفليست الدنيا -من أولها إلىٰ آخرها- لا نسبة لها في الآخرة؟! فما مقدار عمر الإنسان القصير جدًا من الدنيا حتىٰ يجعله الغاية التي لا غاية وراءها؟! فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدىٰ حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار؟! فبأي رَأْيٍ رأيتم إيثارها علىٰ الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ

الأعين، وأنتم فيها خالدون؟! فوالله ما آثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُدَّ من أولي الألباب.. **ثم توعدهم على عدم النفير فقال..**

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة.. **فإن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب** الموجبة لأشد العقاب، **لما فيها من المضار الشديدة**: فإن المتخلف قد عصى الله تعالى وارتكب لنهيه، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذَبَّ عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فَتَّ في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله.. فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد، فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾..

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم..

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه، وراءكم ظهريا..

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [التوبة:٣٨-٣٩] لا يعجزه شيء أراده، ولا يغالبه أحد.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة:٤٠]

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ إلا تنصروا رسوله محمدا ﷺ، فالله غني عنكم، لا تضرونه شيئا..

﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ فقد نصره في أقل ما يكون وأذلة..

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من مكة، لمَّا همُّوا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرصوا أشد الحرص، فألجؤوه إلى أن يخرج..

﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ هو وأبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..

﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ لمَّا هَرَبا من مكة، لجئا إلىٰ غار ثور في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب.. فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المُشِقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر علىٰ البال..

﴿إِذۡ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ..

﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أبي بكر لما حزن واشتد قلقه..

﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ بعونه ونصره وتأييده..

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي: الثبات والطمأنينة والسكون، المثبتة للفؤاد.. ولهذا لما قلق صاحبه سكَّنه وقال ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾..

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرسا له..

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ الساقطة المخذولة.. فإن الذين كفروا قد كانوا علىٰ حرد قادرين في ظنهم علىٰ قتل الرسول ﷺ وأخذه، حَنِقِين عليه.. فعملوا غاية مجهودهم في ذلك.. فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودُهم، بل ولا أدركوا شيئا منه.. ونصر الله رسوله بدفعه عنه.. **وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع، فإن النصر علىٰ قسمين:** نصر المسلمين **إذا طمعوا في عدوهم** بأن يتم الله لهم ما طلبوا، وقصدوا، ويستولوا علىٰ عدوهم ويظهروا عليهم.. **والثاني: نصر المستضعف** الذي طمع فيه عدوه القادر، **فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين**، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين **من هذا النوع**..

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ أي: كلماته **القدرية** وكلماته **الدينية**، هي العالية علىٰ كلمة غيره.. التي من جملتها قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات: ١٧٣].. فدين الله هو الظاهر العالي علىٰ سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر..

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هارب..

﴿حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة:٤٠] يضع الأشياء مواضعها، **وقد يؤخر نصر حزبه إلىٰ وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.**

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية الكريمة:

١- **فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة**، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة.. ولهذا **عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافرا؛ لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها**.

٢- فيها **فضيلة السكينة**، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفئدة، وأنها **تكون على حسب معرفة العبد بربه**، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

٣- فيها: أن **الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين**، مع أن الأولى -إذا نزل بالعبد- أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعِف للقلب، موهن للعزيمة.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٤٢﴾ [التوبة:٤١-٤٢]

يقول تعالى لعباده المؤمنين **مهيجًا لهم على النفير في سبيله فقال**..

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال..

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس.. وفي هذا دليل على أنه **كما يجب الجهاد في النفس يجب الجهاد في المال**، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.. ثم قال:..

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الجهاد في النفس والمال..

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ خير لكم من التقاعد عن ذلك..

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ لأن: فيه رضا الله تعالىٰ.. والفوز بالدرجات العاليات عنده.. والنصر لدين الله.. والدخول في جملة جنده وحزبه..

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ لو كان خروجهم لطلب العرض القريب، أي: منفعة دنيوية سهلة التناول..

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ وكان السفر سَفَرًا قَاصِدًا، أي: قريبًا سهلًا..

﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لعدم المشقة الكثيرة..

﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تثاقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد لله علىٰ كل حال..

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج أن لهم أعذارًا، وأنهم لا يستطيعون ذلك..

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع..

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[التوبة:٤١-٤٢] .. **وهذا العتاب إنما هو للمنافقين**، الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في (غزوة تبوك) وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا.. فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين له الصادق من الكاذب، **ولهذا عاتبه الله علىٰ هذه المسارعة إلىٰ عذرهم** فقال..

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:٤٣-٤٥]

يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ..

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ سامحك وغفر لك ما أجريت..

﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في التخلف..

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ بأن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذُر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك.. ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم..

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان يحملهم علىٰ الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاث، فضلًا عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ فيجازيهم علىٰ ما قاموا به من تقواه.. ومن علمه بالمتقين أنه أخبر أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد..

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق.. فلذلك قلَّتْ رغبتهم في الخير، وجبنوا عن القتال.. واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال..

﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:٤٣-٤٥] لا يزالون في الشك والحيرة.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة:٤٦-٤٧]

يقول تعالىٰ مبيِّنًا أنَّ المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعذارهم التي اعتذروها باطلة.. فإنَّ العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعىٰ في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يُعذر..

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ وأما هؤلاء المنافقون فـ ﴿لَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب.. ولكن لما لم يعدوا له عدة، عُلِم أنهم ما أرادوا الخروج..

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ معكم في الخروج للغزو..

﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ قدرًا وقضاءً، وإن كان قد أمرهم وحثهم علىٰ الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم..

﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾ من النساء والمعذورين.. **ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال..**

﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ أي: نقصًا..

﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾ ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرَّقوا جماعتكم المجتمعين..

﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ هم حريصون علىٰ فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم..

﴿وَفِيكُمۡ﴾ أناس ضعفاء العقول..

﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم.. فإذا كانوا هم حريصين علىٰ خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتثبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم.. **فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين،** والنقص الكثير منهم، فلله أتمُّ الحكمة حيث ثبَّطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفًا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧﴾ [التوبة:٤٦-٤٧] فيُعَلِّم عبادَه كيف يَحذَرُونهم، ويُبيِّن لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم.

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ۝٤٨﴾ [التوبة:٤٨]

ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال..

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾ حين هاجرتم إلىٰ المدينة، بَذَلُوا الجهد..

﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ أداروا الأفكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك..

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ۝٤٨﴾[التوبة:٤٨] فبطل كيدهم واضمحل

باطلهم، فحقيق بمثل هؤلاء أن يُحذِّرَ الله عبادَه المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنين بتخلفهم عنهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة:٤٩]

﴿وَمِنْهُم﴾ ومن هؤلاء المنافقين..

﴿مَّن يَقُولُ﴾ من يستأذن في التخلف، ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول..

﴿ائْذَن لِّي﴾ في التخلف..

﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ في الخروج.. فإني إذا خرجت **فرأيت نساء بين الأصفر لا أصبر عنهن،** كما قال ذلك: (الجد بن قيس).. **ومقصوده** -قبحه الله- **الرياء والنفاق بأن مقصودي مقصود حسن،** فإن في خروجي فتنة وتعرضـًا للشر، وفي عدم خروجي عافية وكَفًّا عن الشر.. قال الله تعالىٰ مبيِّنًا كذب هذا القول..

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ فإنه علىٰ تقدير صدق هذا القائل في قصده، فإنَّ في التخلف مفسدةً كبرىٰ وفتنةً عظمىٰ محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجرؤ علىٰ الإثم الكبير، والوزر العظيم.. وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة.. مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير.. ولهذا **توعدهم الله** بقوله..

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة:٤٩] ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك، ولا خلاص.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة:٥٠-٥١]

يقول تعالىٰ مبيِّنًا أنَّ المنافقين همُ الأعداء حقًا، المبغضون للدِّين صِرفًا..

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ كنصر وإدالة علىٰ العدو..

﴿تَسُؤْهُمْۖ﴾ تحزنهم وتغمهم..

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ كإدالة العدوِّ عليك..

﴿يَقُولُواْ﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك..

﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ قد حذرنا وعملنا بما ينجينا من الوقوع في مثل هذه المصيبة..

﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾ فيفرحون بمصيبتك، وبعدم مشاركتهم إياك فيها.. قال تعالىٰ رادًّا عليهم في ذلك..

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ قدَّره وأجراه في اللوح المحفوظ..

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ﴾ متولي أمورنا الدينية والدنيوية.. فعلينا الرضا بأقداره.. وليس في أيدينا من الأمر شيء..

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده..

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾[التوبة:٥٠-٥١] يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويثقوا به في تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه.. وأما من توكل علىٰ غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التوبة:٥٢]

﴿قُلْ﴾ للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر..

﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ﴾ أي شيء تربصون بنا؟! فإنكم لا تربصون بنا إلا أمرًا فيه غاية نفعنا، وهو إحدىٰ الحسنيين، إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الأخروي والدنيوي، وإما الشهادة التي هي من أعلىٰ درجات الخلق، وأرفع المنازل عند الله..

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ وأما تربصنا بكم -يا معشر المنافقين- فنحن نتربص بكم، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، لا سبب لنا فيه..

﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم..

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ بنا الخير..

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ٥٢﴾ [التوبة:٥٢] بكم الشر.

﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٣ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾ [التوبة:٥٣-٥٤]

يقول تعالىٰ مبيِّنًا بطلان نفقات المنافقين، وذاكرًا السبب في ذلك..

﴿قُلۡ﴾ لهم..

﴿أَنفِقُواْ طَوۡعًا﴾ من أنفسكم..

﴿أَوۡ كَرۡهٗا﴾ علىٰ ذلك، بغير اختياركم..

﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ شيء من أعمالكم ..

﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٣﴾ خارجين عن طاعة الله.. ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم، فقال..

﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان.. فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح.. حتىٰ إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن إذا قاموا إليها قاموا كسالىٰ، قال..

﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم..

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾[التوبة] من غير انشراح صدر، وثبات نفس.

الفوائد

١- في هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، فَلا يُتَشبَّه بالمنافقين.

٢- ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها.

٣- لا ينفق إلا وهو منشرح الصدر ثابت القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة: ٥٥-٥٧]

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم.. فإنه لا غبطة فيها، **وأول بركاتها عليهم أن قدموها علىٰ مراضیٰ ربهم**، وعصوا الله لأجلها..

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والمراد بالعذاب هنا: ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي الشديد في ذلك، وهمُّ القلب فيها، وتعبُ البدن.. **فلو قابلت** لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها، فهي لما ألهتهم عن الله وذكره صارت وبالًا عليهم حتىٰ في الدنيا.. **ومن وبالها** العظيم الخطر أن قلوبهم تتعلق بها، وإرادتهم لا تتعداها، فتكون منتهىٰ مطلوبهم وغاية مرغوبهم ولا يبقىٰ في قلوبهم للآخرة نصيب، فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدنيا..

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فأي عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة الملازمة..

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ﴾ قصدهم في حلفهم هذا أنهم..

﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ يخافون الدوائر.. وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم علىٰ أن يُبيِّنُوا أحوالهم.. فيخافون إن أظهروا حالهم منكم.. ويخافون أن تتبرأوا منهم فيتخطفهم الأعداء من كل جانب.. وأما حال قويِّ القلب ثابت الجنان فإنه يحمله ذلك علىٰ بيان حاله حسنة كانت أو سيئة.. ولكن المنافقين خُلِع عليهم خلعة الجبن، وحُلُّوا بحلية الكذب.. ثم ذكر **شدة جبنهم فقال..**

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ يلجأون إليه عندما تنزل بهم الشدائد..

﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ يدخلونها فيستقرون فيها..

﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ محلًا يدخلونه فيتحصنون فيه..

﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة:٥٥-٥٧] يسرعون ويهرعون، فليس لهم ملكة يقتدرون بها علىٰ الثبات.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة:٥٨-٥٩]

﴿وَمِنْهُم﴾ ومن هؤلاء المنافقين..

﴿مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ من يعيبك في قسمة الصدقات، وينتقد عليك فيها.. وليس انتقادهم فيها وعيبهم لقصد صحيح، ولا لرأي رجيح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها..

﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وهذه حالة لا تنبغي للعبد، أن يكون رضاه وغضبه تابعًا لهوىٰ نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعًا لمرضاة ربه، كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعا لما جئت به»(١).. وقال هنا..

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أعطاهم من قليل وكثير..

﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافينا الله، فنرضىٰ بما قَسَمَه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا..

﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ ..

﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾[التوبة:٥٨-٥٩] متضرعون في جلب منافعنا، ودفع مضارنا.. لسلموا من النفاق ولهدوا إلىٰ الإيمان والأحوال العالية.. ثم بين تعالىٰ كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال..

(١) أخرجه ابن ابي عاصم في السنة [١٥] وغيره من حديث عبد الله بن عمرو.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠]

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ الزكوات الواجبة، بدليل أن **الصدقة المستحبة لكلِّ أحد، لا يُخَصُّ** بها أحد دون أحد.. أي: إنما الصدقات **لهؤلاء المذكورين دون من عداهم، لأنه** حصرها فيهم، وهم **ثمانية أصناف**: الأول والثاني..

﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان.. **فالفقير**: أشد حاجة من المسكين؛ لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، فَفُسِّر الفقيرُ بأنه الذي **لا يجد شيئًا، أو يجد بعض كفايته** دون نصفها.. **والمسكين**: الذي **يجد نصفها فأكثر**، ولا يجد تمام كفايته، **لأنه لو وجدها لكان غنيًا**.. فيعطون من الزكاة **ما يزول به فقرهم ومسكنتهم**..

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ والثالث: العاملون علىٰ الزكاة، وهم **كل من له عمل وشغل فيها**، مِن حافظٍ لها، أو جابٍ لها من أهلها، أو راعٍ، أو حاملٍ لها، أو كاتبٍ، أو نحو ذلك.. فيعطوَن لأجل عمالتهم، وهي **أجرة لأعمالهم فيها**..

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ والرابع: المؤلفة قلوبهم، المؤلف قلبه: هو **السيد المطاع في قومه، ممن يُرجىٰ إسلامه، أو يخشىٰ شره**، أو يرجىٰ بعطيته **قوة إيمانه**، أو **إسلام نظيره**، أو **جبايتها ممن لا يعطيها.. فيعطىٰ ما يحصل به التأليف والمصلحة**..

﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ الخامس: الرقاب، وهم **المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم**، فهم يَسعُون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيُعَانُون علىٰ ذلك من الزكاة.. وفكُّ الرقبة المسلمة **التي في حبس الكفار داخلٌ في هذا، بل أولىٰ**.. ويدخل في هذا: أنه يجوز أن **يعتق منها الرقاب استقلالًا** لدخوله في قوله: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾..

﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ السادس: الغارمون، **وهم قسمان: أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين**، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بمال يبذله لأحدهم أو لهم كلِّهم، فجُعل له نصيبٌ من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوىٰ لعزمه،

فيُعطىٰ ولو كان غنيًا.. والثاني: من غرم لنفسه ثم أُعسِر، فإنَّه يُعطىٰ ما يُوَفِّي به دينه..

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم: **الغزاة المتطوعة الذين لا ديوان لهم، فيعطون** من الزكاة ما يعينهم علىٰ غزوهم، من ثمن سلاح، أو دابة، أو نفقة له ولعياله، ليتوفر علىٰ الجهاد ويطمئن قلبه.. **وقال كثير من الفقهاء**: إن تَفَرَّغ القادرُ علىٰ الكسب لطلب العلم، **أعطي** من الزكاة؛ **لأن العلم داخل في الجهاد** في سبيل الله.. **وقالوا أيضا**: يجوز أن يعطىٰ منها **الفقير لحج فرضه، وفيه نظر..**

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، **فيعطىٰ من الزكاة ما يوصله إلىٰ بلده، فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم..**

﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ **فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه..**

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾[التوبة:٦٠] **فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين.. فلو أعطىٰ الأغنياء زكاة أموالهم علىٰ** الوجه الشرعي: لم يبق فقير من المسلمين.. ولحصل من الأموال ما يسد الثغور.. ويجاهد به الكفار.. وتحصل به جميع المصالح الدينية.

📖 الفـوائـد

اعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلىٰ أمرين: أحدهما: من **يُعطىٰ لحاجته ونفعه،** كالفقير، والمسكين، ونحوهما.. والثاني: من يعطىٰ **للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به.**

﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾ [التوبة:٦١]

﴿وَمِنۡهُمُ﴾ ومن هؤلاء المنافقين..

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ بالأقوال الرديَّة، والعيب له ولدينه.. لا يبالون بما يقولون من الأذيَّة للنبي..

﴿وَيَقُولُونَ﴾ **إذا بلغه عنا بعض ذلك..**

﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ جئنا نعتذر إليه، فيقبل منَّا، لأنه أذن، أي: **يقبل كلَّ ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب..** وقصدُهم -قبحهم الله- فيما بينهم، أنهم غير مكترثين بذلك، ولا مهتمين به، لأنه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم، وإن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل.. **فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة:** أعظمها **أذية نبيهم** الذي جاء لهدايتهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة.. ومنها: **عدم اهتمامهم أيضًا بذلك**، وهو قدرٌ زائد على مجرَّد الأذية.. ومنها: **قدحُهُم في عقل النبي ﷺ**، وعدمُ إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلًا وأتمُهُم إدراكًا، وأثقبُهُم رأيًا وبصيرة، ولهذا قال تعالى..

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ يقبل من قال له خيرًا وصدقًا.. **وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين** المعتذرين بالأعذار الكذب، **فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم، وامتثاله لأمر الله في قوله:** ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: ٩٥].. **وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه، فقال عنه ..**

﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ **الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب،** وإنْ كان كثيرًا ما **يعرض عن الذين يعرف كَذِبَهم** وعدم صدقهم..

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ **فإنَّهم** به يهتدون، وبأخلاقه يقتدون.. **وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها،** فخسروا دنياهم وآخرتهم..

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ **بالقول أو الفعل..**

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٦١] **في الدنيا والآخرة..** ومن العذاب الأليم أنه **يتحتم قتل مؤذيه وشاتمه.**

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة:٦٢-٦٣]

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ فيتبرأوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها، فغايتهم

أن ترضوا عليهم..

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ لأنَّ المؤمن لا يقدِّم شيئًا على رضا ربه ورضا رسوله، فدلَّ هذا على انتفاء إيمانهم حيث قدَّموا رضا غير الله ورسوله.. وهذا محادة لله ومشاقة له، وقد توعد من حادَّه بقوله..

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يكون في حَدٍّ وشق مبعد عن الله ورسوله، بأن تهاون بأوامر الله، وتجرأ على محارمه..

﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾[التوبة:٦٢-٦٣] الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم، عياذًا بالله من أحوالهم .

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة:٦٤-٦٦]

كانت هذه السورة الكريمة تسمى (الفاضحة) لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أستارهم، فما زال الله يقول: (ومنهم ومنهم)، ويذكر أوصافهم.. إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين: إحداهما: أن الله سِتِّيرٌ يحب الستر على عباده.. والثانية: أنَّ الذمَّ على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف، قال الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠- ٦١].. وقال هنا..

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تخبرهم وتفضحهم وتبين أسرارهم؛ حتى تكون علانيةً لعباده ويكونوا عبرة للمعتبرين..

﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ أي استمروا علىٰ ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ وقد وفَّىٰ تعالىٰ بوعده فأنزل هذه السورة التي بينتهم وفضحتهم وهتكت أستارهم..

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ﴾ عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم، يقول طائفة منهم في غزوة تبوك (ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء -يعنون: النبي ﷺ وأصحابه- أرغبَ بطونًا وأكذبَ ألسُنًا وأجبنَ عند اللقاء) ونحو ذلك..

﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم جاءوا يعتذرون إليه، ويقولون ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ أي **نتكلم بكلام لا قصد لنا به ولا قصدنا الطعن والعيب**.. قال الله تعالىٰ مبيِّنًا عدم عذرهم وكذبهم في ذلك..

﴿قُلۡ﴾ لهم..

﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ **فإنَّ الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفرٌ** مخرج عن الدين؛ لأنَّ أصل الدين مبني علىٰ تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة.. ولهذا لما جاءوا إلىٰ الرسول يعتذرون بهذه المقالة والرسول لا يزيدهم علىٰ قوله ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾..

﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم..

﴿نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ﴾ منكم..

﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنهم..

﴿كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦﴾ [التوبة:٦٤-٦٦] مقيمين علىٰ كفرهم ونفاقهم.

📖 الفـوائـد

في هذه الآيات دليل علىٰ:

١- أن من أسر سريرة خصوصًا السريرة التي يمكر فيها بدينه ويستهزئ به وبآياته ورسوله **فإنَّ الله تعالىٰ يظهرها** ويفضح صاحبها ويعاقبه أشد العقوبة.

٢- وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه أو سخر بذلك أو تَنَقَصَّه أو استهزأ بالرسول أو تنقصه فإنه كافر بالله العظيم.

٣- وأن التوبة مقبولة من كل ذنب وإن كان عظيمًا.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨﴾ [التوبة:٦٧-٦٨]

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضِهم بعضًا، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.. ثم ذكر وصف المنافقين العام، الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، فقال..

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ وهو الكفر والفسوق والعصيان..

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب الحسنة..

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ عن الصدقة وطرق الإحسان، فوصفهم البخل..

﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فلا يذكرونه إلا قليلًا..

﴿فَنَسِيَهُمْۗ﴾ من رحمته، فلا يوفقهم لخير، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين..

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾ حَصَر الفسقَ فيهم لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل: أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم.. وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨﴾[التوبة:٦٧-٦٨] جمع المنافقين والكفار في النار، واللعنة والخلود في ذلك؛ لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعاداة لله ورسوله، والكفر بآياته.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَاسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة:٦٩-٧٠]

يقول تعالىٰ محذرًا المنافقين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم المكذبة..

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم..

﴿فَاسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ استمتعتم بخلاقكم، أي: بنصيبكم من الدنيا فتناولتموه علىٰ وجه اللذة والشهوة معرضين عن المراد منه، واستعنتم به علىٰ معاصي الله، ولم تتعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم..

﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ كما فعل الذين من قبلكم..

﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ﴾ وخضتم بالباطل والزور، وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق، فهذه أعمالهم وعلومهم، استمتاع بالخلاق وخوض بالباطل..

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم ممن فعلوا كفعلهم.. وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيبهم وما خولوا من الدنيا، فإنه علىٰ وجه الاستعانة به علىٰ طاعة الله، وأما علومهم فهي علوم الرسل، وهي الوصول إلىٰ اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل..

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ﴾ أي: قرىٰ قوم لوط.. فكلهم..

﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ بالحق الواضح الجلي، المبين لحقائق الأشياء.. فكذبوا بها.. فجرىٰ عليهم ما قص الله علينا..

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع..

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾ [التوبة:٦٩-٧٠] حيث تجرأوا علىٰ معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ [التوبة:٧١-٧٢]

لما ذكر أن المنافقين بعضهم أولياء بعض، ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين، فقال..

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ ذكورهم وإناثهم..

﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ في المحبة والموالاة، والانتماء والنصرة..

﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو: اسم جامع لكل ما عرف حسنه، من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم..

﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة..

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله علىٰ الدوام..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ يدخلهم في رحمته، ويشملهم بإحسانه..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ قوي قاهر، ومع قوته فهو..

﴿حَكِيمٌ ۝٧١﴾ يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه وأمر به.. ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال..

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح..

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها..

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الغزيرة، المروية للبساتين الأنيقة، التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يبغون عنها حِوَلا..

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ قد زخرفت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفًا في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.. فهذه المساكن الأنيقة، التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتنزع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح، لأنها في جنات عدن، أي: **إقامة لا يظعنون عنها، ولا يتحولون منها**..

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحله على أهل الجنة..

﴿أَكْبَرُ﴾ مما هم فيه من النعيم، فإنَّ نعيمهم لم يُطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمَّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسماوات، أكبر من نعيم الجنات..

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢﴾[التوبة:٧١-٧٢] حيث حَصَلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كلُّ محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور.. فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٣ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟

بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة:٧٣-٧٤]

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ **بالغ في جهادهم والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم.. وهذا الجهاد يدخل فيه: الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان.. فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان والسيف والبيان.. ومن كان مذعنًا للإسلام بذمة أو عهد، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان ويبين له محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر.. فهذا ما لهم في الدنيا..**

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ **وأما في الآخرة، فـ ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ أي: مقرهم الذي لا يخرجون منها..**

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ ..

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ **إذا قالوا قولا كقول من قال منهم** ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: ٨] **والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد، في الاستهزاء بالدين، وبالرسول.. فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك، جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا.. قال تعالىٰ مكذبًا لهم** ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾..

﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ **فإسلامهم السابق وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر، فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر..**

﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾ **وذلك حين هموا بالفتك برسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقص الله عليه نبأهم، فأمر من يصدهم عن قصدهم..**

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ **والحال أنهم** ﴿مَا نَقَمُوٓاْ﴾ **وعابوا من رسول الله ﷺ..**

﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ **بعد أن كانوا فقراء معوزين.. وهذا من أعجب الأشياء، أن يستهينوا بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، ومغنيًا لهم**

بعد الفقر.. وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه، ويؤمنوا به ويجلوه؟ فاجتمع الداعي الديني وداعي المروءة الإنسانية.. **ثم عرض عليهم التوبة فقال..**

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾ لأن التوبة، أصل لسعادة الدنيا والآخرة..

﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ﴾ عن التوبة والإنابة..

﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه، وإعزار نبيه، وعدم حصولهم على مطلوبهم..

﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ وفي الآخرة في عذاب السعير..

﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب..

﴿وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾ [التوبة:٧٣-٧٤] يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى، فَثَمَّ أصناف الشر والخسران، والشقاء والحرمان.

﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨﴾ [التوبة: ٧٥-٧٨]

﴿۞وَمِنۡهُم﴾ ومن هؤلاء المنافقين..

﴿مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ من أعطى الله عهده وميثاقه..

﴿لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ﴾ من الدنيا فبسطها لنا ووسعها..

﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ فنصل الرحم، ونقري الضيف، ونعين على نوائب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة..

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ لم يفوا بما قالوا، بل..

﴿بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ﴾ عن الطاعة والانقياد..

﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦﴾ غير ملتفتين إلى الخير.. فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم..

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مستمرا..

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾ فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.. وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف»[1]، فهذا المنافق الذي وعد الله وعاهده لئن أعطاه الله من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين، حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.. ولهذا **توعد من صدر منهم هذا الصنيع**، بقوله..

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝٧٨﴾ [التوبة:٧٥-٧٨] وسيجازيهم علىٰ ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالىٰ.

🕮 الفوائد

هذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له (ثعلبة):

جاء إلىٰ النبي ﷺ، وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه الله من فضله، وأنه إن أعطاه، ليتصدقن، ويصل الرحم، ويعين علىٰ النوائب..

فدعا له النبي ﷺ..

فكان له غنم، فلم تزل تتنامىٰ، حتىٰ خرج بها عن المدينة..

فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعد بها، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة..

ففقده النبي ﷺ، فأُخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمرُّوا علىٰ ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية..

فلما لم يعطهم جاءوا فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» ثلاثا.. فلما نزلت هذه الآية فيه وفي أمثاله..

---

(١) تقدم.

ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها..

فجاء بزكاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر لعمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان [1].

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾ [التوبة:٧٩]

وهذا أيضا من مخازي المنافقين، فكانوا -قبحهم الله- **لا يدعون شيئا من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالًا إلا قالوا وطعنوا** بغيًا وعدوانًا..

فلما حثَّ الله ورسوله علىٰ الصدقة، بادر المسلمون إلىٰ ذلك، وبذلوا من أموالهم كل علىٰ حسب حاله، منهم المكثر، ومنهم المقل..

فيلمزون المكثر منهم، بأنَّ قصده بنفقته الرياء والسمعة، وقالوا للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا، فأنزل الله تعالىٰ..

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ يعيبون ويطعنون..

﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ فيقولون: مراءون، قصدهم الفخر والرياء..

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ ويلمزون ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غني عن صدقاتهم ..

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فقابلهم الله علىٰ صنيعهم بأن..

---

(١) قصة ثعلبة هذه ذكرها كثير من المفسرين، وقد ضعفها جهابذة أهل الحديث كابن حزم، والبيهقي، والقرطبي، والهيثمي، والعراقي، وابن حجر، والسيوطي والمناوي وغيرهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وبينوا أن في إسنادها علي بن يزيد، وهو ضعيف كما أن من رواتها: معان بن رفاعة، والقاسم بن عبد الرحمن وهما ضعيفان، وذكر ابن حزم تضعيفها من جهة متنها أيضا. ينظر المحلىٰ: (١١/ ٢٠٨) والإصابة: ترجمة ثعلبة، ومجمع الزوائد (٧/ ٣٢) ، والجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢١٠) ، وفيض القدير (٤/ ٢٥٧) ، وفتح الباري (٣/ ٨) ، ولباب النقول للسيوطي (١٢١) وتخريج الإحياء للعراقي (٣/ ٣٣٨) .اهـ من هامش المطبوع الأصل.

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩﴾[التوبة:٧٩] فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير: **منها**: تتبعهم لأحوال المؤمنين وحرصهم علىٰ أن يجدوا مقالًا يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].. **ومنها**: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفر بالله تعالىٰ وبغض للدين.. **ومنها**: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.. **ومنها**: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي هو إعانته، وتنشيطه علىٰ عمله، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه.. **ومنها**: أن حكمهم علىٰ من أنفق مالًا كثيرا بأنه مراء، غلط فاحش، وحكم علىٰ الغيب، ورجم بالظن، وأي شر أكبر من هذا؟!.. **ومنها**: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: (الله غني عن صدقة هذا) كلام مقصوده باطل، فإنَّ الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالىٰ أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله -وإن كان غنيا عنهم- فهم فقراء إليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧]، وفي هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بين.. **ولهذا كان جزاؤهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم.**

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٨٠﴾ [التوبة:٨٠]

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ علىٰ وجه المبالغة، وإلا فلا مفهوم لها..

﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ﴾ كما قال في الآية الأخرىٰ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ﴾ [المنافقون: ٦].. ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافرًا..

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٨٠﴾[التوبة:٨٠] الذين صار الفسق لهم وصفًا، بحيث لا يختارون عليه سواه، ولا يبغون به بدلًا يأتيهم الحق الواضح فيردونه، **فيعاقبهم الله تعالىٰ بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.**

﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣﴾ [التوبة: ٨١-٨٣]

يقول تعالىٰ مبينًا تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك، الدال علىٰ عدم الإيمان، واختيار الكفر علىٰ الإيمان..

﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ وهذا قدر زائد علىٰ مجرد التخلف، فإنَّ هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبجح به..

﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا -ولو لعذر- حزنوا علىٰ تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لما في قلوبهم من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه..

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: المنافقون..

﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ قالوا إن النفير مشقة علينا بسبب الحر.. فقدَّموا راحة قصيرة منقضية علىٰ الراحة الأبدية التامة، وحذروا من الحر الذي يقي منه الظلال، ويذهبه البكور والآصال، علىٰ الحر الشديد الذي لا يقادِر قدْرَه، وهو النار الحامية.. ولهذا قال..

﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾ لما آثروا ما يفنىٰ علىٰ ما يبقىٰ، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية، إلىٰ المشقة الشديدة الدائمة.. قال الله تعالىٰ..

﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها، فسيبكون كثيرًا في عذاب أليم..

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم..

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يحزنوا على تخلفهم..

﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ لغير هذه الغزوة، إذا رأوا السهولة..

﴿فَقُل﴾ لهم عقوبة..

﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ فسيغني الله عنكم..

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾[التوبة:٨١-٨٣] وهذا كما قال تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، **فإن المتثاقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة، لا يوفق له بعد ذلك**، ويحال بينه وبينه.. **وفيه أيضا تعزير لهم**، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان ذلك توبيخًا لهم، وعارًا عليهم ونكالًا أن يفعل أحد كفعلهم.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ
إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة:٨٤]

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ من المنافقين..

﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ بعد الدفن لتدعو له، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعة منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعة..

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾[التوبة:٨٤] ومن كان كافرًا ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصلى عليه.

🕮 الفوائد

في هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ، يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقررًا في المؤمنين.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:٨٥]

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ﴾ لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم..

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنئون بها.. بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتىٰ ينتقلوا من الدنيا..

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:٨٥] قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفئدتهم عليها متحرقة.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة:٨٦]

يقول تعالىٰ في بيان استمرار المنافقين علىٰ التثاقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات..

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ يؤمرون فيها بـ: الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله..

﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ يعني: أولي الغنىٰ والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدَّهم الله بأموالٍ وبنين.. أفلا يشكرون الله ويحمدونه، ويقومون بما أوجبه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود..

﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة:٨٦]..

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة:٨٧]

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات

عن الجهاد، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟!

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟!

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة:٨٧] مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة:٨٨-٨٩]

﴿لَٰكِنِ﴾ إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فالله سيغني عنهم، ولله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم..

﴿ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ غير متثاقلين ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون..

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة..

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب..

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩] فتبا لمن لم يرغب بما رغبوا فيه، وخسر دينه ودنياه وأخراه.. وهذا نظير قوله تعالى ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء].. وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ

مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ
أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا
يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن
يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة: ٩٠-٩٣]

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ جاء منهم الذين **تهاونوا** وقصَّروا في الخروج.. **ويحتمل أن معنىٰ قوله** ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ **أي: الذين لهم عذر**، أتوا إلىٰ رسول الله ﷺ ليعذرهم.. ومن عادته أن يعذر من له عذر..

﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، **غير مبالين في الاعتذار**، لجفائهم وعدم حيائهم.. **وإتيانهم** بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.. **وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، فقعدوا وتركوا الاعتذار** بالكلية..

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ في دعواهم الإيمان، المقتضي للخروج، وعدم عملهم بذلك.. ثم توعدهم بقوله..

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ في الدنيا والآخرة.. لما ذكر المعتذرين، وكانوا علىٰ قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله..

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم علىٰ الخروج والقتال..

﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ وهذا **شامل لجميع أنواع المرض** الذي لا يقدر صاحبه معه علىٰ الخروج والجهاد، من عرج، وعمىٰ، وحمىٰ، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك..

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ لا يجدون زادًا، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج..

﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ بشرط أن ينصحوا لله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع علىٰ الجهاد..

﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم -بإحسانهم

فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد- أسقطوا توجه اللوم عليهم.. **وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه..**

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩١﴾ ومن مغفرته ورحمته، عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين..

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ فلم يصادفوا عندك شيئا..

﴿قُلۡتَ﴾ لهم معتذرا..

﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۝٩٢﴾ فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشقة ما ذكره الله عنهم.. فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلىٰ أصله، وهو أن من نوىٰ الخير، واقترن بنيته الجازمة سَعْيٌ فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام..

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾ يتوجه واللوم يتناول الذين يستأذنوك وهم أغنياء قادرون علىٰ الخروج لا عذر لهم، فهؤلاء..

﴿رَضُواْ﴾ لأنفسهم ومن دينهم..

﴿بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم..

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ وإنما رضوا بهذه الحال؛ لأن الله طبع علىٰ قلوبهم، أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية..

﴿فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٩٣﴾ [التوبة:٩٠-٩٣] عقوبة لهم، علىٰ ما اقترفوا.

🕮 الفوائد

١- يستدل بهذه الآية علىٰ قاعدة وهي: **أن من أحسن علىٰ غيره في نفسه أو في ماله ونحو ذلك، ثم ترتب علىٰ إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن**، ولا سبيل علىٰ المحسنين.

٢- كما أنه يدل علىٰ أن غير المحسن -وهو المسيء- كالمفرِّط، أن عليه الضمان.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة:٩٤-٩٦]

لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر أنهم سـ..

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزاتكم..

﴿قُل﴾ لهم..

﴿لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب..

﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وهو الصادق في قيله، فلم يبق للاعتذار فائدة؛ لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلىٰ مراتب الصدق..

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ في الدنيا؛ لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، **وأما مجرد الأقوال فلا دلالة فيها علىٰ شيء من ذلك**..

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي لا تخفىٰ عليه خافية..

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ من خيرٍ وشرٍ، ويجازيكم بعدله أو بفضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.. وأعلم أن **المسيء المذنب له ثلاث حالات**: إما أن **يُقبل قوله وعذره**، ظاهرًا وباطنًا، ويُعفىٰ عنه، بحيث يبقىٰ **كأنه لم يذنب**، فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن **عذرهم غير مقبول**، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة.. **وإما أن يعاقبوا** بالعقوبة والتعزير الفعلي علىٰ ذنبهم.. **وإما أن يعرض عنهم**، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال..

﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ لا توبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم..

﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾ إنهم قَذَر خبثاء، ليسوا بأهل لأن يبالىٰ بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيدا فيهم..

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥﴾ وتكفيهم عقوبة جهنم جزاء بما كانوا يكسبون..

﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾ أي: ولهم أيضًا هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، بل **يحبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئًا**..

﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦﴾[التوبة:٩٤-٩٦] فلا ينبغي لكم -أيها المؤمنون- أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل **عليكم أن توافقوا ربكم** في رضاه وغضبه.

📖 الفـوائـد

١- تأمل كيف قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦﴾، ولم يقل: (فإن الله لا يرضىٰ عنهم) ليدل ذلك علىٰ **أن باب التوبة مفتوح**، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله يتوب عليهم، ويرضىٰ عنهم.. وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضىٰ عليهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضيه الله لهم من الإيمان والطاعة، إلىٰ ما يغضبه من الشرك، والنفاق، والمعاصي.

٢- **حاصل ما ذكره الله:** أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعذارا في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم.. **فأما قبول العذر** منهم والرضا عنهم، فلا حبا ولا كرامة لهم.. **وأما الإعراض عنهم**، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية والرجس.

٣- في هذه الآيات: **إثبات الكلام لله** تعالىٰ في قوله: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ **وإثبات الأفعال** الاختيارية لله، الواقعة بمشيئته تعالىٰ وقدرته في هذا.

٤- في قوله: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه.

٥- وفيها **إثبات الرضا لله** عن المحسنين، **والغضب والسخط** علىٰ الفاسقين.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة:٩٧-٩٩]

﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ وهم سكان البادية والبراري..

﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة: منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم أحرىٰ..

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي.. **بخلاف الحاضرة: فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله،** فيحدث لهم -بسبب هذا العلم- تصورات حسنة، وإرادات للخير، الذي يعلمون، ما لا يكون في البادية.. **وفيهم من لطافة الطبع** والانقياد للداعي ما ليس في البادية.. **ويجالسون أهل الإيمان ويخالطونهم** أكثر من أهل البادية.. فلذلك كانوا أحرىٰ للخير من أهل البادية..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ .. **وإن كان في البادية والحاضرة كفار ومنافقون، ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة**.. ومن ذلك أنَّ الأعراب أحرص علىٰ الأموال، وأشح فيها..

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ فمنهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك..

﴿مَغْرَمًا﴾ يراها خسارة ونقصًا، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرها..

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان..

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ وهذا سينعكس عليهم فعليهم دائرة السوء.. وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة علىٰ أعدائهم، ولهم العقبىٰ الحسنة..

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨﴾ يعلم نيات العباد، وما صدرت عنه الأعمال، من إخلاص وغيره..

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم..

﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضىٰ الإيمان..

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يحتسب نفقته، ويقصد بها وجه الله تعالىٰ والقرب منه..

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ ويجعلها وسيلة لـ ﴿صَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالىٰ مبينا لنفع صلوات الرسول..

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ تقربهم إلىٰ الله، وتنمي أموالهم وتحل فيها البركة..

﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ في جملة عباده الصالحين..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾[التوبة:٩٧-٩٩] إنه غفور رحيم.. فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه.. ويعم عباده برحمته التي وسعت كل شيء، ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلىٰ الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات.

🕮 الفوائد

١- في هذه الآية دليل علىٰ أن **الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح ومنهم المذموم**، فلم يذمهم الله علىٰ مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم علىٰ ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

٢- ومنها: **أن الكفر والنفاق يزيد وينقص**، ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.

٣- ومنها: **فضيلة العلم**، وأن فاقده أقرب إلىٰ الشر ممن يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفرًا ونفاقًا، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله.

٤- ومنها: أن العلم النافع الذي هو **أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله**،

من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوىٰ، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا، والخمر، والربا، ونحو ذلك.. فإن في معرفتها يتمكن من فعلها -إن كانت مأمور بها، أو تركها إن كانت محظورة- ومن الأمر بها أو النهي عنها.

٥- ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن **يؤدي ما عليه من الحقوق، منشرح الصدر، مطمئن النفس،** ويحرص أن تكون مغنمًا، ولا تكون مغرمًا.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠]

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ هم الذين سبقوا هذه الأمة وبدروها إلىٰ الإيمان والهجرة، والجهاد، وإقامة دين الله..

﴿مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾ [الحشر: ٨]..

﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾ ومن الأنصار ﴿ٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحشر: ٩]..

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء، هم الذين سلموا من الذم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله..

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ ورضاه تعالىٰ أكبر من نعيم الجنة..

﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الجارية التي تساق إلىٰ سَقْيِ الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ لا يبغون عنها حولا ولا يطلبون منها بدلا لأنهم مهما تمنوه، أدركوه، ومهما أرادوه، وجدوه..

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾[التوبة:١٠٠] الذي حصل لهم فيه كلُّ محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ١٠١﴾ [التوبة:١٠١]

﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أيضًا منافقون..

﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ تمرنوا عليه، واستمروا وازدادوا فيه طغيانا..

﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضىٰ نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة..

﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ **يحتمل أن التثنية علىٰ بابها**، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة، ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن، والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار.. **ويحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب**، ونضاعفه عليهم ونكرره..

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ١٠١﴾ [التوبة:١٠١]..

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة:١٠٢-١٠٣]

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ ممن بالمدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية..

﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أقروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها..

﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ ولا يكون العمل صالحا إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المُخرِج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح.. فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة، من التجرؤ علىٰ بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء..

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وتوبته علىٰ عبده نوعان: الأول: التوفيق للتوبة.. والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾ وصفه المغفرة والرحمة، اللتان لا يخلو مخلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما.. فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك علىٰ ظهرها من دابة، ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر].. **ومن مغفرته: أن المسرفين علىٰ أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال** السيئة، **إذا تابوا إليه وأنابوا ولو قبيل موتهم بأقل القليل، فإنه يعفو عنهم**، ويتجاوز عن سيئاتهم.. فهذه الآية دلت علىٰ أن **المخلِّط المعترف النادم، الذي لم يتب توبة نصوحًا، أنه تحت الخوف والرجاء**، وهو إلىٰ السلامة أقرب.. **وأما المخلِّط الذي لم يعترف** ويندم علىٰ ما مضىٰ منه، بل **لا يزال مصرًا علىٰ الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف**.. قال تعالىٰ لرسوله ومن قام مقامه، آمرًا له بما يطهر المؤمنين، ويتمم إيمانهم..

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ وهي الزكاة المفروضة..

﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ من الذنوب والأخلاق الرذيلة..

﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم..

﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ ادع للمؤمنين عمومًا وخصوصًا عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم..

﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم..

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك، سمع إجابة وقبول..

﴿عَلِيمٌ ١٠٣﴾[التوبة:١٠٢-١٠٣] بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلىٰ قدر نيته.. فكان النبي ﷺ يمتثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقته دعا له وبرَّك.

📖 الفـوائـد

١- في هذه الآية، دلالة علىٰ **وجوب الزكاة**، في جميع الأموال.

٢- وهذا **إذا كانت للتجارة** ظاهرة، فإنها أموال تنمىٰ ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسىٰ منها الفقراء، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة.

٣- وما **عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمىٰ**، كالحبوب، والثمار، والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل، **فإنها تجب فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها**، لأنها إذا كانت للقنية، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة، مالًا يُتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية بالقنية ونحوها.

٤- وفيها: **أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكىٰ حتىٰ يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوىٰ أدائها**، لأن الزكاة والتطهير متوقف علىٰ إخراجها.

٥- وفيها: استحباب **الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدىٰ زكاته بالبركة**، وأن ذلك ينبغي، **أن يكون جهرًا**، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

٦- ويؤخذ من المعنىٰ، **أنه ينبغي إدخال السرور علىٰ المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة**، وسكون لقلبه.

٧- **وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة وعمل عملا صالحا بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك.**

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التوبة: ١٠٤]

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ **أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه وأنه..**

﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ **التائبين من أي ذنب كان، بل يفرح تعالىٰ بتوبة عبده، إذا تاب أعظم فرح يقدر..**

﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ منهم، أي: يقبلها، ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدهم كما يربي الرجل فلوه، حتىٰ تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ كثير التوبة علىٰ التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت

منه المعصية مرارًا، ولا يمل الله من التوبة علىٰ عباده، حتىٰ يملوا هم، ويأبوا إلا النفار والشرود عن بابه، وموالاتهم عدوهم..

﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة:١٠٤] الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة:١٠٥]

﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاء المنافقين..

﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا علىٰ باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك، سيخفىٰ..

﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾ لا بد أن يتبين عملكم ويتضح..

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[التوبة:١٠٥] من خير وشر.. **ففي هذا التهديد والوعيد الشديد علىٰ من استمر علىٰ باطله** وطغيانه وغيه وعصيانه.. **ويحتمل أن المعنىٰ**: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، **وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين علىٰ أعمالكم ولو كانت باطنة.**

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [التوبة:١٠٦]

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ من المخلفين مؤخرون..

﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾ **ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين، والحث لهم علىٰ التوبة** والندم..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ونياتهم..

﴿حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾[التوبة:١٠٦] يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.. فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم.. وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة:١٠٧-١١٠]

كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجدًا إلىٰ جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاقة بين المؤمنين، ويعدُّونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصنًا عند الاحتياج إليه، فبيَّن تعالىٰ خزيهم، وأظهر سرَّهم فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ **مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه..**

﴿وَكُفۡرٗا﴾ **قصدهم فيه الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان..**

﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ **ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا..**

﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ **إعدادًا..**

﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ **إعانة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم حرابهم واشتدت عداوتهم**، وذلك **كأبي عامر الراهب**، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلىٰ المدينة كفر به، وكان متعبدا في الجاهلية، فذهب إلىٰ المشركين يستعين بهم علىٰ حرب رسول الله ﷺ، فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلىٰ قيصر بزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق.. وكان علىٰ وعد وممالأة هو والمنافقون، فكان مما أعدوا له مسجد الضرار.. فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مزبلة.. قال تعالىٰ بعد ما بيَّن من مقاصدهم الفاسدة في ذلك المسجد..

﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ **في بنائنا إياه..**

﴿إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ الإحسان إلىٰ الضعيف، والعاجز والضرير..

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾ فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم..

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضرارًا أبدا، فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه..

﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ ظهر فيه الإسلام في (قباء)، وهو مسجد (قباء) أسس علىٰ إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديما في هذا عريقا فيه، فهذا المسجد الفاضل..

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ وتتعبد، وتذكر الله تعالىٰ فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله..

﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.. ومن المعلوم أن من أحب شيئًا لا بد أن يسعىٰ له ويجتهد فيما يحب، فلا بد أنهم كانوا حريصين علىٰ التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث.. ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين علىٰ الجهاد، مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله.. وسألهم النبي ﷺ بعد ما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم علىٰ صنيعهم..

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.. ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال..

﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾ علىٰ نية صالحة وإخلاص..

﴿وَرِضۡوَٰنٍ﴾ بأن كان موافقا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة..

﴿خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾ علىٰ طرف..

﴿جُرُفٍ هَارٍ﴾ بالٍ، قد تداعىٰ للانهدام..

﴿فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم..

﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ شكًا وريبًا ماكثًا في قلوبهم..

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلىٰ ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبا إلىٰ ريبهم، ونفاقا إلىٰ نفاقهم..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء، ظاهرها، وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد، وأعلنوه..

﴿حَكِيمٌ ١١٠﴾ [التوبة:١٠٧-١١٠] لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهىٰ إلا ما اقتضته الحكمة، وأمر به فلله الحمد.

🕮 الفـوائـد

وفي هذه الآيات فوائد عدة:

١- منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه **يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع علىٰ مقصود أصحابه.**

٢- ومنها: **أن العمل وإن كان فاضلًا تغيره النية**، فينقلب منهيًا عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلىٰ ما ترىٰ.

٣- ومنها: **أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي** التي يتعين تركها وإزالتها.

٤- كما **أن كلَّ حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها**، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

٥- ومنها: **النهي عن الصلاة في أماكن المعصية**، والبعد عنها، وعن قربها.

٦- ومنها: **أن المعصية تؤثر في البقاع**، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه.

٧- **وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن** كما أثرت في مسجد (قباء) حتىٰ قال الله فيه: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨]، ولهذا كان لمسجد (قباء) من الفضل ما ليس لغيره، حتىٰ كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث علىٰ الصلاة فيه.

٨- ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، **أربع قواعد مهمة**، وهي:

• **كل عمل فيه مضارة لمسلم**، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادىٰ الله ورسوله، **فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه**..

• ومنها: أن **الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعِدَة لفاعلها عن الله** بمنزلة الإصرار علىٰ المعصية، **حتىٰ يزيلها ويتوب منها** توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات..

• ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجدًا أسس علىٰ التقوىٰ، **فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولىٰ وأحرىٰ**.

• ومنها: **أن العمل المبني علىٰ الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس علىٰ التقوىٰ**، الموصل لعامله إلىٰ جنات النعيم.. **والعمل المبني علىٰ سوء القصد** وعلىٰ البدع والضلال، هو العمل **المؤسس علىٰ شفا جرف هار**، فانهار به في نار جهنم، والله **لا** يهدي القوم الظالمين.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة:١١١]

يخبر تعالىٰ خبرًا صدقًا، ويعد وعدًا حقًا بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو..

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ﴾ بنفسه الكريمة..

﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ فهي المثمن والسلعة المبيعة..

﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات والأفراح، والمسرات، والحور الحسان، والمنازل الأنيقات.. **وصفة العقد والمبايعة**، بأن يبذلوا الله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه فـ..

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ فهذا العقد والمبايعة قد صدرت من الله مؤكَّدة بأنواع التأكيدات..

﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق..

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾ أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله..

﴿بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ لتفرحوا بذلك، وليبشر بعضكم بعضًا، ويحث بعضُكم بعضًا..

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾[التوبة:١١١] الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل.. لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات.

📖 الفوائد

إذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر:

إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله.

وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم.

وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل.

وبأي كتاب رُقِّم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التوبة:١١٢]

كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال: هم..

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات..

﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار علىٰ طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين..

﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ لله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون علىٰ الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار..

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ فسرت السياحة **بالصيام**.. أو السياحة في **طلب العلم**.. وفسرت **بسياحة القلب** في معرفة الله ومحبته والإنابة إليه علىٰ الدوام.. والصحيح أن المراد بالسياحة: **السفر في القربات**، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك..

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ المكثرون من الصلاة، المشتملة علىٰ الركوع والسجود..

﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات..

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وهي جميع ما نهىٰ الله ورسوله عنه..

﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله.. **وما يدخل في** الأوامر والنواهي والأحكام، **وما لا يدخل**.. الملازمون لها فعلا وتركًا..

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾[التوبة:١١٢] لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم **جميع ما رتب علىٰ الإيمان** من ثواب الدنيا والدين والآخرة.. **فالبشارة متناولة لكل مؤمن**.. وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين وإيمانهم قوة وضعفا وعملًا بمقتضاه.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التوبة:١١٣-١١٤]

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به..

﴿أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لمن كفر به، وعبد معه غيره..

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ **فإنَّ الاستغفار لهم في هذه الحال غلط** غير مفيد، **فلا يليق بالنبي والمؤمنين:** لأنهم إذا ماتوا على الشرك أو علم أنهم يموتون عليه فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.. وأيضا: فإنَّ النبي والذين آمنوا معه عليهم أن **يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه**، ويوالوا من والاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، مناقض له..

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ ولئن وُجِد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه فإنه ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾، في قوله ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧]، وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه..

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، **سيموت على الكفر**، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير..

﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ﴾ موافقة لربه وتأدبا معه..

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ رجّاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء، والاستغفار والإنابة إلى ربه..

﴿حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[التوبة:١١٣-١١٤] ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، **لا يستفزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه**.. فأبوه قال له: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]، وهو يقول له: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧].. فعليكم أن تقتدوا به، وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] كما نبهكم الله عليها وعلى غيرها، ولهذا قال..

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة:١١٥-١١٦]

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ﴾ يعني أن الله تعالى

إذا منَّ علىٰ قوم بالهداية وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالىٰ يتمم عليهم إحسانه **ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه**، وتدعو إليه ضرورتهم، **فلا يتركهم ضالين جاهلين** بأمور دينهم.. ففي هذا دليل علىٰ **كمال رحمته**، وأن **شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد**، في أصول الدين وفروعه.. **ويحتمل أن المراد بذلك**: إذا بيَّن لهم ما يتقون فلم ينقادوا له عاقبهم بالإضلال، جزاءً لهم علىٰ ردهم الحقِّ المبين.. والأول أولىٰ..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥﴾ فلكمال علمه وعمومه علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبيَّن لكم ما به تنتفعون..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ﴾ هو المالك لذلك، المدبِّر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية.. **فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري، فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته**، ويترك عباده سدىٰ مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده؟! فلهذا قال..

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم..

﴿وَلَا نَصِيرٖ ١١٦﴾ [التوبة:١١٥-١١٦] يدفع عنكم المضار.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ [التوبة:١١٧]

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ يخبر تعالىٰ أنه من لطفه وإحسانه تَابَ عَلَىٰ النَّبِيِّ محمد ﷺ..

﴿وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورقاهم إلىٰ أعلىٰ الدرجات.. وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات، ولهذا قال..

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة (تبوك)، وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلىٰ التخلف.. فاستعانوا الله تعالىٰ، وقاموا بذلك..

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: تنقلب قلوبهم، ويميلوا إلىٰ الدعة

والسكون، ولكنَّ الله ثبَّتهم وأيَّدهم وقوَّاهم.. **وزَيْغُ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفرًا**.. وإن كان في شرائعه كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصر عن فِعلِهَا، أو فَعَلَها علىٰ غير الوجه الشرعي..

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ قبل توبتهم..

﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧] ومن رأفته ورحمته أن مَنَّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وثبتهم عليها.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ
ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة:١١٨]

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وكذلك لقد تاب الله ﴿عَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ عن الخروج مع المسلمين، في تلك الغزوة، وهم: (كعب بن مالك) وصاحباه، وقصتهم مشهورة معروفة، في الصحاح والسنن..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ حزنوا حزنًا عظيمًا، و..

﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ علىٰ سعتها ورحبها..

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء.. **فضاق عليهم**: الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه.. **وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج**، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه.. وذلك **لأنهم قدَّموا رضا الله ورضا رسوله علىٰ كل شيء**..

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ تيَقّنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد ويُلجأ إليه إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلَّقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة..

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أذن في توبتهم ووفقهم لها..

﴿لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ لتقع منهم، فيتوب الله عليهم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان..

﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[التوبة:١١٨] وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل علىٰ العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

🕮 الفـوائـد

١- في هذه الآيات دليل علىٰ: **أن توبة الله علىٰ العبد أجل الغايات**، وأعلىٰ النهايات، فإن **الله جعلها نهاية خواص عباده**، وامتنَّ عليهم بها، **حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها**.

٢- ومنها: لطف الله بهم وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

٣- ومنها: أن **العبادة الشاقة علىٰ النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها**، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

٤- ومنها: أن **توبة الله علىٰ عبده بحسب ندمه** وأسفه الشديد.

٥- وأن من **لا** يبالي بالذنب ولا يُحرَج إذا فعله، **فإن توبته مدخولة**، وإن زعم أنها مقبولة.

٦- ومنها: أن **علامة الخير** وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالىٰ تعلقا تاما، وانقطع عن المخلوقين.

٧- ومنها: **أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم**، ليس بعار عليهم فقال: ﴿خُلِّفُواْ﴾ إشارة إلىٰ أن **المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عن من بُتّ في قبول عذرهم**، أو في رده، وأنهم **لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير**، ولهذا لم يقل: (تخلفوا).

٨- ومنها: أن الله تعالىٰ من عليهم بالصدق، ولهذا **أمر بالاقتداء بهم** فقال..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به..

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوىٰ الله تعالىٰ، باجتناب ما نهىٰ الله عنه والبعد عنه..

﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة] في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقًا، خلية من الكسل والفتور، سالمةً من المقاصد السيئة، مشتملة علىٰ الإخلاص والنية الصالحة، فإنَّ الصدق يهدي إلىٰ البر، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، قال الله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] الآية.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١]

يقول تعالىٰ حاثًّا لأهل المدينة..

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ المنورة من المهاجرين والأنصار..

﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين أسلموا فحسن إسلامهم..

﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم..

﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ﴾ في بقائها وراحتها، وسكونه..

﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الكريمة الزكية.. بل النبي ﷺ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم.. فعلىٰ كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدِّمه عليها.. فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبته والإيمان التام به أن لا يتخلفوا عنه.. ثم ذكر الثواب الحامل علىٰ الخروج فقال..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ المجاهدين في سبيل الله..

﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ومشقة..

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: مجاعة..

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ من الخوض لديارهم، والاستيلاء علىٰ أوطانهم..

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال..

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ لأنَّ هذه آثار ناشئة عن أعمالهم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلىٰ أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.. ثم قال..

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهابهم إلىٰ عدوهم..

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾[التوبة:١٢٠-١٢١] ومن ذلك هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها لله، ونصحوا فيها.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآيات:

١- أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلىٰ الخروج إلىٰ الجهاد في سبيل الله.

٢- والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات.

٣- وأن ذلك لهم رفعة درجات.

٤- وأن الآثار المترتبة علىٰ عمل العبد، له فيها أجر كبير.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢]

يقول تعالىٰ منبهًا لعباده المؤمنين علىٰ ما ينبغي لهم..

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةًۚ﴾ جميعًا لقتال عدوِّهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتفوت به كثير من المصالح الأخرىٰ..

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من البلدان، والقبائل، والأفخاذ..

﴿طَآئِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولىٰ.. ثم نبَّه علىٰ أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال..

﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ أي: القاعدون..

﴿فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسراره، وليعلِّموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم..

﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التوبة:١٢٢]..

🕮 الفـوائـد

١- في هذا **فضيلة العلم، وخصوصا الفقه في الدين،** وأنه أهم الأمور.

٢- أن من تعلم علمًا، **فعليه نشره وبثه في العباد ونصيحتهم فيه،** فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره، الذي ينمىٰ له.. وأما اقتصار العالم علىٰ نفسه، وعدم دعوته إلىٰ سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؟! وأي نتيجة نتجت من علمه؟! وغايته أن يموت فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان لمن آتاه الله علما ومنحه فهما.

٣- في هذه الآية أيضا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف لفائدة مهمة، وهي: **أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها،** ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلىٰ غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، **وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.**

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ
وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة:١٢٣]

وهذا أيضا إرشاد آخر..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ بعدما أرشدهم إلىٰ التدبير فيمن يباشر القتال، **أرشدهم إلىٰ أنهم يبدأون بالأقرب فالأقرب** من الكفار..

﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات..

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾[التوبة:١٢٣] وليكن لديكم علمٌ **أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوىٰ**.. فلازموا علىٰ تقوىٰ الله، يعنكم وينصركم علىٰ عدوكم.

📖 **الفـوائـد**

هذا العموم في قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ **مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا**، وأنواع المصالح كثيرة جدًا.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٦]

يقول تعالىٰ: مبينًا حال المنافقين وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين، فقال..

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ فيها الأمر والنهي والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث علىٰ الجهاد..

﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾ حصل الاستفهام لـ: من حصل له الإيمان بها من الطائفتين؟ قال تعالىٰ مبينًا الحال الواقعة..

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ بالعلم بها، وفهمها، واعتقادها.. والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانكفاف عن فعل الشر..

﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ يبشر بعضهم بعضًا بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها.. وهذا دال علىٰ **انشراح صدورهم لآيات الله**، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه..

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ شك ونفاق..

﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ مرضًا إلىٰ مرضهم، وشكًّا إلىٰ شكهم، من حيث إنهم

كفروا بها، وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامىٰ بهم إلىٰ الهلاك..

﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ وَالطبع علىٰ قلوبهم، حتىٰ ﴿مَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.. وهذا عقوبة لهم، **لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله**، فأعقبهم نفاقًا في قلوبهم إلىٰ يوم يلقونه.. قال تعالىٰ موبخا لهم علىٰ إقامتهم علىٰ ما هم عليه من الكفر والنفاق..

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم..

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم عليه من الشر..

﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾[التوبة:١٢٤-١٢٦] ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم، فيتركونه.. فالله تعالىٰ يبتليهم -كما هي سنته في سائر الأمم- بالسراء والضراء، وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآيات دليل علىٰ:

١- أن الإيمان يزيد وينقص.

٢- وأنه ينبغي للمؤمن، أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجدده وينميه، ليكون دائما في صعود.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ١٢٧﴾ [التوبة:١٢٧]

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يعني: أن المنافقين الذين يَحذَرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم.. إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها..

﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ جازمين علىٰ ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون..

﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ متسللين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل..

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ صدَّها عن الحق وخذلها..

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة:١٢٧] فقهًا ينفعهم، فإنَّهم لو فقهوا لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

📖 الفـوائـد

المقصود من هذا بيان **شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان**، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢].

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٨-١٢٩]

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يمتن تعالىٰ علىٰ عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبيَّ الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم..

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم..

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فيحب لكم الخير، ويسعىٰ جهده في إيصاله إليكم، ويحرص علىٰ هدايتكم إلىٰ الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعىٰ جهده في تنفيركم عنه..

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.. ولهذا **كان حقه مقدما علىٰ سائر حقوق الخلق**، وواجبٌ علىٰ الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيره، وتوقيره..

﴿فَإِن﴾ آمنوا، فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن..

﴿تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإيمان والعمل، فامض علىٰ سبيلك، ولا تزل في دعوتك..

﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ وقل ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: الله كافيَّ في جميع ما أهمني..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق سواه..

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر..

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾ [التوبة:١٢٨-١٢٩] الذي هو أعظم المخلوقات.. وإذا كان رب العرش العظيم الذي وسع المخلوقات، كان ربا لما دونه من باب أولىٰ وأحرىٰ.

تم تفسير سورة (التوبة) بعون الله ومنه

فلله الحمد أولا وآخرا وظاهرًا وباطنًا

تفسير سورة يونس وهي مكية

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ [يونس:١-٢]

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ وهو هذا القرآن.. المشتمل على الحكمة والأحكام.. الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية.. الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد..

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ ومع هذا فأعرض أكثرهم، فهم لا يعلمون، فتعجبوا..

﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ عذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله..

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إيمانًا صادقًا..

﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ لهم جزاء موفور وثواب مذخور عند ربهم، بما قدموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة.. فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجبا حملهم على الكفر به، فـ..

﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ عنه..

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ [يونس:١-٢] بيِّن السحر، لا يخفى بزعمهم على أحد.. وهذا من سفههم وعنادهم، فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب.. وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم، كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم، الذي بعثه الله من أنفسهم، يعرفونه حق المعرفة؟! فردوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٣-٤]

يقول تعالىٰ مبينا لربوبيته وإلهيته وعظمته..

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر علىٰ خلقها في لحظة واحدة، ولكن لِمَا له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه **رفيق في أفعاله**.. ومن جملة حكمته فيها أنه **خلقها بالحق وللحق**، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة..

﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السماوات والأرض..

﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بعظمته..

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي، من الإماتة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين.. فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مُذعِنُون لعزِّه، خاضعون لعظمته وسلطانه..

﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ فلا يُقدِمُ أحدٌ منهم علىٰ الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق..

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ حتىٰ يأذن الله، ولا يأذن إلا لمن ارتضىٰ، ولا يرتضي إلا أهل الإخلاص والتوحيد له..

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذا شأنه..

﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال..

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية..

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ الأدلة الدالة علىٰ أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.. **فلما ذكر حكمه القدري** وهو التدبير العام، وحكمه الديني وهو شرعه، الذي

مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، **ذكر الحكم الجزائي**، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال..

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ سيجمعكم بعد موتكم، لميقات يوم معلوم..

﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق ثم ينكر إعادته للخلق فهو فاقد العقل، منكر لأحد المِثلين مع إثبات ما هو أولى منه.. فهذا **دليل عقلي واضح على المعاد.. وقد ذكر الدليل النقلي** فقال: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ أي: وعده صادق لا بد من إتمامه..

﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به..

﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ بجوارحهم، من واجبات، ومستحبات..

﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين..

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله..

﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ ماء حار، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء..

﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ ﴾ من سائر أصناف العذاب..

﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ ﴾ [يونس:٣-٤] بسبب كفرهم وظلمهم.. وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾ [يونس:٥-٦]

لما قرر ربوبيته وإلهيته، ذكر **الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك**، وعلى كماله في أسمائه وصفاته، من الشمس والقمر، والسماوات والأرض وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات..

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ **فإن العلم: يهدي إلىٰ معرفة الدلالة** فيها، وكيفية استنباط الدليل علىٰ أقرب وجه..

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ [يونس:٥-٦] **والتقوىٰ**: تحدث في القلب الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.. **وحاصل ذلك: أن مجرد خلق هذه المخلوقات** بهذه الصفة.. **دال علىٰ** كمال قدرة الله تعالىٰ، وعلمه، وحياته، وقيوميته.. **وما فيها من الأحكام** والإتقان والإبداع والحسن.. **دال علىٰ** كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه.. **وما فيها من أنواع المنافع** والمصالح -كجعل الشمس ضياء، والقمر نورا، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل.. **يدل ذلك علىٰ** رحمة الله تعالىٰ واعتنائه بعباده وسعة بره وإحسانه.. **وما فيها من التخصيصات.. دال علىٰ** مشيئة الله وإرادته النافذة.. **وذلك دال علىٰ** أنه وحده المعبود والمحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلا إليه، ولا يصرف خالص الدعاء إلا له، لا لغيره من المخلوقات المربوبات، المفتقرات إلىٰ الله في جميع شئونها.

📖 الفوائد

في هذه الآيات :الحث والترغيب علىٰ **التفكر في مخلوقات الله**، والنظر فيها بعين الاعتبار، **فإن بذلك: تنفتح** البصيرة، **ويزداد** الإيمان والعقل، **وتقوىٰ** القريحة.. **وفي إهمال ذلك: تهاون** بما أمر الله به، **وإغلاق** لزيادة الإيمان، **وجمود** للذهن والقريحة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس:٧-٨]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ **لا يطعمون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون،** وأعلىٰ ما أمّله المؤملون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به..

﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بدلًا عن الآخرة..

﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ ركَنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبُّوا علىٰ لذاتها وشهواتها، بأي طريقٍ حصلت حصَّلوها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها.. **فكأنَّهم خلقوا للبقاء فيها**، وكأنها ليست دار ممر، يتزود منها المسافرون إلىٰ الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلىٰ نعيمها ولذاتها شمر الموفقون..

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ۝٧﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود..

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الذين هذا وصفهم..

﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها..

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس:٧-٨] من الكفر والشرك وأنواع المعاصي.. فلما ذكر عقابهم ذكر ثواب المطيعين فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس:٩-١٠]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ جمعوا بين: الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة.. المشتملة علىٰ أعمال القلوب وأعمال الجوارح، علىٰ وجه الإخلاص والمتابعة..

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾ بسبب ما معهم من الإيمان، يثيبهم الله أعظم الثواب وهو الهداية.. فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلىٰ الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلىٰ الصراط الموصل إلىٰ جنات النعيم، ولهذا قال..

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الجارية علىٰ الدوام..

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩﴾ أضافها الله إلىٰ النعيم؛ لاشتمالها علىٰ النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات.. ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون..

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي عبادتهم فيها لله، **أولها تسبيح لله** وتنزيه له عن النقائض.. **وآخرها تحميد لله**.. **فالتكاليف سقطت** عنهم في دار الجزاء، وإنما **بقي لهم أكمل اللذات**، الذي هو ألذ عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النَّفَس، من دون كلفة ومشقة..

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ وأما تَحِيَّتُهُمْ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه..

﴿سَلَامٌ﴾ وقد قيل في تفسير قوله ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ﴾ إلىٰ آخر الآية: أن أهل الجنة -إذا احتاجوا إلىٰ الطعام والشراب ونحوهما- قالوا سبحانك اللهم، فأُحضر لهم في الحال..

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ فإذا فرغوا قالوا..

﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس:٩-١٠]..

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١﴾ [يونس:١١]

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبادرهم بالعقوبة علىٰ ذلك، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه..

﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لمحقتهم العقوبة، ولكنه تعالىٰ يمهلهم ولا يهملهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك علىٰ ظهرها من دابة.. **ويدخل في**

هذا: أنَّ العبد إذا غضب علىٰ أولاده أو أهله أو ماله ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالىٰ حليم حكيم..

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يؤمنون بالآخرة.. فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعلمون ما ينجيهم من عذاب الله..

﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحد..

﴿يَعْمَهُونَ ۝١١﴾ [يونس:١١] يترددون حائرين، لا يهتدون السبيل، ولا يوفقون لأقوم دليل.. وذلك عقوبة لهم علىٰ ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢﴾ [يونس:١٢]

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضر، من مرض أو مصيبة اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائما وقاعدا ومضطجعا، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره..

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ﴾ استمر في غفلته معرضا عن ربه، كأنه ما جاءه ضره فكشفه الله عنه، فأي ظلم أعظم من هذا الظلم؟! يطلب من الله قضاء غرضه، فإذا أناله إياه لم ينظر إلىٰ حق ربه، وكأنه ليس عليه لله حق.. وهذا تزيين من الشيطان، زين له ما كان مستهجنا مستقبحا في العقول والفِطَر..

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين للحد..

﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢﴾ [يونس:١٢] ..

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [يونس:١٣-١٤]

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يخبر تعالىٰ أنه أهلك الأمم الماضية..

﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ بظلمهم وكفرهم..

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بعد ما جاءتهم البينات علىٰ أيدي الرسل وتبين الحق..

﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا..

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ علىٰ محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم..

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أيها المخاطبون..

﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس:١٣-١٤] فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم واتبعتم آيات الله وصدقتم رسله، نجوتم في الدنيا والآخرة.. وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس:١٥-١٧]

يذكر تعالىٰ تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ..

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ وأنهم إذا تتلىٰ عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق..

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا جراءة منهم وظلمًا.. ودل قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ أن الذي حملهم علىٰ هذا التعنت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم

بلقاء الله وعدم رجائه، وأن من آمن بلقاء الله فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنه حسن القصد..

﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ فقبحهم الله، ما أجرأهم على الله، وأشدهم ظلما وردا لآياته.. فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم..

﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ ما ينبغي ولا يليق..

﴿أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء..

﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ ليس لي غير ذلك، فإني عبد مأمور..

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ فهذا قول خير الخلق وأَدَبُه مع أوامر ربه ووحيه.. فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين، الذين جمعوا بين الجهل والضلال، والظلم والعناد، والتعنت والتعجيز لرب العالمين، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟! فإن زعموا أن قصدهم أن يتبين لهم الحق بالآيات التي طلبوا، فهم كذبة في ذلك، فإنَّ الله قد بيَّن من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهو الذي يصرِّفها كيف يشاء، تابعًا لحكمته الربانية، ورحمته بعباده..

﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾ طويلًا..

﴿مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ قبل تلاوته، وقبل درايتكم به، وأنا ما خطر على بالي، ولا وقع في ظني..

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ أني حيث لم أتقوله في مدة عمري، ولا صَدَرَ مني ما يدل على ذلك، فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمرا طويلا تعرفون حقيقة حالي، بأني أمي لا أقرأ ولا أكتب، ولا أدرس ولا أتعلم من أحد؟! فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء، وأعيا العلماء، فهل يمكن -مع هذا- أن يكون من تلقاء نفسي، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟! فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزمتم جزما لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذ أبيتم إلا التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون..

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾ [يونس:١٦-١٧] فلو كنت مُتَقَوِّلا لكنت أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تَخْفَ عليكم

حالي.. ولكني جئتكم بآيات الله فكذبتم بها.. فتعيَّن فيكم الظلم، ولا بد أن أمركم سيضمحل، ولن تنالوا الفلاح، ما دمتم كذلك.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾ [يونس:١٨]

﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ..

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ لا تملك لهم مثقال ذرة من النفع ولا تدفع عنهم شيئا..

﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولًا خاليًا من البرهان..

﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ يعبدونهم ليقربوهم إلىٰ الله، ويشفعوا لهم عنده.. وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم، ولهذا قال تعالىٰ مبطلًا لهذا القول..

﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الله تعالىٰ هو العالِم الذي أحاط علمًا بجميع ما في السماوات والأرض، وقد أخبركم بأنَّه ليس له شريك ولا إله معه، أفأنتم -يا معشر المشركين- تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء؟! أفتخبرونه بأمر خفي عليه وعلمتوه؟! أأنتم أعلم أم الله؟! فهل يوجد قول أبطل من هذا القول؟! المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين، فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول، فإنه يجزم بفساده وبطلانه..

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾ [يونس:١٨] تقدَّس وتنزَّه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا إله في السماوات والأرض إلا هو، وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه فإنه باطل عقلًا وشرعًا وفطرةً، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحج].

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٩ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٢٠﴾ [يونس:١٩-٢٠]

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقين على الدين الصحيح..

﴿فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ﴾ ولكنهم اختلفوا.. فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه..

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم..

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بأن ننجي المؤمنين، ونهلك الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقًا بينهم..

﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٩﴾ ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض، ليتبين الصادق من الكاذب..

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: المكذبون المتعنتون..

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها كقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان] الآيات.. وكقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ [الإسراء]..

﴿فَقُلْ﴾ لهم إذا طلبوا منك آية..

﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المحيط علمًا بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحدٍ تدبيرٌ في حكم ولا دليل، ولا غاية ولا تعليل..

﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٢٠﴾ [يونس:١٩-٢٠] كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝٢١﴾ [يونس:٢١]

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ كالصحة بعد المرض، والغنىٰ بعد الفقر، والأمن بعد الخوف.. نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله علىٰ الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم.. ولهذا قال..

﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ يسعون بالباطل، ليبطلوا به الحق..

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة..

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١﴾ [يونس:٢١] بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصيه الله عليهم، ثم يجازيهم الله عليه أوفر الجزاء.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾ [يونس:٢٢-٢٣]

لما ذكر تعالىٰ القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ذكر حالةً تؤيد ذلك، وهي حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال..

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة لكم فيها، وهداكم إليها..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ السفن البحرية..

﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ موافقة لما يهوونه، من غير انزعاج ولا مشقة..

﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك، إذ..

﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ شديدة الهبوب..

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده..

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فدعَوْه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، ووعدوا من أنفسهم علىٰ وجه الإلزام، فقالوا..

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾..

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد ولا يدفع عنهم المضايق إلا هو، فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما أخلصوها في الشدة؟! ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم، ولهذا قال..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غاية ما تؤملون ببغيكم وشرودكم عن الإخلاص لله أن تنالوا شيئًا من حطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذي سينقضي سريعًا، ويمضي جميعًا، ثم تنتقلون عنه بالرَّغْمِ [1]..

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في يوم القيامة..

﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس:٢٢-٢٣] وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار علىٰ عملهم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٤]

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فذلك..

﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج..

(١) قَالَ الْخَلِيلُ: الرَّغْمُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَكْرَهُ الْإِنْسَانُ.[مقاييس اللغة/ ٢/ ٤١٤- مادة (رغم)].

﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ كالحبوب والثمار..

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ ومما تأكل الأنْعَامُ، كأنواع العشب، والكلأ المختلف الأصناف..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية للمتبصرين، فصرت ترىٰ لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره..

﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.. فبينما هم في تلك الحالة..

﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء..

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلىٰ الأذهان، وضرب الأمثال..

﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ [يونس:٢٤] يعملون أفكارهم فيما ينفعهم.. وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان.. **وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا**، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه -إن زها- وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [يونس:٢٥]

ولما ذكر الله حال الدنيا، وحاصل نعيمها، شوق إلىٰ الدار الباقية فقال..

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ عمَّ تعالىٰ عباده بالدعوة إلىٰ دار السلام، والحث علىٰ ذلك، والترغيب..

﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [يونس:٢٥] وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاءه، فهذا فضله وإحسانه.. والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل.

📖 الفـوائـد

سمىٰ الله الجنة (دار السلام) لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه، وحسنه من كل وجه.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾ [يونس:٢٦]

ولما دعا إلىٰ دار السلام، كأن النفوس تشوقت إلىٰ **الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها**، فأخبر عنها بقوله..

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ للذين **أحسنوا في عبادة الخالق**، بأن عبدوه علىٰ وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته، وقاموا بما قدروا عليه منها.. **وأحسنوا إلىٰ عباد الله** بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلي، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان.. فهؤلاء الذين أحسنوا، لهم..

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الحسنىٰ وهي الجنة الكاملة في حسنها..

﴿وَزِيَادَةٞۖ﴾ وهي النظر إلىٰ وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه.. فبهذا حصل لهم أعلىٰ ما يتمناه المتمنون، ويسأله السائلون.. ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال..

﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ لا ينالهم مكروه، بوجه من الوجوه، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.. وأما هؤلاء فهم كما قال الله عنهم ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ [المطففين: ٢٤]..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ الملازمون لها..

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾ [يونس:٢٦] لا يحولون، ولا يزولون، ولا يتغيرون.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ
مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾ [يونس:٢٧]

لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار..

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي..

﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ فجزاؤهم سيئة مثلها، أي: جزاء يسوؤهم، بحسب ما عملوا من السيئات، علىٰ اختلاف أحوالهم..

﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ﴾ تغشاهم..

﴿ذِلَّةٞۖ﴾ في قلوبهم وخوف من عذاب الله..

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلىٰ ظاهرهم، فتكون سوادًا في الوجوه ..

﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾ [يونس:٢٧]

فكم بين الفريقين من الفرق، ويا بعد ما بينهما من التفاوت؟! ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ٢٥﴾ [القيامة] ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢﴾ [عبس].

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ
وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ
إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ
وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾ [يونس:٢٨-٣٠]

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ نجمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين،

وما كانوا يعبدون من دون الله..

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم..

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضًا وعداوة..

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ وتبرأ شُرَكَاؤُهُمْ منهم، وقالوا..

﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فإننا ننزه الله أن يكون له شريك، أو نديد..

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلىٰ ذلك، وهو الشيطان، كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس].. وقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ].. **فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدهم** يوم القيامة، ويتنصلون من دعائهم إياهم إلىٰ عبادتهم.. وهم الصادقون البارون في ذلك.. **فحينئذ يتحسر المشركون** حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال.. ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون علىٰ الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.. ولهذا قال تعالىٰ..

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك اليوم..

﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ **تتفقد** أعمالها وكسبها، **وتتبعه** بالجزاء، **وتجازي** بحسبه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر..

﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ ..

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس:٢٨-٣٠] من قولهم بـ: صحة ما هم عليه من الشرك، وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس:٣١-٣٣]

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطانًا.. محتجًا عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية علىٰ ما أنكروه من توحيد الألوهية..

﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بإنزال الأرزاق من السماء، وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟!

﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟! **وخصَّهما بالذكر:** من باب التنبيه علىٰ المفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما..

﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوىٰ، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك..

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ عكس هذه المذكورات..

﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك..

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات..

﴿فَقُلْ﴾ لهم إلزامًا بالحجة..

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان..

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به..

﴿اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ المألوه المعبود المحمود، المربي جميع الخلق بالنعم، وهو..

﴿ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ فإنه تعالىٰ المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنىٰ والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام..

﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾ عن عبادة من هذا وصفه، إلىٰ عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.. فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه.. فتبًا لمن أشرك به، وويحًا لمن كفر به، لقد عدموا عقولهم، بعد أن عدموا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخراهم.. ولهذا قال تعالىٰ عنهم..

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ [يونس:٣١-٣٣] بعد ما أراهم الله من الآيات البينات والبراهين النيرات، ما فيه عبرة لأولي الألباب، وموعظة للمتقين وهدىً للعالمين.

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣٤ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [يونس:٣٤-٣٦]

يقول تعالىٰ مبينًا عجز آلهة المشركين، وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله..

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أي: يبتديه..

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ﴾ وهذا استفهام بمعنىٰ النفي والتقرير، أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز..

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ﴾ من غير مشارك ولا معاون له علىٰ ذلك..

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣٤﴾ أي: تصرفون وتنحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء والإعادة إلىٰ عبادة من لا يخلق شيئًا وهم يخلقون..

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ ببيانه وإرشاده، أو بإلهامه وتوفيقه..

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ وحده..

﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلىٰ سلوك أقوم طريق..

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ ..

﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ لا يهتدي..

﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تهدىٰ..

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥﴾ أيُّ شيءٍ جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصحة عبادة أحد مع الله، بعد ظهور الحجة والبرهان، أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده.. فإذا تبيَّن أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصافًا معنوية، ولا أوصافًا فعلية، تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلاهيتها، فلأي شيء جعلت مع الله آلهة؟ فالجواب: أن هذا من تزيين الشيطان للإنسان أقبح البهتان وأضل الضلال، حتىٰ اعتقد ذلك وألفه، وظنه حقًا، وهو لا شيء.. ولهذا قال..

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [يونس: ٦٦]، أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء لله، فإنه ليس لله شريك أصلًا، عقلًا ولا نقلًا، وإنما يتبعون الظن و..

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ فسموها آلهة، وعبدوها مع الله، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [يونس:٣٤-٣٦] وسيجازيهم علىٰ ذلك بالعقوبة البليغة.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟

بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس:٣٧-٤١]

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غير ممكن ولا متصور أن يفترىٰ هذا القرآن علىٰ الله تعالىٰ؛ لأنه الكتاب العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].. وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.. وهو كتاب الله الذي تكلم به رب العالمين، فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلَّم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟! فإن كان أحد يماثل الله في عظمته، وأوصاف كماله أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن.. ولو تنزلنا علىٰ الفرض والتقدير فتقوَّله أحد علىٰ رب العالمين لعاجله بالعقوبة، وبادره بالنكال..

﴿وَلَٰكِن﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة علىٰ العباد أجمعين.. أنزله..

﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها، وصدَّقها بما شهدت به، وبشَّرت بنزوله، فوقع كما أخبرت..

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة..

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين..

﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ تنزيل من رب العالمين الذي ربىٰ جميع الخلق بنعمه.. ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل علىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال..

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: المكذبون به عنادًا وبغيًا:..

﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ محمدٌ علىٰ الله، واختلقه..

﴿قُلۡ﴾ لهم -ملزِمًا لهم بشيء- إن قَدروا عليه أمكن ما ادَّعوه، وإلا كان قولهم باطلًا..

﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعاونكم علىٰ الإتيان بسورةٍ مثله، وهذا محال..

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ ولو كان ممكنًا لادعوا قدرتهم علىٰ ذلك، ولأتوا بمثله.. ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة..

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ والذي حملهم علىٰ التكذيب بالقرآن المشتمل علىٰ الحق الذي لا حق فوقه، أنهم لم يحيطوا به علمًا.. فلو أحاطوا به علمًا وفهموه حق فهمه لأذعنوا بالتصديق به..

﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ وكذلك إلىٰ الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال.. وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال..

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ وهو الهلاك الذي لم يبق منهم أحدًا.. فليحذر هؤلاء أن يستمروا علىٰ تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل بالأمم المكذبين والقرون المهلكين..

﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ بالقرآن وما جاء به..

﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ وهم الذين لا يؤمنون به علىٰ وجه العناد والظلم والفساد..

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤٠﴾ فسيجازيهم علىٰ فسادهم بأشد العذاب..

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فاستمر علىٰ دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله..

﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٤١﴾ [يونس:٣٧-٤١]

كما قال تعالىٰ: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: ٤٦].

📖 **الفـوائـد**

في قوله ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ دليل على **التثبت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علمًا.**

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس:٤٢]

يخبر تعالىٰ عن بعض المكذبين للرسول، ولما جاء به..

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وأن منهم مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلىٰ النبي ﷺ وقت قراءته للوحي.. لا علىٰ وجه الاسترشاد، بل **علىٰ وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات**.. وهذا **استماع غير نافع**، ولا مُجدٍ علىٰ أهله خيرًا.. لا جرم انسد عليهم باب التوفيق، وحرموا من فائدة الاستماع، ولهذا قال..

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ وهذا الاستفهام بمعنىٰ النفي المتقرر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به..

﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس:٤٢] وخصوصًا إذا كان عقلهم معدومًا.. فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون كذلك ممتنع إسماعك إياهم، إسماعًا ينتفعون به.. **وأما سماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة**.. فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخير.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس:٤٣-٤٤]

ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو طريق النظر فقال..

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ فلا يفيده نظره إليك، ولا سَبر أحوالك شيئًا، فكما أنَّك لا تهدي العُمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.. فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلىٰ العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصل لهم إلىٰ الحق؟!

﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا﴾ فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس:٤٣-٤٤] يجيئهم الحق فلا يقبلونه.. فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم.

📖 **الفـوائـد**

دل قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من **أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.**

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [يونس:٤٥]

يخبر تعالى، عن سرعة انقضاء الدنيا..

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه..

﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس.. وهم..

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ كحالهم في الدنيا..

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ ففي هذا اليوم يربح المتقون.. ويخسر الذين كذبوا بلقاء الله..

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [يونس:٤٥] إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس:٤٦]

لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم، فإنهم لا بد أن يصيبهم

الذي نعدهم من العذاب..

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في الدنيا..

﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ فتراه بعينك، وتقر به نفسك..

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وإما في الآخرة بعد الوفاة..

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فإن مرجعهم إلىٰ الله، وسينبئهم بما كانوا يعملون، أحصاه ونسوه..

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس:٤٦] والله علىٰ كل شيء شهيد.. ففيه: الوعيد الشديد لهم.. والتسلية للرسول الذي كذَّبه قومه وعاندوه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس:٤٧-٤٩]

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية..

﴿رَّسُولٌ﴾ يدعوهم إلىٰ توحيد الله ودينه..

﴿فَإِذَا جَآءَ﴾ هم..

﴿رَسُولُهُمْ﴾ بالآيات، صدقه بعضهم، وكذبه آخرون، فيـ..

﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ قضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين، وإهلاك المكذبين..

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ بـ: أن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم.. فليحذر المكذبون لك من مشابهة الأمم المهلكين، فيحل بهم ما حل بأولئك.. ولا يستبطئوا العقوبة..

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ فإن هذا ظلم منهم؛ حيث طلبوه من النبي ﷺ..

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس..

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم فمن الله تعالىٰ..

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ ينزله عليهم إذا جاء الأجل الذي أجَّله فيه، والوقت الذي قدره فيه، الموافق لحكمته الإلهية..

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ فإذا جاء ذلك الوقت..

﴿فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس:٤٧-٤٩] فليحذر المكذِّبون من الاستعجال بالعذاب.. فإنَّهم مستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.. ولهذا قال..

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يونس:٥٠-٥٢]

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا﴾ وقت نومكم بالليل..

﴿أَوۡ نَهَارٗا﴾ في وقت غفلتكم..

﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أيُّ بشارة استعجلوا بها؟ وأي عقاب ابتدروه؟

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ﴾ فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم توبيخًا وعتابًا في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون..

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ تؤمنون في حال الشدة والمشقة؟

﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ فإن سنة الله في عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب.. فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسًا إيمانها، كما قال تعالىٰ عن فرعون، لما أدركه الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس]، وأنه يقال له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ [غافر: ٨٥].. وقال هنا: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ تدَّعون الإيمان.. ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ فهذا ما عملت أيديكم، وهذا ما استعجلتم به..

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ حين يوفون أعمالهم يوم القيامة:..

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يفتر عنكم ساعة..

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾ [يونس: ٥٢] من الكفر والتكذيب والمعاصي.

﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾ [يونس:٥٣]

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ:..

﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ يستخبرك المكذبون، علىٰ وجه التعنت والعناد، لا علىٰ وجه التبين والرشاد..

﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أصحيح حشر العباد وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر؟!

﴿قُلْ﴾ لهم مقسمًا علىٰ صحته، مستدلًا عليه بالدليل الواضح والبرهان..

﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه..

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾ [يونس:٥٣] لله أن يبعثكم، فكما ابتدأ خلقكم ولم تكونوا شيئًا، كذلك يعيدكم مرة أخرىٰ ليجازيكم بأعمالكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾ [يونس:٥٤-٥٦]

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ وإذا كانت القيامة فـ ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالكفر والمعاصي جميع..

﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من ذهب وفضة وغيرهما، لتفتدي به من عذاب الله..

﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ ولَمَا نفعها ذلك، وإنما النفع والضر والثواب والعقاب، علىٰ الأعمال الصالحة والسيئة..

﴿وَأَسَرُّواْ﴾ أي: الذين ظلموا..

﴿ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾ نَدِموا علىٰ ما قدَّموا، ولات حين مناص..

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه..

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤﴾ ..

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي، ولهذا قال..

﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ ..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين النقلية والعقلية..

﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدبير، لا شريك له في ذلك..

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦﴾ [يونس:٥٤-٥٦] يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس:٥٧-٥٨]

يقول تعالىٰ مرغبًا للخلق في الإقبال علىٰ هذا الكتاب الكريم، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد، فقال..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ **تعظكم.. وتنذركم** عن الأعمال الموجبة لسخط الله المقتضية لعقابه.. **وتحذركم** عنها ببيان آثارها ومفاسدها..

﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني.. فإن ما فيه من

المواعظ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة.. وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، ونمتا علىٰ تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد الله علىٰ مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلىٰ العبد من شهوة نفسه.. **وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة** التي صرفها الله غاية التصريف، وبينها أحسن بيان، مما يزيل الشبه القادحة في الحق، ويصل به القلب إلىٰ أعلىٰ درجات اليقين.. وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده..

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ **فالهدىٰ**: هو العلم بالحق والعمل به.. **والرحمة**: هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل لمن اهتدىٰ به.. **فالهدىٰ** أجل الوسائل، **والرحمة** أكمل المقاصد والرغائب..

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ ولكن لا يهتدي به ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين.. وإذا حصل الهدىٰ وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور.. ولذلك أمر تعالىٰ بالفرح بذلك فقال..

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة، وفضل تفضل الله به علىٰ عباده..

﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ومعرفته..

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس:٥٧-٥٨] من متاع الدنيا ولذاتها.. **فنعمة الدين** المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا مما هو مضمحل زائل عن قريب.. **وإنما أمر الله تعالىٰ بالفرح بفضله ورحمته،** لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالىٰ، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا فرح محمود.. **بخلاف الفرح بشهوات الدنيا** ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم كما قال تعالىٰ عن قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص]، وكما قال تعالىٰ في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [يونس:٥٩-٦٠]

يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ المشركين، الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم..

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ يعني أنواع الحيوانات المحلَّلَة، التي جعلها الله رزقا لهم ورحمة في حقهم..

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ﴾ لهم موبخًا علىٰ هذا القول الفاسد..

﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ومن المعلوم أنَّ الله لم يأذن لهم، فعلم أنهم مفترون..

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أن يفعل الله بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كثير، وذو إحسان جزيل..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [يونس:٥٩-٦٠] إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها علىٰ معاصيه، وإما أن يحرموا منها ويردوا ما منَّ الله به علىٰ عباده.. وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها علىٰ الله، ويستعين بها علىٰ طاعته..

🕮 الفوائد

يستدل بهذه الآية علىٰ: **أن الأصل في جميع الأطعمة الحل**، إلا ما ورد الشرع بتحريمه؛ لأن الله أنكر علىٰ من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس:٦١]

يخبر تعالىٰ، عن عموم مشاهدته، واطلاعه علىٰ جميع أحوال العباد في حركاتهم، وسكناتهم.. وفي ضمن هذا الدعوة لمراقبته علىٰ الدوام فقال..

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية..

﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك..

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغير أو كبير..

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: وقت شروعكم فيه، واستمراركم علىٰ العمل به.. **فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها** علىٰ وجه النصيحة والاجتهاد فيها.. **وإياكم وما يكره الله تعالىٰ، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم..**

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ ما يغيب عن علمه وسمعه وبصره ومشاهدته..

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس:٦١] قد أحاط به علمه، وجرىٰ به قلمه.

📖 الفوائد

هاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر كثيرًا ما يقرن الله بينهما، وهما:

العلم المحيط بجميع الأشياء..

وكتابته المحيطة بجميع الحوادث..

كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج].

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٤]

يخبر تعالىٰ عن أوليائه وأحبائه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم فقال..

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال..

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال.. وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ثبت **لهم الأمن والسعادة**، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالىٰ.. ثم ذكر وصفهم فقال..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره..

﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ وصدَّقوا إيمانهم باستعمال التقوىٰ، وبامتثال الأوامر، واجتناب النواهي.. فكل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله تعالىٰ وليًا، و..

﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ **أما البشارة في الدنيا، فهي**: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق..

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ **وأما في الآخرة**: فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فصلت]، وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالىٰ والنعيم المقيم، وفي الآخرة تمام البشرىٰ بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم..

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ بل ما وعد الله فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبديله؛ لأنه الصادق في قيله، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه..

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس:٦٢-٦٤] لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب.. وحصر الفوز فيه؛ لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوىٰ.

🕮 الفوائد

الحاصل: أن البشرىٰ شاملة لكل خير وثواب.. رتَّبه الله في الدنيا والآخرة علىٰ الإيمان والتقوىٰ.. ولهذا أطلق ذلك، فلم يقيده.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥﴾ [يونس:٦٥]

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتوصلون بها إلىٰ القدح فيك وفي دينك.. فإن أقوالهم لا تعزهم، ولا تضرك شيئًا..

﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ يؤتيها من يشاء، ويمنعها ممن يشاء، قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ [فاطر: ١٠]، أي: فليطلبها بطاعته، بدليل قوله بعده: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾ [فاطر: ١٠].. ومن المعلوم، أنك على طاعة الله، وأن العزة لك ولأتباعك من الله ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]..

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٥﴾ [يونس:٦٥] أي: **سمعه قد أحاط بجميع الأصوات، فلا يخفىٰ** عليه شيء منها.. **وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن..** فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.. **وهو تعالىٰ يسمع قولك**، وقول أعدائك فيك.. **ويعلم** ذلك تفصيلا فاكتف بعلم الله وكفايته، فمن يتق الله، فهو حسبه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ۝٦٦ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ۝٦٧﴾ [يونس:٦٦-٦٧]

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يخبر تعالىٰ: أن له ما في السماوات والأرض، **خلقًا وملكًا وعبيدًا**، يتصرف فيهم بما شاء من أحكامه.. فالجميع مماليك لله، مسخرون، مدبرون.. **لا يستحقون شيئًا من العبادة**، وليسوا شركاء لله بوجه الوجوه، ولهذا قال..

﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الذي لا يغني من الحق شيئًا..

﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ۝٦٦﴾ في ذلك، خرص كذب وإفك وبهتان.. فإن كانوا صادقين في أنها شركاء لله فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة، فلن يستطيعوا، فهل منهم أحد يخلق شيئًا أو يرزق، أو يملك شيئًا من المخلوقات، أو يدبر الليل والنهار، الذي جعله الله قياما للناس؟! و..

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ في النوم والراحة، بسبب الظلمة التي تغشىٰ وجه الأرض، فلو استمر الضياء لَمَا قروا ولَمَا سكنوا..

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ وَجعل الله النَّهَارَ مُبْصِرًا، أي: مضيئًا، يبصر به الخلق، فيتصرفون في معايشهم، ومصالح دينهم ودنياهم..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ [يونس:٦٦-٦٧] عن الله سمع فهم وقبول واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد، فإن في ذلك لآيات لقوم يسمعون.. **يستدلون بها علىٰ**: أنه وحده المعبود، وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرءوف الرحيم العليم الحكيم.

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ [يونس:٦٨-٧٠]

يقول تعالىٰ مخبراً عن بهت المشركين لرب العالمين..

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ فنزّه نفسه عن ذلك بقوله..

﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ تنزَّه عما يقول الظالمون -في نسبة النقائص إليه- علوًا كبيرًا.. **ثم برهن علىٰ ذلك بعدة براهين.. أحدها**: قوله..

﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ الغنىٰ منحصر فيه.. وأنواع الغنىٰ مستغرقة فيه.. فهو الغني الذي له الغنىٰ التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه.. فإذا كان غنيًا من كل وجه فلأي شيء يَتَخِذ الولد؟! ألحاجة منه إلىٰ الولد؟! فهذا مناف لغناه، فلا يتخذ أحدٌ ولدًا إلا لنقص في غناه.. **البرهان الثاني**: قوله..

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وهذه كلمة جامعة عامة، لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد مماليك.. ومن المعلوم أن **هذا الوصف العام ينافي أن يكون له منهم ولد**، فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقًا ولا

مملوكًا، **فملكيته** لما في السماوات والأرض عمومًا، **تنافي الولادة.. البرهان الثالث**: قوله..

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ هل عندكم من حُجَّةٍ وبرهان يدلُّ علىٰ أنَّ لله ولدًا، فلو كان لهم دليل لأبدوه.. فلمَّا تحدَّاهم وعجَّزَهُم عن إقامة الدليل **عُلِم بطلانُ** ما قالوه، وأنَّ ذلك **قولٌ بلا علم**، ولهذا قال..

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ **فإن هذا من أعظم المحرمات..**

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ **لا ينالون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم..**

﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلًا..

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ثم ينتقلون إلىٰ الله، ويرجعون إليه..

﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ فيذيقهم العذاب الشديد..

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس:٦٨-٧٠] ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران].

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس:٧١-٧٣]

يقول تعالىٰ لنبيه..

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ واتل علىٰ قومك..

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ في دعوته لقومه..

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ حين دعاهم إلىٰ الله مدة طويلة، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلم يزدهم دعاؤه إياهم إلا طغيانًا، فتمللوا منه وسئموا، وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ غير

متكاسل ولا متوان في دعوتهم، فقال لهم..

﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي﴾ إن كان مقامي عندكم، وتذكيري إياكم، ما ينفعكم ..

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الأدلة الواضحة البينة.. قد شق عليكم وعظم لديكم، وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق..

﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ اعتمدت على الله، في دفع كل شر يُرادُ بي وبما أدعو إليه، فهذا جندي وعدتي.. وأنتم! فأتوا بما قدرتم عليه من أنواع العَدَدَ والعُدَدَ..

﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تدخروا من مجهودكم شيئًا..

﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ وَأحضروا شُرَكَاءَكُمْ الذي كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين..

﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ مشتبهًا خفيًا، بل ليكن ذلك ظاهرًا علانية..

﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ اقضوا عليَّ بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم..

﴿وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ لا تمهلوني ساعة من نهار.. **فهذا برهان قاطع وآية عظيمة على صحة رسالته وصدق ما جاء به**.. حيث كان وحده، لا عشيرة تحميه، ولا جنود تؤويه.. وقد بادأ قومه بتسفيه آرائهم، وفساد دينهم، وعيب آلهتهم.. وقد حملوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسطوة.. وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك.. فلم يقدروا على شيء من ذلك.. **فعُلِمَ أنَّه الصادق حقًا، وهم الكاذبون فيما يدَّعون**، ولهذا قال..

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عن ما دعوتكم إليه **فلا موجب لتوليكم**.. لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته، إلى باطل قامت الأدلة على فساده.. ومع هذا..

﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾ على **دعوتي** وعلى **إجابتكم**.. فتقولوا: هذا جاءنا ليأخذ أموالنا، فتمتنعون لأجل ذلك..

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ لا أريد الثواب والجزاء إلا منه..

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾ وأيضا: فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلىٰ ضده، بل ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾ فأنا أول داخل، وأول فاعل لما أمرتكم به..

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد ما دعاهم ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا..

﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له إذا فار التنور: فـ ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠] ففعل ذلك.. فأمر اللهُ السماءَ أن تمطر ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر: ١١- ١٤]..

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ في الأرض بعد إهلاك المكذبين.. ثم بارك الله في ذريته، وجعل ذريته هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض..

﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ بعد ذلك البيان، وإقامة البرهان..

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾ [يونس:٧١-٧٣] وهو: الهلاك المخزي واللعنة المتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لومًا، ولا ترىٰ إلا قدحًا وذمًا.. **فليحذر هؤلاء المكذبون** أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من الهلاك والخزي والنكال.

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾ [يونس:٧٤]

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ المكذبين، يدعونهم إلىٰ الهدىٰ، ويحذرونهم من أسباب الردىٰ..

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ كلُّ نبي أيِّد دعوته بالآيات الدالة علىٰ صحة ما جاء به..

﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ يعني: أن الله تعالىٰ عاقبهم -حيث جاءهم الرسول فبادروا بتكذيبه- فطبع علىٰ قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠].. ولهذا قال هنا..

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤﴾ [يونس:٧٤] **نختم عليها، فلا يدخلها خير، وما ظلمهم الله، ولكنهم ظلموا أنفسهم بـ:** ردهم الحق لما جاءهم، وتكذيبهم الأول.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥﴾ [يونس:٧٥]

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلىٰ القوم المكذبين المهلكين..

﴿مُّوسَىٰ﴾ بن عمران، كليم الرحمن، أحد أولي العزم من المرسلين، وأحد الكبار المقتدىٰ بهم، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة..

﴿وَهَٰرُونَ﴾ وَجعلنا معه أخاه ﴿هَٰرُونَ﴾ وزيرًا، بعثناهما..

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: كبار دولته ورؤسائهم، لأن عامتهم، تبع للرؤساء..

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة علىٰ صدق ما جاءا به من توحيد الله، والنهي عن عبادة ما سوىٰ الله تعالىٰ..

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عنها ظلمًا وعلوًا، بعد ما استيقنوها..

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥﴾ [يونس:٧٥] وصفهم الإجرام والتكذيب.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧﴾ [يونس:٧٦-٧٧]

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها..

﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وهو من عند الله الذي خضعت لعظمته الرقاب، وهو رب العالمين، المربِّي جميعَ خلقه بالنعم.. فلما جاءهم الحقُّ من عند الله علىٰ يد موسىٰ ردوه فلم يقبلوه، و..

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦﴾ لم يكفهم -قبَّحهم الله- إعراضهم ولا ردهم إياه، حتىٰ جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر، الذي حقيقته التمويه، بل **جعلوه سحرًا مبينًا ظاهرًا، وهو الحق المبين**، ولهذا..

﴿قَالَ﴾ لهم..

﴿مُوسَىٰٓ﴾ موبخًا لهم عن ردهم الحق، الذي لا يرده إلا أظلم الناس..

﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ﴾ أتقولون إنه سحر مبين..

﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ فانظروا وصفه وما اشتمل عليه، فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق..

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ [يونس:٧٦-٧٧] لا في الدنيا، ولا في الآخرة، فانظروا لمن تكون له العاقبة، ولمن له الفلاح، وعلىٰ يديه النجاح.. وقد علموا بعد ذلك وظهر لكل أحد أن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الذي أفلح، وفاز بظفر الدنيا والآخرة.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ٧٨﴾ [يونس:٧٨]

﴿قَالُوٓاْ﴾ لموسىٰ رادين لقوله بما لا يرده..

﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أجئتنا لتصدنا عمَّا وجدنا عليه آباءنا، من الشرك وعبادة غير الله، وتأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؟! فجعلوا قول آبائهم الضالين حجة يردون بها الحق الذي جاءهم به موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. وقولهم ..

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء، ولتخرجونا من أرضنا.. **وهذا تمويه منهم، وترويج** علىٰ جهالهم، **وتهييج لعوامهم** علىٰ معاداة موسىٰ، وعدم الإيمان به.. **وهذا لا يحتجُّ به**: من عرف الحقائق، وميز بين الأمور؛ فإن **الحجج لا تدفع إلا بالحجج** والبراهين.. وأما من جاء بالحق فرُدَّ قولُه بأمثال هذه الأمور، فإنها تدل علىٰ عجز مُورِدِها عن الإتيان بما يردُّ القولَ الذي جاء خصمه؛ لأنه لو كان له حجة لأوردها، ولم يلجأ إلىٰ قوله: قصدك كذا، أو مرادك كذا، سواء كان صادقًا في قوله وإخباره عن قصد خصمه أم كاذبًا.. **مع أن موسىٰ** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كل من عرف حاله وما يدعو إليه عرف أنه ليس له قصد في العلو في الأرض، وإنما **قصده كقصد إخوانه المرسلين**، هداية الخلق وإرشادهم لما فيه نفعهم.. ولكن حقيقة الأمر، كما نطقوا به بقولهم..

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ٧٨﴾ [يونس:٧٨] تكبرًا وعنادًا، لا لبطلان ما جاء به موسىٰ

وهارون، ولا لاشتباه فيه، ولا لغير ذلك من المعاني، سوىٰ الظلم والعدوان، وإرادة العلو الذي رموا به موسىٰ وهارون.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١﴾ [يونس:٧٩-٨١]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضـًا للحق الذي جاء به موسىٰ، ومغالطًا لملئه وقومه..

﴿ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩﴾ ماهر بالسحر، متقن له.. فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة، علىٰ اختلاف أجناسهم وطبقاتهم..

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ للمغالبة مع موسىٰ..

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠﴾ أيّ شيء أردتم، لا أعينُ لكم شيئًا.. وذلك لأنَّه جازمٌ بغلبته، غير مبال بهم وبما جاءوا به..

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي كأنها حيَّاتٌ تسعىٰ، فـ..

﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ﴾ هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمته..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١﴾ [يونس:٧٩-٨١] فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل علىٰ الحق، وأيُّ فساد أعظم من هذا؟! **وهكذا كل مفسد عَمِلَ عَمَلًا** واحتالَ كيدًا، أو أتىٰ بمكر، فإنَّ عمله سيبطل ويضمحل، **وإن حصل لعمله روجانٌ في وقتٍ ما**، فإنَّ مآله الاضمحلال والمحق.. **وأما المصلحون** الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالىٰ، وهي أعمال ووسائل نافعة، مأمور بها، **فإنَّ الله يصلح أعمالهم ويرقيها**، وينميها علىٰ الدوام.. فألقىٰ موسىٰ عصاه، فتلقفت جميع ما صنعوا، فبطل سحرهم، واضمحل باطلهم.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣﴾ [يونس:٨٢-٨٣]

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ فألقي السحرة سجدًا حين تبين لهم الحق.. فتوعدهم فرعون بالصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك وثبتوا علىٰ إيمانهم.. وأما فرعون وملؤه، وأتباعهم، فلم يؤمن منهم أحد، بل استمروا في طغيانهم يعمهون.. ولهذا قال..

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ شباب من بني إسرائيل، صبروا علىٰ الخوف، لمَّا ثبت في قلوبهم الإيمان..

﴿عَلَىٰ خَوۡفٍ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ عن دينهم..

﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ له القهر والغلبة فيها، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته..

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس: ٨٣] وخصوصًا ﴿أَنَّهُۥ﴾ كان ﴿مِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ المتجاوزين للحد، في البغي والعدوان.

📖 الفوائد

الحكمة -والله أعلم- بكونه ما آمن لموسىٰ إلا ذرية من قومه..

أن الذرية والشباب أقبل للحق وأسرع له انقيادًا..

بخلاف الشيوخ ونحوهم ممن تربىٰ علىٰ الكفر، فإنَّهم -بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة- أبعد من الحق من غيرهم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ
فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ موصيًا لقومه بالصبر، ومذكرًا لهم ما يستعينون به علىٰ ذلك، فقال..

﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فقوموا بوظيفة الإيمان..

﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس] اعتمدوا عليه، والجؤوا إليه واستنصروه.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾
وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس:٨٥-٨٦]

﴿فَقَالُوا۟﴾ ممتثلين لذلك..

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ لا تسلطهم علينا فيفتنونا أو يغلبونا.. فيُفتتنون بذلك ويقولون: لو كانوا علىٰ حقٍ لَمَا غُلِبُوا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس:٨٥-٨٦] لنسلم من شرهم، ولنقيم علىٰ ديننا علىٰ وجهٍ نتمكن به من إقامة شرائعه وإظهاره، من غير معارض ولا منازع.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس:٨٧]

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ حين اشتد الأمر علىٰ قومهما، من فرعون وقومه، وحرصوا علىٰ فتنتهم عن دينهم..

﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ مروهم أن يجعلوا لهم بيوتًا، يتمكنون من الاستخفاء فيها..

﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ اجعلوها محلًا تصلون فيها، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس والبيَع العامة..

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ﴾ فإنَّها معونة علىٰ جميع الأمور..

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس:٨٧] بالنصر والتأييد، وإظهار دينهم ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح].. وحين اشتد الكرب وضاق الأمر فرَّجه الله ووسَّعه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ فلما رأىٰ موسىٰ القسوة والإعراض من فرعون وملئه، دعا عليهم وأمَّن هارونُ علىٰ دعائه فقال..

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ يتزينون بها، من أنواع الحلي والثياب والبيوت

المزخرفة، والمراكب الفاخرة، والخُدَّام..

﴿وَأَمْوَالًا﴾ عظيمة..

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فيَضِلُّون ويُضِلُّون..

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أتلفها عليهم، إما بالهلاك، وإما بجعلها حجارة، غير منتفع بها..

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قسِّها..

﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨] قال ذلك: غضبًا عليهم، حيث تجرؤوا على محارم الله، وأفسدوا عباد الله، وصدوا عن سبيله.. ولكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا
وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٩]

﴿قَالَ﴾ الله تعالى..

﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ هذا دليل على أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن على دعائه.. وأن الذي يؤمن، يكون شريكا للداعي في ذلك الدعاء..

﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على دينكما، واستمرا على دعوتكما..

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٩] لا تتبعان سبيل الجهال الضلال المنحرفين عن الصراط المستقيم المتبعين لطرق الجحيم.. فأمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلًا، وأخبره أنهم يُتبَعون، وأرسل فرعونُ في المدائن حاشرين يقولون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: موسى وقومه: ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء].

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس:٩٠-٩١]

﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ وذلك أن الله أوحىٰ إلىٰ موسىٰ لما وصل البحر أن يضربه بعصاه، فضربه، فانفلق اثنىٰ عشر طريقًا، وسلكه بنو إسرائيل..

﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ فجمع فرعونُ جنودَه قاصيهم ودانيهم وساقهم خلفه داخلين.. فأتبعهم بجنوده..

﴿بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ أي: خروجهم باغين علىٰ موسىٰ وقومه ومعتدين في الأرض، **وإذا اشتد البغي واستحكم الذنب فانتظر العقوبة..**

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ فلما استكمل موسىٰ وقومه خارجين من البحر، وفرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر فالتطم علىٰ فرعون وجنوده، فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون.. حتىٰ إذا أدرك فرعونُ الغرقَ، وجَزَم بهلاكه..

﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو..

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ المنقادين لدين الله ولِمَا جاء به موسىٰ.. قال الله تعالىٰ مبيِّنًا **أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له..**

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ تؤمن، وتقر برسول الله..

﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ أي: بارزت بالمعاصي، والكفر والتكذيب..

﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾ [يونس:٩٠-٩١] فلا ينفعك الإيمانُ.. كما جَرَت عادة الله: أن الكفار إذا وصلوا إلىٰ هذه الحالة الاضطرارية **أنَّه لا ينفعهم إيمانهم؛ لأن إيمانهم صار إيمانًا مشاهدًا** كإيمان من وَرَد القيامة، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ
وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس:٩٢]

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ قال المفسرون: إن بني إسرائيل لِمَا في قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون، كأنَّهم لم يصدِّقوا بإغراقه، وشَكُّوا في ذلك، فأمر اللهُ البحر أن يلقيه علىٰ نجوة مرتفعة ببدنه، ليكون لهم عبرة وآية..

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ [يونس:٩٢] فلذلك تمر عليهم وتتكرر فلا ينتفعون بها؛ لعدم إقبالهم عليها.. وأما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرىٰ من آيات الله ما هو أكبر دليل علىٰ صحة ما أخبرت به الرسل.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٩٣﴾ [يونس:٩٣]

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم..

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المطاعم والمشارب وغيرهما..

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في الحق..

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، ولكن بغىٰ بعضهم علىٰ بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير..

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٩٣﴾ [يونس:٩٣] بحكمه العدل الناشئ عن علمه التام، وقدرته الشاملة.

🕮 الفوائد

هذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح، وهو:

أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، **سعىٰ في التحريش بينهم**، وإلقاء العداوة والبغضاء..

فحصل من **الاختلاف** ما هو موجب ذلك..

ثم حصل من **تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض**، ما هو قرة عين اللعين..

وإلا فإذا كان ربهم واحدًا، ورسولهم واحدًا، ودينهم واحدًا، ومصالحهم العامة متفقة، **فلأي شيء يختلفون اختلافًا يفرق شملهم**، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم..

فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت، ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت..

فنسألك اللهم لطفًا بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم علىٰ دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس:٩٤-٩٥]

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ..

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح؟

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ اسأل أهل الكتب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم..

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ولهذا قال..

﴿مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ٢]..

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وحاصل هذا أن الله نهىٰ عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.. وأشد من ذلك التكذيب به.. وهو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه.. والنهي عن الشيء أمر بضده، فيكون أمرًا بالتصديق التام بالقرآن، وطمأنينة القلب إليه، والإقبال عليه، علمًا وعملًا.. فبذلك يكون العبد من الرابحين الذين أدركوا أجلَّ المطالب، وأفضل الرغائب، وأتم المناقب، وانتفىٰ عنهم الخسار.

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس:٩٤-٩٥] ورتب علىٰ هذا الخسار، وهو عدم الربح أصلًا .. وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة.

📖 **الفـوائـد**

فإن قيل: إن كثيرًا من أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذَّبوا رسول الله وعاندوه، وردُّوا عليه دعوته، والله تعالىٰ أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهانًا علىٰ صدقه، فكيف يكون ذلك؟

فالجواب عن هذا، من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلىٰ طائفة أو أهل مذهب أو بلد ونحوهم، فإنها إنما **تتناول العدول الصادقين** منهم.. وأما من عداهم فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية علىٰ العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ (عبد الله بن سلام)، وأصحابه، وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ وخلفائه، و(كعب الأحبار) وغيرهم.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ **مبنية علىٰ كتابهم التوراة** الذي ينتسبون إليه.. فإذا كان موجودًا في التوراة ما يوافق القرآن ويصدقه ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم علىٰ إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أنَّ الله تعالىٰ أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب علىٰ صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه علىٰ رءوس الأشهاد.. ومن المعلوم أن كثيرًا منهم من أحرص الناس علىٰ إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما يردُّ ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، **كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة علىٰ صحة هذا القرآن** وصدقه.

ومنها: أنَّه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها، وانقاد طوعًا واختيارًا.. فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب، فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة حتىٰ انقاد للإسلام أكثرُ أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب.. ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم علىٰ الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تديَّن بدينهم اسمًا لا معنىٰ، **كالإفرنج**

الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويجًا لملكهم، وتمويهًا لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦-٩٧]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن يصيروا إلىٰ ما قدره الله وقضاه، فـ..

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانا، وغيا إلىٰ غيهم.. وما ظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق، لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع علىٰ قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم..

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦-٩٧] فلا يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به.. فحينئذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق.. ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئًا، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الروم].. وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب، أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس:٩٨]

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من قرىٰ المكذبين..

﴿ءَامَنَتْ﴾ حين رأت العذاب..

﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه، حين رأىٰ العذاب، كما قال تعالىٰ عن فرعون ما تقدَّم قريبًا، لما قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس]، فقيل له ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس]..

وكما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].. وقال تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠].. **والحكمة في هذا ظاهرة: فإن الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلىٰ الإيمان لرجع إلىٰ الكفران..**

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ **بعد ما رأوا العذاب..**

﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس:٩٨] **فهم مستثنون من العموم السابق.. ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا.. قال الله تعالىٰ** ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ **إلىٰ قوله:** ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات].. **ولعل الحكمة في ذلك: أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر، بل قد استمر فعلًا وثبتوا عليه. والله أعلم.**

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس:٩٩-١٠٠]

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ..

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾ **بأن يلهمهم الإيمان، ويُوزِعُ قلوبهم للتقوىٰ، فقدرته صالحة لذلك.. ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين، وبعضهم كافرين..**

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ **لا تقدر علىٰ ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله علىٰ شيء من ذلك..**

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ بإرادته ومشيئته، وإذنه القدري الشرعي.. فمن كان من الخلق قابلًا لذلك يزكو عنده الإيمان وفَّقَهُ وهَدَاه..

﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾ الشرَّ والضلال..

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٠﴾ [يونس:٩٩-١٠٠] عن الله أوامره ونواهيه، ولا يلقوا بالًا لنصائحه ومواعظه.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس:١٠١-١٠٣]

يدعو تعالىٰ عباده إلىٰ النظر لما في السماوات والأرض..

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ والمراد بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل.. لما فيها وما تحتوي عليه، والاستبصار.. فإن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، وعبرًا لقوم يوقنون.. تدل علىٰ أن الله وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأسماء والصفات العظام..

﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم..

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾ فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله، بعد وضوحها..

﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الهلاك والعقاب، فإنَّهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين..

﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ فستعلمون من تكون له العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرسل وأتباعهم.. ولهذا قال..

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ من مكاره الدنيا والآخرة، وشدائدهما..

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ أوجبناه علىٰ أنفسنا..

﴿نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس:١٠١-١٠٣] وهذا من دفعه عن المؤمنين.. فإن الله يدافع عن الذين آمنوا فإنه بحسب ما مع العبد من الإيمان تحصل له النجاة من المكاره.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس:١٠٤-١٠٦]

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين وخير الموقنين..

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ في ريب واشتباه.. فإني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما تدعون من دون الله باطل.. ولي علىٰ ذلك الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة.. ولهذا قال..

﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأنداد، والأصنام وغيرها.. لأنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئًا من الأمور.. وإنما هي مخلوقة مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها..

﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ﴾ هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميتكم، ثم يبعثكم، ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يعبد، ويُصلىٰ له ويُخضع ويُسجد..

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ ..

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين حنيفًا، أي: مقبلًا علىٰ الله، معرضًا عما سواه..

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم..

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار، هو الله تعالىٰ..

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ بأن دعوت من دون الله، ما لا ينفعك ولا يضرك..

﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس:١٠٤-١٠٦] الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]، فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟!

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧]

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة.. فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذا مس بضر كفقر ومرض ونحوهما..

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدًا لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرده الله.. ولهذا قال..

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ لا يقدر أحد من الخلق أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]..

﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يختص برحمته من شاء من خلقه.. والله ذو الفضل العظيم..

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لجميع الزلات.. الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته.. ثم إذا فعلها العبد غفر الله ذنوبه، كبارها، وصغارها..

﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧] الذي وسعت رحمته كلَّ شيء، ووصل جودُه إلى جميع الموجودات.. بحيث لا يُستغنى عن إحسانه طرفة عين.. فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم وإعطاء الحسنات وكشف السيئات والكربات، وأن أحدًا من الخلق ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده، جزَم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.. ولهذا -لما بين الدليل الواضح قال بعده..

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس:١٠٨-١٠٩]

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول، لمَّا تبيَّن البرهان ..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ الخبر الصادق المؤيَّد بالبراهين، الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه..

﴿مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ وهو واصل إليكم من ربكم.. الذي من أعظم تربيته لكم أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية ما فيه أعظم تربية لكم، وإحسان منه إليكم.. فقد تبين الرشد من الغي، ولم يبق لأحد شبهة..

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ بهدىٰ الله بأن علم الحق وتفهمه، وآثره علىٰ غيره..

﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ والله تعالىٰ غني عن عباده، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم..

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الهدىٰ، بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به..

﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ ولا يضر الله شيئًا، فلا يضر إلا نفسه..

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها.. وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل.. فانظروا لأنفسكم، ما دمتم في مدة الإمهال..

﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ أيها الرسول..

﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ علمًا، وعملًا وحالًا ودعوةً إليه..

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ علىٰ ذلك، فإنَّ هذا أعلىٰ أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل، ولا تضجر، بل دُم علىٰ ذلك، واثبت..

﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ بينك وبين من كذبك..

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ [يونس:١٠٨-١٠٩] فإنَّ حُكمَه مشتمل علىٰ العدل التام، والقسط الذي يحمد عليه.. **وقد امتثل ﷺ أمر ربه**، وثبت علىٰ الصراط المستقيم.. حتىٰ أظهر الله دينه علىٰ سائر الأديان، ونصره علىٰ أعدائه بالسيف والسنان، بعد ما نصره الله عليهم بالحجة والبرهان.. فلله الحمد، والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله، وعظمته، وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة (يونس)

والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة هود عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي مكية

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤﴾ [هود:١-٤]

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ﴾ هذا ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم، ونُزُلٌ كريم..

﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أُتقنت وأُحسنت، صادقةً أخبارها، عادلةً أوامرها ونواهيها، فصيحةً ألفاظه، بهيةً معانيه..

﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ ميزت وبينت، بيانًا في أعلىٰ أنواع البيان..

﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهىٰ إلا بما تقتضيه حكمته..

﴿خَبِيرٍ ١﴾ مطلع علىٰ الظواهر والبواطن.. فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله علىٰ كمال الحكمة وسعة الرحمة.. وإنما أنزل الله كتابه لـ..

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك به أحد من خلقه..

﴿إِنَّنِي لَكُم﴾ أيها الناس..

﴿مِّنۡهُ﴾ من الله ربكم..

﴿نَذِيرٞ﴾ لمن تجرأ علىٰ المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة..

﴿وَبَشِيرٞ ٢﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة..

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب..

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم، بالرجوع إليه بالإنابة، والرجوع عما يكرهه الله إلىٰ ما يحبه ويرضاه.. ثم ذكر ما يترتب علىٰ الاستغفار والتوبة فقال..

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يعطيكم من رزقه، ما تتمتعون به وتنتفعون..

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلىٰ وقت وفاتكم..

﴿وَيُؤْتِ﴾ منكم..

﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون..

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتم به..

﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر..

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾..

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [هود:١-٤] كالدليل علىٰ إحياء الله الموتىٰ.. فإنه قدير علىٰ كل شيء، ومن جملة الأشياء إحياء الموتىٰ، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين، فيجب وقوع ذلك عقلًا ونقلًا.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود:٥]

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يخبر تعالىٰ عن جهل المشركين، وشدة ضلالهم، أنهم ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي: يميلونها..

﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ من الله، فتقع صدورهم حاجبة لعلم الله بأحوالهم، وبصره لهيئاتهم.. قال تعالىٰ مبينا خطأهم في هذا الظن..

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يتغطُّون بها.. يَعلَمُهُم في تلك الحال التي هي من أخفىٰ الأشياء.. بل..

﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من الأقوال والأفعال..

﴿وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ منها، بل ما هو أبلغ من ذلك، وهو..

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود:٥] بما فيها من الإرادات، والوساوس، والأفكار، التي لم ينطقوا بها سرًا ولا جهرًا.. فكيف تخفىٰ عليه حالكم إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منه.

🕮 الفـوائـد

ويحتمل أن المعنىٰ في هذا:

أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول الغافلين عن دعوته..

أنهم -من شدة إعراضهم- يثنون صدورهم، أي: يُحدَودَبون حين يرون الرسول ﷺ، لئلا يراهم ويُسمِعُهم دعوته، ويعظُهم بما ينفعهم، فهل فوق هذا الإعراض شيء؟!

ثم توعدهم بعلمه تعالىٰ بجميع أحوالهم، وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾[هود:٦]

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جميع ما دب علىٰ وجه الأرض، من آدمي، أو حيوان بري أو بحري..

﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ فالله تعالىٰ قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقها علىٰ الله..

﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه، وتأوي إليه..

﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها، وعوارض أحوالها..

﴿كُلّٞ﴾ من تفاصيل أحوالها..

﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ [هود:٦] في اللوح المحفوظ المحتوي علىٰ جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السماوات والأرض.. الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرىٰ بها قلمه،

ونفذت فيها مشيئته، ووسِعَها رزقه.. فلتطمئن القلوب إلىٰ كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علمًا بذواتها، وصفاتها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾ [هود:٧-٨]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ يخبر تعالىٰ أنه..

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أوَّلُها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة..

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ وحين خلق السماوات والأرض ﴿كَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فوق السماء السابعة.. فبعد أن خلق السماوات والأرض استوىٰ عليه، يدبر الأمور، ويصرفه كيف شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية.. ولهذا قال..

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ليمتحنكم، إذ خلق لكم ما في السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملًا.. قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أخلصُه وأصوبُه)، قيل يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: (إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا، لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا).. **والخالص**: أن يكون لوجه الله، **والصواب**: أن يكون متبعًا فيه الشرع والسنة.. وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق].. فالله تعالىٰ خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك، فمن انقاد وأدىٰ ما أمر به فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون.. ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها علىٰ ما أمرهم به ونهاهم..ولهذا ذكر

الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال..

﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾ لهؤلاء..

﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ وأخبرتهم بالبعث..

﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ لم يصدقوك.. بل كذبوك أشد التكذيب، وقدحوا فيما جئت به..

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ ألا وهو الحق المبين.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ إلىٰ وقت مقدَّر.. فتباطأوه..

﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ لقالوا من جهلهم وظلمهم..

﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ومضمون هذا تكذيبهم به.. فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلاً علىٰ كذب الرسول المخبِر بوقوع العذاب.. فما أبعد هذا الاستدلال؟!..

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب..

﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ فيتمكنون من النظر في أمرهم..

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل..

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾ [هود:٧-٨] من العذاب.. حيث تهاونوا به، حتىٰ جزموا بكَذِب من جاء به.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود:٩-١١]

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ يخبر تعالىٰ عن طبيعة الإنسان، أنه جاهلٌ ظالمٌ بأن الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق، والأولاد، ونحو ذلك..

﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ ثم نزعها منه..

﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله.. ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها، أو خيرًا منها عليه..

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته.. يفرح ويبطر..

﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ويقول..

﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾ ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير..

﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ﴾ فرح بما أوتي مما يوافق هوىٰ نفسه..

﴿فَخُورٌ ١٠﴾ بنعم الله علىٰ عباد الله، وذلك يحمله علىٰ الأشر والبطر والإعجاب بالنفس، والتكبر علىٰ الخلق، واحتقارهم وازدرائهم، وأي عيب أشد من هذا؟!! وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخُلق الذميم إلىٰ ضده، وهم الذين صبَّروا أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطروا..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من واجبات ومستحبات..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور..

﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾ [هود:٩-١١] وهو الفوز بجنات النعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾ [هود:١٢]

يقول تعالىٰ مسليًا لنبيه محمد ﷺ، عن تكذيب المكذبين..

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ لا ينبغي هذا لمثلك..

﴿أَن يَقُولُواْ﴾ أن قولهم يؤثر فيك، ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحىٰ إليك، ويضيق صدرك لتعنتهم بقولهم..

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ **فإن هذا القول ناشئ من:** تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة.. فامض علىٰ أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه ولا يضق لذلك صدرك.. فهل أوردوا عليك حجة لا

تستطيع حلها؟! أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحًا يؤثر فيه وينقص قدره، فيضيق صدرك لذلك؟! أم عليك حسابهم ومطالب بهدايتهم جبراً؟

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ ..

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾ [هود:١٢] فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾ [هود:١٣-١٤]

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ أي: افترىٰ محمد هذا القرآن!! فأجابهم بقوله..

﴿قُلۡ﴾ لهم..

﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة..

﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وأنتم الأعداء حقًا الحريصون بغاية ما يمكنكم علىٰ إبطال دعوته، فـ..

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ أنه قد افتراه .. فأتوا بعشر سور مثله مفتريات..

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ علىٰ شيء من ذلكم..

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ من عند الله؛ لقيام الدليل والمقتضي، وانتفاء المعارض..

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ واعلموا أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ.. أي: هو وحده المستحق للألوهية والعبادة..

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾ [هود:١٣-١٤] منقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته.

📖 الفـوائـد

في هذه الآيات:

١- إرشاد إلىٰ أنه لا ينبغي للداعي إلىٰ الله أن يصده اعتراض المعترضين، ولا قدح القادحين.. خصوصًا إذا كان القدح لا مستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه.

٢- وأنه **لا يضيق صدره**، بل يطمئن بذلك، ماضيًا علىٰ أمره، مقبلًا علىٰ شأنه.

٣- وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها.. بل **يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض** علىٰ جميع المسائل والمطالب.

٤- وفيها: **أن هذا القرآن معجز بنفسه، لا يقدر أحدٌ من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر** سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله؛ لأن الأعداء البلغاء الفصحاء تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم علىٰ ذلك.

٥- وفيها: **أن مما يطلب فيه العلم ولا يكفي غلبة الظن (علم القرآن) و(علم التوحيد)**، لقوله تعالىٰ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥-١٦]

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ كل إرادته مقصورة علىٰ الحياة الدنيا، وعلىٰ زينتها من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث.. قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء.. ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئًا.. **فهذا لا يكون إلا كافرًا**، لأنه لو كان مؤمنًا لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسَّر له من الأعمال أَثَرٌ من آثار إرادته الدار الآخرة.. ولكن هذا الشقي الذي كأنه خُلِقَ للدنيا وَحدَهَا..

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ نعطيهم ما قُسِمَ لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا..

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ لا ينقصون شيئًا مما قدِّر لهم، ولكن هذا منتهىٰ نعيمهم..

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ خالدين فيها أبدًا، لا يفتَّر عنهم العذاب، وقد حُرموا جزيل الثواب..

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ في الدنيا.. أي: بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله..

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود:١٥-١٦] وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٌ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٍ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٧﴾ [هود:١٧]

يذكر تعالىٰ **حال رسوله محمد ﷺ، ومن قام مقامه** من ورثته القائمين بدينه وحججه الموقنين بذلك.. وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد مثلَهم، فقال..

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البيِّنَة..

﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر..

﴿شَاهِدٌ مِّنۡهُ﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه، فازداد بذلك إيمانا إلىٰ إيمانه..

﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وثَمَّ شاهد ثالث، وهو ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ التوراة التي جعلها الله..

﴿إِمَامًا﴾ للناس..

﴿وَرَحۡمَةًۚ﴾ لهم.. يشهد لهذا القرآن بالصدق، ويوافقه فيما جاء به من الحق.. أي: أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات والجهالات، ليس بخارج منها؟! لا يستوون عند الله، ولا عند عباد الله..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين وُفِّقُوا لقيام الأدلة عندهم..

﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ يُؤۡمِنُونَ بالقرآن حقيقة.. فيثمر لهم إيمانهم كلَّ خير في الدنيا والآخرة..

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ أي: القرآن..

﴿مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي: سائر طوائف أهل الأرض، المتحزبة علىٰ رد الحق..

﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾ لا بد من وروده إليها..

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٍ مِّنۡهُۚ﴾ أي: في أدنىٰ شك..

﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود:١٧] **إمَّا جهلًا منهم وضلالًا، وإما ظلمًا وعنادًا وبغيًا.. وإلا فمن كان قصده حسنًا وفهمه مستقيمًا، فلا بد أن يؤمن به؛ لأنه يرىٰ ما يدعوه إلىٰ الإيمان من كل وجه.**

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود:١٨-١٩]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ **يخبر تعالىٰ أنه لا أحد** ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.. **ويدخل في هذا:** كلُّ من كذب علىٰ الله بنسبة الشريك له، أو وصفه بما لا يليق بجلاله، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب علىٰ الله.. **فهؤلاء أعظم الناس ظلمًا..**

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ **ليجازيهم بظلمهم، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد..**

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ **الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم..**

﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ **أي: لعنة لا تنقطع.. لأن ظلمهم صار وصفًا لهم ملازمًا، لا يقبل التخفيف.. ثم وصف ظلمهم فقال..**

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل، التي دعوا الناس إليها، وصدُّوا غيرهم عنها، فصاروا أئمةً يدعون إلىٰ النار..**

﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ **أي: سبيل الله..**

﴿عِوَجًا﴾ **يجتهدون في ميلها، وتشيينها، وتهجينها.. لتصير عند الناس غير مستقيمة.. فيحسنون الباطل ويقبحون الحق.. قبحهم الله..**

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود:١٨-١٩] ..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [هود: ٢٠- ٢٣]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليسوا فائتين الله، لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه..

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ فيدفعون عنهم المكروه، أو يحصلون لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم الأسباب..

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ يغلظ ويزداد، لأنهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم..

﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ من بغضهم للحق ونفورهم عنه، ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعًا ينتفعون به ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر]..

﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: ينظرون نظر عبرة وتفكر فيما ينفعهم وإنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ حيث فوتوها أعظم الثواب واستحقوا أشد العذاب..

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسِّنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك..

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًا وصدقًا..

﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده؛ لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة والعذاب.. نستجير بالله من حالهم.. ولما ذكر حال الأشقياء ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم، أي: صدَّقوا واعترفوا لِمَا أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المشتملة علىٰ أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان..

﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ خضعوا له، واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته، وخوفه، ورجائه، والتضرع إليه..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا تلك الصفات..

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾ [هود:٢٠-٢٣] لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبًا إلا أدركوه، ولا خيرًا إلا سبقوا إليه.

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾ [هود:٢٤]

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ فريق الأشقياء، وفريق السعداء..

﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾ هؤلاء الأشقياء..

﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ مثل السعداء..

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ لا يستوون مثلاً.. بل بينهما من الفَرق ما لا يأتي عليه الوصف..

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾ [هود:٢٤] الأعمال التي تنفعكم فتفعلونها، والأعمال التي تضركم فتتركونها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ٢٦﴾ [هود:٢٥-٢٦]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أول المرسلين..

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ يدعوهم إلىٰ الله وينهاهم عن الشرك.. فقال لهم..

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٥﴾ بيَّنت لكم ما أنذرتكم به، بيانًا زال به الإشكال..

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يعبد من دون الله.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾ [هود:٢٥-٢٦] إن لم تقوموا بتوحيد الله وتطيعوني.

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۢ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧﴾ [هود:٢٧]

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ الأشراف والرؤساء، رادِّين لدعوة نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، كما جرت العادة لأمثالهم، أنهم أول من رَد دعوة المرسلين..

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ وهذا مانع بزعمهم عن اتباعه.. مع أنه في نفس الأمر هو الصواب، الذي لا ينبغي غيره.. لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه، ويراجعوه في كل أمر، بخلاف الملائكة..

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ ما نرىٰ اتبعك منا إلا الأراذل والسفلة، بزعمهم.. وهم في الحقيقة الأشراف وأهل العقول، الذين انقادوا للحق ولم يكونوا كالأراذل.. الذين يقال لهم (الملأ)، الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر، يتقربون إليها ويسجدون لها، فهل ترىٰ أرذل من هؤلاء وأخس؟! وقولهم..

﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ أي: إنما اتبعوك من غير تفكر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك.. يعنون بذلك أنهم ليسوا علىٰ بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أنَّ الحق المبين تدعو إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلىٰ أولي الألباب يعرفونه ويتحققونه.. لا كالأمور الخفية التي تحتاج إلىٰ تأمل، وفكر طويل..

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۢ﴾ لستم أفضلَ منا فننقاد لكم..

﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧﴾ [هود:٢٧] وكذبوا في قولهم هذا.. فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح ما يوجب لهم الجزم التام علىٰ صدقه.. ولهذا..

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ

مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود:٢٨-٣١]

﴿قَالَ﴾ لهم نوح مجاوبا..

﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أي: علىٰ يقين وجزم.. يعني: وهو الرسول الكامل القدوة، الذي ينقاد له أولو الألباب، ويضمحل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقا.. فإذا قال: (إني علىٰ بينة من ربي)، فحسبك بهذا القول شهادة له وتصديقًا..

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ أوحىٰ إليَّ وأرسلني، ومنَّ علي بالهداية..

﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ خَفِيت عليكم، وبها تثاقلتم..

﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ أنكرهكم علىٰ ما تحققناه، وشككتم أنتم فيه؟!

﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ حتىٰ حرصتم علىٰ رد ما جئت به.. ليس ذلك ضارنًا، وليس بقادح من يقيننا فيه، ولا قولكم وافتراؤكم علينا صادًا لنا عمَّا كنَّا عليه.. وإنما غايته أن يكون صادًا لكم أنتم، وموجبًا لعدم انقيادكم للحق الذي تزعمون أنه باطل.. فإذا وصلت الحال إلىٰ هذه الغاية، فلا نقدر علىٰ إكراهكم علىٰ ما أمر الله ولا إلزامكم ما نفرتم عنه، ولهذا قال: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾..

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ علىٰ دعوتي إياكم..

﴿مَالًاۖ﴾ فستستثقلون المغرم..

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم..

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز والإعظام..

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ فمثيبهم علىٰ إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم..

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٩﴾ حيث تأمرونني بطرد أولياء الله، وإبعادهم عني.. وحيث رددتم الحق لأنهم أتباعه.. وحيث استدللتم علىٰ بطلان الحق بقولكم إني بشر مثلكم، وإنه ليس لنا عليكم من فضل..

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ من يمنعني من عذابه.. فإنَّ طردهم موجب للعذاب والنكال، الذي لا يمنعه من دون الله مانع..

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠﴾ ما هو الأنفع لكم والأصلح، وتدبرون الأمور..

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ غايتي أني رسول الله إليكم، أبشركم، وأنذركم.. وأما ما عدا ذلك فليس بيدي من الأمر شيء.. فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا وأعطي من أشاء وأَحرِم من أشاء..

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ فأخبركم بسرائركم وبواطنكم..

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ والمعنىٰ: أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوىٰ المنزلة التي أنزلني الله بها، ولا أحكم علىٰ الناس بظني..

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ أي: ضعفاء المؤمنين، الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا..

﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك، فحسابهم علىٰ الله..

﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ إن قلت لكم شيئًا مما تقدَّم..

﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣١﴾ [هود:٢٨-٣١] **وهذا: تأييس** منه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لقومه أن ينبذ فقراء المؤمنين، أو يمقتهم.. **وتقنيع** لقومه بالطرق المقنعة للمنصف.. فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم..

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢﴾ [هود:٣٢]

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ ..

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب..

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾ [هود:٣٢] فما أجهلهم وأضلهم؟! حيث قالوا هذه المقالة لنبيهم الناصح! فهلا قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح قد نصحتنا وأشفقت علينا ودعوتنا إلىٰ أمر لم يتبيَّن لنا، فنريد منك أن تبيِّنَه لنا لننقاد لك، وإلا فأنت مشكور في نصحك؟! لكان هذا الجواب المنصف الذي قد دعي إلىٰ أمر خفي عليه.. ولكنهم في قولهم كاذبون، وعلىٰ نبيهم متجرئون.. ولم يردوا ما قاله بأدنىٰ شبهة، فضلا عن أن يردوه بحجة.. ولهذا عدلوا -من جهلهم وظلمهم- إلىٰ الاستعجال بالعذاب، وتعجيز الله، ولهذا أجابهم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ [هود: ٣٣]..

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٣٤﴾ [هود:٣٣-٣٤]

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم، فَعَل ذلك..

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ٣٣﴾ لله.. وأنا ليس بيدي من الأمر شيء..

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ إن إرادة الله غالبة.. فإنه إذا أراد أن يغويكم لردِّكم الحق فلو حرصت غاية مجهودي ونصحت لكم أتمَّ النصح -وهو قد فعل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- فليس ذلك بنافعٍ لكم شيئا..

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم بما يريد..

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٣٤﴾ [هود:٣٣-٣٤] فيجازيكم بأعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ٣٥﴾ [هود:٣٥]

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ **هذا الضمير محتمِل أن يعود إلىٰ نوح**، كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنىٰ: أن قومه يقولون: افترىٰ علىٰ الله كذبًا، وكَذَب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول ﴿ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥ ﴾ أي: كلٌّ عليه وزره ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾ [الإسراء: ١٥].. **ويحتمل أن يكون عائدا إلىٰ النبي محمد** ﷺ، وتكون هذه الآية معترَضة في أثناء قصة نوح وقومه؛ لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصِّها علىٰ رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة علىٰ صدقه ورسالته، ذَكَر تكذيب قومه له، مع البيان التام، فقال: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه، أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب، ولم يرحل عنهم لدراسة علىٰ أهل الكتاب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحدَّاهم أن يأتوا بسورة من مثله.. فإذا زعموا -مع هذا- أنه افتراه، عُلِم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال..

﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ أي: ذنبي وكذبي..

﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾ [هود:٣٥] فلِمَ تستلجون في تكذيبي؟!

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾ [هود:٣٨-٣٩]

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ قد قَسُوا..

﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ فلا تحزن، ولا تبال بهم، وبأفعالهم، فإن الله قد مقتهم، وأحقَّ عليهم عذابه الذي لا يرد..

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ بحفظنا، ومرأىٰ منا، وعلىٰ مرضاتنا..

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ لا تراجعني في إهلاكهم..

﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ قد حَقَّ عليهم القول، ونَفَذَ فيهم القدر..

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ فامتثَل أمر ربه، وجعل يصنع الفلك..

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ ورأوا ما يصنع..

﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ الآن..

﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ ..

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾ [هود:٣٨-٣٩] نحن أم أنتم.. وقد علموا ذلك، حين حلَّ بهم العقاب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود:٤٠]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي: قدرنا بوقت نزول العذاب بهم..

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أنزل الله السماء بالماء بالمنهمر، وفجر الأرض كلها عيونا حتىٰ التنانير -التي هي محل النار في العادة وأبعد ما يكون عن الماء- تفجرت ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ [القمر]..

﴿قُلۡنَا﴾ لنوح ..

﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ من كل صنف من أصناف المخلوقات ذكر وأنثىٰ.. لتبقىٰ مادة سائر الأجناس.. وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين فإنَّ السفينة لا تطيق حملها..

﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ ممن كان كافرًا، كابنه الذي غرق..

﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ والحال أنه..

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود:٤٠] ..

﴿۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾ [هود:٤١]

﴿۞ وَقَالَ﴾ نوح لمن أمره الله أن يحملهم..

﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ تجري على اسم الله، وترسو على اسم الله، وتجري بتسخيره وأمره..

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾ [هود:٤١] حيث غفر لنا ورحمنا، ونجانا من القوم الظالمين.. ثم وَصَف جريانها كأنَّا نشاهدها فقال..

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢﴾ [هود:٤٢]

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ بنوح، ومن ركب معه..

﴿فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ والله حافظها وحافظ أهلها..

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ لما ركب، ليركب معه..

﴿وَكَانَ﴾ ابنه..

﴿فِي مَعۡزِلٖ﴾ عنهم حين ركبوا، أي: مبتعدًا، وأراد منه أن يقرب ليركب، فقال له..

﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢﴾ [هود:٤٢] فيصيبك ما يصيبهم، فـ..

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾ [هود:٤٣]

﴿قَالَ﴾ ابنه، مكذِّبًا لأبيه أنه لا ينجو إلا من رَكِب معه السفينة..

﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ سأرتقي جبلًا أمتنع به من الماء، فـ..

﴿قَالَ﴾ نوح..

﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ فلا يعصم أحدًا جبل ولا غيره، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب لَمَا نجا، إن لم ينجه الله..

﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ﴾ الابن..

﴿مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ۝٤٣﴾ [هود:٤٣] فلما أغرقهم الله ونجَّىٰ نوحا ومن معه.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ [هود:٤٤]

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ الذي خرج منك، والذي نزل إليك.. أي: ابلعي الماء الذي علىٰ وجهك..

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ فامتثلتا لأمر الله، فابتلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء، فنضب الماء من الأرض..

﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين..

﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ السفينة..

﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ أرست علىٰ ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل..

﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ [هود] أُتبعوا بعد هلاكهم لعنة وبعدا وسحقا لا يزال معهم.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥﴾ [هود:٤٥]

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ وقد قلت لي: فـ ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ﴾ [هود: ٤٠] ولن تخلف ما وعدتني به..

﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥﴾ [هود:٤٥] لعله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حملته الشفقة، وأن الله وعده بنجاة أهله، ظنَّ أن الوعد لعمومهم من آمن ومن لم يؤمن، فلذلك دعا ربَّه بذلك الدعاء، ومع هذا ففوَّض الأمرَ لحِكمَةِ الله البالغة[1]، فـ..

---

(١) أو لعل ولده كان منافقًا، وخفي باطنه علىٰ نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فاستشكل هلاكه مع ظهور إسلامه، ولم يستشكل هلاك زوجته وبقية أولاده- إن كان له ولد غير هذا الهالك- مع ظهور كفرهم.. والله تعالىٰ أعلم.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود:٤٦]

﴿قَالَ﴾ الله له..

﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ الذين وعدتك بإنجائهم..

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ هذا الدعاء الذي دعوت به لنجاة كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله..

﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ أي: ما لا تعلم عاقبته ومآله، وهل يكون خيرًا أو غير خير..

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود:٤٦] أني أعظك وعظًا تكون به من الكاملين، وتنجو به من صفات الجاهلين.. فحينئذ ندم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ندامة شديدة على ما صدر منه، و..

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود:٤٧]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾..

﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود:٤٧] فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين.

🕮 الفوائد

دل هذا على أن نوحا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرَّم داخلٌ في قوله ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧﴾ [المؤمنون] بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله ﴿وَأَهۡلَكَ﴾، وبعد ذلك تبيَّن له أنَّه داخلٌ في المنهي عن الدعاء لهم والمراجعة فيهم (١).

(١) إلا أن ترجيح احتمال كون ابنه منافقًا لا يُورِد هذا الإشكال أصلًا.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود:٤٨]

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتىٰ ملأوا أقطار الأرض ونواحيها..

﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ في الدنيا..

﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود:٤٨] أي: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك أحللنا به العقاب، وإن متعوا قليلا فسيؤخذون بعد ذلك.

﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود:٤٩]

قال الله لنبيه محمد ﷺ بعد ما قص عليه هذه القصة المبسوطة، التي لا يعلمها إلا من منَّ عليه برسالته..

﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ ..

﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ فيقولوا: إنه كان يعلمها..

﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾ فاحمد الله واشكره، واصبر علىٰ ما أنت عليه من الدين القويم والصراط المستقيم والدعوة إلىٰ الله..

﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود:٤٩] الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي.. فستكون لك العاقبة علىٰ قومك، كما كانت لنوح علىٰ قومه.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ

عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا
يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ
وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾
إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: ٥٠-٦٠]

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ وأرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف، من أرض اليمن..

﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب..

﴿هُودًا﴾ ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه، فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم..

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ أمرهم بعبادة الله وحده.. ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله..

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيره، وتجويزهم لذلك.. ووضَّح لهم وجوب عبادة الله، وفساد عبادة ما سواه.. ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد، فقال..

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه، فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا.. وإنما أدعوكم وأعلمكم مجانًا..

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ..

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٥١﴾ ما أدعوكم إليه، وأنه موجب لقبوله، منتف المانع عن رده..

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ عما مضىٰ منكم..

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح، والإنابة إلىٰ الله تعالىٰ.. فإنكم إذا فعلتم ذلك..

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ بكثرة الأمطار التي تخصب بها الأرض، ويكثر خيرها..

﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ فإنهم كانوا من أقوىٰ الناس، ولهذا قالوا ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: ١٥]؟! فوعدهم أنهم إن آمنوا زادهم قوة إلىٰ قوتهم..

﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عنه، أي: عن ربكم..

﴿مُجۡرِمِينَ ۝٥٢﴾ مستكبرين عن عبادته، متجرئين علىٰ محارمه، فـ..

﴿قَالُواْ﴾ رادين لقوله..

﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ **إن كان قصدهم بالبينة**: البينة التي يقترحونها، **فهذه غير لازمة للحق**، بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل علىٰ صحة ما جاء به.. **وإن كان قصدهم**: أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة، **فقد كذبوا في ذلك**، فإنَّه ما جاء نبيٌّ لقومه إلا وبعث الله علىٰ يديه من الآيات ما يؤمن علىٰ مثله البشر..

ولو لم يكن له آية إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح، وخلق جميل، **والنهي** عن كل خلق ذميم من الشرك بالله، والفواحش، والظلم، وأنواع المنكرات، **مع ما هو مشتمل عليه هود** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، **لكفىٰ بها آيات وأدلة**، علىٰ صدقه.. **بل أهل العقول وأولو الألباب** يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التي يراها بعض الناس هي المعجزات فقط..

ومن آياته وبيناته الدالة علىٰ صدقه: أنه شخص واحد ليس له أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه ويناديهم ويعجِّزهم، ويقول لهم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ [هود: ٥٦]، ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ [هود]، وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور بأي طريق كان،

وهو غير مكترث منهم ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدرون أن ينالوه بشيء من السوء.. إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون..

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك، الذي ما أقمت عليه بينة بزعمهم..

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾ وهذا تأييس منهم لنبيهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون..

﴿إِن نَّقُولُ﴾ فيك..

﴿إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أصابتك بخَبَالٍ وجنون، فصرت تهذي بما لا يُعقل.. فسبحان من طبعَ علىٰ قلوب الظالمين!! كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق بهذه المرتبة التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم، لولا أن الله حكاها عنهم.. ولهذا بيَّن هود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أنه واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم ولا من آلهتهم أذىٰ، فـ..

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ﴾ ..

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي: اطلبوا لي الضرر كلكم بكل طريق تتمكنون بها مني..

﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ أي لا تمهلوني..

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ اعتمدت في أمري كله علىٰ الله..

﴿رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ هو خالق الجميع، ومدبرنا وإياكم، وهو الذي ربانا..

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه.. فلو اجتمعتم جميعًا علىٰ الإيقاع بي، والله لم يسلطكم عليَّ، لم تقدروا علىٰ ذلك.. فإن سلطكم فلحِكمةٍ أرادها.. فـ..

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ علىٰ عدل وقسط وحكمة وحمد في قضائه وقدره في شرعه وأمره، وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التي يحمد ويثنىٰ عليه بها..

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عما دعوتكم إليه..

﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ﴾ فلم يبق عليَّ تبعة من شأنكم..

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئا..

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ فإنَّ ضرركم إنما يعود عليكم، فالله لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة المطيعين ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦]..

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ ..

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم التي ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤٢]..

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ ..

﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ عظيم شديد، أحلَّه الله بعاد فأصبحوا لا يُرىٰ إلا مساكنهم..

﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم لأنهم..

﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ولهذا قالوا لهود ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ فتبيَّن بهذا أنهم متيقنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا..

﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ لأنَّ من عصىٰ رسولًا فقد عصىٰ جميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة..

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ متسلط علىٰ عباد الله بالجبروت..

﴿عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ معاند لآيات الله، فعصوا كلَّ ناصح ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم، لا جرم أهلكهم الله..

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فكلُّ وقت وجيل إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة ذكر يُذكرون به، وذمٌّ يلحقهم..

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ لهم أيضًا لعنة..

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ﴾ جحدوا مَن خلقهم ورزقهم وربَّاهم..

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: ٥٠-٦٠] أبعدهم الله عن كلِّ خيرٍ، وقرَّبهم من كل شر.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]

وأرسلنا..

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم: عاد الثانية، المعروفون، الذين يسكنون الحِجر، ووادي القرىٰ..

﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب..

﴿صَٰلِحًا﴾ عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده، فـ..

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحدوه، وأخلصوا له الدين..

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض..

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ خلقكم فيها..

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة.. ومكنكم في الأرض، تبنون، وتغرسون، وتزرعون، وتحرثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها.. فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته..

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم، من الكفر، والشرك، والمعاصي، وأقلعوا عنها..

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ارجعوا إليه بالتوبة النصوح، والإنابة..

﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١] قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بـ: إعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها أجلَّ الثواب.

📖 الفـوائـد

١- **اعلم أن قربه تعالىٰ نوعان:** عام، وخاص.. **فالقرب العام:** قربه بعلمه، من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق].. **والقرب الخاص:** قربه من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالىٰ ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩].

٢- في هذه الآية، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وهذا النوع.. **قرب يقتضي إلطافه تعالىٰ**، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن، باسمه (القريب) اسمه (المجيب).

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢]

فلما أمرهم نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورغبهم في الإخلاص لله وحده، ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة..

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع.. وهذا شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفًا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.. ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة قالوا هذه المقالة، التي مضمونها أنك قد كنت كاملًا والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجىٰ منك خير.. وذنبه ما قالوه عنه، وهو قولهم..

﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وبزعمهم **أنَّ هذا من أعظم القدح في صالح**.. كيف قدح في عقولهم، وعقول آبائهم الضالين، وكيف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئا من الأحجار، والأشجار ونحوها، وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم، الذي لم تزل نعمه عليهم تترىٰ، وإحسانه عليهم دائما ينزل، الذي ما بهم من نعمة، إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو..

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢] ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه، شكًا مؤثرًا في قلوبنا الريب، وبزعمهم أنَّهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه، وهم كَذَبة في ذلك، ولهذا بيَّن كذبهم في قوله..

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود:٦٣]

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ برهان ويقين مني..

﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ منَّ علي برسالته ووحيه، أي: أفأتابعكم علىٰ ما أنتم عليه، وما تدعونني إليه؟!

﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ ..

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود:٦٣] غير خسار وتباب وضرر.

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود:٦٤-٦٥]

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ لها شِربٌ من البئر يومًا، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شِرب يومٍ معلوم..

﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء..

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ أي: بعقر..

﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ ..

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ لهم صالح..

﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾ ..

﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود:٦٤-٦٥] بل لا بد من وقوعه..

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ [هود:٦٦]

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بوقوع العذاب..

﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ ..

﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة..

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ [هود:٦٦] ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية ونجىٰ الرسل وأتباعهم.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود:٦٧]

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ العظيمة فقطعت قلوبهم..

﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود:٦٧] خامدين لا حراك لهم.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾ [هود:٦٨]

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم ولا أَنِسوا بها ولا تنعَّموا بها يومًا من الدهر، قد فارقهم النعيم وتناولهم العذاب السرمدي الذي ينقطع، الذي كأنه لم يزل..

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة..

﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾ [هود:٦٨] فما أشقاهم وأذلهم!! نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾ [هود:٦٩]

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ﴾ من الملائكة الكرام، رسولَنا..

﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الخليل..

﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بالبشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمروا علىٰ إبراهيم، فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه..

﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ سلموا عليه، ورد عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ..

﴿فَمَا لَبِثَ﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه..

﴿أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾ [هود:٦٩] بادر لبيته، فاستحضر لأضيافه عجلًا مشويًا -علىٰ الرضف- سمينا.. فقرَّبه إليهم فقال: ألا تأكلون؟!

الفوائد

١- في هذا مشروعية السلام.

٢- وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

٣- وأن السَّلام قبل الكلام.

٤- وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة علىٰ التجدد، ورده بالجملة الاسمية الدالة علىٰ الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود:٧٠]

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ إلىٰ تلك الضيافة..

﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم، فـ..

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود:٧٠] إنا رسل الله، أرسلنا الله إلىٰ إهلاك قوم لوط.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود:٧١]

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ وامرأة إبراهيم..

﴿قَآئِمَةٌ﴾ تخدم أضيافه..

﴿فَضَحِكَتْ﴾ حين سمعت بحالهم، وما أرسلوا به، تعجبًا..

﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود:٧١] فتعجبت من ذلك، و..

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود:٧٢]

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ فهذان مانعان من وجود الولد..

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود:٧٢]..

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود:٧٣]

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ فإن أمره لا عجب فيه، لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء..

﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾ لا تزال رحمته وإحسانه..

﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ وهي: الزيادة من خيره وإحسانه، وحلول الخير الإلهي على العبد..

﴿عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصًا فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك..

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ﴾ **حميد الصفات**؛ لأن صفاته صفات كمال.. **حميد الأفعال**؛ لأن أفعاله إحسان، وجود، وبر، وحكمة، وعدل، وقسط..

﴿مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود:٧٣] والمَجد هو عظمة الصفات وسعتها، فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ [هود:٧٤]

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ الذي أصابه من خيفة أضيافه..

﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بالولد..

﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ [هود] التفت حينئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾ [هود:٧٥]

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ ذو خلق حسن وسعة صدر، وعدم غضب عند جهل الجاهلين..

﴿أَوَّٰهٞ﴾ متضرع إلى الله في جميع الأوقات..

﴿مُّنِيبٞ ٧٥﴾ [هود:٧٥] رجّاع إلى الله بمعرفته ومحبته، والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه، فلذلك كان يجادل عمن حتّم الله بهلاكهم.. فقيل له..

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود:٧٦]

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ الجدال..

﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ بهلاكهم..

﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود:٧٦] فلا فائدة في جدالك.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ [هود:٧٧]

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة، الذين صدروا من إبراهيم، لما أتوا..

﴿لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ شق عليه مجيئهم..

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ ..

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ [هود:٧٧] شديدٌ حرج؛ لأنه علم أن قومه لا يتركونهم؛ لأنهم في صور شباب جرد مرد، في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله، فـ..

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ [هود:٧٨]

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ يسرعون ويبادرون، يريدون أضيافه بالفاحشة التي كانوا يعملونها، ولهذا قال..

﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحد من العالمين..

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ من أضيافي.. وهذا كما عرض لسليمان ﷺ، علىٰ المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه، لاستخراج الحق.. ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن، ولا حق لهم فيهن.. والمقصود الأعظم: دفع هذه الفاحشة الكبرىٰ..

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ إما أن تراعوا تقوىٰ الله، وإما أن تراعوني في ضيفي، ولا تخزون عندهم..

﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ [هود:٧٨] فينهاكم ويزجركم.. وهذا دليل علىٰ مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.. فـ

﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ
وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ [هود:٧٩]

﴿قَالُواْ﴾ له..

﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ [هود:٧٩] أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء.. فاشتد قلق لوط عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، و..

﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود:٨٠]

﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ كقبيلة مانعة، لمنعتكم..

﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود:٨٠] وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلىٰ أقوىٰ الأركان وهو الله الذي لا يقوم لقوته أحد.. ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ
وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ
إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود:٨١]

﴿قَالُواْ﴾ له..

﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أخبروه بحالهم؛ ليطمئن قلبه..

﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ بسوء..

﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ ثم قال جبريل بجناحه فطمس أعينهم.. فانطلقوا

يتوعدون لوطًا بمجيء الصبح.. وأَمَرَ الملائكةُ لوطًا أن يسري بأهله ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: بجانب منه، قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قريتهم..

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: بادروا بالخروج، وليكن همُّكم النجاة، ولا تلتفتوا إلىٰ ما وراءكم..

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾ من العذاب..

﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم علىٰ أضياف لوط، إذا نزل به أضياف..

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ فكأنَّ لوطًا استعجل ذلك، فقيل له..

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود:٨١] ..

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود:٨٢]

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بنزول العذاب، وإحلاله فيهم..

﴿جَعَلْنَا﴾ ديارهم..

﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قلبناها عليهم..

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من حجارة النار الشديدة الحرارة..

﴿مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود:٨٢] متتابعة، تَتْبَع من شَذَّ عن القرية.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود:٨٣]

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة..

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ عليها علامة العذاب والغضب..

﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يشابهون لفعل قوم لوط..

﴿بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود:٨٣] فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود:٨٤]

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ وأرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة، الذين يسكنون (مَديَن) في أدنىٰ فلسطين..

﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب..

﴿شُعَيْبًا﴾ لأنهم يعرفونه، وليتمكنوا من الأخذ عنه، فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم..

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أخلصوا له العبادة.. فإنهم كانوا يشركون به، وكانوا – مع شركهم- يبخسون المكيال والميزان، ولهذا نهاهم عن ذلك، فقال..

﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط..

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: بنعمة كثيرة، وصحة، وكثرة أموال وبنين.. فاشكروا الله علىٰ ما أعطاكم.. ولا تكفروا بنعمة الله، فيزيلها عنكم..

﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود:٨٤] عذابًا يحيط بكم، ولا يبقي منكم باقية.

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود:٨٥]

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل الذي ترضون أن تعطوه..

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بأخذها، بنقص المكيال والميزان..

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود:٨٥] **فإنَّ الاستمرار علىٰ المعاصي يفسد** الأديان والعقائد والدين والدنيا، ويهلك الحرث والنسل.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود:٨٦]

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يكفيكم ما أبقىٰ الله لكم من الخير، وما هو لكم، فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غُنية، وهو ضار لكم جدًا..

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ﴾ فاعملوا بمقتضىٰ الإيمان..

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود:٨٦] لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها الله تعالىٰ، وأما أنا، فأبلغكم ما أرسلت به.

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧]

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ قالوا ذلك علىٰ وجه التهكم بنبيهم، والاستبعاد لإجابتهم له.. ومعنىٰ كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا إلا أنك تصلي لله وتتعبد له، أفإن كنت كذلك أفيوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا لقولٍ ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك؟! فكيف نتبعك ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب؟!

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ﴾ وكذلك لا يوجب قولك لنا ﴿أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا﴾ ما قلت لنا من وفاء الكيل والميزان وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا، لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف.. ولهذا قالوا في تهكمهم..

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧] أئنك أنت الذي الحلم والوقار لك خلق، والرشد لك سجية، فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا تنهىٰ إلا عن غي.. أي: ليس الأمر كذلك.. وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية.. أي: أن المعنىٰ: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآباؤنا هم السفهاء الغاوون؟!

وهذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكم وأن الأمر بعكسه، ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه.. إن صلاته تأمره أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا في

أموالهم ما يشاءون.. فإن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، وأي فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقتها بالمكاييل والموازين، وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الحليم الرشيد.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود:٨٨]

﴿قَالَ﴾ لهم شعيب..

﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أي: يقين وطمأنينة، في صحة ما جئت به..

﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني..

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ وأنا لا ﴿أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ فلست أريد أن أنهاكم عن البخس في المكيال والميزان وأفعله أنا، وحتىٰ تتطرق إليَّ التهمة في ذلك، بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدر لتركه..

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم، وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي، شيء بحسب استطاعتي.. ولمَّا كان هذا فيه نوعُ تزكية للنفس دفع هذا بقوله..

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالىٰ، لا بحولي ولا بقوتي..

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ اعتمدت في أموري، ووثقت في كفايته..

﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود:٨٨] في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات.. **وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه، والإنابة إليه**، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة].

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود:٨٩]

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ أي: لا تحملنكم مخالفتي ومشاقتي..

﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ من العقوبات..

﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود:٨٩] لا في الدار ولا في الزمان.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود:٩٠]

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ عما اقترفتم من الذنوب..

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ فيما يستقبل من أعماركم، بالتوبة النصوح، والإنابة إليه بطاعته، وترك مخالفته..

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود:٩٠] لمن تاب وأناب، يرحمه فيغفر له، ويتقبل توبته ويحبه.. ومعنىٰ الودود من أسمائه تعالىٰ أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فهو (فعول) بمعنىٰ (فاعل)، وبمعنىٰ (مفعول).

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ [هود:٩١]

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ﴾ تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم، فقالوا..

﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ وذلك لبغضهم لما يقول، ونفرتهم عنه..

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ في نفسك، لست من الكبار والرؤساء، بل من المستضعفين..

﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ جماعتك وقبيلتك..

﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ [هود:٩١] ليس لك قدر في صدورنا، ولا احترام في أنفسنا، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك.. فـ..

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ [هود:٩٢]

﴿قَالَ﴾ لهم مترققًا لهم..

﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كيف تراعوني لأجل رهطي، ولا تراعوني لله، فصار رهطي أعز عليكم من الله..

﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، ولم تبالوا به، ولا خفتم منه..

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ [هود:٩٢] لا يخفىٰ عليه من أعمالكم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فسيجازيكم علىٰ ما عملتم أتم الجزاء.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ [هود:٩٣]

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ ولما أعيوه وعجز عنهم قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي: علىٰ حالتكم ودينكم..

﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ ..

﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ ويحل عليه عذاب مقيم، أنا أم أنتم؟! وقد علموا ذلك حين وقع عليهم العذاب..

﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ ما يحل بي..

﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ [هود:٩٣] ما يحل بكم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾ [هود:٩٤]

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بإهلاك قوم شعيب..

﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ ..

﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٩٤﴾ [هود:٩٤] **لا تسمع لهم صوتا، ولا ترىٰ منهم حركة.**

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ۝٩٥﴾ [هود:٩٥]

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ **كأنَّهم ما أقاموا في ديارهم، ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب..**

﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ﴾ **إذ أهلكها الله وأخزاها..**

﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ۝٩٥﴾ [هود:٩٥] **قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك.**

🕮 الفـوائـد

١- شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يسمىٰ خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته لقومه.. وفي قصته من الفوائد والعبر، شيء كثير.

٢- منها: أن الكفار كما **يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام، فكذلك بشرائعه وفروعه؛** لأن شعيبًا دعا قومه إلىٰ التوحيد، وإلىٰ إيفاء المكيال والميزان، وجعل الوعيد مرتبًا علىٰ مجموع ذلك.

٣- ومنها: أن **نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب،** وتخشىٰ العقوبة العاجلة علىٰ من تعاطىٰ ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس.

٤- إذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين موجبة للوعيد، **فسرقتهم -علىٰ وجه القهر والغلبة- من باب أولىٰ** وأحرىٰ.

٥- ومنها: أن الجزاء من جنس العمل، **فمن بخس أموال الناس يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك،** وكان سببًا لزوال الخير الذي عنده من الرزق؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ [هود: ٨٤] أي: فلا تسببوا إلىٰ زواله بفعلكم.

٦- ومنها: أن **علىٰ العبد أن يقنع بما آتاه الله،** ويقنع بالحلال عن الحرام، وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له لقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [هود: ٨٦] ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في التكالب علىٰ الأسباب المحرمة من

المَحق، وضد البركة.

٧- ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره، فإنه رتب **العمل به علىٰ وجود الإيمان، فدلَّ علىٰ أنه إذا لم يوجد العمل فالإيمان ناقص أو معدوم.**

٨- ومنها: أن **الصلاة** لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال، حتىٰ إنه متقرر عند الكفار فضلها، وتقديمها علىٰ سائر الأعمال، وأنها تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه، فبإقامتها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها، تختل أحواله الدينية.

٩- ومنها: أن **المال** الذي يرزقه اللهُ الإنسانَ -وإن كان اللهُ قد خوَّله إيَّاه- **فليس له أن يصنع فيه ما يشاء**، فإنَّه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرَّمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون سواء وافق حكم الله، أو خالفه.

١٠- ومنها: أن من تكملة دعوة الداعي وتمامها **أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به**، وأول منته عما ينهىٰ غيره عنه، كما قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود: ٨٨]، ولقوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف].

١١- ومنها: أن وظيفة الرسل وسنتهم وملتهم **إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان**، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، وبدفع المفاسد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة علىٰ المصالح الخاصة.. **وحقيقة المصلحة:** هي التي تصلح بها أحوال العباد وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

١٢- ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن ملومًا ولا مذمومًا في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلىٰ العبد **أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.**

١٣- ومنها: أن العبد ينبغي له أن **لا يتكل علىٰ نفسه** طرفة عين، بل لا يزال مستعينًا بربه متوكلًا عليه سائلًا له التوفيق.. وإذا حصل له شيء من التوفيق فلينسبه لموليه ومسديه ولا يعجب بنفسه؛ لقوله ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨ ﴾ [هود].

١٤- ومنها: الترهيب بأخذات الأمم وما جرىٰ عليهم.. وأنه ينبغي أن **تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر**.. كما أنه **ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوىٰ عند الترغيب** والحث علىٰ التقوىٰ.

١٥- ومنها: أن **التائب من الذنب** كما يسمح له عن ذنبه ويعفىٰ عنه، **فإن الله تعالىٰ يحبه ويوده**، ولا عبرة بقول من يقول: (إن التائب إذا تاب فحسبه أن يغفر له ويعود عليه العفو وأما عود الود والحب فإنه لا يعود)، فإن الله قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

١٦- ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة.. قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئًا منها..

• وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم أو أهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه..

• **وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها**، بل ربما تَعيَّن ذلك؛ لأن الإصلاح مطلوب علىٰ حسب القدرة والإمكان..

• فعلىٰ هذا: لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار **وعملوا علىٰ جعل الولاية جمهورية** يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية، **لكان أولىٰ من استسلامهم لدولة تقضي علىٰ حقوقهم** الدينية والدنيوية، وتحرص علىٰ إبادتها، وجعلهم عمَلَةً وخَدَمًا لهم.

• نعم! إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام فهو المتعيَّن، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدَّمة، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [هود:٩٦]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران..

﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الدالة علىٰ صدق ما جاء به، كالعصا، واليد ونحوهما، من الآيات التي أجراها الله علىٰ يدي موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [هود:٩٦] أي: حجة ظاهرة بينة، ظهرت ظهور الشمس.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود:٩٧]

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشراف قومه؛ لأنهم المتبوعون، وغيرهم تبعٌ لهم، فلم ينقادوا لما مع موسىٰ من الآيات التي أراهم إياها، كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم..

﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ﴾ ..

﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود:٩٧] بل هو ضال غاو، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض، لا جرم -لمَّا اتبعه قومه- أرداهم وأهلكهم.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود:٩٨-٩٩]

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ ..

﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ﴾ في الدنيا..

﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ يلعنهم الله وملائكته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة..

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود:٩٨-٩٩] بئس ما اجتمع لهم وترادف عليهم من عذاب الله ولعنة الدنيا والآخرة.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود:١٠٠]

ولما ذكر قَصَص هؤلاء الأمم مع رسلهم، قال الله تعالىٰ لرسوله..

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَۖ﴾ لتنذر به ويكون آية علىٰ رسالتك وموعظة وذكرىٰ للمؤمنين..

﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ لم يتلف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم..

﴿وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود:١٠٠] ومنها ﴿حَصِيدٌ﴾ قد تهدمت مساكنهم واضمحلت منازلهم، فلم يبق لها أثر.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود:١٠١]

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بأخذهم بأنواع العقوبات..

﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ﴾ بالشرك والكفر والعناد..

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ﴾ وهكذا كل من التجأ إلىٰ غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد..

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود:١٠١] أي: خسار ودمار، بالضد مما خطر ببالهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢]

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾ ..

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢] يقصمهم بالعذاب ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود:١٠٣]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور، من أخذه للظالمين، بأنواع العقوبات..

﴿لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِۚ﴾ لعبرةً ودليلًا علىٰ أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية والعقوبة الأخروية.. ثم انتقل من هذا إلىٰ وصف الآخرة فقال..

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ جُمِعوا لأجل ذلك اليوم لـ: لمجازاة.. وليظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة..

﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود:١٠٣] يشهده الله وملائكته، وجميع المخلوقين.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤﴾ [هود:١٠٤]

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: إتيان يوم القيامة..

﴿إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤﴾ [هود:١٠٤] إذا انقضىٰ أجل الدنيا وما قدَّر الله فيها من الخلق، فحينئذ ينقلهم إلىٰ الدار الأخرىٰ، ويجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرىٰ عليهم في الدنيا، أحكامه الشرعية.

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾ [هود:١٠٥]

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ ذلك اليوم، ويجتمع الخلق..

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ حتىٰ الأنبياء، والملائكة الكرام، لا يشفعون إلا بإذنه..

﴿فَمِنۡهُمۡ﴾ أي: الخلق..

﴿شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾ [هود:١٠٥] فالأشقياء هم: الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله، وعصوا أمره.. والسعداء هم: المؤمنون المتقون.. وأما جزاؤهم..

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾ [هود:١٠٦]

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ أي: حصلت لهم الشقاوة، والخزي والفضيحة..

﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ منغمسون في عذابها، مشتد عليهم عقابها..

﴿لَهُمۡ فِيهَا﴾ من شدة ما هم فيه..

﴿زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾ [هود:١٠٦] وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [هود:١٠٧]

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار، التي هذا عذابها..

﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ أي: خالدين فيها أبدًا **إلا المدة التي شاء**

الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المفسرين.. فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها..

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾ [هود:١٠٧] فكلُّ ما أراد فِعْلَه واقتضته حكمته فَعَلَه، تبارك وتعالى، لا يَرُدُّه أحدٌ عن مراده.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود:١٠٨]

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ حصلت لهم السعادة، والفلاح، والفوز..

﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ﴾ ثم أكد ذلك بقوله..

﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود:١٠٨] ما أعطاهم الله -من النعيم المقيم، واللذة العالية- فإنه دائم مستمر، غير منقطع بوقت من الأوقات.. نسأل الله الكريم من فضله.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝١٠٩﴾ [هود:١٠٩]

يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ..

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ المشركون.. أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل، فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم، أنهم..

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة، فضلًا عن أن يكون دليلًا؛ لأن أقوال ما عدا الأنبياء يحتج لها لا يحتج بها، خصوصًا أمثال هؤلاء الضالين، الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم، في أصول الدين، فإنَّ أقوالهم وإن اتفقوا عليها فإنها خطأ وضلال..

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝١٠٩﴾ [هود:١٠٩] لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا

مما كتب لهم.. وإن كثر ذلك النصيب أو راق في عينك، فإنه لا يدل علىٰ صلاح حالهم، فإنَّ الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح، إلا من يحب.. والحاصل: أنه **لا يغتر باتفاق الضالين علىٰ قول الضالين** من آبائهم الأقدمين، ولا علىٰ ما خولهم الله، وآتاهم من الدنيا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود:١١٠]

يخبر تعالىٰ أنه آتىٰ موسىٰ الكتاب..

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو التوراة.. الموجب للاتفاق علىٰ أوامره ونواهيه والاجتماع..

﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ ولكن مع هذا فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافًا أضر بعقائدهم وبجامعتهم الدينية..

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخيرهم، وعدم معاجلتهم بالعذاب..

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بإحلال العقوبة بالظالم.. ولكنه تعالىٰ اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلىٰ يوم القيامة..

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود:١١٠] وبقوا في شك منه مريب.

🕮 الفوائد

إذا كانت هذه حالهم مع كتابهم، فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود، أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مريب.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ [هود:١١١]

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لا بد أن الله يقضي بينهم يوم القيامة، بحكمه العدل، فيجازي كلا بما يستحقه..

﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر..

﴿خَبِيرٌ ١١١﴾ [هود:١١١] فلا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم، دقيقها وجليلها.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢﴾ [هود:١١٢]

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم، أمر نبيه محمدا ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أُمِروا..

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة.. ولا يزيغوا عن ذلك يمنة ولا يسرة، ويدوموا علىٰ ذلك..

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة..

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢﴾ [هود:١١٢] لا يخفىٰ عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها.. فيه ترغيب لسلوك الاستقامة، وترهيب من ضدها، ولهذا حذرهم عن الميل إلىٰ من تعدىٰ الاستقامة فقال..

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ [هود:١١٣]

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟﴾ لا تميلوا..

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فإنكم إذا ملتم إليهم ووافقتموهم علىٰ ظلمهم أو رضيتم ما هم عليه من الظلم..

﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ إن فعلتم ذلك..

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئًا، من ثواب الله..

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ [هود:١١٣] لا يُدفع عنكم العذاب إذا مسكم.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية: التحذير من الركون إلىٰ كل ظالم.. والمراد بالركون: الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته علىٰ ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم.

وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلىٰ الظلمة، فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟! نسأل الله العافية من الظلم.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود:١١٤]

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأمر تعالىٰ بإقامة الصلاة كاملة..

﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أوله وآخره.. ويدخل في هذا: صلاة الفجر، وصلاتا الظهر والعصر..

﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ ويدخل في ذلك: صلاة المغرب والعشاء.. **ويتناول ذلك** قيام الليل، فإنها مما تزلف العبد، وتقربه إلىٰ الله تعالىٰ..

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ فهذه الصلوات الخمس، وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات.. وهي: مع أنها حسنات تقرب إلىٰ الله، وتوجب الثواب، فإنها تذهب السيئات وتمحوها.. **والمراد بذلك: الصغائر**، كما قيدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، مثل قوله: «الصلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، ورمضان إلىٰ رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»[1]، بل كما قيدتها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء]..

﴿ذَٰلِكَ﴾ لعل الإشارة لكلِّ ما تقدم، من لزوم الاستقامة علىٰ الصراط المستقيم، وعدم مجاوزته وتعديه، وعدم الركون إلىٰ الذين ظلموا، والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات.. الجميع..

---

(١) أخرجه مسلم [٢٣٣] وغيره من حديث ابي هريرة.

﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود:١١٤] يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم عنه، ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات الدافعة للشرور والسيئات.. ولكن تلك الأمور تحتاج إلىٰ مجاهدة النفس، والصبر عليها، ولهذا قال..

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾ [هود:١١٥]

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ احبس نفسك علىٰ طاعة الله، وعن معصيته، وإلزامها لذلك، واستمر ولا تضجر..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾ [هود:١١٥] بل يتقبل الله عنهم أحسنَ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.. وفي هذا ترغيب عظيم للزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة إلىٰ ثواب الله، كلما وَنَت وفترت.

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾ [هود:١١٦]

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لما ذكر تعالىٰ إهلاك الأمم المكذبة للرسل، وأن أكثرهم منحرفون، حتىٰ أهل الكتب الإلهية، وذلك كله يقضي علىٰ الأديان بالذهاب والاضمحلال.. ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير يدعون إلىٰ الهدىٰ، وينهون عن الفساد والردىٰ، فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جدا..

﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ وغاية الأمر أنهم نجوا بـ: اتباعهم المرسلين.. وقيامهم بما قاموا به من دينهم.. وبكون حجة الله أجراها علىٰ أيديهم، ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيا من حيَّ عن بيِّنة..

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ ولكن ﴿ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ أي: اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف، ولم يبغوا به بدلًا..

﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝١١٦﴾ [هود:١١٦] ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق عليهم العقاب، واستأصَلَهم العذاب.

🕮 الفـوائـد

في هذا حث لهذه الأمة أن يكون فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضلَّ إلىٰ الهدىٰ، ويصبرون منهم علىٰ الأذىٰ، ويبصرونهم من العمىٰ..

وهذه الحالة أعلىٰ حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون إمامًا في الدين، إذا جعل عملَه خالصًا لرب العالمين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧﴾[هود:١١٧]

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ وما كان الله ليهلك أهل القرىٰ..

﴿بِظُلْمٍ﴾ منه لهم..

﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧﴾ [هود:١١٧] والحال أنهم مصلحون.. أي: مقيمون علىٰ الصلاح، مستمرون عليه.. فما كان الله ليهلكهم: إلا إذا ظلموا، وقامت عليهم حجة الله..

ويحتمل أن المعنىٰ: وما كان ربك ليهلك القرىٰ بظلمهم السابق إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ
وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨﴾ [هود:١١٨]

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ﴾ يخبر تعالىٰ أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة علىٰ الدين الإسلامي.. فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء..

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨﴾ [هود:١١٨] ولكنه اقتضت حكمته، أن لا يزالوا مختلفين.. مخالفين للصراط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلىٰ النار، كل يرىٰ الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٩]

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ فهداهم إلىٰ العلم بالحق والعمل به، والاتفاق عليه.. فهؤلاء سبقت لهم سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.. وأما من عداهم فهم مخذولون موكولون إلىٰ أنفسهم..

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾ اقتضت حكمته أنه خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدىٰ الله، والفريق الذين حقت عليهم الضلالة.. ليتبين للعباد، عدله وحكمته.. وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر.. ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء..

﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٩] ولأنه ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ فلا بد أن ييسر للنار أهلًا يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠]

لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء، ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال..

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ أي: قلبك.. ليطمئن ويثبت ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.. فإن النفوس تأنس بالاقتداء، وتنشط علىٰ الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها.. ويتأيد الحق بذكر شواهده، وكثرة من قام به..

﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ السورة..

﴿ٱلْحَقُّ﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس..

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠] يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة،

ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.. وأما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال..

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [هود:١٢١]

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد ما قامت عليهم الآيات..

﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ حالتكم التي أنتم عليها..

﴿إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [هود:١٢١] علىٰ ما كنا عليه.

﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود:١٢٢]

﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ ما يحل بنا..

﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود:١٢٢] ما يحل بكم.. وقد فصل الله بين الفريقين، وأرىٰ عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود:١٢٣]

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما من الخفايا، والأمور الغيبية..

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب..

﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه..

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ وتوكل علىٰ الله في ذلك..

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود:١٢٣] من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرىٰ به قلمه، وسيجري عليه حكمه، وجزاؤه.

تم تفسير سورة (هود)، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ محمد وسلم

تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام
وهي مكية

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ① إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ② نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ③﴾ [يوسف:١-٣]

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ①﴾ يخبر تعالىٰ أن آيات القرآن هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ البيِّن، الواضحة ألفاظه ومعانيه.. المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة..

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ ومن بيانه وإيضاحه: أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة، وأبينها.. وكل هذا الإيضاح والتبيين..

﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ②﴾ لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه.. فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم واتصفت قلوبكم بمعرفتها، أثمر ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه.. و﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: تزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية علىٰ أذهانكم، فتنتقلون من حال إلىٰ أحوال أعلىٰ منها وأكمل..

﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ وذلك لصدقها وسلاسة عبارتها ورونق معانيها.. واعلم أن الله ذَكَرَ أنَّه يقص علىٰ رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرىٰ فيها، فعُلِم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب، فهو مستدرك علىٰ الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلىٰ هذا الحد قبحًا، فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصَّه الله تعالىٰ بشيء كثير.. فعلىٰ العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما

سوىٰ ذلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل..

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وفضلناك به علىٰ سائر الأنبياء، وذاك محض منَّة من الله وإحسان..

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف:١-٣] ما كنت تدري ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ قبل أن يوحي الله إليك، ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾ [يوسف:٤-٥]

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنها أحسن القصص علىٰ الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن..

ذكر قصه يوسف وأبيه وإخوته.. القصة العجيبة الحسنة فقال..

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام..

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من الارتفاع في الدنيا والآخرة.. وهكذا إذا أراد الله أمرًا من الأمور العظام قدَّم بين يديه مقدمة توطئة له، وتسهيلا لأمره، واستعدادًا لما يرد علىٰ العبد من المشاق، لطفًا بعبده، وإحسانا إليه.. فأوَّلها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلىٰ أن يصير إلىٰ حال يخضعون له، ويسجدون له إكرامًا وإعظامًا، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض.. وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعا له فيها.. ولما بان تعبيرها ليوسف..

﴿قَالَ﴾ له أبوه..

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ حسدًا من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم..

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾ [يوسف:٤-٥] لا يفتر عنه ليلًا ولا نهارًا، ولا سرًا ولا جهارًا، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى.. فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾ [يوسف:٦]

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك ويختارك بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة..

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ من تعبير الرؤيا، وبيان ما تئول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية ونحوها..

﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة..

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ حيث أنعم الله عليهما، بنعم عظيمة واسعة، دينية، ودنيوية..

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾ [يوسف:٦] علمه محيط بالأشياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كلًا ما تقتضيه حكمته وحمده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف:٧-٩]

﴿۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ﴾ عبر وأدلة علىٰ كثير من المطالب الحسنة..

﴿لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال.. **فإنَّ السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر**، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا في القصص والبينات..

﴿إِذۡ قَالُواْ﴾ فيما بينهم..

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين، أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة..

﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ أي: جماعة.. فكيف يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة؟!

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ لفي خطأ بيِّن؛ حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده..

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها، فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين..

﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة، فإنَّه قد اشتغل قلبُه بيوسف شغلًا لا يتفرغ لكم..

﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد هذا الصنيع..

﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف:٧-٩] تتوبون إلىٰ الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم.. **فقدَّموا العزم علىٰ التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلًا لفعله**، وإزالةً لشناعته، وتنشيطًا من بعضهم لبعض.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف:١٠]

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده..

﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فإنَّ قتله أعظم إثمًا وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل..

﴿وَأَلْقُوهُ﴾ ولكن توصلوا إلىٰ تبعيده بأن تلقوه..

﴿فِي غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وتتوعدوه علىٰ أنه لا يخبر بشأنكم، بل علىٰ أنه عبد مملوك آبق منكم، لأجل أن..

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ الذين يريدون مكانًا بعيدًا، فيحتفظون فيه..

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف:١٠] .. وهذا القائل أحسنهم رأيا في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية.. **فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل**، فلما اتفقوا علىٰ هذا الرأي.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف:١١-١٤]

﴿قَالُوا۟﴾ قال إخوة يوسف متوصلين إلىٰ مقصدهم لأبيهم..

﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لأي شيء يدخلك الخوف منا علىٰ يوسف، من غير سبب ولا موجب؟!

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ والحال ﴿إِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ أي: مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا.. وهذا يدل علىٰ أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.. فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا..

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ يتنزه في البرية ويستأنس..

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ سنراعيه ونحفظه من أذىٰ يريده..

﴿قَالَ﴾ فأجابهم بقوله..

﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ مجرّد ذهابكم به يحزنني ويشق علي؛ لأنني لا أقدر علىٰ فراقه ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله..

﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ ومانع ثان، وهو أني ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي: في حال غفلتكم عنه، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب..

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة، حريصون على حفظه..

﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف:١١-١٤] لا خير فينا ولا نفع يُرجىٰ منَّا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.. فلما مهَّدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع، سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف:١٥-١٨]

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه..

﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ وعزموا علىٰ أن يجعلوه في غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين علىٰ ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحىٰ إليه..

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ وهو في تلك الحال الحرجة..

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ سيكون منك معاتبة لهم، وإخبار عن أمرهم هذا..

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ بذلك الأمر.. ففيه بشارة له بـ: أنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته، علىٰ وجه العز والتمكين له في الأرض..

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ ليكون إتيانهم متأخرًا عن عادتهم..

﴿يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ وبكاؤهم دليلًا لهم وقرينة علىٰ صدقهم، فـ..

﴿قَالُوا﴾ متعذرين بعذر كاذب..

﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال..

﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ توفيرًا له وراحة..

﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ في حال غيبتنا عنه في استباقنا..

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف، والرقة الشديدة عليه..

﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ ولكن عدم تصديقك إيانا لا يمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي.. وكل هذا تأكيد لعذرهم..

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ وَمما أكدوا به قولهم، أنهم ﴿ جَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ ﴾ زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب.. فلم يصدقهم أبوهم بذلك، و..

﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ زينت لكم أنفسكم أمرًا قبيحًا في التفريق بيني وبينه؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصَّها عليه ما دلّه على ما قال..

﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبرًا جميلًا سالمًا من السخط والتَّشكِّي إلى الخلق..

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف:١٥-١٨] وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي.. فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦] لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، لأن النبي إذا وَعد وفَّى.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف:١٩-٢٠]

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ مكث يوسف في الجب ما مكث، حتى ﴿ جَآءَتۡ سَيَّارَةٞ ﴾ قافلة تريد مصر..

﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ أي: فرطهم ومقدمهم، الذي يعس لهم المياه، ويسبرها ويستعد

لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك..

﴿فَأَدْلَىٰ﴾ ذلك الوارد..

﴿دَلْوَهُۥ﴾ فتعلق فيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وخرج..

﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ استبشر وقال: هذا غلام نفيس..

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ وكان إخوته قريبًا منه..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾..

﴿وَشَرَوْهُ﴾ فاشتراه السيارة منهم..

﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ قليلٌ جدًا، فَسَّرَه بقوله..

﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾ [يوسف:١٩-٢٠] لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه.. والمعنىٰ في هذا: أن السيارة لما وجدوه عزموا أن يُسِرُّوا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتىٰ جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أَبَقَ منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب.. والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١﴾ [يوسف:٢١]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ لما ذهب به السيارة إلىٰ مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه أُعجب به، ووصىٰ عليه امرأته وقال..

﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم..

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا.. ولعلَّ ذلك أنه لم يكن لهما ولد..

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما يسرنا له أن يشتريه عزيز مصر، ويكرمه هذا الإكرام..

﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق..

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ **إذا بقي لا شغل له ولا همَّ له سوىٰ العلم** صار ذلك من أسباب تعلمه علمًا كثيرًا من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك..

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ **أمرُه تعالىٰ نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب..**

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف:٢١] **فلذلك يجري منهم ويصدر ما يصدر في مغالبة أحكام الله القَدَرِيَّة، وهم أعجز وأضعف من ذلك.**

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ [يوسف:٢٢]

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ **يوسف..**

﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ **كمال قوته المعنوية والحسية، وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة، من النبوة والرسالة..**

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ **جعلناه نبيًا رسولًا وعالمًا ربانيًا..**

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ [يوسف:٢٢] **في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلىٰ عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء علىٰ إحسانهم علمًا نافعًا.. ودل هذا علىٰ: أن يوسف وفَّىٰ مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير، والنبوة.**

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ
قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ
هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ
وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ
مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن
يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ
إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ

قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف:٢٣-٢٩]

هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجرًا..

لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدَّم محبة الله عليها..

وأما محنته بإخوته فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره، **وليس له ملجأ إلا الصبر عليها**، طائعًا أو كارهًا..

وذلك أن يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقي مُكرما في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن..

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر..

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وزادت المصيبة، بأن ﴿غَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وصار المحل خاليًا، وهما آمنان من دخول أحد عليهما،بسبب تغليق الأبواب، وقد دعته إلى نفسها..

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ افعل الأمر المكروه وأقبل إليَّ.. **ومع هذا فهو**: غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عزب، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم.. **فصبر عن معصية الله**، مع وجود الداعي القوي فيه؛ لأنه قد همَّ فيها همًا تركه لله، وقدَّم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه -وهو ما معه من العلم والإيمان الموجب لترك كل ما حرم الله- ما أوجب له البعد والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، و..

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح: **لأنه** مما يسخط الله ويبعد منه..

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ **ولأنه** خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي، فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم..

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ والظالم لا يفلح.. **والحاصل**: أنه جعل الموانع له من هذا الفعل: **تقوىٰ الله، ومراعاة حق سيده** الذي أكرمه، **وصيانة نفسه** عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه..

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ ..

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ **وكذلك** جعل الموانع له من هذا الفعل: **ما منَّ الله عليه من برهان الإيمان** الذي في قلبه يقتضي منه امتثال الأوامر واجتناب الزواجر..

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ والجامع لذلك كله: أن الله صرف عنه السوء والفحشاء..

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ **لأنه من عباده المخلِصين** له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدىٰ عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه..

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ **ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة**، ذهب ليهرب عنها ويبادر إلىٰ الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة..

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ فبادرت إليه، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه..

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ فلما وصلا إلىٰ الباب في تلك الحال، ألفيا سيدها، أي: زوجها لدىٰ الباب، فرأىٰ أمرًا شق عليه، فبادرت إلىٰ الكذب، أن المراودة قد كانت من يوسف، و..

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ولم تقل: (من فعل بأهلك سوءا) تبرئة لها وتبرئة له أيضا من الفعل.. وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة..

﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ أو يعذب عذابًا أليمًا.. فبرأ نفسه مما رمته به، و..

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما.. ولكن الله تعالىٰ **جعل للحق والصدق علامات** وأمارات تدل عليه، **قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها**، فمنَّ الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبيه وصفيه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ فانبعث شاهد من أهل بيتها، يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق، فقال..

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦﴾ لأن ذلك يدل علىٰ أنه هو المقبل عليها، المراود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب..

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧﴾ لأن ذلك يدل علىٰ هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب..

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ عرف بذلك صدق يوسف وبراءته، وأنها هي الكاذبة.. فـ..

﴿قَالَ﴾ لها سيدها..

﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف..

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلبا للستر علىٰ أهله..

﴿وَٱسْتَغْفِرِي﴾ أيتها المرأة..

﴿لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾ [يوسف:٢٣- ٢٩] فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ [يوسف:٣٠]

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة فجعلن يلمنها، ويقلن..

﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هذا أمر مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر،

وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغًا عظيمًا..

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ وصل حبه إلىٰ شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب..

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف:٣٠] حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس.. **وكان هذا القول منهن مكرًا**، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما **أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلىٰ رؤية يوسف** الذي فتنت به امرأة العزيز، لتحنق امرأة العزيز وتريهن إياه ليعذرنها، ولهذا سماه مكرًا.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف:٣١-٣٥]

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن إلىٰ منزلها للضيافة..

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ محلا مهيأ بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرته في تلك الضيافة، طعام يحتاج إلىٰ سكين، إما أترج، أو غيره..

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ليقطعن فيها ذلك الطعام..

﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف..

﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ في حالة جماله وبهائه..

﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ أعظمنه في صدورهن، ورأين منظرا فائقا لم يشاهدن مثله..

﴿وَقَطَّعۡنَ﴾ من الدهش..

﴿أَيۡدِيَهُنَّ﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن..

﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهًا لله..

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾ وذلك أن يوسف أُعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين.. فلما تقرر عندهن **جمال يوسف الظاهر**، وأعجبهن غايةً، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز شيء كثير، أرادت أن تريهن **جماله الباطن** بالعفة التامة فـ..

﴿قَالَتۡ﴾ معلنةً لذلك..

﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ مبينةً لحبه الشديد، غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة..

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ امتنع، وهي مقيمة علىٰ مراودته، لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقًا ومحبةً وشوقًا لوصاله وتوقًا.. ولهذا قالت له بحضرتهن..

﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ لتلجئه بهذا الوعيد إلىٰ حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به علىٰ كيدهن و..

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ وهذا يدل علىٰ أنَّ النسوة جعلن يشرن علىٰ يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكدنه في ذلك.. فاستحب السجن والعذاب الدنيوي علىٰ لذة حاضرة توجب العذاب الشديد..

﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ أَمِل إليهن، فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني السوء..

﴿وَأَكُن﴾ إن صبوت إليهن..

﴿مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ فإنَّ هذا جهل؛ لأنه آثر لذة قليلة منغصة علىٰ لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومن آثر هذا علىٰ هذا، فمَن أجهل منه؟! فإنَّ العلم

والعقل يدعو إلىٰ تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة..

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ حين دعاه..

﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتىٰ آيسها، وصرف اللهُ عنه كيدها..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء الداعي..

﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ بنيَّته الصالحة وبنيَّته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه.. فهذا ما نجىٰ الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة..

﴿ثُمَّ﴾ وأما أسياده: فإنه لما اشتهر الخبر وبان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح..

﴿بَدَا لَهُم﴾ ظهر لهم..

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ الدالة علىٰ براءته..

﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف:٣١-٣٥] لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس.. فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف:٣٦-٣٧]

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ ولما دخل يوسف السجن، كان في جملة من ﴿دَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي: شابان، فرأىٰ كلُّ واحد منهما رؤيا، فقصَّها علىٰ يوسف ليعبرها.. فـ..

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا﴾ وذلك الخبز..

﴿تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ أي: بتفسيره، وما يؤول إليه أمرهما، وقولهما..

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ أي: من أهل الإحسان إلىٰ الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا، كما أحسنت إلىٰ غيرنا، فتوسلا ليوسف بإحسانه.. ف..

﴿قَالَ﴾ لهما مجيبًا لطلبتهما..

﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ أي: فلتطمئن قلوبكما، فإني سأبادر إلىٰ تعبير رؤياكما.. فلا يأتيكما غداؤكما أو عشاؤكما أولَّ ما يجيء إليكما..

﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ ولعل يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قصد أن يدعوهما إلىٰ الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما.. ثم قال..

﴿ذَٰلِكُمَا﴾ التعبير الذي سأعبره لكما..

﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ هذا من علم الله، علمنيه وأحسن إليَّ به، وذلك..

﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلًا، فلا يقال: إن يوسف كان من قبل علىٰ غير ملة إبراهيم..

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف:٣٦-٣٧] ..

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ [يوسف:٣٨-٤٠]

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ ثم فسَّر تلك الملَّة بقوله..

﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما ينبغي ولا يليق بنا..

﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين والعبادة..

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ هذا من أفضل مننه وإحسانه وفضله علينا..

﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وعلىٰ من هداه الله كما هدانا.. فإنه لا أفضل من منة الله علىٰ العباد بالإسلام والدين القويم، فمن قبله وانقاد له فهو حظه، وقد حصل له أكبر النعم وأجل الفضائل..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ فلذلك تأتيهم المنة والإحسان، فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه.. وفي هذا من **الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفىٰ**، فإن الفتيين لمَّا تقرر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال -وأنه محسن معلم- ذكر لهما أنَّ هذه الحالة التي أنا عليها كلها من فضل الله وإحسانه، حيث منَّ عليَّ بترك الشرك وباتباع ملة آبائه، فبهذا وَصَلتُ إلىٰ ما رأيتما، **فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت**.. ثم صرح لهما بالدعوة، فقال..

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ﴾ أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع..

﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أتلك..

﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ الذي له صفات الكمال..

﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء من ذلك..

﴿ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦].. ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه، خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها.. ولهذا قال..

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: كسوتموها أسماء، سميتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء..

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم ينزل الله بها سلطانًا، لم يكن طريق ولا وسيلة ولا دليل لها..

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ﴾ لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهىٰ، ويشرع الشرائع، ويسن الأحكام، وهو الذي أمركم..

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم الموصل إلىٰ كل خير، وما سواه من الأديان فإنها غير مستقيمة، بل معوجة توصل إلىٰ كل شر..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يوسف:٣٨-٤٠] حقائق الأشياء، وإلا فإنَّ الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها.. ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك حصل منهم ما حصل من الشرك.. فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له.. فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة.. ويحتمل أنهما لم يزالا علىٰ شركهما، فقامت عليهما -بذلك- الحجة.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ۝٤١﴾ [يوسف:٤١]

ثم إنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ شرع يعبر رؤياهما، بعد ما وعدهما ذلك، فقال..

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الذي رأىٰ أنه يعصر خمرا، فإنه يخرج من السجن..

﴿فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرًا.. وذلك مستلزم لخروجه من السجن..

﴿وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ﴾ وهو الذي رأىٰ أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه..

﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فإنَّه عبَّر عن الخبز الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في مَحِلٍ تتمكن الطيور من أكله.. ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوله لهما، أنه لا بد من وقوعه فقال..

﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ۝٤١﴾ [يوسف:٤١] أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف:٤٢]

﴿وَقَالَ﴾ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الذي رأىٰ أنه يعصر خمرًا..

﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ اذكر له شأني وقصتي، لعله يرقُّ لي، فيخرجني مما أنا فيه..

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ فأنسىٰ الشيطانُ ذلك الناجي ذكر الله تعالىٰ، وذكرَ ما يقرب إليه.. ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازىٰ بأتم الإحسان.. وذلك ليتم الله أمره وقضاءه..

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف:٤٢] والبضع من الثلاث إلىٰ التسع.. ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين.. ولما أراد الله أن يتم أمره ويأذن بإخراج يوسف من السجن، قدَّر لذلك سببا لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا المَلِك.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف:٤٣]

لما أراد الله تعالىٰ أن يخرج يوسف من السجن، أرىٰ اللهُ الملكَ هذه الرؤيا العجيبة، الذي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها علىٰ يد يوسف، فيظهر من فضله ويَبِينُ من علمه ما يكون له رفعة في الدارين..

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ ومن التقادير المناسبة: أنَّ المَلِكَ الذي ترجعُ إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به، وذلك أنه رأىٰ رؤيا هالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم وقال..

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ سبع من البقرات..

﴿عِجَافٌ﴾ وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن،

يأكلن السبع السمان التي كنَّ نهاية في القوة..

﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾ ورأيت ﴿سَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ﴾ يأكلهن سبع سنبلات ﴿يَابِسَٰتٖ﴾..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد..

﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾[يوسف:٤٣] فتحيَّروا، ولم يعرفوا لها وجهًا.. و..

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف:٤٤-٤٩]

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ أي: أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل.. وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم بما ليس بعذر.. ثم قالوا..

﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإنا لا نعبرها.. **فجمعوا بين الجهل والجزم** بأنها أضغاث أحلام، **والإعجاب بالنفس**، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا﴾ أي: من الفتيين، وهو: الذي رأىٰ أنه يعصر خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه..

﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ وتذكَّر يوسف، وما جرىٰ له في تعبيره لرؤياهما، وما وصَّاه به، وعَلِم أنَّه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين فقال..

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ۝٤٥﴾ إلىٰ يوسف لأسأله عنها.. فأرسلوه، فجاء إليه، **ولم يعنفه يوسفُ علىٰ نسيانه**، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك فقال..

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ كثير الصدق في أقواله وأفعاله..

﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٤٦﴾ فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهمتهم.. فعبَّر يوسف، السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف، والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجدبات.. ولعل وجه ذلك -والله أعلم- أن الخصب والجدب لمَّا كان الحرث مبنيًا عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجدب بالعكس من ذلك، وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقىٰ عليها الحروث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، **عبَّرها بذلك لوجود المناسبة**[1].. **فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه**، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلىٰ سني الجدب فـ..

﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ متتابعات..

﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ﴾ من تلك الزروع..

﴿فَذَرُوهُ﴾ اتركوه..

﴿فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لأنه أبقىٰ له وأبعد من الالتفات إليه..

﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ۝٤٧﴾ دبِّروا أيضا أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلاً؛ ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه..

---

(١) وهذا الكلام من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوحي بأنَّ الله لم يوحِ له بذلك التأويل، وأنَّ هذا كان باجتهاد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهذا ما يتعارض مع صريح الآيات الدالة أنَّه كان وحيًا من الله، وبمثل هذا يجاب عن كلام المصنف أيضًا عند ذكر العام الذي يغاث الناس فيه ويعصرون.. إلا أن يقال: إن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد بذلك تعليم غير النبي يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كيفية تأويل مثل هذه الرؤىٰ بعد انقطاع الوحي.. والله تعالىٰ أعلم.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد تلك السنين السبع المخصبات..

﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ مجدبات جدًا..

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيرًا..

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ تمنعونه من التقديم لهن..

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد السبع الشداد..

﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف:٤٤-٤٩] فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم.. **ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب** مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، **لأنه** فهم من التقدير بالسبع الشداد، أنَّ العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جدًا، وإلا لما كان للتقدير فائدة.. فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

🕮 الفوائد

هذا أيضا من لطف الله بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فإنه لو عبرها ابتداء -قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها- لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتمًا لها غايةً، فعبرها يوسف، وقعت عندهم موقعًا عظيمًا..

وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم، فعلَّمهم أسماء كلِّ شيء، فحصل بذلك زيادة فضله..

وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدا ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها»، فيشفع في جميع الخلق، وينالُ ذلك المقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون..

فسبحان من خفيت ألطافه، ودقَّت في إيصاله البر والإحسان، إلىٰ خواص أصفيائه وأوليائه.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف:٥١-٥٢]

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ لمن عنده..

﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بأن يخرجوه من السجن ويحضروه إليه..

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ فلما جاء يوسفَ الرسولُ وأَمَره بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلىٰ الخروج، حتىٰ تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام.. فـ..

﴿قَالَ﴾ للرسول..

﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني به: الملك..

﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ اسأله ما شأنهن وقصتهن، فإنَّ أمرُهنَّ ظاهرٌ مُتضِح..

﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ فأحضرهن الملك، و..

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ شأنكن..

﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فهل رأيتن منه ما يريب؟ فبرَّأنه و..

﴿قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ لا قليل ولا كثير.. فحينئذ زال السبب الذي تنبني عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، فـ..

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ تمحض وتبين، بعد ما كنا ندخل معه من السوء والتهمة، ما أوجب له السجن..

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ في أقواله وبراءته..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإقرار الذي أقررت، أني راودت يوسف..

﴿لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ **يحتمل:** أن مرادها بذلك زوجها، أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف، أني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر منِّي إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه.. **ويحتمل:** أن المراد بذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾ [يوسف:٥١-٥٢] فإن كل خائن لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولابد أن يتبين أمرُه.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ۝٥٤ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾ [يوسف:٥٣-٥٧]

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت..

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ من المراودة والهمِّ، والحرص الشديد، والكيد في ذلك..

﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان..

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ فنجّاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاصية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده..

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ هو غفور لمن تجرأ علىٰ الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب..

﴿رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة.. **وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف**، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر.. فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة، أرسل إليه الملك..

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خصيصة لي ومقرَّبًا لديَّ، فأتوه به مكرمًا محترمًا..

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده فـ..

﴿قَالَ﴾ له..

﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا﴾ عندنا..

﴿مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤﴾ متمكن، أمين علىٰ الأسرار، فـ..

﴿قَالَ﴾ يوسف طلبًا للمصلحة العامة..

﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ علىٰ خزائن جبايات الأرض وغلالها، وكيلًا حافظًا مدبِّرًا..

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج..

عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات.. وليس ذلك حرصًا من يوسف علىٰ الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه.. فلذلك طلب من الملك أن يجعله علىٰ خزائن الأرض، فجعله الملك علىٰ خزائن الأرض وولاه إياها..

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة..

﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ في عيش رغد، ونعمة واسعة، وجاه عريض..

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له، وليست مقصورة علىٰ نعمة الدنيا..

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ ويوسف عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ من سادات المحسنين، فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ولهذا قال..

﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ من أجر الدنيا..

﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾ [يوسف:٥٣-٥٧] لمن جمع بين التقوىٰ والإيمان.. فبالتقوىٰ تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها.. وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب، بما أمر الله بالتصديق به، وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح، من الواجبات والمستحبات.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣﴾ [يوسف:٥٨-٦٣]

لما تولىٰ يوسف عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ خزائن الأرض، دبَّرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين الخصبة زروعًا هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجَبَا من الأطعمة شيئًا كثيرًا وحفظه، وضبطه ضبطًا تامًا.. فلما دخلت السنون المجدبة، وسرىٰ الجدب حتىٰ وصل إلىٰ فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل المِيرَة إلىٰ مصر..

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ لم يعرفوه..

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه، وهو بنيامين.. فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم..

﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ ثم رغبهم في الإتيان به فقال..

﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾ في الضيافة والإكرام.. ثم رهبهم بعدم الإتيان به، فقال..

﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ۝٦٠﴾ وذلك لعلمه باضطرارهم إلىٰ الإتيان إليه، وأن ذلك يحملهم علىٰ الإتيان به.. فـ..

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ دلَّ هذا علىٰ أن يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان مُولَعًا به، لا يصبر عنه، وكان يتسلىٰ به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلىٰ مراودة في بعثه معهم..

﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١﴾ لِمَا أمرتنا به..

﴿وَقَالَ﴾ يوسف..

﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾ الذين في خدمته..

﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ الثمن الذي اشتروا به من الميرة..

﴿فِي رِحَالِهِمۡ﴾ أي: بضاعتهم..

﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ﴾ إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم..

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٦٢﴾ لأجل التحرج من أخذها علىٰ ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلًا وافيًا، ثم إعادة بضاعتهم إليهم علىٰ وجه لا يحسون بها ولا يشعرون لما يأتي، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن..

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ إن لم ترسل معنا أخانا..

﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾ ليكون ذلك سببًا لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا..

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣﴾ [يوسف:٥٨-٦٣] من أن يعرض له ما يكره.

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ۝٦٥ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ

تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف:٦٤-٦٨]

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالىٰ..

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي.. وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم.. ثم إنهم..

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ﴾ هذا دليل علىٰ أنه قد **كان معلوما عندهم أن يوسف قد ردَّها عليهم بالقصد،** وأنه أراد أن يُملِّكهم إياها.. ف.

﴿قَالُواْ﴾ لأبيهم ترغيبا في إرسال أخيهم معهم ..

﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ﴾ أيُّ شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفَّىٰ لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا علىٰ الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟

﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ﴾ ..

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ إذا ذهبنا بأخينا صار سببًا لكيله لنا، فمِرنا أهلنا، وأتينا لهم، بما هم مضطرون إليه من القوت..

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير..

﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.. ف..

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب..

﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عهدًا ثقيلًا وتحلفون بالله..

﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن يأتيكم أمر لا قِبَل لكم به، ولا تقدرون دفعه..

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ علىٰ ما قال وأراد..

﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفالته..

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ﴾ ثم لمَّا أرسله معهم وصَّاهم، إذا هم قدموا مصر، أن..

﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء رجل واحد، وهذا سبب..

﴿وَمَآ﴾ وإلا فـ ﴿مَآ﴾..

﴿أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فالمقدَّر لا بد أن يكون..

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ القضاء قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع..

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت علىٰ الله، لا علىٰ ما وصيتكم به من السبب..

﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ فإنَّ بالتوكل يحصل كلُّ مطلوب، ويندفع كل مرهوب..

﴿وَلَمَّا﴾ ذهبوا، و..

﴿دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ﴾ ذلك الفعل..

﴿يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره.. وليس هذا قصورا في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه..

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ أي: لَصَاحِبُ عِلمٍ عظيم..

﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف:٦٤-٦٨] عواقبَ الأمور، ودقائقَ الأشياء.. وكذلك أهل العلم منهم، يخفىٰ عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف:٦٩]

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لما دخل إخوة يوسف علىٰ يوسف..

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: شقيقه وهو (بنيامين) الذي أمرهم بالإتيان به، وضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و..

﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ لا تحزن..

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف:٦٩] فإن العاقبة خير لنا.. ثم خبره بما يريد أن يصنع، ويتحيل لبقائه عنده إلىٰ أن ينتهي الأمر.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يوسف:٧٠-٧٨]

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ كال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا..

﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ وهو: الإناء الذي يشرب به، ويكال فيه..

﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ﴾ أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين..

﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ولعلَّ هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال..

﴿قَالُوا﴾ أي: إخوة يوسف..

﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له همٌّ إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه، لتسلم له سرقته، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التي رُمُوا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال..

﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ ولم يقولوا: (ما الذي سرقنا؟) لجزمهم بأنهم براء من السرقة..

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أجرة له على وجدانه..

﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ أي: كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد..

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ بجميع أنواع المعاصي..

﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ فإنَّ السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض.. وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأنَّ هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: (تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق)..

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء هذا الفعل..

﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ بأن كان معكم؟

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ﴾ أي: الموجود في رحله..

﴿جَزَاؤُهُ﴾ بأن يتملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم، أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان مِلكًا لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا..

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ ..

﴿فَبَدَأَ﴾ المفتش..

﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ وذلك لتزول الريبة التي يُظَنُّ أنها فُعِلت بالقصد..

﴿ثُمَّ﴾ فلما لم يجد في أوعيتهم شيئًا ..

﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ ولم يقل (وجدها)، أو (سرقها أخوه) مراعاة للحقيقة الواقعة.. فحينئذ تمَّ ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، علىٰ وجه لا يشعر به إخوته.. قال تعالىٰ..

﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ يسَّرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلىٰ أمر غير مذموم..

﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلىٰ دين الملك لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، ليتم له ما أراد.. قال تعالىٰ..

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلىٰ مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف..

﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ فكل عالم فوقه من هو أعلم منه، حتىٰ ينتهي العلم إلىٰ عالم الغيب والشهادة.. فلما رأىٰ إخوة يوسف ما رأوا..

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريبًا منه..

﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يعنون: يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.. ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأنَّ هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا.. وفي هذا من الغض عليهما ما فيه..

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾ ولهذا: أسرها يوسف في نفسه..

﴿وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ لم يقابلهم علىٰ ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسرَّ الأمر في نفسه.. و..

﴿قَالَ﴾ في نفسه..

﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ حيث ذممتمونا بما أنتم علىٰ أشر منه..

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنَّا براء منها.. ثم سلكوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيهم.. فـ..

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه..

﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾ [يوسف:٧٠-٧٨] فأحسن إلينا وإلىٰ أبينا بذلك.. فـ..

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ [يوسف:٧٩]

﴿قَالَ﴾ يوسف..

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ هذا ظلم منَّا، لو أخذنا البريء بذنب من وجدنا متاعنا عنده.. ولم يقل (من سرق)، كل هذا تحرز من الكذب..

﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إن أخذنا غير من وجد في رحله..

﴿لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ [يوسف:٧٩] حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٨٣﴾ [يوسف:٨٠-٨٣]

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ فلما استيأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم..

﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾ اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، فـ..

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في حفظه، وأنكم تأتون ﴿بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ﴾ [يوسف: ٦٦]..

﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ﴾ فاجتمع عليكم الأمران: تفريطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق.. فليس لي وجه أواجه به أبي..

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها..

﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي..

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٠﴾ .. ثم وصَّاهم بما يقولون لأبيهم، فقال..

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وأُخِذ بسرقته.. ولم يحصل لنا أن نأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك..

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله..

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ۝٨١﴾ لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ..

﴿وَسْـَٔلِ﴾ إن شككت في قولنا..

﴿ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فقد اطلعوا علىٰ ما أخبرناك به..

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢﴾ لم نكذب ولم نغير ولم نبدل، بل هذا الواقع.. فلما رجعوا إلىٰ أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمده، واتهمهم أيضًا في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولىٰ، و..

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ألجأ في ذلك إلىٰ الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوىٰ للخلق، ثم لجأ إلىٰ حصول الفرج لما رأىٰ أن الأمر اشتد، والكربة انتهت فقال..

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ (يوسف) و(بنيامين) و(أخوهم الكبير) الذي أقام في مصر..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلىٰ تفريجه ومنّته، واضطراري إلىٰ إحسانه..

﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٨٣﴾ [يوسف:٨٠-٨٣] الذي جعل لكل شيء قدرًا، ولكل أمر منتهىٰ، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف:٨٤-٨٦]

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ يعقوب عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ..

﴿عَنۡهُمۡ﴾ عن أولاده بعد ما أخبروه هذا الخبر..

﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ واشتد به الأسف والأسىٰ.. أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولىٰ المصيبة الأولىٰ..

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك..

﴿فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ ممتلئ القلب من الحزن الشديد..

﴿قَالُواْ﴾ فقال له أولاده متعجبين من حاله..

﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك..

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ فانيًا لا حراك فيك ولا قدرة علىٰ الكلام..

﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ لا تترك ذكره مع قدرتك علىٰ ذكره أبدًا..

﴿قَالَ﴾ يعقوب..

﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي﴾ ما أبث من الكلام..

﴿وَحُزۡنِيٓ﴾ الذي في قلبي..

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلىٰ غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم..

﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف:٨٤-٨٦] من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف:٨٧-٨٨]

قال يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لبنيه..

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ **احرصوا واجتهدوا علىٰ التفتيش عنهما..**

﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ **فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه..** والإياس: يوجب له التثاقل والتباطؤ.. وأولىٰ ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه..

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ **فإنهم لكفرهم يستبعدون** رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تتشبهوا بالكافرين.. ودل هذا علىٰ: **أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه..** فذهبوا..

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ **علىٰ يوسف..**

﴿قَالُواْ﴾ **متضرعين إليه..**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ **قد اضطررنا نحن وأهلنا..**

﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ **مدفوعة، مرغوب عنها لقلتها، وعدم وقوعها الموقع..**

﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ **مع عدم وفاء العرض..**

﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ **بالزيادة عن الواجب..**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف:٨٧-٨٨] **بثواب الدنيا والآخرة.**

﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ قَالُواْ

تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٨٩-٩٢]

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أما يوسف فظاهر فعلهم فيه.. وأما أخوه فلعله -والله أعلم- قولهم ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]، أو أنَّ الحادث الذي فرَّق بينه وبين أبيه هم السبب فيه، والأصل الموجب له..

﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وهذا نوع **اعتذار لهم بجهلهم**.. أو **توبيخ لهم** إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.. فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف..ف..

﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ﴾ بالإيمان والتقوىٰ والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوىٰ..

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ فعل ما حرم الله..

﴿وَيَصْبِرْ﴾ علىٰ الآلام والمصائب، وعلىٰ الأوامر بامتثالها..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فإنَّ هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا..

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فضَّلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا علىٰ إيصال الأذىٰ إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالىٰ ومكنك مما تريد..

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم علىٰ يوسف.. ف..

﴿قَالَ﴾ لهم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كرمًا وجودًا..

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ لا أثرب عليكم ولا ألومكم.. فسمح لهم سماحًا تامًا، من غير تعيير لهم علىٰ ذكر الذنب السابق..

﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٨٩-٩٢] ودعا لهم بالمغفرة والرحمة.. وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتىٰ إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥﴾ [يوسف:٩٣-٩٥]

قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لإخوته..

﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ لأن كلَّ داء يداوىٰ بضده، فهذا القميص -لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم- أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره.. ولله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك علىٰ هذا الأمر..

﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم.. ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد المعيشة، وضنك الرزق..

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ عن أرض مصر مقبلة إلىٰ أرض فلسطين، شمَّ يعقوب ريح القميص، فـ..

﴿قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾..

﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤﴾ تسخرون مني.. وتزعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور.. لأنه رأىٰ منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول، فوقع ما ظنه بهم فـ..

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥﴾ [يوسف:٩٣-٩٥] لا تزال تائهًا في بحر الحبِّ لا تدري ما تقول.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾ [يوسف:٩٦-٩٨]

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم..

﴿أَلْقَاهُ﴾ أي: القميص..

﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ﴾ رجع على حاله الأولى بصيرًا، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن.. فـ..

﴿قَالَ﴾ لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفندون رأيه ويتعجبون منه، منتصرًا عليهم، متبجحًا بنعمة الله عليه..

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ حيث كنت مترجيًا للقاء يوسف، مترقبًا لزوال الهم والغم والحزن.. فأقروا بذنبهم ونجعوا بذلك، و..

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا..فـ..

﴿قَالَ﴾ مجيبًا لطلبتهم، ومسرعًا لإجابتهم..

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف:٩٦-٩٨] أي: ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته.. وقد قيل: إنه أخَّر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل ليكون أتمَّ للاستغفار، وأقرب للإجابة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠]

﴿فَلَمَّا﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكناها، فلما وصلوا إليه، و..

﴿دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ضمَّهما إليه، واختصَّهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام والتبجيل والإعظام شيئًا عظيمًا..

﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله..

﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ من جميع المكاره والمخاوف.. فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة..

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ علىٰ سرير الملك، ومجلس العزيز..

﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ أي: أبوه، وأمه وإخوته، سجودًا علىٰ وجه التعظيم والتبجيل والإكرام..

﴿وَقَالَ﴾ لما رأىٰ هذه الحال، ورأىٰ سجودهم له..

﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ حين رأي أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت..

﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام..

﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ إحسانًا جسيماً.. ولم يقل: (أحسن بكم)، بل قال ﴿أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ جعل الإحسان عائدًا إليه..

﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب..

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي.. فلم يقل: (جاء بكم من الجوع والنصب).. فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب..

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ فلم يقل: (نزغ الشيطان إخوتي) بل كأنَّ الذنب والجهل صدر من الطرفين.. فالحمد لله الذي أخزىٰ الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة..

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ يوصل برّه وإحسانه إلىٰ العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلىٰ المنازل الرفيعة من أمور يكرهها..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم..

﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠] في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلىٰ أوقاتها المقدرة لها.

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١]

لما أتمَّ اللهُ ليوسف ما أتمَّ من التمكين في الأرض والملك، وأقرَّ عينه بأبويه وإخوته، وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه.. قال مقرًا بنعمة الله شاكرًا لها، داعيًا بالثبات علىٰ الإسلام..

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ وذلك أنه كان علىٰ خزائن الأرض وتدبيرها ووزيرًا كبيرًا للمَلك..

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ﴾ من تأويل أحاديث الكتب المنزلة، وتأويل الرؤيا، وغير ذلك من العلم..

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ ..

﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ أدم عليّ الإسلام، وثبتني عليه حتىٰ توفاني عليه.. ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت..

﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١] من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف:١٠٢]

لمَّا قصَّ اللهُ هذه القصة علىٰ محمد ﷺ قال الله له..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإنباء الذي أخبرناك به..

﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ﴾ الذي لولا إيحاؤنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل..

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ فإنك لم تكن حاضرًا لديهم..

﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ أي: إخوة يوسف..

﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ۝١٠٢﴾ [يوسف:١٠٢] به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه، في حالة لا يطَّلِع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكِّن أحدًا أن يصل إلى علمها، إلا بتعليم الله له إياها.. كما قال تعالى لما قص قصة موسى وما جرى له، ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٤٤﴾ [القصص].. فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله حقًا.

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف:١٠٣]

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ..

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ على إيمانهم..

﴿بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف:١٠٣] فإنَّ مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ولو عدمت الموانع، بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم، ودفع الشر عنهم، من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا.. ولهذا قال..

﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ۝١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ۝١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٠٧﴾ [يوسف:١٠٤-١٠٧]

﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليتركوه..

﴿وَكَأَيِّن﴾ وكم..

﴿مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا﴾ دالة لهم على توحيد الله..

﴿وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ۝١٠٥﴾ ومع هذا إن وجد منهم بعض الإيمان..

﴿وَمَا﴾ فلا..

﴿يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالىٰ، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور..

﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلىٰ هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفجأهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال..

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله..

﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم..

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة..

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٠٧﴾ [يوسف:١٠٤-١٠٧] فإنَّهم قد استوجبوا لذلك، فليتوبوا إلىٰ الله، ويتركوا ما يكون سببا في عقابهم.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠٩﴾ [يوسف:١٠٨-١٠٩]

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ..

﴿قُلْ﴾ للناس..

﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلىٰ الله وإلىٰ دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له..

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أحثُّ الخلق والعباد إلىٰ الوصول إلىٰ ربهم، وأرغِّبهم في ذلك وأرهِّبهم مما يبعدهم عنه.. ومع هذا فأنا..

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ من ديني، أي: علىٰ علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مِريَة..

﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ وكذلك ﴿مَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ يدعو إلىٰ الله كما أدعو علىٰ بصيرة من أمره..

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ عمَّا نُسِب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله..

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصا له الدين.. ثم قال تعالىٰ..

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق، فلأي شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة..

﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ لا من البادية، بل من أهل القرىٰ الذين هم أكمل عقولًا وأصح آراءً، وليتبين أمرهم ويتضح شأنهم..

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إذا لم يصدِّقوا لقولك..

﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ كيف أهلكهم الله بتكذيبهم.. فاحذروا أن تقيموا علىٰ ما أقاموا عليه، فيصيبكم ما أصابهم..

﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم..

﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ الله في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإنَّ نعيم الدنيا منغص منكد، منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل، لا يفنىٰ أبدًا، بل هو علىٰ الدوام في تزايد وتواصل ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٨]..

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف:١٠٨-١٠٩] أفلا تكون لكم عقول تؤثر الذي هو خير علىٰ الأدنىٰ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف:١١٠-١١١]

يخبر تعالىٰ: أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالىٰ

يمهلهم ليرجعوا إلىٰ الحق، ولا يزال الله يمهلهم..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ حتىٰ إنه تصل الحال إلىٰ غاية الشدة منهم علىٰ الرسل.. حتىٰ إن الرسل -علىٰ كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده- ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال..

﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ وهم الرسل وأتباعهم..

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ ولا يرد عذابنا، عمن اجترم، وتجرأ علىٰ الله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾ [الطارق]..

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ قصص الأنبياء والرسل مع قومهم..

﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ **يعتبرون بها:** أهلَ الخير وأهلَ الشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة.. **ويعتبرون بها أيضًا:** ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له..

﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ ما كان هذا القرآن الذي قصَّ اللهُ به عليكم من أنباء الغيب ما قصَّ من الأحاديث المفتراة المختلقة..

﴿وَلَٰكِن﴾ كان..

﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها بالصحة..

﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين..

﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف:١١٠-١١١] فإنهم -بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره- يحصل لهم الهدىٰ، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة.

فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣] وقال ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ ﴾ [يوسف] وقال في آخرها ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١] غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد.. فمن ذلك:

١- أن هذه القصة **من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلىٰ حال**.. ومن محنة إلىٰ محنة، ومن محنة إلىٰ منحة ومنَّة، ومن ذُلٍّ إلىٰ عز، ومن رقٍّ إلىٰ مُلك، ومن فُرقة وشتات إلىٰ اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلىٰ سرور، ومن رخاء إلىٰ جدب، ومن جدب إلىٰ رخاء، ومن ضيق إلىٰ سَعة، ومن إنكار إلىٰ إقرار.. فتبارك من قصها فأحسنها، ووضحها وبيَّنها.

٢- ومنها: أن فيها أصلا لتعبير الرؤيا.

٣- وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده.

٤- وإن أغلب ما تُبنىٰ عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة، فإنَّ رؤيا يوسف التي رأىٰ أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا له ساجدين..

• **وجه المناسبة فيها**: أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها، وبها منافعها، **فكذلك الأنبياء والعلماء**، زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدىٰ في الظلمات كما يهتدىٰ بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع.. فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورًا وجُرمًا، لما هو فرع عنه.. فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته..

ومن المناسبة: أن الشمس لفظ مؤنث فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات فكانت لأبيه وإخوته..

• **ومن المناسبة**: أن الساجد معظِّم محتَرِم للمسجود له، والمسجود له معظَّم محترَم.. فلذلك دل ذلك علىٰ أن يوسف يكون معظمًا محترمًا عند أبويه وإخوته.. ومن لازم ذلك أن يكون مجتبىٰ مفضلا في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٦]..

ومن المناسبة: في رؤيا الفتيَين، أنه أوَّل رؤيا الذي رأىٰ أنه يعصر خمرًا أن الذي يَعصِر في العادة يكون خادمًا لغيره، والعصر يُقصد لغيره، فلذلك أوَّله بما يَؤولُ إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.. وأوَّل الذي رأىٰ أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سيبرز للطيور بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأىٰ من حاله أنه سيُقتل ويُصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل..

● وأوَّل رؤيا الملك للبقرات والسنبلات بالسنين المخصبة والسنين المجدبة، **ووجه المناسبة:** أن الملك، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه.. وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقىٰ عليها الماء، وإذا أخصبت السنة سمنت، وإذا أجدبت صارت عجافًا، وكذلك السنابل في الخصب، تكثر وتخضر، وفي الجدب تقل وتيبس وهي أفضل غلال الأرض.

٥- ومنها: ما فيها من الأدلة علىٰ **صحة نبوة محمد ﷺ**، حيث قصَّ علىٰ قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدًا.. يراه قومه بين أظهرهم صباحًا ومساءً، وهو أُمِّيٌّ لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

٦- ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشىٰ مضرته، لقول يعقوب ليوسف ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يوسف: ٥]..

٧- ومنها: أنه **يجوز ذكر الإنسان بما يكره علىٰ وجه النصيحة** لغيره لقوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾.

٨- ومنها: **أن نعمة الله علىٰ العبد نعمة علىٰ من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه**، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ [يوسف: ٦] ولما تمت النعمة علىٰ يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في

الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

٩- ومنها: أن **العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه،** حتىٰ في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، **وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر،** وتفسد الأحوال.. ولهذا، لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره علىٰ إخوته، جرىٰ منهم ما جرىٰ علىٰ أنفسهم، وعلىٰ أبيهم وأخيهم.

١٠- ومنها: **الحذر من شؤم الذنوب،** وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم.. فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا علىٰ أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلىٰ أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب، والافتراء، ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

١١- ومنها: **أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإنَّ** أولاد يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جرىٰ منهم ما جرىٰ في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهىٰ أمرهم إلىٰ التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين.. ولهذا -في أصح الأقوال- **أنهم كانوا أنبياء،** لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم.. **ومما يدل علىٰ ذلك:** أن في رؤيا يوسف أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، **فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة.**

١٢- ومنها: **ما منَّ الله به علىٰ يوسف** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلىٰ الله وإلىٰ دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفوا بادرهم به، وتمم ذلك بأن لا يثرب عليهم ولا يعيرهم به.. ثم برُّه العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

١٣- ومنها: أن **بعض الشر أهون من بعض،** وارتكاب أخف الضررين أولىٰ من ارتكاب أعظمهما.. فإن إخوة يوسف، لما اتفقوا علىٰ قتل يوسف أو إلقائه أرضا، وقال

قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

١٤- ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال، **ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء**، أو خدمة أو انتفاع، أو استعمال.. فإن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ باعه إخوته بيعًا حرامًا لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلامًا رقيقًا، وسماه الله شراء، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

١٥- ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، **والحذر أيضا من المحبة التي يخشى ضررها**.. فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحّدها بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

١٦- ومنها: أن الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله مما يقربه إلى الله زلفى.. لأن الهمّ داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات]، «ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله»(1)، وإنما الهمُّ الذي يلام عليه العبد الهمُّ الذي يساكنه، ويصير عزمًا، ربما اقترن به الفعل.

١٧- ومنها: أن من دخل الإيمانُ قلبَه، وكان مخلصًا لله في جميع أموره فإنَّ الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي، ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف]، على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنَّه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

---

(١) اخرجه البخاري [٦٦٠]، ومسلم [١٠٣١] وغيرهما.

١٨- ومنها: **أنه ينبغي للعبد إذا رأىٰ محلًا فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه**، ليتمكن من التخلص من المعصية.. **لأن يوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ -لما راودته التي هو في بيتها- فر هاربا، يطلب الباب ليتخلص من شرها.

١٩- ومنها: **أن القرائن يُعمل بها عند الاشتباه**، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بيِّنة.. وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة.. والعمل بالقافة في الأشباه والأثر من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقدِّه من دبره علىٰ صدق يوسف وكذبها.. **ومما يدل علىٰ هذه القاعدة** أنه استدل بوجود الصُّواع في رحل أخيه علىٰ الحكم عليه بالسرقة، من غير بيِّنة شهادة ولا إقرار.. فعلىٰ هذا إذا وجد المسروق في يد السارق خصوصًا إذا كان معروفًا بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، **وهذا أبلغ من الشهادة**.. وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد حاملًا، فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه.. ولهذا **سمىٰ الله هذا الحاكم شاهدًا** فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦].

٢٠- ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر **والباطن**.. فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لمنها علىٰ ذلك أن قطعن أيديهن وقلن ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف].. **وأما جماله الباطن**: فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وقالت بعد ذلك: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ [يوسف]، وقالت النسوة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

٢١- ومنها: أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اختار السجن علىٰ المعصية، فهكذا **ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين -إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية- أن يختار العقوبة الدنيوية علىٰ مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة**، ولهذا من علامات الإيمان، «أن يكره

العبد أن يعود في الكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقىٰ في النار»[(١)].

٢٢- ومنها: أنه ينبغي للعبد أن **يلتجئ إلىٰ الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته**، لقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف].

٢٣- ومنها: أن **العلم والعقل** يدعوان صاحبهما إلىٰ الخير، وينهيانه عن الشر.. وأن الجهل يدعو صاحبه إلىٰ موافقة هوىٰ النفس، وإن كان معصية ضارًا لصاحبه.

٢٤- ومنها: أنه كما علىٰ العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه **عبودية له في الشدة**.. فـ (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يزل يدعو إلىٰ الله، فلما دخل السجن استمر علىٰ ذلك، ودعا الفتيين إلىٰ التوحيد، ونهاهما عن الشرك.. ومن فطنته عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لما رأىٰ فيهما قابلية لدعوته حيث ظنا فيه الظن الحسن وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف] وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرآهما متشوفين لتعبيرها عنده، رأىٰ ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلىٰ الله تعالىٰ قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبيَّن لهما أولًا أن الذي أوصله إلىٰ الحال التي رآياه فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، **وهذا دعاء لهما بالحال.. ثم دعاهما بالمقال**، وبيَّن فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

٢٥- ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم.. وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله.. فإنَّ هذا علامة علىٰ نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه.. فإن يوسف -لما سأله الفتيان عن الرؤيا- قدَّم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلىٰ الله وحده لا شريك له.

٢٦- ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة علىٰ تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوىٰ للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرىٰ العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض.. ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من

(١) أخرجه البخاري [١٦]، ومسلم [٤٣] وغيرهما من حديث أنس.

الفتيين: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

٢٧- ومنها: أنه ينبغي ويتأكد **علىٰ المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه**.. وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع.. **وأن لا يمتنع من التعليم أو لا ينصح فيه إذا لم يفعل السائل ما كلَّفه به المعلم**.. فإنَّ يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قد قال، ووصَّىٰ أحدَ الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلىٰ سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتىٰ، وجاءه سائلًا مستفتيًا عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جوابا تاما من كل وجه.

٢٨- ومنها: أنه ينبغي **للمسئول أن يدل السائل علىٰ أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلىٰ الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه**، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده.. فإن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يقتصر علىٰ تعبير رؤيا الملك، بل دلهم -مع ذلك- علىٰ ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

٢٩- ومنها: أنه **لا يلام الإنسان علىٰ السعي في دفع التهمة** عن نفسه، وطلب البراءة لها، **بل يحمد علىٰ ذلك**.. كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتىٰ تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

٣٠- ومنها: **فضيلة العلم**، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية، **وأنه أفضل من الصورة الظاهرة**، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف.. **فإن يوسف -بسبب جماله- حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض**، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

٣١- ومنها: أن **علم التعبير من العلوم الشرعية**، وأنه يثاب الإنسان علىٰ تعلمه وتعليمه.. وأن **تعبير المَرائي داخل في الفتوىٰ**، لقوله للفتيين: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١﴾ [يوسف]، وقال الملك: ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ [يوسف: ٤٣]، وقال الفتىٰ ليوسف: ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٤٦﴾ [يوسف].. **فلا يجوز الإقدام علىٰ تعبير الرؤيا من غير علم**.

٣٢- ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب.. لقول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف].

٣٣- وكذلك **لا تذم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه** من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره.. وإنما الذي يذم إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجودًا غيره مثله، أو أعلىٰ منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله.. فبهذه الأمور ينهىٰ عن طلبها، والتعرض لها.

٣٤- ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجود علىٰ عبده بخير الدنيا والآخرة.

٣٥- وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوىٰ، وأنه خير من ثواب الدنيا ومُلكِها.

٣٦- وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه ويشوِّقها لثواب الله، ولا يَدَعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف].

٣٧- ومنها: أن **جباية الأرزاق -إذا أريد بها التوسعة علىٰ الناس من غير ضرر يلحقهم- لا بأس بها**.. لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدبة.

٣٨- وأن هذا غير مناقض للتوكل علىٰ الله، **بل يتوكل العبد علىٰ الله، ويعمل بالأسباب** التي تنفعه في دينه ودنياه.

٣٩- ومنها: **حسن تدبير يوسف** لما تولىٰ خزائن الأرض، حتىٰ كثرت عندهم الغلات جدًا، حتىٰ صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفورها فيها، وحتىٰ إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كلُّ قادمٍ علىٰ كيل بعير وحمله.

٤٠- ومنها: مشروعية **الضيافة**، وأنها **من سنن المرسلين**، وإكرام الضيف.. لقول يوسف لإخوته ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف].

٤١- ومنها: **أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم.**. فإن يعقوب قال لأولاده بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتىٰ عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه وزعموا أن الذئب أكله ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف: ٨٣]، وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف: ٦٤]، ثم لمَّا احتبسه يوسف عنده وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، **فهم في الأخيرة -وإن لم يكونوا مفرِّطين- فقد جرىٰ منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال،** من غير إثم عليه ولا حرج.

٤٢- ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، **فإن الأسباب أيضًا من القضاء والقدر**.. لأمر يعقوب حيث قال لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ [يوسف: ٦٧].

٤٣- ومنها: جواز **استعمال المكايد التي يتوصل بها إلىٰ الحقوق**.. وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلىٰ مقاصدها مما يحمد عليه العبد.. وإنما الممنوع التحيل علىٰ إسقاط واجب، أو فعل محرم.

٤٤- ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يحب أن يطَّلع عليه، أن **يستعمل المعاريض القولية والفعلية** المانعة له من الكذب.. كما فعل يوسف حيث ألقىٰ الصُّواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهمًا أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ [يوسف: ٧٩]، ولم يقل (من سرق متاعنا)، وكذلك لم يقل: (إنا وجدنا متاعنا عنده)، بل أتىٰ بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقىٰ عند أخيه.. وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبينت الحال.

٤٥- ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتَحقَّقه، إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ [يوسف: ٨١].

٤٦- ومنها: **هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب** عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث قضىٰ بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر علىٰ فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشدَّ الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمس عشرة سنة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف].. ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، **قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفىٰ بما وعد به**.. ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، فإن الشكوىٰ إلىٰ الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه، الشكوىٰ إلىٰ المخلوقين.

٤٧- ومنها: **أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا**.. فإنه لما طال الحزن علىٰ يعقوب واشتد به إلىٰ أنهىٰ ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج.. فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطرارًا، فتمَّ بذلك الأجر وحصل السرور.. وعُلِم من ذلك: **أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد -بذلك- إيمانهم** ويقينهم وعرفانهم.

٤٨- ومنها: جواز **إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، علىٰ غير وجه التسخط**.. لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨] ولم ينكر عليهم يوسف.

٤٩- ومنها: فضيلة التقوىٰ والصبر، وأنَّ **كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوىٰ والصبر**، وأن عاقبةَ أهلهما أحسن العواقب؛ لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف].

٥٠- ومنها: **أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة** وفقر وسوء حال **أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكرًا حاله الأولىٰ**، ليُحدِث لذلك شكرًا كلما ذكرها.. لقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

٥١- ومنها: **لطف الله العظيم بيوسف**.. حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلىٰ أعلىٰ الغايات ورفيع الدرجات.

٥٢- ومنها: **أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلىٰ الله دائمًا في تثبيت إيمانه**، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة.. لقول يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف].

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك.

فنسأله تعالىٰ علما نافعا وعملا متقبلا إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة (يوسف) وأبيه وإخوته عليهم الصلاة والسلام

والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الرعد، وهي مدنية، وقيل: مكية

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ [الرعد:١]

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ يخبر تعالىٰ أن هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة علىٰ كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه..

﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ وأن الذي أنزل إلىٰ الرسول من ربه هو الحق المبين.. لأن أخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل، مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة.. فمن أقبل عليه وعلىٰ علمه كان من أهل العلم بالحق، الذي يوجب لهم علمهم العمل بما أحب الله..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ [الرعد:١] بهذا القرآن، إما جهلًا وإعراضًا عنه وعدم اهتمامٍ به، وإمَّا عنادًا وظلمًا.. **فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به**، لعدم السبب الموجب للانتفاع.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد:٢-٤]

يخبر تعالىٰ عن انفراده بالخلق والتدبير، والعظمة والسلطان الدال علىٰ أنه وحده المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له فقال..

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ علىٰ عظمها واتساعها بقدرته العظيمة..

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ ليس لها عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد لرأيتموها..

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما خلق السماوات والأرض..

﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العظيم الذي هو أعلىٰ المخلوقات، استواءً يليق بجلاله ويناسب كماله..

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم..

﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر..

﴿يَجْرِى﴾ بتدبير العزيز العليم..

﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بسير منتظم، لا يفتران ولا ينيان.. حتىٰ يجيء الأجل المسمىٰ وهو طي الله هذا العالم، ونقلهم إلىٰ الدار الآخرة التي هي دار القرار، فعند ذلك يطوي الله السماوات ويبدلها، ويغير الأرض ويبدلها.. فتكور الشمس والقمر، ويجمع بينهما فيلقيان في النار، ليرىٰ من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة، فيتحسر بذلك أشد الحسرة وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين..

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر، أي: قد استوىٰ الله العظيم علىٰ سرير الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقيل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه وجرىٰ بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم علىٰ تدبيره..

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ وينزل الكتب الإلهية علىٰ رسله، ويبيِّن ما يحتاج إليه العبادُ من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصِّلُها غايةَ التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها..

﴿لَعَلَّكُم﴾ بسبب ما أُخرج لكم من الآيات الأفقية والآيات القرآنية..

﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ فإنَّ كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها من أسباب حصول اليقين في

جميع الأمور الإلهية، خصوصًا في العقائد الكبار، كالبعث والنشور والإخراج من القبور.. وأيضا فقد عُلِم أن الله تعالىٰ حكيم، لا يخلق الخلق سدىٰ، ولا يتركهم عبثًا، فكما أنه أرسل رسله وأنزل كتبه لأمر العباد ونهيهم، فلا بد أن ينقلهم إلىٰ دار يحل فيها جزاؤه، فيجازي المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي المسيئين بإساءتهم..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ خلقها للعباد، ووسعها وبارك فيها ومهدها للعباد، وأودع فيها من مصالحهم ما أودع..

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالًا عظامًا، لئلا تميد بالخلق، فإنَّه لولا الجبال لمادت بأهلها، لأنَّها علىٰ تيَّار ماء، لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرواسي، التي جعلها الله أوتادًا لها..

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ وَجعل فيها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ تسقي الآدميين وبهائمهم وحروثهم، فأخرج بها من الأشجار والزروع والثمار خيرًا كثيرًا ولهذا قال..

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ صنفين، مما يحتاج إليه العباد..

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ فتظلم الآفاق، فيسكن كل حيوان إلىٰ مأواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قضوا مأربهم من النوم غشي النهارُ الليلَ فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص]..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ علىٰ المطالب الإلهية..

﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ فيها، وينظرون فيها نظر اعتبار، دالة علىٰ أن الذي خلقها ودبَّرها وصرفها، هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وأنه عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، وأنه القادر علىٰ كل شيء، الحكيم في كل شيء، المحمود علىٰ ما خَلَقه وأَمَر بِه تبارك وتعالىٰ..

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومن الآيات علىٰ كمال قدرته وبديع صنعته أن جعل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾..

﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ﴾ فيها أنواع الأشجار..

﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ﴾ وغير ذلك..

﴿وَنَخِيلٌ﴾ والنخيل التي بعضها..

﴿صِنْوَانٌ﴾ عدة أشجار في أصل واحد..

﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بأن كان كل شجرة على حدتها، والجميع..

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ وأرضه واحدة..

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ لونًا وطعمًا ونفعًا ولذة.. فهذه أرض طيبة تنبت الكلأ والعشب الكثير والأشجار والزروع.. وهذه أرض تلاصقها لا تنبت كلأً ولا تمسك ماء.. وهذه تمسك الماء ولا تنبت الكلأ.. وهذه تنبت الزرع والأشجار ولا تنبت الكلأ.. وهذه الثمرة حلوة.. وهذه مرة.. وهذه بين ذلك.. فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟!

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:٢-٤] لقوم لهم عقول تهديهم إلىٰ ما ينفعهم، وتقودهم إلىٰ ما يرشدهم.. ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه.. وأما أهل الإعراض وأهل البَلادة فهم في ظلماتهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، لا يهتدون إلىٰ ربهم سبيلًا ولا يعون له قيلًا.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد:٥]

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ﴾ **يحتمل**: أن معنىٰ قوله ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من عظمة الله تعالىٰ وكثرة أدلة توحيده..

﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ فإنَّ العجب -مع هذا- إنكار المكذبين وتكذيبهم بالبعث، وقولهم..

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم، أنهم بعد ما كانوا ترابا أن الله يعيدهم.. فإنهم -من جهلهم- قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق، فلما رأوا هذا ممتنعًا في قدرة المخلوق ظنوا أنه ممتنع علىٰ قدرة الخالق، ونسوا أن الله

خلقهم أوَّل مرة ولم يكونوا شيئًا.. **ويحتمل أن معناه**: وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم للبعث، فإنَّ ذلك من العجائب، فإن..

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الذي توضح له الآيات، ويرىٰ من الأدلة القاطعة علىٰ البعث ما لا يقبل الشك والريب، ثم ينكر ذلك فإن قوله من العجائب.. ولكن ذلك لا يستغرب علىٰ..

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ وجحدوا وحدانيته، وهي أظهر الأشياء وأجلاها..

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَـٰلُ﴾ المانعة لهم من الهدىٰ..

﴿فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ حيث دُعوا إلىٰ الإيمان فلم يؤمنوا، وعُرِض عليهم الهُدىٰ فلم يهتدوا، فقلبت قلوبهم وأفئدتهم، عقوبة علىٰ أنهم لم يؤمنوا به أول مرة..

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ [الرعد:٥] لا يخرجون منها أبدًا.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٦﴾ [الرعد:٦]

يخبر تعالىٰ عن جهل المكذبين لرسوله المشركين به، الذين وعظوا فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها، بل جاهروا بالإنكار، واستدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم، وعدم معاجلتهم بذنوبهم أنهم علىٰ حق..

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢ ﴾ [الأنفال]..

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ ﴾ والحال أنه ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ ﴾ أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في حالهم ويتركون جهلهم..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ لا يزال خيره إليهم وإحسانه وبره وعفوه نازلا إلىٰ العباد، وهم لا يزال شرهم وعصيانهم إليه صاعدًا.. يعصونه فيدعوهم إلىٰ بابه، ويجرمون فلا يحرمهم خيره وإحسانه.. فإن تابوا إليه فهو حبيبهم لأنه يحب التوابين ويحب المتطهرين.. وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بالمصائب، ليطهرهم من المعايب

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر]..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد:٦] علىٰ من لم يزل مصرًا علىٰ الذنوب، قد أبىٰ التوبة والاستغفار والالتجاء إلىٰ العزيز الغفار.. فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم، فإنَّ أخذه أليم شديد.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد:٧]

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ويقترح الكفار عليك من الآيات، التي يُعَيِّنُونَها ويقولون..

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ ويجعلون هذا القول منهم عذرًا لهم في عدم الإجابة إلىٰ الرسول..

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ والحال أنه منذرٌ ليس له من الأمر شيء، والله هو الذي ينزل الآيات.. وقد أيَّده بالأدلة البينات التي لا تخفىٰ علىٰ أولي الألباب، وبها يهتدي من قصده الحق.. وأما الكافر الذي -من ظلمه وجهله- يقترح علىٰ الله الآيات، فهذا اقتراحٌ منه باطل وكذب وافتراء.. فإنه لو جاءته أيُّ آية كانت لم يؤمن ولم ينقد؛ لأنه لم يمتنع من الإيمان لعدم ما يدله علىٰ صحته، وإنما ذلك لهوىٰ نفسه واتباع شهوته..

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد:٧] داع يدعوهم إلىٰ الهدىٰ من الرسل وأتباعهم، ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدل علىٰ صحة ما معهم من الهدىٰ.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد:٨-١٠]

يخبر تعالىٰ بعموم علمه وسعة اطلاعه وإحاطته بكل شيء فقال..

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من بني آدم وغيرهم..

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ تُنقِص مما فيها، إما أن يهلك الحَملُ أو يتضاءلُ أو يضمحل..

﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها..

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه، فإنه..

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته..

﴿ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ علىٰ جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره..

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ في علمه وسمعه وبصره..

﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ مستقر بمكان خفي فيه..

﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد:٨-١٠] داخل سربه في النهار، والسرب هو ما يختفي فيه الإنسان، إما جوف بيته أو غار أو مغارة أو نحو ذلك.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:١١]

﴿لَهُۥ﴾ للإنسان..

﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار..

﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾ يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائمًا، فكما أنَّ علم الله محيط به، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة علىٰ العباد، بحيث لا تخفىٰ أحوالهم ولا أعمالهم، ولا ينسىٰ منها شيء..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والإحسان ورغد العيش..

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلىٰ الكفر ومن الطاعة إلىٰ المعصية، أو من شكر نعم الله إلىٰ البطر بها.. فيسلبهم الله عند ذلك إياها.. وكذلك إذا غيَّر العبادُ ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلىٰ طاعة الله، غيَّر الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلىٰ الخير والسرور والغبطة والرحمة..

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ عذابًا وشدة وأمرًا يكرهونه، فإنَّ إرادته لا بد أن تنفذ فيهم..

﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ فإنه ﴿لَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ ولا أحد يمنعهم منه..

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ [الرعد:١١] يتولىٰ أمورهم فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه.. فليحذروا من الإقامة علىٰ ما يكره الله، خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾ [الرعد:١٢-١٣]

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ يُخاف منه الصواعقُ والهدمُ وأنواعُ الضرر، علىٰ بعض الثمار ونحوها، ويُطمَع في خيره ونفعه..

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾ بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد..

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب المزعج للعباد، فهو خاضع لربه مسبح بحمده..

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ وتسبح ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ خُشَّعًا لربهم، خائفين من سطوته..

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ وهي هذه النار التي تخرج من السحاب..

﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ من عباده بحسب ما شاءه وأراده..

﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ﴾ ..

﴿فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾ [الرعد:١٢-١٣] وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ أي: شديد الحول والقوة فلا يريد شيئًا إلا فعله، ولا يتعاصىٰ عليه شيء ولا يفوته هارب.. فإذا كان هو وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبر الأمور وتخضع له المخلوقات العظام التي يُخاف منها وتزعج العباد، وهو شديد القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.. ولهذا قال..

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾ [الرعد:١٤]

﴿لَهُۥ﴾ لله وحده..

﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالىٰ، أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف، والرجاء، والحب، والرغبة، والرهبة، والإنابة؛ لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة..

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله..

﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم﴾ لمن يدعوها ويعبدها..

﴿بِشَيۡءٍ﴾ قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة..

﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ الذي لا تناله كفاه لبعده..

﴿لِيَبۡلُغَ﴾ ببسط كفيه إلىٰ الماء..

﴿فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ فإنه عطشان ومن شدة عطشه يتناول بيده، ويبسطها إلىٰ الماء الممتنع وصولها إليه، فلا يصل إليه.. كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة؛ لأنهم فقراء كما أن من دعوهم فقراء، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما لهم فيهما من شرك، وما له منهم من ظهير..

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾ [الرعد:١٤] لبطلان ما يدعون من دون الله.. فبطلت عباداتهم ودعاؤهم؛ لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها.. ولما كان الله تعالىٰ هو الملك الحق المبين، كانت عبادته حقًّا متصلة النفع لصاحبها في الدنيا والآخرة.

🕮 الفوائد

تشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلىٰ الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أن هذا محال، فالمشبه به محال، والتعليق علىٰ المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد:١٥]

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له..

﴿طَوْعًا﴾ فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختيارا كالمؤمنين..

﴿وَكَرْهًا﴾ والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك..

﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد:١٥] ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره.. وسجود كل شيء بحسب حاله كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].. فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعا وكرها كان هو الإله حقًا، المعبود المحمود حقًا وإلهية غيره باطلة، ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله..

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد:١٦]

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين به أوثانًا وأندادًا يحبونها كما يحبون الله، ويبذلون لها أنواع التقربات والعبادات..

﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ﴾ ..

﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أفتاهت عقولكم حتىٰ اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة وليسوا بأهل لذلك؟! فإنهم..

﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ﴾ وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير والنفع والضر؟!

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ فما تستوي عبادة الله وحده، وعبادة المشركين به، كما لا يستوي الأعمىٰ والبصير، وكما لا تستوي الظلمات والنور..

﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فإن كان عندهم شك واشتباه، وجعلوا له شركاء زعموا أنهم خلقوا كخلقه وفعلوا كفعله، فأزل عنهم هذا الاشتباه واللبس بالبرهان الدال علىٰ توحد الإله بالوحدانية، فـ..

﴿قُلِ﴾ لهم..

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فإنَّه من المحال أن يخلق شيءٌ من الأشياء نفسه.. ومن المحال أيضا أن يوجد من دون خالق..

﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرعد:١٦] فتعين أن لها إلها خالقًا لا شريك له في خلقه؛ لأنه الواحد القهار، فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده.. فالمخلوقات وكل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلىٰ منه، حتىٰ ينتهي القهر للواحد القهار.. **فالقهر والتوحيد** متلازمان متعينان لله وحده، فتبيَّن بالدليل العقلي القاهر أن ما يدعىٰ من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات، وبذلك كانت عبادته باطلة.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرعد:١٧]

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ شبّه تعالىٰ الهدىٰ الذي أنزله علىٰ رسوله لحياة القلوب والأرواح، بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح.. وشبّه ما في الهدىٰ من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد، بما في المطر من النفع العام الضروري.. وشبّه القلوب الحاملة للهدىٰ وتفاوتها، بالأودية التي تسيل فيها السيول، فواد كبير يسع ماء كثيرًا، كقلب كبير يسع علمًا كثيرًا، ووادٍ صغير يأخذ ماء قليلًا كقلب صغير، يسع علمًا قليلًا وهكذا.. وشبه ما يكون في

القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها، بالزبد الذي يعلو الماء ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له حتىٰ تذهب وتضمحل، ويبقىٰ ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة..

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ كذلك الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها ويجاهدها بالبراهين الصادقة والإرادات الجازمة، حتىٰ تذهب وتضمحل ويبقىٰ القلب خالصًا صافيًا، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره، والرغبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء] وقال هنا..

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد:١٧] ليتضح الحق من الباطل والهدىٰ والضلال..

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ
لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد:١٨]

لما بيّن تعالىٰ الحق من الباطل ذكر أن الناس علىٰ قسمين: مستجيب لربه، فذكر ثوابه، وغير مستجيب فذكر عقابه، فقال..

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم، فلهم..

﴿ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ الحالة الحسنة والثواب الحسن.. فلهم من الصفات أجلها.. ومن المناقب أفضلها.. ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر..

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ بعد ما ضرب لهم الأمثال وبيّن لهم الحق، لهم الحالة غير الحسنة، فـ..

﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من ذهب وفضة وغيرها..

﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ﴾ من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم وأنىٰ لهم ذلك؟!

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ، وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده، قد كُتِب ذلك وسُطِّر عليهم وقالوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]..

﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وبعد هذا الحساب السيئ ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الجامعة لكل عذاب، من الجوع الشديد، والعطش الوجيع، والنار الحامية والزقوم والزمهرير، والضريع وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب..

﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد:١٨] المَقرُّ والمسكنُ مسكنهم.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾
الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن
يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ
يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:١٩-٢٤]

يقول تعالى مفرِّقًا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم..

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ ففهم ذلك وعمل به..

﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ لا يعلم الحقَّ ولا يعمل به، فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض، فحقيق بالعبد أن يتذكر ويتفكر أيَّ الفريقين أحسن حالًا وخير مآلًا فيؤثر طريقها، ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كلُّ أحد يتذكر ما ينفعه ويضره..

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ أولو العقول الرزينة، والآراء الكاملة، الذين هم لُبّ العالم، وصفوة بني آدم.. فإن سألت عن وصفهم، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله..

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ **الذي عهده إليهم والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة، فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها، والنصح فيها..**

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ ومن تمام الوفاء بها أنهم ﴿لَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ أي: العهد الذي عاهدوا عليه الله.. **فدخل في ذلك**: جميع المواثيق والعهود والأيمان والنذور، التي يعقدها العباد.. فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم إلا بأدائها كاملة، وعدم نقضها وبخسها..

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله، من الإيمان به وبرسوله، ومحبته ومحبة رسوله، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له، ولطاعة رسوله.. ويصلون آباءهم وأمهاتهم ببرهم بالقول والفعل وعدم عقوقهم.. ويصلون الأقارب والأرحام، بالإحسان إليهم قولًا وفعلًا.. ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والمماليك، بأداء حقهم كاملًا موفرًا من الحقوق الدينية والدنيوية.. والسبب الذي يجعل العبد واصلًا ما أمر الله به أن يوصل، خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال..

﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه..

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ ومن القدوم عليه يومَ الحساب، أن يتجرؤوا علىٰ معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به خوفًا من العقاب ورجاءً للثواب..

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ علىٰ المأمورات بالامتثال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها.. ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر..

﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإنَّ هذا هو الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلبًا لمرضاة ربه، ورجاءً للقرب منه، والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان.. **وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر**، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح علىٰ الحقيقة..

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها ومكملاتها ظاهرًا وباطنًا..

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ **دخل في ذلك**: النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات.. والنفقات المستحبة.. وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلىٰ النفقة، سرًا وعلانيةً..

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ من أساء إليهم بقول أو فعل لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه.. فيعطون من حرمهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلىٰ من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء؟!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة..

﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾ فسرها بقوله..

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إقامة لا يزولون عنها، ولا يبغون عنها حولا.. لأنهم لا يرون فوقها غاية، لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.. ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم أنهم..

﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ من الذكور والإناث..

﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ الزوج أو الزوجة، وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب والأحباب، فإنهم من أزواجهم وذرياتهم..

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ٢٣﴾ يهنئونهم بالسلامة وكرامة الله لهم، ويقولون..

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ حلت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم.. وذلك متضمن لـ: زوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب..

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ صبركم هو الذي أوصلكم إلىٰ هذه المنازل العالية، والجنان الغالية..

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد:١٩-٢٤] فحقيق بمن نصح نفسه وكان لها عنده قيمة أن يجاهدها.. لعلها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب، لعلها تحظىٰ بهذه الدار، التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح.. فلمثلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ [الرعد:٢٥]

لما ذَكر حال أهل الجنة، ذَكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به، فقال عنهم..

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقص..

﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، وغلَّظ عليهم..

﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام، ولا أدوا الحقوق..

﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله، وابتغائها عوجًا..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ البعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين..

﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٢٥﴾ [الرعد:٢٥] وهي: الجحيم، بما فيها من العذاب الأليم.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ۝٢٦﴾ [الرعد:٢٦]

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء..

﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ ويقدره ويضيقه على من يشاء..

﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي: الكفار..

﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فرحًا أوجب لهم أن يطمئنوا بها، ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم..

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ۝٢٦﴾ [الرعد:٢٦] شيء حقير، يتمتع به قليلًا ويفارق أهله وأصحابه، ويعقبهم ويلًا طويلًا.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ۝٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد:٢٧-٢٨]

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله يتعنتون على رسول الله، ويقترحون ويقولون..

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا.. فأجابهم الله بقوله..

﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ أي: طَلَب رضوانَه.. فليست الهداية والضلال بأيديهم حتىٰ يجعلوا ذلك متوقفًا علىٰ الآيات.. ومع ذلك فهم كاذبون ﴿۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١﴾ [الأنعام].. ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يُعَيِّنُونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفىٰ ذلك وحصل المقصود، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب.. ثم ذكر تعالىٰ علامة المؤمنين فقال..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها..

﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد:٢٧-٢٨] حقيق بها وحريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوىٰ ذكره، فإنه لا شيء ألذ للقلوب ولا أشهىٰ ولا أحلىٰ من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلىٰ قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له، هذا علىٰ القول بأن ذكر الله ذكر العبد لربه من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.. **وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه** الذي أنزله ذكرىٰ للمؤمنين، فعلىٰ هذا معنىٰ طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل علىٰ الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله، مضمون علىٰ أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء] وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله وتدبره، وتدبر غيره من أنواع العلوم، فإنه يجد بينها وبينه فرقًا عظيمًا.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ [الرعد:٢٩]

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة، **أعمال القلوب** كمحبة الله وخشيته ورجائه، **وأعمال الجوارح** كالصلاة ونحوها..

﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾ [الرعد:٢٩] لهم حالة طيبة ومرجع حسن.. وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة، وأن لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة.. ومن جملة ذلك شجرة (طوبىٰ) التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرعد:٣٠]

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ..

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ إلىٰ قومك تدعوهم إلىٰ الهدىٰ..

﴿فِىٓ أُمَّةٍ﴾ أرسلنا فيهم رسلنا..

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ فلست ببدع من الرسل حتىٰ يستنكروا رسالتك..

﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ولست تقول من تلقاء نفسك، بل تتلو عليهم آيات الله التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب وتزكي النفوس..

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه -التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا وأنزلنا عليك كتابا- بالقبول والشكر بل قابلوها بالإنكار والرد، أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم..

﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا متضمن للتوحيدين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية..

فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي..

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري..

﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرعد:٣٠] أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد:٣١]

يقول تعالىٰ مبينا فضل القرآن الكريم علىٰ سائر الكتب المنزلة..

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ من الكتب الإلهية..

﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن أماكنها..

﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ جنانًا وأنهارًا..

﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ﴾ لكان هذا القرآن..

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟! فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟!

﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ﴾ فليعلموا أنه قادر علىٰ هدايتهم جميعًا، ولكنه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء، ويضل من يشاء..

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ علىٰ كفرهم، لا يعتبرون ولا يتعظون، والله تعالىٰ يوالي عليهم القوارع التي..

﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ تصيبهم في ديارهم أو تحل قريبًا منها، وهم مصرون علىٰ كفرهم..

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ﴾ الذي وعدهم به، لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد:٣١] وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم الله به علىٰ كفرهم وعنادهم وظلمهم.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد:٣٢-٣٤]

يقول تعالىٰ لرسوله مثبتًا له ومسليًا..

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فلست أول رسول كُذب وأُوذي..

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ برسلهم.. أي: أمهلتهم مدة حتىٰ ظنوا أنهم غير معذبين..

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ﴾ بأنواع العذاب..

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ كان عقابًا شديدًا وعذابًا أليمًا، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا، فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك..

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾ بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالىٰ، كمن ليس كذلك؟! ولهذا قال..

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له ولا ند ولا نظير..

﴿قُلْ﴾ لهم إن كانوا صادقين..

﴿سَمُّوهُمْ ۚ﴾ لتعلم حالهم..

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة وهو لا يعلم له شريكًا، عُلِمَ بذلك بطلان دعوىٰ الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يُعَلِّمُ الله أن له شريكا وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون؛ ولهذا قال..

﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ﴾ أي: غاية ما يمكن من دعوىٰ الشريك له تعالىٰ أنه بظاهر أقوالكم.. وأما في الحقيقة: فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق يستحق شيئا من العبادة..

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ ولكن ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ الذي مَكَرُوه، وهو كفرهم وشركهم، وتكذيبهم لآيات الله..

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ عن الطريق المستقيمة الموصلة إلىٰ الله وإلىٰ دار كرامته..

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ لأنه ليس لأحد من الأمر شيء..

﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه..

﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾ [الرعد:٣٢-٣٤] يقيهم من عذاب الله، فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾ [الرعد:٣٥]

﴿۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها..

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقىٰ تلك البساتين والأشجار فتحمل من جميع أنواع الثمار..

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ دائمٌ أيضًا..

﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ﴾ عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون..

﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾ [الرعد:٣٥] فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرعد:٣٦]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مننًا عليهم به وبمعرفته..

﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ فيؤمنون به ويصدقونه، ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض، وتصديق بعضها بعضا وهذه حال من آمن من أهل الكتابين..

﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق..

﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدقه، ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ [الزمر: ٤١] إنما أنت يا محمد منذر تدعوا إلىٰ الله..

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ أي: بإخلاص الدين لله وحده..

﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرعد:٣٦] أي: مرجعي الذي أرجع به إليه فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلىٰ دينه والقيام بما أمرت به.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ [الرعد:٣٧]

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب..

﴿حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ محكمًا متقنًا، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات.. لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون.. ولهذا توعد رسوله -مع أنه معصوم- ليمتن عليه بعصمته ولتكون أمته أسوته في الأحكام فقال..

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم..

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب..

﴿وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ [الرعد:٣٧] يقيك من الأمر المكروه.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد:٣٨-٣٩]

أي: لست أول رسول أرسل إلىٰ الناس حتىٰ يستغربوا رسالتك..

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية، كما كان لإخوانك المرسلين.. فلأي شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك؛ إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم؟ وإن طلبوا منك آية اقترحوها فليس لك من الأمر شيء..

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِءَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه..

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجبًا لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر مع أنه تعالىٰ فعال لما يريد..

﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من الأقدار..

﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء منها.. وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير لأن ذلك محال علىٰ الله، أن يقع في علمه نقص أو خلل ولهذا قال..

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد:٣٨-٣٩] أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.. فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابًا ولمحوها أسبابًا، لا تتعدىٰ تلك الأسباب ما رُسِم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببًا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببًا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد: ٤٠،٤١]

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابة ما يوعدون به من العذاب، فهم إن استمروا علىٰ طغيانهم وكفرهم فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به..

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ إياه في الدنيا فتقر بذلك عينك..

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل إصابتهم فليس ذلك شغلا لك..

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ والتبيين للخلق..

﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ فنحاسب الخلق علىٰ ما قاموا به، مما عليهم، وضيعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم.. ثم قال متوعدًا للمكذبين..

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ قيل بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين.. وقيل: بفتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم.. وقيل: غير ذلك من الأقوال.. والظاهر -والله أعلم- أن المراد بذلك أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويجتاحها، ويحل القوارع بأطرافها، تنبيها لهم قبل أن يجتاحهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد، ولهذا قال..

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾ ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي.. فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية علىٰ القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلىٰ القدح فيها.. بخلاف حكم غيره فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه..

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد:٤١] فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هو آت فهو قريب.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [الرعد:٤٢]

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم ولم يصنعوا شيئًا فإنهم يحاربون الله ويبارزونه..

﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ﴾ لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه فإنَّ مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم، فإن الله..

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ﴾ أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة.. والمكر لا بد أن يكون من كسبها فلا يخفىٰ علىٰ الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرا يضر الحق وأهله ويفيدهم شيئا..

﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٤٢﴾ [الرعد:٤٢] أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين، لا للكفر وأعماله.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ۝٤٣﴾ [الرعد:٤٣]

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ يكذبونك ويكذبون ما أرسلت به..

﴿قُلۡ﴾ لهم إن طلبوا علىٰ ذلك شهيدا..

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ وشهادته بقوله وفعله وإقراره: **أما قوله**: فبما أوحاه الله إلىٰ أصدق خلقه مما يثبت به رسالته.. **وأما فعله** فلأن الله تعالىٰ أيد رسوله ونصره نصرا خارجا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.. وأما إقراره: فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط وحل له ماله ودمه والله يقره علىٰ ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة..

﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ۝٤٣﴾ [الرعد:٤٣] وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول من آمن واتبع الحق صرح بتلك الشهادة التي عليه.. ومن كتم ذلك فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل علىٰ أن عنده شهادة مكتومة..

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم والله أعلم.

تم تفسير سورة (الرعد)

والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهي مكية

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم:١-٣]

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يخبر تعالىٰ أنه أنزل كتابه علىٰ رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلىٰ نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة..

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بإرادة من الله ومعونة.. ففيه حث للعباد علىٰ الاستعانة بربهم.. ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب فقال..

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ الموصل إليه وإلىٰ دار كرامته، المشتمل علىٰ العلم بالحق والعمل به.. وفي ذكر ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة إلىٰ أن من سلكه فهو عزيز بعزِّ الله، قوي ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة.. وليدل ذلك علىٰ أن صراط الله من أكبر الأدلة علىٰ ما لله من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده عزيز السلطان، حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه.. وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم..

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقا ورزقا وتدبيرا، فله الحكم علىٰ عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه، ولا يليق

به أن يتركهم سدىٰ.. فلما بيَّن الدليل والبرهان توعد من لم ينقد لذلك، فقال..

﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢﴾ لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره، ثم وصفهم بأنهم..

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فرضوا بها واطمأنوا، وغفلوا عن الدار الآخرة..

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس..

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي نصبها لعباده وبينها في كتبه وعلىٰ ألسنة رسله، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة..

﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ أي: سبيل الله..

﴿عِوَجًاۚ﴾ يحرصون علىٰ تهجينها وتقبيحها، للتنفير عنها، ولكن يأبىٰ الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين ذكر وصفهم..

﴿فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾ [إبراهيم:١-٣] لأنهم ضلوا وأضلوا، وشاقوا الله ورسوله وحاربوهما، فأي ضلال أبعد من هذا؟! وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة علىٰ الدنيا ويدعون إلىٰ سبيل الله ويحسنونها مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم:٤]

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾ وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولًا..

﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتىٰ به، بخلاف ما لو كانوا علىٰ غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلىٰ أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه وقامت عليهم حجة الله..

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن لم ينقد للهدىٰ..

﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ ممن اختصه برحمته..

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي -من عزته- أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلىٰ ما شاء..

﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم:٤] ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

🕮 الفـوائـد

يستدل بهذه الآية الكريمة علىٰ: **أن علوم العربية** الموصلة إلىٰ تبيين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله.. لأنه لا يتم معرفة ما أنزل علىٰ رسوله إلا بها.. إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا علىٰ العربية، ونشأ عليها صغيرهم وصارت طبيعة لهم.. فحينئذ قد اكتفوا المؤنة وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء كما تلقىٰ عنهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ
مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾ [إبراهيم:٥]

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يخبر تعالىٰ: أنه أرسل موسىٰ بآياته العظيمة الدالة علىٰ صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمدا ﷺ بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم..

﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الجهل والكفر وفروعه..

﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلىٰ نور العلم والإيمان وتوابعه..

﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين، ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في أيام الله على العباد..

﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ في الضراء والعسر والضيق..

﴿شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم:٥] على السراء والنعمة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم:٧-٨]

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه، وتمام عدله وحكمته.. ولهذا امتثل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمر ربه، فذكرهم نعم الله فقال..

﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بقلوبكم وألسنتكم..

﴿إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ يولونكم..

﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أشده، وفسَّر ذلك بقوله..

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ﴾ يبقونهن فلا يقتلونهن..

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ الإنجاء..

﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ أي: نعمة عظيمة.. أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم، لينظر هل تصبرون أم لا؟ وقال لهم حاثًّا على شكر نعم الله..

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أعلَمَ وَوَعَد..

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله والثناء على الله بها وصرفها في مرضاة الله تعالى..

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ﴾ من نعمي..

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ وكفر النعمة ضد شكرها..

﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم..

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فلن تضروا الله شيئًا..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم:٧-٨] فالطاعات لا تزيد في ملكه والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنىٰ حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ [إبراهيم:٩-١٠]

يقول تعالىٰ مخوفا عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل، فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه فقال..

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وبسطها..

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ من كثرتهم وكون أخبارهم اندرست.. فهؤلاء كلهم..

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالأدلة الدالة علىٰ صدق ما جاءوا به، فلم يرسل الله رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن علىٰ مثله البشر، فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم ينقادوا لها بل استكبروا عنها..

﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ لم يؤمنوا بما جاءوا به، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل علىٰ الإيمان كقوله ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [البقرة: ١٩]..

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ صريحًا لرسلهم..

﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ ..

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩﴾ أي: موقع في الريبة، وقد كذبوا في ذلك وظلموا.. ولهذا..

﴿۞ قَالَتۡ﴾ لهم..

﴿رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك في الله..

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الذي وجود الأشياء مستند إلىٰ وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتىٰ الأمور المحسوسة.. ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الريب فيه..

﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ إلىٰ منافعكم ومصالحكم..

﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ ليثيبكم علىٰ الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل، فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم.. فردوا علىٰ رسلهم رد السفهاء الجاهلين..

﴿قَالُوٓاْ﴾ لهم..

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة..

﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فكيف نترك رأي الآباء وسيرتهم لرأيكم؟! وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟!

﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [إبراهيم:٩-١٠] بحجة وبيِّنة ظاهرة، ومرادهم بيِّنة يقترحونها هم، وإلا فقد تقدَّم أنَّ رسلهم جاءتهم بالبينات.

﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى

ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:١١-١٢]

﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ﴾ مجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم..

﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي: صحيح وحقيقة أنا بشر مثلكم..

﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق فإن..

﴿ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر علىٰ الله فضله ويمنعه من تفضله.. فانظروا ما جئناكم به، فإن كان حقًا فاقبلوه وإن كان غير ذلك فردوه.. ولا تجعلوا حالنا حجة لكم علىٰ رد ما جئناكم به، وقولكم﴿ فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ فإن هذا ليس بأيدينا وليس لنا من الأمر شيء..

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضىٰ حكمته ورحمته..

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا علىٰ غيره..

﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم؛ لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته وعميم إحسانه، ويثقون به في تيسير ذلك وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.. فعُلِم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه..

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي شيء يمنعنا من التوكل علىٰ الله..

﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ والحال أننا علىٰ الحق والهدىٰ، ومن كان علىٰ الحق والهدىٰ فإن هداه يوجب له تمام التوكل.. وكذلك ما يُعلَم من أن الله متكفِّل بمعونة المهتدي وكفايته يدعو إلىٰ ذلك، بخلاف من لم يكن علىٰ الحق والهدىٰ، فإنه ليس ضامنًا علىٰ الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.. **وفي هذا كالإشارة من الرسل عليهم الصلاة والسلام لقومهم بآية عظيمة، وهو أن قومهم -في الغالب- لهم القهر والغلبة عليهم،** فتحداهم رسلهم بأنهم

متوكلون على الله في دفع كيدكم ومكركم، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس] الآيات، وقول هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود]..

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإنا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتسابًا للأجر ونصحًا لكم، لعلَّ الله أن يهديكم مع كثرة التذكير..

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده لا على غيره..

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:١١-١٢] فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.. واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب وهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره وهداية عبيده وإزالة الضلال عنهم وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم:١٣-١٧]

لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ﴾ متوعدين لهم..

﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع.. لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدىٰ، بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم، ونسبوها إلىٰ أنفسهم وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها.. وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلىٰ الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها علىٰ عبادته.. فمن استعان بذلك علىٰ عبادة الله حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك علىٰ الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصا له، ولم يحل له.. فعُلِم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدوا الرسل بإخراجهم منها.. وإن رجعنا إلىٰ مجرد العادة، فإنَّ الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلأي شيء يمنعونهم حقًا لهم صريحًا واضحًا؟! هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟ ولهذا لما انتهىٰ مكرهم بالرسل إلىٰ هذه الحال ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أولياءه..

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣﴾ بأنواع العقوبات..

﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ﴾ أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسل ومن تبعهم جزاء..

﴿لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي﴾ عليه في الدنيا وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه..

﴿وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ أي: ما توعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله والمبادرة إلىٰ ما يحبه الله..

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ أي: الكفار، أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلا فالله حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة..

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾ خسر في الدنيا والآخرة من تجبر علىٰ الله وعلىٰ الحق وعلىٰ عباد الله، واستكبر في الأرض وعاند الرسل وشاقهم..

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد، فلا بد له من ورودها فيذاق حينئذ العذاب الشديد..

﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾ في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة..

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ من العطش الشديد..

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ فإنه إذا قرب إلىٰ وجهه شواه وإذا وصل إلىٰ بطنه قطع ما أتىٰ عليه من الأمعاء..

﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾ يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلىٰ الموت، ولكن الله قضىٰ أن لا يموتوا كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٦- ٣٧]..

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي: الجبار العنيد..

﴿عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾ [إبراهيم:١٣-١٧] أي: قوي شديد لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالىٰ.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ [إبراهيم:١٨-٢١]

يخبر تعالىٰ عن أعمال الكفار التي عملوها..

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ **إما أن المراد بها: الأعمال التي عملوها** لله، بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد، الذي هو أدق الأشياء وأخفها، إذا..

﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ شديد الهبوب، فإنه لا يبقىٰ منه شيئا، ولا يقدر منه علىٰ شيء يذهب ويضمحل.. فكذلك أعمال الكفار ..

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ ولا علىٰ مثقال ذرة منه، لأنه مبني علىٰ الكفر والتكذيب..

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ حيث بطل سعيهم واضمحل عملهم.. **وإما أن المراد بذلك:** أعمال الكفار **التي عملوها ليكيدوا بها الحق،** فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك ومكرهم عائد عليهم ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئا..

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ينبه تعالىٰ عباده بأنه..

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم.. وليستدلوا بهما وما فيهما علىٰ ما له من صفات الكمال.. وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض -علىٰ عظمهما وسعتهما- قادر علىٰ أن يعيدهم خلقا جديدا، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك ولهذا قال..

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩﴾ **يحتمل أن المعنىٰ:** إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يكونون أطوع لله منكم.. **ويحتمل أن المراد أنه:** إن يشأ يفنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقا جديدا، ويدل علىٰ هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة..

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾ أي: بممتنع بل هو سهل عليه جدا، ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: ٢٨] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧]..

﴿وَبَرَزُواْ﴾ أي: الخلائق..

﴿لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأجداث إلىٰ ربهم، فيقفون في أرض مستوية قاع صفصف، لا ترىٰ فيها عوجًا ولا أمتا، ويبرزون له لا يخفىٰ عليه منهم خافية.. فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنىٰ لهم ذلك؟!

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ أي: التابعون والمقلِّدون..

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ وهم: المتبوعون الذين هم قادة في الضلال..

﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ في الدنيا، أمرتمونا بالضلال، وزينتموه لنا فأغويتمونا..

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ ولو مثقال ذرة..

﴿قَالُواْ﴾ أي: المتبوعون والرؤساء ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص: ٦٣]، و..

﴿لَوْ هَدَانَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ فلا يغني أحدٌ أحدًا..

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾ من العذاب..

﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ عليه..

﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾ [إبراهيم:١٨-٢١] أي: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۝٢٣﴾ [إبراهيم:٢٢-٢٣]

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم.. مخاطبًا لأهل النار ومتبرئًا منهم..

﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ ودخلَ أهلُ الجنةِ الجنةِ، وأهلُ النارِ النارَ..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ علىٰ ألسنة رسله فلم تطيعوه، فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم..

﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ الخير..

﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ لم يحصل ولن يحصل لكم ما منَّيتكم به من الأماني الباطلة..

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من حجة علىٰ تأييد قولي..

﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ هذا نهاية ما عندي أني دعوتكم إلىٰ مرادي وزينته لكم، فاستجبتم لي اتباعًا لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت الحال بهذه الصورة..

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ فأنتم السبب، وعليكم المدار في موجب العقاب..

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها..

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ كلٌ له قسطٌ من العذاب..

﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ تبرأت من جعلكم لي شريكًا مع الله، فلست شريكًا لله ولا تجب طاعتي..

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بطاعة الشيطان..

﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ خالدين فيه أبدا.. ولما ذَكَرَ عقابَ الظالمين، ذَكَرَ ثوابَ الطائعين فقال..

﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قاموا بالدين، قولًا وعملًا واعتقادًا..

﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فيها من اللذات والشهوات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾ لا بحولهم وقوتهم، بل بحول الله وقوته..

﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣﴾ [إبراهيم:٢٢- ٢٣] يحيي بعضهم بعضا بالسلام والتحية والكلام الطيب.

🕮 الفـوائـد

١ – **هذا من لطف الله بعباده:** أن حذرهم من طاعة الشيطان.. وأخبر بمَدَاخِله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه.. وأنه يقصد أن يدخله النيران.. وهنا بيَّن لنا أنه إذا دخل النار وحزبه أنه يتبرأ منهم هذه البراءة، ويكفر بشركهم ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤ ﴾ [فاطر]..

٢ – اعلم أنَّ الله ذَكَر في هذه الآية أنَّه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى ﴿ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠ ﴾ [النحل: ١٠٠].. **فالسلطان الذي نفاه عنه هو** سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلًا على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي.. **وأما السلطان الذي أثبته فهو** التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يؤُزُّهم إلى المعاصي أزًّا، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون..

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم:٢٤]

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ **وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وفروعها..**

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ **وهي النخلة..**

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ **في الأرض..**

﴿وَفَرْعُهَا﴾ **منتشر..**

﴿فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم:٢٤] **وهي كثيرةُ النفع دائمًا.**

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم:٢٥-٢٦]

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾ **أي: ثمرتها..**

﴿كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ **فكذلك شجرة الإيمان.. أصلها ثابت في قلب المؤمن، علمًا واعتقادًا.. وفرعها** من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية والآداب الحسنة، **في السماء دائمًا** يصعد إلىٰ الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره..

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ **ما أمرهم به ونهاهم عنه.. فإنَّ في ضرب الأمثال** تقريبًا للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبيَّن المعنىٰ الذي أراده الله غاية البيان، ويتضح غاية الوضوح، **وهذا من رحمته وحسن تعليمه،** فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه.. **فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها، في قلب المؤمن.. ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر وفروعها فقال..**

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ **المأكل والمطعم، وهي شجرة الحنظل ونحوها..**

﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾ هذه الشجرة..

﴿مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦﴾ [إبراهيم:٢٥-٢٦] أي: من ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تنتجها.. بل إن وجد فيها ثمرة فهي ثمرة خبيثة.. **كذلك كلمة الكفر والمعاصي**، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كلَّ قول خبيث وعمل خبيث يستضر به صاحبه ولا ينتفع.. **فلا يصعد** إلىٰ الله منه عمل صالح ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم:٢٧]

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يخبر تعالىٰ أنه يثبت عباده المؤمنين.. أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها..

﴿بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾ ..

﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيثبتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلىٰ اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة علىٰ تقديم ما يحبه الله علىٰ هوىٰ النفس ومراداتها..

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ عند الموت، بالثبات علىٰ الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح، إذا قيل للميت «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟»، هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: «الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيي»..

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنَّهم ظلموا أنفسهم..

﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم:٢٧] ..

🕮 الفوائد

في هذه الآية دلالة علىٰ **فتنة القبر وعذابه ونعيمه**، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة، وصفتها، ونعيم القبر وعذابه.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٢٩ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾ [إبراهيم:٢٨-٣٠]

يقول تعالىٰ - مبينا حال المكذبين لرسوله من كفار قريش وما آل إليه أمرهم..

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم، يدعوهم إلىٰ إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة وإلىٰ النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدَّلوا هذه النعمة بردِّها، والكفر بها والصدِّ عنها بأنفسهم..

﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨﴾ وصدهم غيرهم حتىٰ ﴿أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨﴾، وهي النار حيث تسببوا لإضلالهم، فصاروا وبالًا علىٰ قومهم، من حيث يُظنُّ نَفعُهُم.. ومن ذلك أنهم زيَّنوا لهم الخروج يوم (بدر) ليحاربوا اللهَ ورسولَه، فجرىٰ عليهم ما جرىٰ، وقتلَ كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الوقعة..

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يحيط بهم حرَّها من جميع جوانبهم..

﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٢٩﴾ ..

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ نظراءَ وشركاء..

﴿لِّيُضِلُّواْ﴾ العباد..

﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ عن سبيل الله، بسبب ما جعلوا لله من الأنداد ودعوهم إلىٰ عبادتها..

﴿قُلْ﴾ لهم متوعدًا..

﴿تَمَتَّعُواْ﴾ بكفركم وضلالكم قليلًا، فليس ذلك بنافعكم..

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ مآلكم ومقرُكم ومأواكم..

﴿إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾ [إبراهيم:٢٨-٣٠] وبئس المصير.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ۝٣١﴾ [إبراهيم:٣١]

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قل لعبادي المؤمنين آمرًا لهم بما فيه غاية صلاحهم، وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك..

﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا..

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ من النِّعَم التي أنعمنا بها عليهم، قليلًا أو كثيرًا..

﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ **وهذا يشمل:** النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب عليه نفقته.. والمستحبة: كالصدقات ونحوها..

﴿قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾ [إبراهيم:٣١] لا ينفع فيه شيء ولا سبيل إلىٰ استدراك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق.. فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدَّمه لغد، وليتفقد أعماله، ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤]

﴿ٱللَّهُ﴾ يخبر تعالىٰ: أنه وحده..

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ علىٰ اتساعهما وعظمهما..

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ وهو: المطر الذي ينزله الله من السحاب..

﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ﴾ بذلك الماء..

﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المختلفة الأنواع..

﴿رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ ورزقًا لأنعامكم..

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفن والمراكب..

﴿لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ فهو الذي يَسَّر لكم صنعتها، وأقدركم عليها، وحَفِظَها على تيَّار الماء لتحملكم، وتَحمِلُ تجاراتكم، وأمتعتكم إلىٰ بلدٍ تقصدونه..

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ۝٣٢﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها..

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ لا يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزمنتكم، ومصالح أبدانكم وحيواناتكم وزروعكم وثماركم..

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه..

﴿وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٣] مبصرًا لتبتغوا من فضله.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أعطاكم من كل ما تعلَّقت به أمانيكم وحاجتكم، مما تسألونه إياه بلسان الحال أو بلسان المقال، من أنعام وآلات وصناعات وغير ذلك..

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ فضلًا عن قيامكم بشكرها..

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم:٣٤] هذه طبيعة الإنسان من حيث هو: ظالم.. متجرئ علىٰ المعاصي.. مقصِّر في حقوق ربه.. كفَّار لنعم الله.. لا يشكرها ولا يعترف بها.. إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حقَّ ربه وقام به.

الفوائد

١- في هذه الآيات من أصناف نعم الله علىٰ العباد شيء عظيم، مُجمَل ومفصَّل.
٢- يدعو الله به العباد إلىٰ القيام بشكره وذكره.. ويحثهم علىٰ ذلك.
٣- ويرغبهم في سؤاله ودعائه آناء الليل والنهار.
٤- كما أن نعمه تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم:٣٥]

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ واذكر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذه الحالة الجميلة، إذ قال..

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي: الحَرَم..

﴿ءَامِنًا﴾ **فاستجاب الله دعاءه شرعًا وقدرًا، فحرَّمه الله في الشرع، ويسَّر من أسباب حرمته قدرًا ما هو معلوم، حتىٰ إنه لم يُرِده ظالمٌ بسوء إلا قَصَمه الله، كما فعل بأصحاب الفيل، وغيرهم.. ولما دعا له بالأمن دعا له ولبنيه (بالأمن)[1] فقال..**

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم:٣٥] **اجعلني وإياهم جانبًا بعيدًا عن عبادتها والإلمام بها.. ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلىٰ بنيه بكثرة من افتتن وابتلي بعبادتها فقال..**

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾ [إبراهيم:٣٦]

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ **أي: ضلوا بسببها..**

﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ **..**

﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ **علىٰ ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين..**

﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ **لتمام الموافقة، ومَن أحبَّ قومًا وتَبِعَهم التَحق بهم..**

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾ [إبراهيم:٣٦] **وهذا من شفقة الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالىٰ أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه.**

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧]

وذلك أنه أتىٰ بـ (هاجر) أم إسماعيل، وبابنها إسماعيل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو في الرضاع، من الشام، حتىٰ وضعهما في مكة، وهي -إذ ذاك- ليس فيها سكن، ولا داع، ولا

(١) هكذا في المطبوع، والسياق يقتضي أن تكون (بالإيمان).. والله أعلم.

مجيب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء فقال متضرعًا متوكلًا علىٰ ربِّه..

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ لا كل ذريتي، لأن إسحاق في الشام وباقي بنيه كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته..

﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة..

﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ ..

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة؛ لأن إقامة الصلاة من أخصِّ وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيما لدينه..

﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه.. فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذريَّة إسماعيل محمدًا ﷺ، حتىٰ دعا ذريته إلىٰ الدين الإسلامي، وإلىٰ ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة.. وافترض اللهُ حجَّ هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم.. وجعل فيه سرًا عجيبًا جاذبًا للقلوب، فهي تحجه، ولا تقضي منه وطرًا علىٰ الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه وعظم ولعه وتوقه، وهذا سر إضافته تعالىٰ إلىٰ نفسه المقدسة..

﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧] فأجاب الله دعاءه.. فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء.. فإنك ترىٰ مكة المشرفة كل وقت والثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالىٰ إليها من كل جانب.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم:٣٨]

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها والتي لا نعلمها ما هو مقتضىٰ علمك ورحمتك..

﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم:٣٨] ومن ذلك هذا الدعاء، الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير وكثرة الشكر لله رب العالمين.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٣٩-٤١]

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ﴾ فهبتهم من أكبر النعم.. وكونهم علىٰ الكِبَر في حال الإياس من الأولاد نعمة أخرىٰ.. وكونهم أنبياء صالحين أجل وأفضل..

﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ لقريب الإجابة ممن دعاه، وقد دعوته فلم يخيب رجائي، ثم دعا لنفسه ولذريته، فقال..

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ ..

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٣٩-٤١] فاستجاب الله له في ذلك كلِّه.. إلا أن دعاءه لأبيه إنَّما كان عن موعدة وعده إياه فلما تبين له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣]

هذا وعيد شديد للظالمين، وتسلية للمظلومين.. يقول تعالىٰ..

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ﴾ حيث أمهلهم، وأدرَّ عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين.. فليس في هذا ما يدل علىٰ حسن حالهم، فإنَّ الله يملي للظالم ويمهله ليزداد إثمًا، حتىٰ إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].. والظلم -هاهنا- يشمل الظلم فيما بين العبد وربه وظلمه لعباد الله..

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢﴾ لا تطرف، من شدة ما ترىٰ من الأهوال وما أزعجها من القلاقل..

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلىٰ إجابة الداعي حين يدعوهم إلىٰ الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ..

﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها، قد غُلَّتْ أيديهم إلىٰ الأذقان، فارتفعت لذلك رءوسهم..

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ﴾..

﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣] أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلىٰ الحناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝٤٤ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٦]

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ..

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ صف لهم صفة تلك الحال، وحذرهم من الأعمال الموجبة للعذاب.. الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله..

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، نادمين علىٰ ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها..

﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ رُدَّنا إلىٰ الدنيا فإنَّا قد أبصرنا..

﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ والله يدعو إلىٰ دار السلام..

﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ﴾ وهذا كلُّه لأجل التخلص من العذاب، وإلا فهم كَذَبة في هذا الوعد ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ولهذا يُوَبَّخون، ويقال لهم..

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝٤٤﴾ عن الدنيا، وانتقال إلىٰ الآخرة.. فها قد تبين حِنثُكم في إقسامكم، وكذِبُكم فيما تدَّعون..

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ وليس عملكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل ﴿سَكَنتُمْ﴾..

﴿فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من أنواع العقوبات؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات؟! حين كذَّبوا بالآيات البينات..

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥﴾ الواضحة التي لا تدع أدنىٰ شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات بل أعرضتم ودمتم علىٰ باطلكم حتىٰ صار ما صار، ووصلتم إلىٰ هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل..

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ﴾ أي: المكذبون للرسل..

﴿مَكْرَهُمْ﴾ الذي وصلت إرادتهم، وقدر لهم عليه..

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ هو محيط به علمًا وقدرةً، فإنَّه عاد مكرهم عليهم ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]..

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾ [إبراهيم:٤٤-٤٦] ولقد كان مكر الكفار المكذِّبين للرسل بالحق وبمن جاء به -من عظمه- لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها، أي: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢﴾ [نوح] لا يقادر قدره، ولكن الله رد كيدهم في نحورهم.. **ويدخل في**: هذا كل من مكر من المخالفين للرسل لينصر باطلًا أو يبطل حقًا.. **والقصد**: أن مكرهم لم يغن عنهم شيئًا، ولم يضروا الله شيئًا وإنما ضروا أنفسهم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم:٤٧-٥٢]

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾ بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم.. وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة.. فهذا لا بد من وقوعه، لأنه وعد به الصادق قولًا علىٰ ألسنة أصدق خلقه وهم الرسل.. وهذا أعلىٰ ما يكون من الأخبار، خصوصًا وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنن الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالىٰ لا يعجزه شيء فـ..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ٤٧﴾ إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته ولا يعجزه، وذلك في يوم القيامة..

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ﴾ وهذا التبديل تبديل صفات لا تبديل ذات..

﴿ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنَّ الأرض يوم القيامة تُسوَّىٰ وتمد كمد الأديم، ويلقىٰ ما علىٰ ظهرها من جبل ومَعْلم، فتصير قاعًا صفصفًا، لا ترىٰ فيها عوجًا ولا أمتا..

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ تبدل غير السماوات.. وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم ثم يطويها الله -تعالىٰ- بيمينه..

﴿وَبَرَزُواْ﴾ الخلائق من قبورهم إلىٰ يوم بعثهم ونشورهم في مَحَلٍ لا يخفىٰ منهم علىٰ الله شيء..

﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨﴾ المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة.. وقهره لكل العوالم.. فكلها تحت تصرفه وتدبيره، فلا يتحرك منها متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه..

﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الذين وَصفُهُم الإجرام وكثرة الذنوب..

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ في ذلك اليوم..

﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩﴾ يُسلسل كلُّ أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار، فيقادون إلىٰ العذاب في أذلِّ صورة وأشنعها وأبشعها..

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ ثيابهم..

﴿مِّن قَطِرَانٖ﴾ وذلك لشدة اشتعال النار فيهم، وحرارتها، ونتن ريحها..

﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم..

﴿ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ تحيط بها وتصلاها من كل جانب.. وغير الوجوه من باب أولىٰ وأحرىٰ.. وليس هذا ظلمًا من الله لهم وإنما هو جزاء لما قدَّموا وكسبوا.. ولهذا قال تعالىٰ..

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر بالعدل والقسط الذي، لا جور فيه بوجه من الوجوه، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء:].. ويحتمل أن معناه: سريع المحاسبة..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾ فيحاسب الخلق في ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن وليس ذلك بعسير عليه.. فلما بيَّن البيان المبين في هذا القرآن، قال في مدحه..

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ يتبلغون به ويتزودون إلىٰ الوصول إلىٰ أعلىٰ المقامات وأفضل الكرامات، لِمَا اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد..

﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر، وما أعدَّ اللهُ لأهلها من العقاب..

﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين علىٰ ألوهيته ووحدانيته، ما صار ذلك حق اليقين..

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم:٤٧-٥٢] أي: العقول الكاملة.. ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر.. إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم، لمَّا أخذوه غضًّا طريًّا، فإنه لا يدعو إلا إلىٰ أعلىٰ الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل علىٰ ذلك إلا بأقوىٰ الأدلة وأبينها.. **وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي لم يزل في صعود ورقي علىٰ الدوام في كل خصلة حميدة.**

والحمد لله رب العالمين

تم تفسير سورة (إبراهيم) الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

تفسير سورة الحجر وهي مكية

﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾ [الحجر:١-٥]

﴿الٓر﴾ .. يقول تعالىٰ معظما لكتابه مادحًا له..

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الآيات الدالة علىٰ أحسن المعاني وأفضل المطالب..

﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾ للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدله علىٰ المقصود، وهذا مما يوجب علىٰ الخلق الانقياد إليه، والتسليم لحكمه، وتلقيه بالقبول والفرح والسرور.. فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها والكفر بها، فإنه من المكذبين الضالين، الذين سيأتي عليهم وقت يتمنون أنهم مسلمون..

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ أي: منقادون لأحكامه.. وذلك حين ينكشف الغطاء، وتظهر أوائل الآخرة ومقدمات الموت، فإنهم في أحوال الآخرة (كلها)[1] يتمنون أنهم مسلمون، وقد فات وقت الإمكان، ولكنَّهم في هذه الدنيا مغترون.. فـ..

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بلذاتهم..

﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾ يُؤمِّلون البقاء في الدنيا، فيلهيهم عن الآخرة..

---

(١) هكذا في المطبوع ، ولعلَّ الصحيح (كلهم)، ولا يَرِد عليه تقدُّم الضمير علىٰ العائد، وهو خلاف الأصل بلا شك، إلا أنَّ كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس معصومًا.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ أنَّ ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خسرانًا عليهم، ولا يغتروا بإمهال الله تعالىٰ، فإنَّ هذه سنته في الأمم..

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ كانت مستحقة للعذاب..

﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤﴾ مقدَّر لإهلاكها..

﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾ [الحجر:١-٥] وإلا فالذنوب لابد من وقوع أثرها وإن تأخر.

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر:٦-٩]

﴿وَقَالُواْ﴾ وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ علىٰ زعمك..

﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ إذ تظن أنا سنتبعك ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك..

﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ يشهدون لك بصحة ما جئت به..

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ٧﴾ فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق.. وهذا من أعظم الظلم والجهل.. **أما الظلم**: فظاهر، فإنَّ هذا تجرؤ علىٰ الله، وتعنت بتعيين الآيات التي لم يخترها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة علىٰ صحة ما جاء به..

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ **وأما الجهل**: فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم، فليس في إنزال الملائكة خير لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق، الذي لا إمهال علىٰ من لم يتبَعْه وينقَد له..

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا﴾ حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا بـ..

﴿مُّنظَرِينَ ٨﴾ بمهملين.. فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلًا لأنفسهم بالهلاك والدمار.. فإن الإيمان ليس في أيديهم وإنما هو بيد الله، ﴿۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ

وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنعام] ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين هذا القرآن العظيم.. ولهذا قال هنا..

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ **أي: القرآن الذي فيه ذكرىٰ لكل شيء من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر..**

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر:٦-٩] في حال إنزاله وبعد إنزاله: **ففي حال إنزاله:** حافظون له من استراق كل شيطان رجيم.. **وبعد إنزاله:** أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه فيها ثم في قلوب أمته.. **وحفظ الله ألفاظه** من التغيير فيها والزيادة والنقص.. **ومعانيه:** من التبديل، فلا يحرف محرف معنىٰ من معانيه إلا وقيَّض الله له من يبين الحق المبين.. وهذا من أعظم آيات الله ونعمه علىٰ عباده المؤمنين.. **ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم،** ولا يسلط عليهم عدوًا يجتاحهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الحجر:١٠-١٣]

يقول تعالىٰ لنبيه إذ كذَّبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية..

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ فرَّقهم وجماعتهم رسلًا..

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ يدعوهم إلىٰ الحق والهدىٰ..

﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ ..

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ نُدخِلُ التكذيب..

﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ الَّذين وصفُهم الظلم والبهت.. عاقبناهم..

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ لمَّا اشتبهت قلوبهم بالكفر والتكذيب.. تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسلهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان..

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الحجر:١٠-١٣] **عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.**

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر:١٤-١٥]

ولو جاءتهم كلُّ آية عظيمة لم يؤمنوا وكابروا..

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾ فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه عيانًا بأنفسهم..

﴿لَقَالُوٓا۟﴾ من ظلمهم وعنادهم، منكرين لهذه الآية..

﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ أصابها سكر وغشاوة حتىٰ رأينا ما لم نر..

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر:١٤-١٥] ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر.. وقوم وصلت بهم الحال إلىٰ هذا الإنكار، فإنَّهم لا مطمع فيهم ولا رجاء.. ثم ذكر الآيات الدالات علىٰ ما جاءت به الرسل من الحق فقال..

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحجر:١٦-٢٠]

يقول تعالىٰ مبينًا كمال اقتداره ورحمته بخلقه..

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ نجومًا كالأبراج والأعلام العظام يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر..

﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيئة العجيبة.. وهذا مما يدعو الناظرين إلىٰ التأمل فيها والنظر في معانيها والاستدلال بها علىٰ باريها..

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ إذا استرق السمع أتبعته الشهب الثواقب.. فبقيت السماء ظاهرها مجمَّلًا بالنجوم النيرات، وباطنها محروسًا ممنوعًا من الآفات..

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ في بعض الأوقات.. قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس..

﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨﴾ بيِّن منير.. يقتله أو يخبله.. فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلىٰ وَلِّيه، فينقطع خبر السماء عن الأرض.. وربَّما ألقاها إلىٰ ولِّيه قبل أن يدركه الشهاب.. فيضمُّها ويكذب معها مائة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء..

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها علىٰ الامتداد بأرجائها والتناول من أرزاقها والسكون في نواحيها..

﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالًا عِظامًا تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد وتثبتها أن تزول..

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾ نافع متقوِّم، يضطر إليه العباد والبلاد، ما بين نخيل وأعناب وأصناف الأشجار وأنواع النبات..

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ من الحرث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب والحرف..

﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾ [الحجر:١٦-٢٠] أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام لنفعكم ومصالحكم وليس عليكم رزقها، بل خوَّلكم الله إيَّاها وتكفل بأرزاقها.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ [الحجر:٢١]

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحدٌ إلا الله، فخزائنها بيده يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة..

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي: المقدَّر من كل شيء، من مطر وغيره..

﴿إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ [الحجر:٢١] فلا يزيد علىٰ ما قدَّره الله، ولا ينقص منه.

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ [الحجر:٢٢]

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ وسخرنا الرياح، رياح الرحمة تلقح السحاب، كما يلقح الذكر الأنثىٰ..

﴿فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواشيهم وأرضهم، ويبقىٰ في الأرض مدَّخرًا لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضىٰ قدرته ورحمته..

﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ [الحجر:٢٢] لا قدرة لكم علىٰ خزنه وادخاره، ولكنَّ الله يخزنه لكم، ويسلكه ينابيع في الأرض رحمةً بكم، وإحسانًا إليكم.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٢٥﴾ [الحجر:٢٣-٢٥]

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ويميتهم لآجالهم التي قدرها..

﴿وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣﴾ كقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٤٠﴾ [مريم] وليس ذلك بعزيز ولا ممتنع علىٰ الله..

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾ فإنه تعالىٰ يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم.. ويعلم ما تنقص الأرض منهم وما تفرق من أجزائهم..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾ وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقًا جديدًا ويحشرهم إليه..

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٢٥﴾ [الحجر:٢٣-٢٥] يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر:٢٦-٣١]

يذكر تعالىٰ نعمته وإحسانه علىٰ أبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما جرىٰ من عدوه إبليس.. وفي ضمن ذلك **التحذير لنا من شره وفتنته**، فقال تعالىٰ..

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ..

﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي: من طين قد يبس بعد ما خُمِّر، حتىٰ صارَ له صلصلة وصوت كصوت الفَخَّار..

﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ هو الطين المتغيِّر لونه وريحه من طول مكثه..

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ وهو: أبو الجن، أي: إبليس..

﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ خلقِ آدم..

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ من النار الشديدة الحرارة..

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة..

﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ جسدًا تامًا..

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فامتثلوا أمر ربِّهم..

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ تأكيد بعد تأكيد، ليدل علىٰ أنه **لم يتخلف منهم أحد**، وذلك **تعظيمًا لأمر الله، وإكرامًا لآدم**؛ حيث علم ما لم يعلموا..

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر:٢٦-٣١] وهذه أوَّلُ عداوته لآدم وذريته.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر:٣٢-٤٤]

﴿قَالَ﴾ الله..

﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾ ..

﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ٣٣﴾ فاستكبر علىٰ أمر الله، وأبدىٰ العداوة لآدم وذريته، وأعجب بعنصره وقال: أنا خير من آدم..

﴿قَالَ﴾ الله معاقبًا له علىٰ كفره واستكباره..

﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ مطرود مبعد من كل خير..

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ الذم والعيب والبعد عن رحمة الله..

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾ ففيها وما أشبهها دليل علىٰ أنه سيستمر علىٰ كفره وبعده من الخير..

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ أي أمهلني..

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾ وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد، ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير وشرح لنا ما يريده منا..

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أُزيِّن لهم الدنيا، وأدعوهم إلىٰ إيثارها علىٰ الأخرىٰ، حتىٰ يكونوا منقادين لكل معصية..

﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩﴾ أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم..

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ الذين أخلصتهم واجتبيتهم؛ لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم.. قال الله تعالىٰ..

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١﴾ معتدل موصل إليَّ وإلىٰ دار كرامتي..

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ تميلهم به إلىٰ ما تشاء من أنواع الضلالات بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان..

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ فرضي بولايتك وطاعتك بدلًا من طاعة الرحمن..

﴿مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ والغاوي ضدُّ الراشد، فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال الذي تركه من غير علم منه به..

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: إبليس وجنوده..

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ كل باب أسفل من الآخر..

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من أتباع إبليس..

﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر:٣٢-٤٤] بحسب أعمالهم قال الله تعالىٰ ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٩٤- ٩٥].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ * نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر:٤٥-٥٠]

ولما ذكر تعالىٰ ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد، ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم والنعيم المقيم فقال..

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان..

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ قد احتوت علىٰ جميع الأشجار وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات.. ويقال لهم حال دخولها..

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ من الموت والنوم والنصب، واللغوب وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه ومن المرض، والحزن والهم وسائر المكدرات..

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ فتبقىٰ قلوبهم سالمة من كل دَغَل وحسد، متصافية متحابة..

﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ دلَّ ذلك علىٰ تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم، في كون كل منهم مقابلًا للآخر، لا مستدبرًا له، متكئين علىٰ تلك السرر المزيَّنة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر..

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا ظاهر ولا باطن، وذلك لأنَّ الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة، لا تقبل شيئًا من الآفات..

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ علىٰ سائر الأوقات.. ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة من مفعولات الله من الجنة والنار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالىٰ فقال..

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ أخبرهم خبرًا جازمًا مؤيَّدًا بالأدلة..

﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته سَعَوا في الأسباب الموصلة لهم إلىٰ رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته.. ومع هذا فلا ينبغي أن يتمادىٰ بهم الرجاء إلىٰ حال الأمن والإدلال، فنبئهم..

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر:٤٥-٥٠] **لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله**، الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه، نعوذ به من عذابه.. فإنَّهم إذا عرفوا أنَّه ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥- ٢٦] حذروا وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب.

🕮 الفوائد

فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائمًا بين **الخوف والرجاء**، والرغبة والرهبة.. **فإذا نظر إلىٰ رحمة ربه** ومغفرته وجوده وإحسانه أحدث له ذلك الرجاء والرغبة.. **وإذا نظر إلىٰ ذنوبه** وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥١-٥٦]

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ..

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ عن تلك القصة العجيبة.. فإن في قصك عليهم أنباء

الرسل وما جرىٰ لهم ما **يوجب لهم العبرة والاقتداء بهم**.. خصوصًا إبراهيم الخليل، الذي أمرنا الله أن نتبع ملته.. وضيفه هم الملائكة الكرام، **أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه**..

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾ سلَّموا عليه فردَّ عليهم..

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ خائفون.. لأنه لما دخلوا عليه وحسبهم ضيوفًا ذهب مسرعًا إلىٰ بيته، فأحضر لهم ضيافتهم عجلًا حنيذا، فقدَّمه إليهم، فلما رأىٰ أيديهم لا تصل، إليه خاف منهم أن يكونوا لصوصا أو نحوهم.. فـ..

﴿قَالُواْ﴾ له..

﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ وهو إسحاق عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.. **تضمنت هذه البشارة بـ: أنه ذكر لا أنثىٰ، عليم**، أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرىٰ ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات].. فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم متعجبًا من هذه البشارة..

﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ بالولد..

﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ وصار نوع إياس منه..

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ علىٰ أي وجه تبشرون وقد عُدِمَت الأسباب؟!

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه، لأنَّ الله علىٰ كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص -يا أهل هذا البيت- رحمة الله وبركاته عليكم، فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم..

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزال راجيًا لفضل الله وإحسانه، وبره وامتنانه.. فأجابهم إبراهيم بقوله..

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥١-٥٦] الذين لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره.. وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلىٰ القنوط إليه؛ **لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق** لرحمة الله شيئًا كثيرًا.. ثم لمَّا بشَّروه بهذه البشارة، عرف أنهم مرسلون لأمر مهم.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨
إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ
۝٦٠ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُوا۟ بَلْ
جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ
تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦
وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ
۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾ [الحجر:٥٧-٧٠]

﴿قَالَ﴾ الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ للملائكة..

﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾ ما شأنكم ولأي شيء أرسلتم؟!

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨﴾ كثر فسادهم وعظم شرهم؛ لنعذبهم ونعاقبهم..

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ إلا لوطًا وأهله..

﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩﴾ ..

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾ الباقين بالعذاب، وأما لوط فسنخرجنه وأهله وننجيهم منها.. فجعل إبراهيم يجادل الرسل في إهلاكهم ويراجعهم، فقيل له: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾ [هود] فذهبوا منه..

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ﴾ لهم لوط..

﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢﴾ لا أعرفكم ولا أدري من أنتم..

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣﴾ جئناك بعذابهم الذي كانوا يشكون فيه ويكذبونك حين تعدهم به..

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي ليس بالهزل..

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤﴾ فيما قلنا لك..

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ في أثنائه، حين تنام العيون ولا يدري أحد عن مسراك..

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ بادروا وأسرعوا..

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ ..

﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥﴾ كأنَّ معهم دليلًا يدلهم إلىٰ أين يتوجهون..

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أخبرناه خبرًا لا مثنوية فيه..

﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾ سيصبحهم العذاب الذي يجتاحهم ويستأصلهم..

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ التي فيها قوم لوط..

﴿يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧﴾ يبشر بعضهم بعضا بأضياف لوط وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم، وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم.. فجاءوا حتىٰ وصلوا إلىٰ بيت لوط، فجعلوا يعالجون لوطًا علىٰ أضيافه ولوط يستعيذ منهم..

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨﴾ ..

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩﴾ راقبوا الله أوَّل ذلك، وإن كان ليس فيكم خوف من الله فلا تفضحون في أضيافي، وتنتهكوا منهم الأمر الشنيع.. فـ..

﴿قَالُوٓا۟﴾ له جوابًا عن قوله ولا تخزون فقط..

﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾ [الحجر:٥٧-٧٠] أن تضيفهم، فنحن قد أنذرناك، ومن أنذر فقد أعذر.. فـ..

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾ [الحجر:٧١- ٧٤]

﴿قَالَ﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه..

﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾ فلم يبالوا بقوله.. ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ..

﴿لَعَمْرُكَ﴾ ..

﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ وهذه السكرة هي **سكرة محبة الفاحشة**، التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم.. فلما بينت له الرسلُ حالَهم، زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب.. فامتثل أمر ربه وسرىٰ بأهله ليلًا فنجوا.. وأما أهل القرية..

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣﴾ وقت شروق الشمس، حين كانت العقوبة عليهم أشد..

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قلبنا عليهم مدينتهم..

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾ [الحجر:٧١- ٧٤] تَتْبَع فِيهَا من شذَّ من البلد منهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾ [الحجر:٧٥- ٧٧]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ المتأملين المتفكرين، الذين لهم فكر وروية وفراسة.. يفهمون بها ما أريد بذلك، من أن **من تجرأ علىٰ معاصي الله**، خصوصًا هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرأوا علىٰ أشنع السيئات..

﴿وَإِنَّهَا﴾ مدينة قوم لوط..

﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦﴾ للسالكين، يعرفه كل من تردد في تلك الديار..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾ [الحجر:٧٥- ٧٧] ..

🕮 الفـوائـد

وفي هذه القصة من العِبر:

١- عنايته تعالىٰ بخليله إبراهيم، فإن لوطا عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ من أتباعه، وممن آمن به، فكأنه تلميذ له، فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحقوا ذلك، أمر رسله أن يمروا علىٰ إبراهيم عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ كي يبشروه بالولد ويخبروه بما بعثوا له، حتىٰ إنه جادلهم عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ في إهلاكهم حتىٰ أقنعوه، فطابت نفسه.

٢- وكذلك لوط عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ، لما كانوا أهل وطنه، فربما أخذته الرقة عليهم والرأفة بهم قدَّر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم، حتىٰ استبطأ إهلاكهم لما قيل له ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾ [هود].

٣- ومنها: أن الله تعالىٰ إذا أراد أن يهلك قرية ازداد شرهم وطغيانهم، فإذا انتهىٰ أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر:٧٨-٧٩]

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ وهؤلاء هم قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلىٰ الأيكة، وهو البستان كثير الأشجار، ليذكر نعمته عليهم.. وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبيهم شعيب فدعاهم إلىٰ التوحيد، وترك ظلم الناس في المكاييل والموازين، وعالجهم علىٰ ذلك أشد المعالجة، فاستمروا علىٰ ظلمهم في حق الخالق وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم..

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء]..

﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة..

﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر:٧٨-٧٩] لبطريق واضح يمر بهم المسافرون كل وقت، فيَبِيْنُ من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار، فيُعتَبِر بذلك أولوا الألباب.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر:٨٠-٨٤]

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ يخبر تعالىٰ عن أهل الحجر.. وهم قوم صالح الذين كانوا يسكنون الحِجر المعروف في أرض الحجاز.. أنهم كذبوا المرسلين أي: كذبوا صالحًا، **ومن كذب رسولًا فقد كذب سائر الرسل؛** لاتفاق دعوتهم، **وليس تكذيب بعضهم لشخصه،** بل لِمَا جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به..

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة علىٰ صحة ما جاءهم به صالح من الحق.. التي من جملتها: تلك الناقة التي هي من آيات الله العظيمة..

﴿فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١﴾ كِبرًا وتجبرًا علىٰ الله..

﴿وَكَانُواْ﴾ من كثرة إنعام الله عليهم..

﴿يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ من المخاوف، مطمئنين في ديارهم.. فلو شكروا النعمة وصدَّقوا نبيهم صالحًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لأدرَّ الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل.. ولكنهم لما كذبوا وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾ [الأعراف]..

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ فتقطعت قلوبهم في أجوافهم..

﴿مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكىٰ، مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة..

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾ [الحجر:٨٠-٨٤] لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار، ولا غزارة أموال.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر:٨٥]

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ ما خلقناهما عبثًا وباطلًا كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناهما..

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ الذي منه: أن يكونا بما فيهما دالتين علىٰ كمال خالقهما واقتداره وسعة رحمته وحكمته وعلمه المحيط.. وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له..

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾ لا ريب فيها ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]..

﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر:٨٥] وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران، لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب، فإن كل ما هو آت فهو قريب.. **وقد ظهر لي معنىٰ أحسن مما ذكرت هنا، وهو:** أن المأمور به هو الصفح الجميل، أي: الحَسَن، الذي قد سَلِمَ من الحِقد والأذيّة القولية والفعلية، دون الصفح الذي

ليس بجميل، وهو الصفح في غير محله، **فلا يصفح حيث اقتضىٰ المقام العقوبة**، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، **وهذا هو المعنىٰ**.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨٦﴾ [الحجر:٨٦]

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ لكل مخلوق..

﴿ٱلۡعَلِيمُ ۝٨٦﴾ [الحجر:٨٦] بكل شيء، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه وجرىٰ عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر:٨٧]

يقول تعالىٰ ممتنًّا علىٰ رسوله..

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ وهن -علىٰ الصحيح- السور السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال مع التوبة.. أو أنها فاتحة الكتاب؛ لأنها سبع آيات..

﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر:٨٧] فيكون عطف (القرآن العظيم) علىٰ ذلك من باب عطف العام علىٰ الخاص.. لكثرة ما في المثاني من التوحيد، وعلوم الغيب، والأحكام الجليلة، وتثنيتها فيها.. وعلىٰ القول بأن (الفاتحة) هي السبع المثاني، معناها: أنها سبع آيات، تثنىٰ في كل ركعة.. وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني، كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس].. ولذلك قال بعده..

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الحجر:٨٨]

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ لا تعجب إعجابًا يحملك علىٰ إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واغترَّ بها الجاهلون، **واستغن بما آتاك الله من**

المثاني والقرآن العظيم..

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ فإنهم لا خير فيهم يُرجىٰ، ولا نفع يرتقب، فلك في المؤمنين عنهم أحسن البدل وأفضل العوض..

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الحجر:٨٨] ألن لهم جانبك، وحسِّن لهم خلقك، محبةً وإكرامًا وتودُّدًا.

﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ [الحجر:٨٩-٩٦]

﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩﴾ قم بما عليك من النذارة وأداء الرسالة والتبليغ للقريب والبعيد والعدو والصديق، فإنك إذا فعلت ذلك فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء..

﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ كما أنزلنا العقوبة..

﴿عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠﴾ المقتسمين علىٰ بطلان ما جئت به، الساعين لصد الناس عن سبيل الله..

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ أصنافًا وأعضاءً وأجزاءً، يصرفونه بحسب ما يهوونه.. فمنهم من يقول: سحر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مفترىٰ.. إلىٰ غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به، الذين جعلوا قدحهم فيه ليصدوا الناس عن الهدىٰ..

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢﴾ جميع من قدح فيه وعابه وحرَّفه وبدله..

﴿عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ وفي هذا **أعظم ترهيب وزجر** لهم عن الإقامة علىٰ ما كانوا عليه.. ثم أمر الله رسوله أن لا يبالي بهم ولا بغيرهم..

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ وأن يصدع بما أمر الله، ويعلن بذلك لكلِّ أحد ولا يعوقنه عن أمره عائق، ولا تصده أقوال المتهوكين..

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ لا تبال بهم واترك مشاتمتهم ومسابتهم، مقبلًا علىٰ شأنك..

﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ بك وبما جئت به.. وهذا وعد من الله لرسوله أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة.. وقد فعل تعالىٰ، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به إلا أهلكه الله وقتله شرَّ قتلة..

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ﴾ ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله، فإنهم أيضا يؤذون الله ويجعلون معه..

﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾ وهو ربهم وخالقهم ومدبرهم..

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ [الحجر:٨٩-٩٦] غبَّ أفعالهم إذا وردوا القيامة.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر:٩٧-٩٩]

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾ لك من التكذيب والاستهزاء، فنحن قادرون علىٰ استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقون، ولكن الله يمهلهم ولا يهملهم.. فأنت يا محمد..

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨﴾ أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه ويعينك علىٰ أمورك.

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر:٩٧-٩٩] أي: الموت أي: استمر في جميع الأوقات علىٰ التقرب إلىٰ الله بأنواع العبادات.. فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبا في العبادة، حتىٰ أتاه اليقين من ربه ﷺ تسليما كثيرا.

تم تفسير سورة (الحجر)

تفسير سورة النحل وهي مكية

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ
سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١﴾ [النحل:١]

يقول تعالىٰ مقرِّبًا لِمَا وعد به، مُحَقِقًا لوقوعه..

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ فإنه آت، وما هو آت، فإنه قريب..

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١﴾ [النحل:١] من نسبة الشريك والولد والصاحبة والكفء وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله.. ولما نزَّه نفسه عمَّا وصفه به أعداؤه ذكَرَ الوحي الذي ينزله علىٰ أنبيائه، مما يجب اتباعه في ذكر ما ينسب لله من صفات الكمال، فقال..

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ
أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل:٢]

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ بالوحي الذي به حياة الأرواح..

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ ممَّن يعلمه صالحًا، لتحمِّل رسالته.. وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها علىٰ قوله..

﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل:٢] علىٰ معرفة الله تعالىٰ، وتوحده في صفات العظمة، التي هي صفات الألوهية وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل الله بها كتبه وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلَّها تدعو إليها، وتحث وتجاهد من حاربها وقام بضدها.. ثم ذكر الأدلة والبراهين علىٰ ذلك فقال..

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣﴾ [النحل:٣]

هذه السورة تسمىٰ **سورة النِعَم**، فإنَّ الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها..

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق، ليستدل بهما العباد علىٰ عظمة خالقهما، وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكنًا لعباده الذين يعبدونه، بما يأمرهم به في الشرائع التي أنزلها علىٰ ألسنة رسله.. ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال..

﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣﴾ [النحل:٣] تنزه وتعاظم عن شركهم، فإنه الإله حقًا، الذي لا تنبغي العبادة والحب والذل إلا له تعالىٰ.. ولما ذَكَر خلق السماوات والأرض، ذكر خلق ما فيهما.. وبدأ بأشرف ذلك، وهو الإنسان فقال..

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾ [النحل:٤]

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ لم يزل يدبرها ويرقيها وينميها حتىٰ صارت بشرًا تامًا كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بِنِعَمِهِ الغزيرة، حتىٰ إذا استتم فَخَر بنفسه وأُعجب بها..

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾ [النحل:٤] **يحتمل أن المراد:** فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته، ونسي خلقه الأول وما أنعم الله عليه به من النعم، فاستعان بها علىٰ معاصيه.. **ويحتمل أن المعنىٰ:** أن الله أنشأ الآدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور، إلىٰ طور حتىٰ صار عاقلًا متكلمًا، ذا ذهن ورأي يخاصم ويجادل.. فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلىٰ هذه الحال التي ليس في إمكانه القدرة علىٰ شيء منها.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥﴾ [النحل:٥]

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ﴾ لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم.. من جملة منافعها العظيمة أن لكم..

﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب والفرش والبيوت..

﴿وَمَنَافِعُ﴾ ولكم فيها مَنَافِعُ غير ذلك..

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ [النحل:٥] ..

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل:٦]

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ ..

﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ في وقت راحتها وسكونها..

﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل:٦] ووقت حركتها وسرحها.. وذلك أن **جمالها لا يعود إليها منه شيء**، فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموالكم، وتعجبون بذلك.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النحل:٧]

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ من الأحمال الثقيلة.. بل وتحملكم أنتم..

﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ﴾ ولكن الله ذللها لكم.. فمنها ما تركبونه.. ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون من الأثقال إلىٰ البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة..

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النحل:٧] إذ سخرَّ لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه.. فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وسعة جوده وبره.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل:٨]

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ سخرناها لكم..

﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ﴾ تارة تستعملونها للضرورة في الركوب.. وتارة لأجل الجمال

والزينة.. ولم يذكر الأكل؛ لأن البغال والحمر محرم أكلها، والخيل لا تستعمل -في الغالب- للأكل، بل ينهىٰ عن ذبحها لأجل الأكل خوفًا من انقطاعها، وإلا فقد ثبت في الصحيحين، أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل..

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل:٨] مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم.. فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن الله تعالىٰ لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيَذكر أصلًا جامعًا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون.. كما ذكر نعيم الجنة وسمىٰ منه ما نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيرا في قوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن].. فكذلك هنا ذكر ما نعرفه من المراكب كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل].. ولما ذكر تعالىٰ الطريق الحسِّي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به، من الإبل وغيرها، ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال..

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ
وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل:٩]

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها موصل إلىٰ الله..

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله.. وهو كل ما خالف الصراط المستقيم فهو قاطع عن الله، موصل إلىٰ دار الشقاء.. فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم.. وضل الغاوون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة..

﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل:٩] ولكنَّه هدىٰ بعضا كرما وفضلا ولم يهد آخرين، حكمة منه وعدلًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل:١٠-١١]

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ ..

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ﴾ ..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل:١٠-١١] **بذلك على كمال قدرة الله الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف.. ورحمته حيث جعل فيه ماءً غزيرًا منه يشربون وتشرب مواشيهم ويسقون منه حروثهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة.**

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل:١٢]

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ **سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم بحيث لا تستغنون عنها أبدًا.. فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون..**

﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ **وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودنياكم..**

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ﴾ **وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر..**

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ **وفيهما وفي النجوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات وحساب الأزمنة ما تتنوع دلالاتها وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله..**

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل:١٢] **لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكر فيما هي مهيأة له مستعدة، تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها.**

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل:١٣]

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ فيما ذرأ الله ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض، من حيوان وأشجار ونبات، وغير ذلك، مما تختلف ألوانه، وتختلف منافعه..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ آية على كمال قدرة الله وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له..

﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل:١٣] يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه، حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل:١٤]

﴿وَهُوَ﴾ وحده لا شريك له..

﴿الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ وهيأه لمنافعكم المتنوعة..

﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه..

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالًا وحسنًا إلى حسنكم..

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ السفن والمراكب..

﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ تمخر في البحر العجاج الهائل بمقدَّمِها حتى تسلك فيه من قُطر إلى آخر..

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم..

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل:١٤] الذي يسر لكم هذه الأشياء وهيأها.. وتثنون على الله الذي منَّ بها، فلله تعالى الحمد والشكر والثناء.. حيث أعطى العباد من مصالحهم

ومنافعهم فوق ما يطلبون، وأعلىٰ ما يتمنون، وآتاهم من كل ما سألوه، لا نحصي ثناءً عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل:١٥-١٦]

﴿وَأَلْقَىٰ﴾ الله تعالىٰ لأجل عباده..

﴿فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ وهي: الجبال العظام..

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لئلا تميد بهم وتضطرب بالخَلق، فيتمكنون من حرث الأرض والبناء والسير عليها..

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ ومن رحمته تعالىٰ أن جعل فيها أنهارًا، يسوقها من أرض بعيدة إلىٰ أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم.. أنهارا علىٰ وجه الأرض، وأنهارًا في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتىٰ يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخَّر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها..

﴿وَسُبُلًا﴾ من رحمته أن جعل في الأرض سبلًا ، أي: طرقا توصل إلىٰ الديار المتنائية..

﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥﴾ السبيل إليها حتىٰ إنك تجد أرضًا مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين..

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل:١٥-١٦] ..

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل:١٧]

لما ذكر تعالىٰ ما خلقه من المخلوقات العظيمة، وما أنعم به من النعم العميمة ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفء له ولا ند له فقال..

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ جميع المخلوقات وهو الفعال لما يريد..

﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ شيئًا لا قليلًا ولا كثيرًا..

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل:١٧] فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها،

فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته.. وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أندادًا في عبادته بل أخلصوا له الدين.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ١٩﴾ [النحل:١٨-١٩]

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ عددًا مجردًا عن الشكر..

﴿لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ فضلًا عن كونكم تشكرونها.. فإنَّ نعمه الظاهرة والباطنة علىٰ العباد بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصىٰ..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ يرضىٰ منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير.. وكما أن رحمته واسعة وجوده عميم ومغفرته شاملة للعباد فعلمه محيط بهم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ١٩﴾ [النحل:١٨-١٩] بخلاف من عبد من دونه، فإنهم..

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٖ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٢١﴾ [النحل:٢٠-٢١]

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ قليلًا ولا كثيرًا..

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ٢٠﴾ فكيف يخلقون شيئًا مع افتقارهم في إيجادهم إلىٰ الله تعالىٰ؟ ومع هذا ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم، ولا غيره..

﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٖ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٢١﴾ [النحل:٢٠-٢١] فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئًا، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين؟! فتبًا لعقول المشركين، ما أضلها وأفسدها، حيث ضلَّت في أظهر الأشياء فسادًا، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه، فلا أوصاف كمال ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء والقدرة العامة

والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال..

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل:٢٢]

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يكن له كفوا أحد.. فأهل الإيمان والعقول أَجَلَّته قلوبهم وعظمته، وأحبته حبًا عظيمًا، وصرفوا له كلَّ ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنىٰ وصفاته وأفعاله المقدسة..

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ لهذا الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلا وعنادا وهو: توحيد الله..

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل:٢٢] عن عبادته.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل:٢٣]

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا لا بد..

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ من الأعمال القبيحة..

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل:٢٣] بل يبغضهم أشدَّ البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل:٢٤]

يقول تعالىٰ مخبراً عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ إذا سُئِلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها علىٰ العباد، فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها أم تكفرون

وتعاندون؟ فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه..

﴿قَالُوٓاْ﴾ فيقولون عنه: إنه..

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النحل:٢٤] أي: كذب، اختلقه محمد علىٰ الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلًا بعدَ جيل، منها الصدق ومنها الكذب.

﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ [النحل:٢٥]

﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلىٰ يوم القيامة..

﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوهم إليه، فيحملون إثمَ ما دعوهم إليه.. وأما الذين يعلمون فكلٌّ مستقلٌّ بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا..

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ [النحل:٢٥] بئس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم، من وزرهم ووزر من أضلوه.

﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ [النحل:٢٦]

﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ برسلهم واحتالوا بأنواع الحيل علىٰ رد ما جاءوهم به، وبنوا من مكرهم قصورا هائلة..

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها..

﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ فصار ما بنوه عذابا عذبوا به..

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ [النحل:٢٦] وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأصَّلوه. **وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه:** فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لمَّا كذبوهم وجعلوا

لهم أصولًا وقواعد من الباطل يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت به الرسل.. واحتالوا أيضا علىٰ إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم.. فصار مكرهم وبالًا عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم.. وذلك لأن مكرهم سيئ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] هذا في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزىٰ.. ولهذا قال..

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النحل:٢٧]

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يفضحهم علىٰ رءوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم علىٰ الله..

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاء لله.. فإذا سألهم هذا السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف]..

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ العلماء الربانيون..

﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة..

﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب..

﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النحل:٢٧] ..

📖 الفوائد

في هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأنَّ لقولهم اعتبارًا عند الله وعند خلقه.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النحل:٢٨]

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة، فقال..

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم، وقد علم ما يَلقىٰ الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة..

﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله، وقالوا..

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ فيقال لهم..

﴿بَلَىٰٓ﴾ كنتم تعملون السوء فـ..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النحل:٢٨] فلا يفيدكم الجحودُ شيئًا.

📖 **الفـوائـد**

هذا في بعض مواقف القيامة، ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا، ظنًا أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبيَّن ما كانوا عليه، أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتىٰ يعترفوا بذنوبهم.

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ
فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل:٢٩]

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كلُّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم..

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾..

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل:٢٩] نار جهنم، فإنها مثوىٰ الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتَّر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يومًا من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟
فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل:٣٠]

لما ذكر الله قيلَ المكذبين بما أنزل الله.. ذكر ما قاله المتقون..

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ﴾ اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم، امتنَّ الله به على العباد.. فقَبِلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعَلِمُوها وعَمِلوا لها..

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ في عبادة الله تعالىٰ، وأحسنوا إلىٰ عباد الله فلهم ..

﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ﴾ رزق واسع، وعيشه هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور..

﴿وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ﴾ من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإنَّ هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة ولهذا قال..

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ٣٠﴾ [النحل:٣٠] ..

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٖ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ٣١﴾ [النحل:٣١]

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٖ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾ ..

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ مهما تمنته أنفسهم وتعلقت به إرادتهم حصل لهم علىٰ أكمل الوجوه وأتمها.. فلا يمكن أن يطلبوا نوعًا من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح إلا وهو حاضر لديهم.. ولهذا يعطي اللهُ أهلَ الجنة كل ما تمنُّوه عليه، حتىٰ إنه يذكِّرهم أشياء من النعيم لم تخطر علىٰ قلوبهم.. فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده، الذي ليس كمثله شيء في صفات ذاته وصفات أفعاله، وآثار تلك النعوت، وعظمة الملك والملكوت..

﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ٣١﴾ [النحل:٣١] لسخط الله وعذابه، بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان، من حقه وحق عباده، وترك ما نهاهم الله عنه.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل:٣٢]

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مستمرين علىٰ تقواهم..

﴿طَيِّبِينَ﴾ طاهرين مطهَّرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم، ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته وألسنتهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه..

﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ التحية الكاملة حاصلة لكم، والسلامة من كل آفة، وقد سلمتم من كل ما تكرهون..

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل:٣٢] من الإيمان بالله والانقياد لأمره، فإنَّ العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته عليهم لا بحولهم وقوتهم.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النحل:٣٣]

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، وذُكِّروا فلم يتذكروا..

﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم..

﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم، فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم..

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ كذَّبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا حتىٰ نزل بهم العذاب..

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إذ عذَّبهم..

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النحل:٣٣] فإنها مخلوقة لعبادة الله ليكون مآلها إلىٰ كرامة الله، فظلموها وتركوا ما خُلقت له، وعرَّضوها للإهانة الدائمة، والشقاء الملازم.

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾ [النحل:٣٤]

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ عقوبات أعمالهم وآثارها..

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل..

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾ [النحل:٣٤] فإنَّهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب استهزأوا به، وسخروا ممن أخبر به، فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النحل:٣٥]

احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ **وأن الله لو شاء ما أشركوا..**

﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ **ولا حرموا شيئًا من الأنعام التي أحلها -كالبحيرة والوصيلة والحام ونحوها- من دونه.. وهذه حجة باطلة..**

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ فإنها لو كانت حقًا ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب.. فلو كان يحبُّ ذلك منهم لَمَا عذبهم.. وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا فعندهم علمٌ أنه لا حجة لهم على الله.. فإن الله أمرهم ونهاهم ومكنهم من القيام بما كلفهم، وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم.. **فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل**.. هذا.. وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريده من غير أن ينازعه منازع، **فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية..**

﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النحل:٣٥] أي: البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب.. ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلَّغتهم الرسلُ أمرَ ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسل من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ [النحل:٣٦]

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ يخبر تعالىٰ أن حجته قامت علىٰ جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولًا، وكلهم متفقون علىٰ دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له..

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين..

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فاتبعوا المرسلين علمًا وعملًا ..

﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فاتبع سبيل الغي..

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم..

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل:٣٦] فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجدون مكذبا إلا كان عاقبته الهلاك.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل:٣٧]

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ وتبذل جهدك في ذلك..

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله..

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل:٣٧] ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [النحل:٣٨]

يخبر تعالىٰ عن المشركين المكذبين لرسوله..

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أنهم ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: حلفوا أيمانًا مؤكدةً مغلظةً علىٰ تكذيب الله..

﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر علىٰ إحيائهم بعد أن كانوا ترابًا.. قال تعالىٰ مكذِّبًا لهم..

﴿بَلَىٰ﴾ سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه..

﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ لا يخلفه ولا يغيره..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [النحل:٣٨] ومن جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء..

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل:٣٩-٤٠]

ثم ذكر **الحكمة في الجزاء والبعث** فقال..

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من المسائل الكبار والصغار، فيبين حقائقها ويوضحها..

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾ حين يرون أعمالهم حسرات عليهم.. وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك.. وحين يرون ما يعبدون حطبًا لجهنم.. وتكور الشمس والقمر وتتناثر النجوم، ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، وأنهن مفتقرات إلىٰ الله في جميع الحالات.. وليس ذلك علىٰ الله بصعب، ولا شديد فـ.

﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ﴾ إنَّه إذا أراد شيئا قال له..

﴿كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل:٣٩-٤٠] من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون علىٰ طِبقِ ما أراده وشاءه.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [النحل:٤١]

يخبر تعالىٰ بـ: **فضل المؤمنين الممتحنين**..

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ في سبيله وابتغاء مرضاته..

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ بالأذية والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلىٰ الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فَذَكر لهم ثوابين..

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ثوابًا عاجلًا في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رأوه عيانًا بعد ما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا وآتاهم الله في الدنيا حسنة..

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله..

﴿أَكْبَرُ﴾ من أجر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ۝٢١ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٢﴾ [التوبة]..

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ [النحل:٤١] لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله لم يتخلف عن ذلك أحد.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾ [النحل:٤٢]

ثم ذكر وصف أوليائه فقال..

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية فيه والمحن..

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾ [النحل:٤٢] يعتمدون عليه في تنفيذ محابّه، لا على أنفسهم.. وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم.. **فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها**، فما فات أحدًا شيء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ
فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل:٤٣]

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ..

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة بل رجالا كاملين لا نساء..

﴿نُّوحِىٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه علىٰ العبيد من غير أن يأتوا بشيء من قِبَلِ أنفسهم..

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: الكتب السابقة..

﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل:٤٣] نبأ الأولين، وشككتم هل بعث الله رجالًا؟

الفـوائـد

١- عموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم؛ فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، فدل علىٰ أن الله ائتمنهم علىٰ وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.

٢- أعلىٰ أنواع العلم، العلم بكتاب الله المنزل، وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر علىٰ الحقيقة، وأولىٰ من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾ .

٣- إن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إلىٰ أهل العلم في جميع الحوادث، وبذلك يخرج الجاهل من التبعة.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل:٤٤]

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبينات فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالًا يوحي إليهم من أهل القرىٰ..

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: القرآن، الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة..

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه..

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل:٤٤] فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥﴾ [النحل:٤٥]

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا تخويف من الله تعالىٰ لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي..

﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ إما أن يأخذهم العذاب من أسفل منهم بالخسف وغيره..

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥﴾ [النحل:٤٥] وإما أن يأخذهم العذاب علىٰ غِرَّة وهم لا يشعرون.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٤٦﴾ [النحل:٤٦]

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ وإما في حال تقلُّبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم..

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٤٦﴾ [النحل:٤٦] فليسوا بمعجزين لله في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾ [النحل:٤٧]

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ وإما في حال تخوفهم من العذاب..

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾ [النحل:٤٧] ولكنه رءوف رحيم.. لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم، وهم يؤذونه، ويؤذون أولياءه، ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة، ويدعوهم إلىٰ الإقلاع من السيئات التي تضرهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب.. **فليستح المجرم** من ربِّه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات ومعاصيه صاعدة إلىٰ ربه في كل الأوقات.. **وليعلم** أن الله يمهل ولا يهمل، وأنه إذا أخذ العاصي أخذه أخذ عزيز مقتدر.. **فليتب** إليه، **وليرجع** في

جميع أموره إليه فإنه رءوف رحيم.. **فالبدار البدار** إلىٰ رحمته الواسعة وبره العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلىٰ فضل الربِّ الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل:٤٨]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله..

﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ إلىٰ جميع مخلوقاته..

﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ وكيف تتفيأ أظلتها..

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله..

﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل:٤٨] ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل:٤٩]

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة..

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام، خصهم بعد العموم؛ لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم ولهذا قال..

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل:٤٩] عن عبادته، علىٰ كثرتهم، وعظمة أخلاقهم وقوتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢].

📖 الفـوائـد

سجود المخلوقات لله تعالىٰ قسمان: سجود اضطرار ودلالة علىٰ ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق، من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، وحيوان ناطق، وغيره.. **وسجود اختيار** يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات .

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٥٠]

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره..

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٥٠] مهما أمرهم الله تعالىٰ امتثلوا لأمره، طوعا واختيارا.

﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل:٥١]

﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ﴾ يأمر تعالىٰ بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل علىٰ ذلك بانفراده بالنعم والوحدانية فقال..

﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: تجعلون له شريكا في إلهيته، وهو..

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها، فكما أنه الواحد في ذاته وأسمائه ونعوته وأفعاله، فلتوحِّدوه في عبادته، ولهذا قال..

﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل:٥١] خافوني وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي من غير أن تشركوا بي شيئًا من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالىٰ مملوكة.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل:٥٢]

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي: الدين والعبادة والذل في جميع الأوقات لله وحده، علىٰ الخلق أن يخلصوه لله وينصبغوا بعبوديته..

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل:٥٢] من أهل الأرض، أو أهل السماوات، فإنهم لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا، والله المنفرد بالعطاء والإحسان.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل:٥٣]

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ ظاهرة وباطنة..

﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ لا أحد يشركه فيها..

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ من فقر ومرض وشدة..

﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣﴾ [النحل:٥٣] تضجون بالدعاء والتضرع.. لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو.. فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤﴾ [النحل:٥٤]

ولكن كثيرا من الناس يظلمون أنفسهم، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة فصاروا في حال الرخاء أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال..

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ﴾ إذا نجاهم من الشدة فصاروا في حال الرخاء..

﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم﴾ كثيرٌ من الناس..

﴿بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤﴾ [النحل:٥٤] يظلمون أنفسهم، ويجحدون نعمة الله عليهم، فأشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال:..

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٥٥﴾ [النحل:٥٥]

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ أي: أعطيناهم، حيث نجيناهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة..

﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ في دنياكم قليلا..

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٥٥﴾ [النحل:٥٥] عاقبة كفركم.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ
تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ۝٥٦﴾ [النحل:٥٦]

يخبر تعالىٰ عن جهل المشركين وظلمهم وافترائهم علىٰ الله الكذب..

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وأنهم يجعلون لأصنامهم **التي لا تعلم** ولا تنفع ولا تضر..

﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ مما رزقهم الله وأنعم به عليهم.. فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقرَّبوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام]..

﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النحل:٥٦] ويقال: ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس] فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل:٥٧-٥٩]

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين إنهم بنات الله..

﴿سُبْحَانَهُ﴾ ..

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان..

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من الغم الذي أصابه..

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي كاظم على الحزن والأسف إذا بشِّر بأنثى.. وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه، و..

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ يتوارى منهم من سوء ما بشر به.. ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشّر بها..

﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يتركها من غير قتل على إهانة وذل..

﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ يدفنها وهي حية، وهو الوأد الذي ذم الله به المشركين..

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل:٥٧-٥٩] إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه.. ثم لم يكفهم هذا حتى نسبوا له أردأ القسمين، وهو الإناث اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها، فكيف ينسبونها لله تعالى؟ فبئس الحكم حكمهم.. ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون قال تعالى..

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل:٦٠]

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾ أي: المثل الناقص والعيب التام..

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾ وهو كل صفة كمال.. وكل كمال في الوجود فالله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصًا بوجه.. وله المثل الأعلىٰ في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة..

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات بأسرها..

﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل:٦٠] الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يحمد عليه ويثنىٰ علىٰ كماله فيه.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل:٦١]

لمَّا ذكر تعالىٰ ما افتراه الظالمون عليه، ذَكَرَ كَمَالَ حِلمِهِ وصَبرِه فقال..

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ من غير زيادة ولا نقص..

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل..

﴿وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم إلىٰ أجل مسمىٰ وهو يوم القيامة..

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ﴾ ..

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل:٦١] فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال، قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النحل:٦٢]

يخبر تعالىٰ أن المشركين..

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾ من البنات، ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك بصرف شيء من العبادات إلىٰ بعض المخلوقات التي هي عبيد لله.. فكما أنهم يكرهون ولا يرضون أن يكون عبيدهم -وهم مخلوقون من جنسهم- شركاء لهم فيما رزقهم الله، فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟!

﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ وهم مع هذه الإساءة العظيمة ﴿تَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة.. ردَّ عليهم بقوله..

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ٦٢﴾ [النحل:٦٢] مقدَّمون إليها، ماكثون فيها، غيرُ خارجين منها أبدًا.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾ [النحل:٦٣]

بيَّن تعالىٰ لرسوله ﷺ أنَّه ليس هو أول رسول كُذِّب فقال تعالىٰ..

﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ رسلًا يدعونهم إلىٰ التوحيد..

﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فكذَّبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجي من كل مكروه وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك..

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ فلما زين لهم الشيطان أعمالهم، صار وليهم في الدنيا، فأطاعوه واتبعوه وتولوه، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾ [الكهف]..

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾ [النحل:٦٣] في الآخرة، حيث تولوا عن ولاية الرحمن، ورضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٦٤ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٥﴾ [النحل:٦٤- ٦٥]

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٦٤﴾ ..

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ﴾ ..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٥﴾ [النحل:٦٤- ٦٥] عن الله مواعظه وتذكيره.. فيستدلوا بذلك علىٰ أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده.. لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات.. وعلىٰ أنه علىٰ كل شيء قدير.. وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر علىٰ إحياء الأموات.. وأن الذي نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة وجود عظيم.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦﴾ [النحل:٦٦]

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ التي سخرها الله لمنافعكم..

﴿لَعِبْرَةً ۖ﴾ تستدلون بها علىٰ: كمال قدرة الله.. وسعة إحسانه..

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ حيث أسقاكم من بطونها المشتملة علىٰ الفرث والدم..

﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾ فأخرج من بين ذلك لبنًا خالصًا من الكدر..

﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦﴾ [النحل:٦٦] للذته، ولأنه يسقي ويغذي.. فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية.. فأي شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح لبنًا خالصًا سائغا للشاربين؟!

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٦٧﴾ [النحل:٦٧]

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ وجعل تعالىٰ لعباده من ثمرات النخيل ..

﴿وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ يتخذ من عصيرها ونبيذها ومن السَكَر الذي كان حلالًا قبل ذلك.. ثم إنَّ الله نسخ حلَّ المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة، وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة..

﴿وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ منافعَ للعباد ومصالح من أنواع الرزق الحسن، الذي يأكله العباد طريًّا ونضيجًا وحاضرًا ومدخرًا وطعامًا وشرابًا..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٦٧﴾ [النحل:٦٧] عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة.. وعلىٰ شمول رحمته، حيث عمَّ بها عباده ويسرها لهم.. وأنَّه الإله المعبود وحده، حيث إنه المنفرد بذلك.

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾ [النحل:٦٨-٦٩]

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسَّر لها المراعي.. ثم الرجوع إلىٰ بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها..

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ﴾ ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ..

﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها..

﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ من أمراض عديدة..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾ [النحل:٦٨-٦٩] فهذا دليل علىٰ: كمال عناية الله تعالىٰ.. وتمام لطفه بعباده.. وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠﴾ [النحل:٧٠]

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾ يخبر تعالىٰ أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقة، طورا بعد طور..

﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾ ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم..

﴿وَمِنكُم مَّن﴾ يعمره حتىٰ..

﴿يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ أي: أخسه، الذي يبلغ به الإنسان إلىٰ ضَعفِ القوىٰ الظاهرة والباطنة.. حتىٰ العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضَعفُه، حتىٰ إنَّه ينسىٰ ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل ولهذا قال..

﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠﴾ [النحل:٧٠] قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء.. ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة، خلقًا بعد خلق، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم].

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾ [النحل:٧١]

وهذا من أدلة توحيده وقبح الشرك به، يقول تعالىٰ..

﴿وَٱللَّهُ﴾ كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون إلا أنه تعالىٰ..

﴿فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ فجعل منكم أحرارًا لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئًا من الدنيا..

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا..

﴿بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ ويرون هذا من الأمور الممتنعة.. فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد، ليس لها من الملك مثقال ذرة.. فكيف تجعلونها شركاء لله تعالىٰ؟! هل هذا إلا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله؟! ولهذا قال..

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٧١﴾ [النحل:٧١] فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلىٰ من أولاها، لما أشركوا به أحدا.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ۝٧٢﴾ [النحل:٧٢]

يخبر تعالىٰ عن منته العظيمة علىٰ عباده..

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ حيث جعل لهم أزواجًا ليسكنوا إليها..

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ﴾ وجعل لهم من أزواجهم أولادًا تقرُّ بهم أعينهم..

﴿وَحَفَدَةً﴾ ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة..

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من جميع المآكل والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها..

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئًا مذكورًا ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوىٰ العدم، فلا تَخلق ولا تَرزق ولا تُدبِّر من الأمرِ شيئًا.. وهذا عام لكلِّ ما عُبِدَ من دون الله، فإنها باطلة، فكيف يتخذها المشركون من دون الله؟!

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ۝٧٢﴾ [النحل:٧٢] يجحدونها ويستعينون بها علىٰ معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم وأفجر الفجور وأسفه السفه؟!

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٧٣﴾ [النحل:٧٣]

يخبر تعالىٰ عن جهل المشركين وظلمهم..

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله..

﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والحال أنهم لا يملكون لهم رزقا من السماوات والأرض، فلا ينزلون مطرًا، ولا رزقا..

﴿شَيْـًٔا﴾ ولا ينبتون من نبات الأرض شيئًا، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض..

﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾ [النحل:٧٣] لو أرادوا.. فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار علىٰ ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون.. فهذه صفة آلهتهم، كيف جعلوها مع الله؟! وشبهوها بمالك الأرض والسماوات الذي له الملك كله والحمد كله والقوة كلها؟! ولهذا قال: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾.

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾ [النحل:٧٤]

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾ [النحل:٧٤] فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال.. فلهذا ضرب تعالىٰ مثلين له ولمن يعبد من دونه، أحدهما..

﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [النحل:٧٥]

﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ رقيقًا، لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئا..

﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا﴾ والثاني حرٌّ غنيٌّ، قد رزقه الله منه رزقًا حسنًا من جميع أصناف المال..

﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ﴾ وهو كريم محب للإحسان..

﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان، غير محال استواؤهما، فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب الخالق المالك لجميع الممالك القادر علىٰ كل شيء؟! ولهذا حَمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه فقال..

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلِمَ سوَّىٰ المشركون آلهتهم بالله؟ قال..

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [النحل:٧٥] فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل:٧٦]

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ والمثل الثاني مثل..

﴿رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾ لا يسمع ولا ينطق و..

﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ لا قليل ولا كثير..

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه..

﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾ فهو ناقص من كل وجه، ف..

﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل:٧٦] فأقواله عدل، وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان فلا يستوي من عُبِد من دون الله، وهو لا يقدر على شيء من مصالحه.. فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئا منها، ولا يكون كفوا وندا لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل:٧٧]

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض، فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلا هو..

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ومن ذلك علم الساعة فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله، فإذا جاءت وتجلت لم تكن..

﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ من ذلك، فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ [النحل:٧٧] فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياؤه للموتى.

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل:٧٨]

﴿وَٱللَّهُ﴾ المنفرد بهذه النعم حيث..

﴿أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ ولا تقدرون على شيء ثم إنه..

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ خص هذه الأعضاء الثلاثة لـ: شرفها وفضلها.. ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة.. وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إياها، وجعل ينميها فيهم شيئًا فشيئًا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به..

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل:٧٨] وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله.. فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه وقابل النعمة بأقبح المقابلة.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل:٧٩]

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ لأنهم المنتفعون بآيات الله، المتفكرون فيما جعلت آية عليه، وأما غيرهم فإن نظرهم نظر لهو وغفلة..

﴿إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ **ووجه الآية فيها:** أن الله تعالى خلقها بخِلقَةٍ تصلح للطيران.. ثم سخَّر لها هذا الهواء اللطيف.. ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل:٧٩] وذلك دليل على كمال حكمته وعلمه الواسع، وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره، تبارك الله رب العالمين.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل:٨٠]

يُذَكِّر تعالىٰ عباده نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال..

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ في الدور والقصور ونحوها، تكنُّكم من الحر والبرد، وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة..

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ إما من الجلد نفسه، أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر..

﴿بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ خفيفة الحمل..

﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر..

﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا﴾ وجعل لكم ﴿مِنۡ أَصۡوَافِهَا﴾ أي: الأنعام..

﴿وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها، من الآنية، والأوعية، والفرش، والألبسة، والأجلة، وغير ذلك..

﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل:٨٠] تتمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتنتفعون بها، فهذا مما سخر الله العباد لصنعته وعمله.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النحل:٨١]

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها..

﴿ظِلَٰلٗا﴾ وذلك كأظلة الأشجار والجبال والآكام ونحوها..

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ مغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء..

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ ألبسةً وثيابًا..

﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ولم يذكر اللهُ البرد؛ لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، **ووقاية البرد من أصول النعم** فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: ٥]..

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ وثيابًا تقيكم وقت البأس والحرب من السلاح، وذلك كالدروع والزرد ونحوها..

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر..

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتم نعمة الله ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه..

﴿تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل:٨١] لعظمته وتنقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة موليها ومسديها.. فكثرة النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر، والثناء بها على الله تعالىٰ.. ولكن أبىٰ الظالمون إلا تمردا وعنادا، ولهذا قال الله عنهم..

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل:٨٢]

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الله وعن طاعته بعد ما ذُكِّروا بنعمه وآياته..

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل:٨٢] ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء.. بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير.. فإذا أديت ما عليك، فحسابهم علىٰ الله.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل:٨٣]

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ فإنهم يرون الإحسان، ويعرفون نعمة الله..

﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ولكنهم ينكرونها ويجحدونها..

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل:٨٣] لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات؛ لفساد

مشاعرهم وسوء قصودهم، وسيرون جزاءَ الله لكلِّ جبَّارٍ عنيد، كفور للنعم، متمرد علىٰ الله وعلىٰ رسله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النحل:٨٤]

يخبر تعالىٰ عن حال الذين كفروا في يوم القيامة، وأنه لا يُقبل لهم عُذر، ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تتبرأ منهم، ويقرون علىٰ أنفسهم بالكفر والافتراء علىٰ الله، فقال..

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم بأعمالهم، وماذا أجابوا به الداعي إلىٰ الهدىٰ.. وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أزكىٰ الشهداء وأعدلهم، وهم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم..

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فـ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار؛ لأن اعتذارهم بعد ما علم يقينا بطلان ما هم عليه، اعتذارٌ كاذب لا يفيدهم شيئا..

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النحل:٨٤] وإن طلبوا أيضا الرجوع إلىٰ الدنيا ليستدركوا لم يجابوا ولم يعتبوا.

﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النحل:٨٥]

﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ بل يبادرهم العذاب الشديد..

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ الذي لا يخفف عنهم..

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النحل:٨٥] من غير إنظارٍ ولا إمهالٍ من حين يرونه؛ لأنهم لا حساب عليهم؛ لأنهم لا حسنات لهم، وإنما تعد أعمالهم وتحصىٰ ويوقفون عليها ويقرون بها ويفتضحون.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النحل:٨٦]

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ يوم القيامة وعلموا بطلانها ولم يمكنهم الإنكار..

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ﴾ ليس عندها نفع ولا شفع، فنوَّهوا بأنفسهم ببطلانها، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها..

﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ ردَّت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم..

﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النحل:٨٦] حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدتمونا معه، فلم نأمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية، فاللوم عليكم.

﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ
وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [النحل:٨٧]

﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ﴾ فحينئذ استسلموا لله، وخضعوا لحكمه وعلموا إنهم مستحقون للعذاب..

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [النحل:٨٧] فدخلوا النار وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم ومن حمد ربهم، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨]

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسله..

﴿وَصَدُّوا۟﴾ الناس..

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وصاروا دعاة إلىٰ الضلال..

﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨] فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩]

لما ذكر فيما تقدم أنه يبعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ ذكر ذلك أيضًا هنا، وخصَّ منهم هذا الرسول الكريم فقال..

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ علىٰ أمتك تشهد عليهم بالخير والشر.. وهذا من **كمال عدل الله تعالىٰ** أن كلَّ رسول يشهد علىٰ أمته؛ لأنه أعظم اطلاعًا من غيره علىٰ أعمال أمته، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].. وقال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤١- ٤٢]..

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ في أصول الدين وفروعه.. وفي أحكام الدارين.. وكل ما يحتاج إليه العباد.. فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جلية.. حتىٰ إنه تعالىٰ يثني فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كلَّ وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة.. لتستقر في القلوب، فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب.. وحتىٰ إنه تعالىٰ يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس.. واعتَبِر هذا بالآية التي بعد هذه الآية وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصىٰ..

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩] فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء صار **حجة الله علىٰ العباد كلهم**.. فانقطعت به حجة الظالمين.. وانتفع به المسلمون فصار هدىٰ لهم يهتدون به إلىٰ أمر دينهم ودنياهم.. ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة.. فالهدىٰ ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح.. والرحمة ما ترتب علىٰ ذلك من

ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته علىٰ معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع والنصر علىٰ الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالىٰ وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠]

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ فالعدل الذي أمر الله به **يشمل العدل في حقه وفي حق عباده: فالعدل في ذلك**: أداء الحقوق كاملة موفرة، بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرىٰ، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي.. **والعدل هو**: ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه.. **ومن العدل في المعاملات**: أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقًا ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم..

﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ **فالعدل واجب، والإحسان فضيلة** مستحب وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتىٰ إنه يدخل فيه الإحسان إلىٰ الحيوان البهيم المأكول وغيره..

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وخص الله إيتاء ذي القربىٰ -وإن كان داخلا في العموم- لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص علىٰ ذلك.. **ويدخل في ذلك**: جميع الأقارب، قريبهم وبعيدهم، لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر..

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، والعجب، والكِبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش..

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ويدخل في المنكر: كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالىٰ..

﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض..

﴿يَعِظُكُمْ﴾ به.. أي: بما بينه لكم في كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم..

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل:٩٠] ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها.

الفوائد

هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها..

فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به، وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه..

وبها يُعلم حسنُ ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه..

وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال..

فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء..

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾ [النحل:٩١]

فلمَّا أمر بما هو واجب في أصل الشرع أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال..

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ وهذا **يشمل** جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برًا.. **ويشمل** أيضا ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال..

﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعقدها على اسم الله تعالى..

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المتعاقدون..

﴿كَفِيلًا﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم اللهُ عليكم كفيلًا، فيكون ذلك ترك تعظيم الله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلًا، فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك فلتف له بما قلته وأكدته..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١﴾ [النحل:٩١] يجازي كل عامل بعمله علىٰ حسب نيته ومقصده.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٩٢﴾ [النحل:٩٢]

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها علىٰ سفه متعاطيها، وذلك..

﴿كَٱلَّتِي﴾ تغزل غزلًا قويًا، فإذا استحكم وتم ما أريد منه

﴿نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ فجعلته..

﴿أَنكَٰثٗا﴾ فتعبت علىٰ الغزل ثم علىٰ النقض.. ولم تستفد سوىٰ الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي.. فكذلك من نقض ما عاهد عليه فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة..

﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ لا تنبغي هذه الحالة منكم.. تعقدون الأيمان المؤكدة وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفًا غير قادر علىٰ الآخر أتمَّها، لا لتعظيم العقد واليمين بل لعجزه، وإن كان قويًا يرىٰ مصلحته الدنيوية في نقضها نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه.. كل ذلك دورانًا مع أهوية النفوس، وتقديما لها علىٰ مراد الله منكم، وعلىٰ المروءة الإنسانية، والأخلاق المرضية..

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾ لأجل أن تكون أمة أكثر عددا وقوة من الأخرىٰ..

﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾ وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم الله به حيث قيَّض من أسباب المحن ما يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي..

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٩٢﴾ [النحل:٩٢] فيجازي كلًا بما عَمِل، ويخزي الغادر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [النحل:٩٣]

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ لجمع الناس على الهدى وجعلهم..

﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ..

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ﴾ ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلًا، ويمنعها من لا يستحقها عدلًا..

﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [النحل:٩٣] من خيرٍ وشرٍ، فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٩٤﴾ [النحل:٩٤]

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ وعهودكم ومواثيقكم..

﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ تبعًا لأهوائكم، متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها..

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فإنكم إذا فعلتم ذلك تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم..

﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم..

﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حيث ضللتم وأضللتم غيركم..

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٩٤﴾ [النحل:٩٤] مضاعف.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩٥﴾ [النحل:٩٥]

يحذر تعالىٰ عباده من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها فقال..

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تنالونه بالنقض وعدم الوفاء..

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب العاجل والآجل لمن آثر رضاه، وأوفىٰ بما عاهد عليه الله..

﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من حطام الدنيا الزائلة..

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩٥﴾ [النحل:٩٥] فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [النحل:٩٦]

﴿مَا عِندَكُمْ﴾ فإن الذي عندكم ولو كثر جدًا لا بد أن..

﴿يَنفَدُ﴾ ويفنىٰ..

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ ببقائه لا يفنىٰ ولا يزول، فليس بعاقل من آثر الفاني الخسيس علىٰ الباقي النفيس، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلىٰ]، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ۝١٩٨﴾ [آل عمران]..

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾ علىٰ طاعة الله وعن معصيته وفطموا نفوسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم..

﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [النحل:٩٦] الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، فإنَّ الله لا يضيع أجرَ من أحسن عملًا، ولهذا ذكرَ جزاءَ العاملين في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

🕮 الفـوائـد

١- في هذا **الحث والترغيب علىٰ الزهد** في الدنيا.. خصوصًا الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضررًا علىٰ العبد، ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه، وتقديمه علىٰ حق الله **فإنَّ هذا الزهد واجب**.

٢- من **الدواعي للزهد** أن يقابل العبد لذَّات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة، فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلىٰ إيثار أعلىٰ الأمرين.

٣- ليس الزهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذكر ونحوها.. بل لا يكون العبد زَاهدًا زُهدًا صحيحًا حتىٰ يقوم بما يَقدِر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة ومن الدعوة إلىٰ الله وإلىٰ دينه بالقول والفعل.. **فالزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع.**

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧]

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ **فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تُسمىٰ أعمالًا صالحةً إلا بالإيمان، والإيمان مقتض لها، فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح** من الواجبات والمستحبات [(١)]، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح..

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب..

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة..

﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧] من أصناف اللذات مما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، فيؤتيه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل:٩٨]

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فإذا أردت القراءة لكتاب الله الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة.. فإن الشيطان أحرص ما يكون علىٰ العبد عند شروعه

---

(١) قد يستدرك علىٰ المصنف هنا بأن جعل العمل من ثمرات الإيمان، والإيمان هو التصديق.. إلا أنَّه بجمع كلامه المتفرق في هذا الكتاب وغيره يتبين أنَّه لم يقصد ذلك، ويكون معنىٰ هذه العبارة من المصنف ما أراده ونص عليه في باقي المواضع، وهو أنَّ أعمال الجوارح ثمرة أعمال القلوب، فبحسب ما يقوم في قلب العبد من أعمال، بحسب ما يظهر علىٰ جوارحه، والله تعالىٰ أعلم.

في الأمور الفاضلة، فيسعىٰ في صرفه عن مقاصدها ومعانيها..

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾ [النحل:٩٨] فالطريق إلىٰ السلامة من شره الالتجاء إلىٰ الله، والاستعاذة به من شره.. فيقول القارئ: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) متدبِّرًا لمعناها، معتمدًا بقلبه علىٰ الله في صرفه عنه، مجتهدًا في دفع وساوسه وأفكاره الرديئة، مجتهدًا علىٰ السبب الأقوىٰ في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل.

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ [النحل:٩٩]

﴿إِنَّهُۥ﴾ إنَّ الشيطان..

﴿لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾ أي: تَسلُّط..

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ وحده لا شريك له..

﴿يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ [النحل:٩٩] فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان ولا يبق له عليهم سبيل.

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل:١٠٠]

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ﴾ أي: تسلطه..

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ يجعلونه لهم وليًا..

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل:١٠٠] وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان، وانضمامهم لحزبه، فهم الذين جعلوا له ولاية علىٰ أنفسهم، فأزَّهم إلىٰ المعاصي أزًّا وقادهم إلىٰ النار قَوْدًا.

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ
إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [النحل:١٠١]

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ يذكر تعالىٰ أن المكذبين بهذا

القرآن يتتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو أن الله تعالىٰ هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكما مكان آخر لحكمته ورحمته، فإذا رأوه كذلك قدحوا في الرسول وبما جاء به و..

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾..

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [النحل:١٠١] **فهم جهالٌ لا علم لهم بربهم ولا بشرعه..** ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به، **فإن القدح في الشيء فرع عن العلم** به، وما يشتمل عليه مما يوجب المدح أو القدح.. ولهذا ذكر تعالىٰ حكمته في ذلك فقال..

﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾ [النحل:١٠٢]

﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة..

﴿مِن رَّبِّكَ﴾..

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: نزوله بالحق وهو مشتمل علىٰ الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحا صحيحا، لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل..

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عند نزول آياته، وتواردها عليهم **وقتا بعد وقت**، فلا يزال الحق يصل إلىٰ قلوبهم شيئا فشيئًا حتىٰ يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي.. وأيضًا فإنهم يعلمون أنه الحق وإذا شرَّع حكمًا من الأحكام ثُمَّ نَسَخُه عَلِموا أنَّه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم، وأن نَسخَه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية..

﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾ [النحل:١٠٢] **يهديهم إلىٰ حقائق الأشياء.. ويبين لهم** الحق من الباطل والهدىٰ من الضلال.. **ويبشرهم أنَّ لهم أجرًا حسنًا،** ماكثين فيه أبدا.

الفـوائـد

كلما نزل شيئًا فشيئًا كان أعظم هداية وبشارة لهم، مما لو أتاهم جملةً واحدة، وتفرَّق الفكر فيه، بل ينزل الله حكمًا وبشارةً، فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترووا منه أنزل نظيره وهكذا..

ولذلك **بلغ الصحابة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ **به مبلغًا عظيمًا، وتغيَّرت أخلاقهم وطبائعهم**، وانتقلوا إلىٰ أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها الأولين والآخرين..

وكان أعلىٰ وأولىٰ لمن بعدهم أن يتربوا بعلومه ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، **فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية**[1].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل:١٠٣]

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ يخبر تعالىٰ عن قيل المشركين المكذبين لرسوله..

﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ هذا الكتاب الذي جاء به..

﴿بَشَرٌ﴾ وذلك البشر الذي يشيرون إليه..

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ اللسان..

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن..

﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل:١٠٣] هل هذا القول ممكن؟! أو له حظ من الاحتمال؟! ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من **التناقض والفساد** ما يوجب رده بمجرد تصوره.

---

(١) ومن أراد تطبيق ذلك عمليًا، فليأخذ آية واحدة من كتاب الله، ثم يجمع تفسيرها، ثم يتأمل فيها بقراءة ما جمعة، ثم يرتبه ترتيبًا حسنًا، ثم يرددها في صلاته وخاصة صلاة الليل.. فإنه ينال بذلك تربية وإصلاحًا لنفسه لن يدركه إلا بذلك.. وبحسب ما يفعل ذلك بحسب ما تكون ثمرته. والله وحده الهادي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ [النحل:١٠٤]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ **الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها..**

﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ **حيث جاءهم الهدى فردوه، فعوقبوا بحرمانه وخذلان الله لهم..**

﴿وَلَهُمۡ﴾ **في الآخرة..**

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ [النحل:١٠٤] ..

﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ [النحل:١٠٥]

﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ﴾ **إنما يصدر افتراه الكذب من..**

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ **كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات..**

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ [النحل:١٠٥] **الكذب منحصر فيهم، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم.. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله الخاضع لربه، فمحال أن يكذب على الله ويتقول عليه ما لم يقل.. فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبين فضائحهم، فله تعالى الحمد.**

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل:١٠٦]

يخبر تعالى عن شناعة حال..

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ **فعمى بعد ما أبصر، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر راضيًا به مطمئنًا..**

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ..

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ ..

﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غَضِبَ لم يقم لغضبه شيءٌ، وغضب عليهم كل شيء..

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل:١٠٦] في غاية الشدة، مع أنَّه دائمٌ أبدًا.

📖 الفـوائـد

دل ذلك على أن كلام المكره على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنه لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل:١٠٧]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ حيث ارتدوا على أدبارهم؛ طمعًا في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهدًا في خير الآخرة..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل:١٠٧] فلما اختاروا الكفر على الإيمان، منعهم الله الهداية.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [النحل:١٠٨]

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ لم يهدهم لأن الكفر وصفهم..

﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فطبع على قلوبهم، فلا يدخلها خير..

﴿وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ﴾ وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم..

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ [النحل:١٠٨] فشملتهم الغفلة، وأحاط بهم الخذلان، وحُرِموا رحمة الله التي وسعت كلَّ شيء، وذلك أنَّها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ [النحل:١٠٩]

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ [النحل:١٠٩] الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة، وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا علىٰ العذاب الأليم.. وهذا بخلاف من أكره علىٰ الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾ [النحل:١١٠]

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي ربىٰ عباده المخلصين بلطفه وإحسانه، لغفور رحيم..

﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ لمن هاجر في سبيله، وخلىٰ دياره وأمواله طلبًا لمرضاة الله..

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ وفتن علىٰ دينه ليرجع إلىٰ الكفر، فثبت علىٰ الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين..

﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده..

﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ وصبر علىٰ هذه العبادات الشاقة علىٰ أكثر الناس..

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾ [النحل:١١٠] فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب، صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه.. ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم..

﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾ [النحل:١١١]

فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة..

﴿* يَوْمَ﴾ حين..

﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ كلٌّ يقول نفسي نفسي لا يهمه سوىٰ نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلىٰ حصول مثقال ذرة من الخير..

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر..

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١١١﴾ [النحل:١١١] فلا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٤﴾ [يس].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل:١١٢]

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ وهذه القرية هي مكة المشرفة التي..

﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، حتىٰ إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه، مع شدة الحمية فيهم والنعرة العربية، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها وكذلك الرزق الواسع..

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان..

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل:١١٢]..

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١١٣﴾ [النحل:١١٣]

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلىٰ أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة..

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وكفروا بنعمة الله عليهم..

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣﴾ [النحل:١١٣] **فأذاقهم الله ضدَّ ما كانوا فيه، وألبسهم لباسَ الجوع الذي هو ضد الرغد والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم** ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾ [النحل].

﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل:١١٤]

﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ **يأمر تعالىٰ عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها..**

﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ **حالة كونها متصفة بهذين الوصفين، بحيث لا تكون مما حرَّم الله أو أثرًا عن غصب ونحوه.. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تَعَدٍّ..**

﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ **بالاعتراف بها بالقلب والثناء علىٰ الله بها وصرفها في طاعة الله..**

﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل:١١٤] **إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.**

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ [النحل:١١٥]

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ﴾ **الأشياء المضرة تنزيها لكم، وذلك: كـ..**

﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ **ويدخل في ذلك**: كل ما كان موته علىٰ غير ذكاة مشروعة.. **ويستثنىٰ من ذلك**: ميتة الجراد والسمك..

﴿وَٱلدَّمَ﴾ **المسفوح.. وأما ما يبقىٰ في العروق واللحم فلا يضر..**

﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ **لقذارته وخبثه، وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه..**

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ **كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها؛ لأنه مقصود به الشرك..**

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ إلىٰ شيء من المحرمات -بأن حملته الضرورة وخاف إن لم يأكل أن يهلك- فلا جناح عليه..

﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ إذا لم يكن باغيًا أو عاديًا.. أي: إذا لم يرد أكل المحرم وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلىٰ الحرام، أو متجاوز لما زاد علىٰ قدر الضرورة.. فهذا الذي حرَّمه الله من المباحات..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ [النحل:١١٥] ..

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النحل:١١٦]

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾ لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذبًا وافتراءً علىٰ الله وتقولًا عليه..

﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النحل:١١٦] لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيهم وإن تمتعوا في الدنيا فإنه.

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النحل:١١٧]

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ ومصيرهم إلىٰ النار..

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النحل:١١٧] فالله تعالىٰ ما حرَّم علينا إلا الخبيثات تفضلا منه، وصيانة عن كل مستقذر.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾ [النحل:١١٨]

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ وأما الذين هادوا..

﴿حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾ كما قصه في سورة الأنعام في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ

حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام]..

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل:١١٨] **فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم.**

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل:١١٩]

وهذا حض منه لعباده علىٰ التوبة، ودعوة لهم إلىٰ الإنابة..

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ **فأخبر أن من عمل سوءًا بجهالة بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمدًا للذنب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مفارقة الذنب..**

﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ **فإذا تاب وأصلح، بأن ترك الذنب وندم عليه..**

﴿وَأَصْلَحُوٓاْ﴾ **وأصلح أعماله..**

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل:١١٩] **فإن الله يغفر له ويرحمه، ويتقبل توبته، ويعيده إلىٰ حالته الأولىٰ، أو أعلىٰ منها.**

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل:١٢٠]

يخبر تعالىٰ عما فضل به خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال..

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ **إمامًا جامعًا لخصال الخير، هاديًا مهتديًا..**

﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ **مديمًا لطاعة ربه، مخلصًا له الدين..**

﴿حَنِيفًا﴾ **مقبلًا علىٰ الله بالمحبة، والإنابة والعبودية، معرضًا عمَّن سواه..**

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل:١٢٠] **في قوله وعمله، وجميع أحواله؛ لأنه إمام الموحدين الحنفاء.**

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ
وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل:١٢١]

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ﴾ آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن..

﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين..

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل:١٢١] في علمه وعمله، فعَلِمَ بالحق وآثره علىٰ غيره..

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل:١٢٢]

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ﴾ رزقًا واسعًا، وزوجةً حسناء، وذريةً صالحين، وأخلاقًا مرضية..

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل:١٢٢] الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من الله تعالىٰ.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل:١٢٣]

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ومن أعظم فضائله أن الله أوحىٰ لسيد الخلق وأكملهم..

﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾ أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمته..

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل:١٢٣]..

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [النحل:١٢٤]

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ فرضًا..

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ حين ضلوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود، فصار اختلافهم سببًا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه.. وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدىٰ الله هذه الأمة إليه..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٢٤﴾ [النحل:١٢٤] فيبيِّن لهم المحقَّ من المبطل، والمستحقَّ للثواب ممن استحق العقاب.

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل:١٢٥]

﴿ٱدۡعُ﴾ ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم..

﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ المستقيم المشتمل علىٰ العلم النافع والعمل الصالح..

﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ كل أحد علىٰ حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده.. **ومن الحكمة:** الدعوة بالعلم لا بالجهل.. والبداءة بالأهم فالأهم.. وبالأقرب إلىٰ الأذهان والفهم.. وبما يكون قبوله أتم.. وبالرفق واللين.. فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة..

﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.. **إما بما تشتمل** عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها.. **وإما بذكر** إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به.. **وإما بذكر** ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل.. فإن كان المدعو يرىٰ أن ما هو عليه حق، أو كان داعيه إلىٰ الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن..

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ وهي الطرق التي تكون أدعىٰ لاستجابته عقلًا ونقلًا.. **ومن ذلك** الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلىٰ حصول المقصود.. وأن لا تؤدي المجادلة إلىٰ خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها.. بل يكون القصد منها هداية الخلق إلىٰ الحق لا المغالبة ونحوها..

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ **علم** السبب الذي أداه إلىٰ الضلال.. **وعلم** أعماله المترتبة علىٰ ضلالته وسيجازيه عليها..

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل:١٢٥] علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم، ثم منَّ عليهم فاجتباهم.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل:١٢٦]

يقول تعالىٰ مبيحًا للعدل ونادبًا للفضل والإحسان..

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل..

﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ من غير زيادة منكم علىٰ ما أجراه معكم..

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم..

﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل:١٢٦] من الاستيفاء، وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠].. ثم أمر رسوله بالصبر علىٰ دعوة الخلق إلىٰ الله، والاستعانة بالله علىٰ ذلك، وعدم الاتكال علىٰ النفس فقال..

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل:١٢٧]

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هو الذي يعينك عليه ويثبتك..

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دعوتهم، فلم تر منهم قبولًا لدعوتك، فإنَّ الحزن لا يجدي عليك شيئًا..

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ شدة وحرج..

﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل:١٢٧] فإنَّ مكرهم عائد إليهم.. وأنت من المتقين المحسنين.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٨]

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ﴾ والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده..

﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي..

﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل:١٢٨] أحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم **والإحسان إلىٰ الخلق** ببذل النفع لهم من كل وجه.. نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

تم تفسير سورة (النحل) والحمد لله

تفسير سورة بني إسرائيل وهي مكية

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء:١]

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ﴾ ينزه تعالىٰ نفسه المقدسة ويعظمها؛ لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التي من جملتها أن..

﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ ورسوله محمد ﷺ.. وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن ومقام التحدي **بصفة العبودية؛** لأنه نال هذه المقامات الكبار بتكميله لعبودية ربه..

﴿لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ الذي هو أجل المساجد علىٰ الإطلاق..

﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة وهو محل الأنبياء.. فأسري به في ليلة واحدة إلىٰ مسافةٍ بعيدة جدًا ورجع في ليلته..

﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ بكثرة الأشجار والأنهار والخصب الدائم..

ومن بركته: تفضيله علىٰ غيره من المساجد سوىٰ المسجد الحرام ومسجد المدينة.. وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه.. وأن الله اختصه محلًا لكثير من أنبيائه وأصفيائه..

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ أراه الله من آياته ما ازداد به هدىٰ وبصيرة وثباتًا وفرقانًا.. **وهذا من اعتنائه تعالىٰ به ولطفه:** حيث يسره لليسرىٰ في جميع أموره.. وخوَّلَه نِعَمًا فاق بها الأولين والآخرين..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء:١] ..

📖 **الفـوائـد**

١- ظاهر الآية أن الإسراء **كان في أول الليل وأنه من نفس المسجد الحرام**.. لكن ثبت في الصحيح أنه أسري به من بيت أم هانئ.. فعلىٰ هذا تكون الفضيلة في المسجد الحرام **لسائر الحرم، فكله تضاعف فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد.**

٢- الإسراء بروحه وجسده معًا، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرىٰ ومنقبة عظيمة.

٣- قد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأىٰ، وأنه أسري به إلىٰ بيت المقدس، ثم عرج به من هناك إلىٰ السماوات، حتىٰ وصل إلىٰ ما فوق السماوات العلي، ورأىٰ الجنة والنار، والأنبياء علىٰ مراتبهم، وفُرِض عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسىٰ الكليم حتىٰ صارت خمسًا بالفعل، وخمسين بالأجر والثواب.. وحاز من المفاخر تلك الليلة هو وأمته ما لا يعلم مقداره إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء:٢]

كثيرا ما يقرن الباري بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسىٰ ﷺ وبين كتابيهما وشريعتيهما.. لأن كتابيهما أفضل الكتب وشريعتيهما أكمل الشرائع ونبوتيهما أعلىٰ النبوات وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا..

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ **الذي هو التوراة..**

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ **يهتدون به في ظلمات الجهل إلىٰ العلم بالحق..**

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء:٢] **وقلنا لهم ذلك وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك.. ليعبدوا الله وحده وينيبوا إليه ويتخذوه وحده وكيلا ومدبرا لهم في أمر دينهم ودنياهم..** ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئا ولا ينفعونهم بشيء.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء:٣]

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يا ذرية من مننا عليهم وحملناهم مع نوح..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾ [الإسراء:٣] ففيه التنويه بالثناء على نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بقيامه بشكر الله واتصافه بذلك.. **والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم؛ إذ أبقاهم واستخلفهم في الأرض وأغرق غيرهم.**

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤﴾ [الإسراء:٤]

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ تقدَّمنا وعهدنا إليهم..

﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وأخبرناهم في كتابهم..

﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي..

﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤﴾ [الإسراء:٤] والبطر لنعم الله والعلو في الأرض.. والتكبر فيها.. وأنه إذا وقع واحدة منهما سلَّط الله عليهم الأعداءَ وانتقم منهم.. وهذا **تحذير لهم وإنذار لعلهم يرجعون فيتذكرون.**

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾ [الإسراء:٥]

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما.. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد..

﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ بعثًا قدريًا وسلَّطنا عليكم تسليطًا كونيًا جزائيًا..

﴿عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ ذوي شجاعة وعدد وعدة.. فنصرهم اللهُ عليكم، فقتلوكم وسبوا أولادكم ونهبوا أموالكم..

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ وجاسوا خِلالَ دياركم فهتكوا الدور ودخلوا المسجد الحرام وأفسدوه..

﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾ [الإسراء:٥] لا بد من وقوعه لوجود سببه منهم.

📖 **الفوائد**

اختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلَّطين.. **إلا أنهم اتفقوا علىٰ أنهم قوم كفار**.. إما من أهل العراق أو الجزيرة أو غيرها.. **سلَّطهم الله علىٰ بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي** وتركوا كثيرًا من شريعتهم وطغوا في الأرض.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ [الإسراء:٦]

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ **علىٰ هؤلاء الذين سلطوا عليكم فأجليتموهم من دياركم..**

﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ **أكثرنا أرزاقكم وكثرناكم وقويناكم عليهم..**

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ [الإسراء:٦] **منهم وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله.**

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧﴾ [الإسراء:٧]

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ **لأن النفع عائد إليكم حتىٰ في الدنيا، كما شاهدتم من انتصاركم علىٰ أعدائكم..**

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ **فلأنفسكم يعود الضرر، كما أراكم الله من تسليط الأعداء..**

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ **المرة الآخرة التي تفسدون فيها في الأرض، سلطنا عليكم الأعداء..**

﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ **بانتصارهم عليكم وسبيكم..**

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ **والمراد بالمسجد مسجد بيت المقدس..**

﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ **يخربوا ويدمروا..**

﴿مَا عَلَوْا۟﴾ عليه..

﴿تَتْبِيرًا ۝٧﴾ [الإسراء:٧] فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحروثكم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ [الإسراء:٨]

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ﴾ فيديل لكم الكرة عليهم، فرحمهم وجعل لهم الدولة، وتوعدهم علىٰ المعاصي، فقال..

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلىٰ الإفساد في الأرض..

﴿عُدْنَا ۘ﴾ إلىٰ عقوبتكم.. فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمدا ﷺ.. فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء الدنيا وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال..

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ [الإسراء:٨] يصلونها ويلازمونها لا يخرجون منها أبدًا.

📖 الفوائد

في هذه الآيات **التحذير لهذه الأمة** من العمل بالمعاصي، لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل.. فسنة الله واحدة لا تبدل ولا تغير..

ومن نظر إلىٰ تسليط الكفرة علىٰ المسلمين والظلمة عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم عقوبة لهم..

وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله، مكّن لهم في الأرض ونصرهم علىٰ أعدائهم.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ [الإسراء:٩-١٠]

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ يخبر تعالىٰ عن شرف القرآن وجلالته وأنه..

﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ **أي: أعدل وأعلىٰ من العقائد والأعمال والأخلاق.. فمن اهتدىٰ بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره..**

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ **من الواجبات والسنن..**

﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾ **أعدَّه الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو.**

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٠﴾ [الإسراء:٩-١٠] **فالقرآن مشتمل علىٰ:** البشارة والنذارة.. **وذكر الأسباب التي تنال بها** البشارة: وهو الإيمان والعمل الصالح.. **والتي تستحق بها النذارة:** وهو ضد ذلك.

﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء:١١]

﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ **يدعو علىٰ نفسه وأولاده وماله بالشر عند الغضب ..**

﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ **ويبادر بذلك الدعاء كما يبادر بالدعاء في الخير.. ولكن الله -بلطفه- يستجيب له في الخير ولا يستجيب له بالشر،** ﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ [يونس: ١١]..

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء:١١] **وهذا من جهل الإنسان وعجلته.**

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء:١٢]

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ **دالتين علىٰ كمال قدرة الله وسعة رحمته وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له..**

﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ **جعلناه مظلمًا للسكون فيه والراحة..**

﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ **مضيئة..**

﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ **في معايشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم..**

﴿وَلِتَعۡلَمُواْ﴾ **بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر..**

﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم..

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾ [الإسراء:١٢] بيَّنا الآيات وصرفناه؛ لتتميز الأشياء ويستبين الحق من الباطل كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ [الإسراء:١٣]

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ وهذا إخبار عن كمال عدله أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر يجعله الله ملازما له لا يتعداه إلىٰ غيره، فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله..

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ فيه ما عمله من الخير والشر حاضرًا صغيره وكبيره..

﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ [الإسراء:١٣] .. ويقال له..

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء:١٤]

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ حاسب نفسك؛ ليعرف بما عليه من الحق الموجب للعقاب..

﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء:١٤] وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد هذا.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء:١٥]

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ هداية كل أحد وضلاله لنفسه..

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر..

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء:١٥] والله تعالىٰ أعدل العادلين لا يعذب أحدًا حتىٰ تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة.. وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالىٰ فإن الله تعالىٰ لا يعذبه.

📖 **الفـوائـد**

استدل بهذه الآية علىٰ أن أهل الفترات وأطفال المشركين لا يعذبهم الله حتىٰ يبعث إليهم رسولًا؛ لأنه منزّه عن الظلم.

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء:١٦]

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ يخبر تعالىٰ أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرىٰ الظالمة ويستأصلها بالعذاب..

﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أمر مترفيها أمرًا قدريا ففسقوا فيها واشتد طغيانهم..

﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ كلمة العذاب التي لا مردَّ لها..

﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء:١٦] ..

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ [الإسراء:١٧]

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب..

﴿مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾ من بعد قوم نوح، كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم واشتد كفرهم، أنزل الله بهم عقابه العظيم..

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ [الإسراء:١٧] فلا يخافوا منه ظلمًا وأنه يعاقبهم علىٰ ما عملوه.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨﴾ [الإسراء:١٨]

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ الدنيا..

﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ المنقضية الزائلة فعمل لها وسعىٰ، **ونسي المبتدأ أو المنتهىٰ..**

﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أن الله يعجل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما كتب الله له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له.. ثم يجعل له في الآخرة..

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ يباشر عذابها..

﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء:١٨] في حالة الخزي والفضيحة والذمِّ من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩]

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فرضيها وآثرها علىٰ الدنيا..

﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية، فعمل بذلك علىٰ قدر إمكانه..

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر..

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩] مقبولًا، منمّىٰ مدَّخرًا، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:٢٠]

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ﴾ ومع هذا فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا فكلًا يمده الله منها؛ لأنه عطاؤه وإحسانه..

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:٢٠] ممنوعًا من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضله، وإحسانه.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء:٢١]

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم علىٰ بعض بها..

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء:٢١] فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلىٰ الآخرة بوجه من الوجوه.. فكم بين من هو في الغرف العاليات واللذات المتنوعات والسرور والخيرات والأفراح، ممن هو يتقلب في الجحيم ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم.. وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحدا عده.

﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾ [الإسراء:٢٢]

﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ لا تعتقد أن أحدًا من المخلوقين يستحق شيئًا من العبادة.. ولا تشرك بالله أحدًا منهم.. فإن ذلك داع للذم والخذلان..

﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا﴾ فالله وملائكته ورسله قد نهوا عن الشرك، وذموا من عمله أشدَّ الذم، ورتبوا عليه من الأسماء **المذمومة** والأوصاف المقبوحة ما كان به متعاطيه أشنع الخلق وصفًا وأقبحهم نعتا..

﴿مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾ [الإسراء:٢٢] وله من **الخذلان** في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه.. فمن تعلق بغيره فهو **مخذول**، قد وُكِّل إلىٰ من تعلَّق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحدًا إلا بإذن الله.. وكما أن من جعل مع الله إلها آخر له **الذم والخذلان**، فمن وحَّده وأخلص دينه لله وتعلق به دون غيره فإنه محمود مُعان في جميع أحواله.

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ [الإسراء:٢٣]

لما نهىٰ تعالىٰ عن الشرك به أمر بالتوحيد فقال..

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ قضاءً دينيًا وأمر أمرًا شرعيًا..

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أحدًا من أهل الأرض والسماوات الأحياء والأموات..

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها علىٰ وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فهو المتفرد بذلك كله وغيره، ليس له من ذلك شيء.. ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين فقال..

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلي؛ لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكد الحق ووجوب البر..

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إذا وصلا إلىٰ هذا السن الذي تضعف فيه قواهما ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف..

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ وهذا أدنىٰ مراتب الأذىٰ، نبه به علىٰ ما سواه، والمعنىٰ لا تؤذهما أدنىٰ أذية..

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ تزجرهما وتتكلم لهما كلامًا خشنا..

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣] بلفظ يحبانه وتأدب وتلطف، بكلام لين حسن، يلذ علىٰ قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٤]

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ تواضع لهما ذُلًا لهما ورحمة، واحتسابًا للأجر، لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد..

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ ادع لهما بالرحمة أحياءً وأمواتًا..

﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ۝٢٤﴾ [الإسراء:٢٤] جزاءً علىٰ تربيتهما إياك صغيرًا.. **وفُهِم من هذا:** أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق.. **وكذلك:** من تولَّىٰ تربية الإنسان في دينه ودنياه تربية صالحة **غير الأبوين** فإنَّ له علىٰ من رباه حق التربية.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ۝٢٥﴾ [الإسراء:٢٥]

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ ربكم تعالىٰ مطلع علىٰ ما أكنَّته سرائركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلىٰ أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلىٰ قلوبكم وما فيها من الخير والشر..

﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم دائرة علىٰ مرضاة الله، ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله..

﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ﴾ الرجَّاعين إليه في جميع الأوقات..

﴿غَفُورٗا ۝٢٥﴾ [الإسراء:٢٥] فمن اطلع الله علىٰ قلبه وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبته ومحبة ما يقرب إليه، فإنَّه وإن جرىٰ منه في بعض الأوقات ما هو مقتضىٰ الطبائع البشرية، فإن الله يعفو عنه ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۝٢٦﴾ [الإسراء:٢٦]

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من البرِّ والإكرام الواجب والمسنون.. وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال والأقارب والحاجة وعدمها والأزمنة..

﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾ آته حقه من الزكاة ومن غيرها لتزول مسكنته..

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده..

﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۝٢٦﴾ [الإسراء:٢٦] فيعطي الجميع من المال علىٰ وجه لا يضر المعطي ولا يكون زائدًا علىٰ المقدار اللائق، فإنَّ ذلك تبذير قد نهىٰ الله عنه، وأخبر.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء:٢٧]

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ **لأن الشيطان لا يدعو إلا إلىٰ كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلىٰ البخل والإمساك، فإذا عصاه دعاه إلىٰ الإسراف والتبذير..**

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء:٢٧] .. **وهذا الأمر بإيتاء ذي القربىٰ مع القدرة والغنىٰ، فأما مع العدم أو تعسر النفقة الحاضرة فأمر تعالىٰ أن يُرَدوا ردًا جميلا فقال..**

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء:٢٨]

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ **تعرض عن إعطائهم..**

﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ **إلىٰ وقت آخر ترجو فيه من الله تيسير الأمر..**

﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء:٢٨] **لطيفًا، برفق ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم، كما قال تعالىٰ:** ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

📖 الفوائد

١- هذا أيضا من لطف الله تعالىٰ بالعباد.. **أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه**؛ لأن انتظار ذلك عبادة.

٢- وكذلك **وَعْدَهم بالصدقة والمعروف عند التيسر عبادة حاضرة**؛ لأن الهمَّ بفعل الحسنة حسنة.

٣- ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، **وينوي فعل ما لم يقدر عليه**؛ ليثاب علىٰ ذلك، ولعل الله ييسر له بسبب رجائه.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا
كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء:٢٩]

والله تعالىٰ إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها، ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان].. وقال هنا..

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل..

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فتنفق فيما لا ينبغي، أو زيادة علىٰ ما ينبغي..

﴿فَتَقْعُدَ﴾ إن فعلت ذلك..

﴿مَلُومًا﴾ تلام علىٰ ما فعلت..

﴿مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء:٢٩] حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال، ولا خلفه مدح وثناء.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ
إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠﴾ [الإسراء:٣٠]

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أخبر تعالىٰ أنه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده..

﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويقدره، ويضيقه علىٰ من يشاء حكمة منه..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠﴾ [الإسراء:٣٠] فيجزيهم علىٰ ما يعلمه صالحا لهم ويدبرهم بلطفه وكرمه.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ
إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١﴾ [الإسراء:٣١]

وهذا من رحمته بعباده، حيث كان أرحم بهم من والديهم..

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ فنهىٰ الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفًا من الفقر والإملاق..

﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ وتكفَّل برزق الجميع..

﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ [الإسراء:٣١] وأخبر أن قتلهم كان خطأ كبيرًا، أي: **من أعظم كبائر الذنوب**: لزوال الرحمة من القلب.. والعقوق العظيم.. والتجرؤ علىٰ قتل الأطفال الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء:٣٢]

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾ والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه فإن: «من حام حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه»[1].. خصوصًا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوىٰ داع إليه..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ﴾ ووصف الله الزنىٰ وقبحه بأنه﴿ كَانَ فَٰحِشَةٗ ﴾ أي: إثما يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لـ: تضمنه التجري علىٰ الحرمة في حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاسد..

﴿وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء:٣٢] بئس السبيل سبيل من تجرأ علىٰ هذا الذنب العظيم.

﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣﴾ [الإسراء:٣٣]

﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ﴾ وهذا شامل لكل نفس..

﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها من صغير وكبير، وذكر وأنثىٰ وحُرٍ وعبد ومسلم، وكافر له عهد..

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل..

﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا﴾ بغير حق..

---

(١) أخرجه البخاري [٥٢]، ومسلم [١٥٩٩] وغيرهما من حديث النعمان بن بشير.

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ وهو أقرب عصباته وورثته إليه..

﴿سُلْطَانًا﴾ حجة ظاهرة علىٰ القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضًا تسلطًا قدريًا علىٰ ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص، كالعمد العدوان والمكافأة..

﴿فَلَا يُسْرِف﴾ الولي..

﴿فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ والإسراف: مجاوزة الحد، إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قَتل به، أو يقتل غير القاتل.. في هذه الآية دليل إلىٰ أن الحق في القتل للولي، فلا يقتص إلا بإذنه وإن عفا سقط القصاص..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣﴾ [الإسراء:٣٣] وأن ولي المقتول يعينه الله علىٰ القاتل -ومن أعانه- حتىٰ يتمكن من قتله.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء:٣٤]

وهذا من لطفه ورحمته تعالىٰ باليتيم الذي فقد والده وهو صغير، غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها..

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ أمر أولياءه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه، وأن لا يقربوه..

﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ من التجارة فيه، وعدم تعريضه للأخطار، والحرص علىٰ تنميته..

﴿حَتَّىٰ﴾ وذلك ممتد إلىٰ أن..

﴿يَبْلُغَ﴾ اليتيم..

﴿أَشُدَّهُۥ﴾ بلوغه وعقله ورشده.. فإذا بلغ أشده زالت عنه الولاية وصار ولي نفسه، ودُفع إليه ماله، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦]..

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه..

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء:٣٤] مسئولين عن الوفاء به وعدمه، فإن وفيتم فلكم الثواب الجزيل، وإن لم تفوا فعليكم الإثم العظيم.

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾ [الإسراء:٣٥]

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ **وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين** بالقسط من غير بخس ولا نقص.. **ويؤخذ من عموم المعنىٰ: النهي عن** كلِّ غش في ثمن أو مثمن أو معقود عليه.. **والأمر** بـ: النصح والصدق في المعاملة..

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ **من عدمه..**

﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾ [الإسراء:٣٥] **أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.**

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء:٣٦]

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ **ولا تتبع ما ليس لك به علم.. بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله.. فلا تظن ذلك يذهب.. لا لك ولا عليك..**

﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء:٣٦] **فحقيق بالعبد** الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته **أن يعد للسؤال جوابًا**، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفِّها عما يكرهه الله تعالىٰ.

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ [الإسراء:٣٧]

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ كِبرًا وتيهًا وبطرًا، متكبرًا علىٰ الحق ومتعاظما علىٰ الخلق..

﴿إِنَّكَ﴾ **في فعلك ذلك..**

﴿لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ [الإسراء:٣٧] في تكبرك.. بل تكون حقيرًا عند الله.. ومحتَقرًا عند الخلق، مبغوضًا ممقوتًا.. قد اكتسبت أشرَّ الأخلاق، واكتسيت أرذلها من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨﴾ [الإسراء:٣٨]

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي نهىٰ الله عنه فيما تقدم من قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ والنهي عن عقوق الوالدين وما عطف علىٰ ذلك..

﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ﴾ كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم..

﴿مَكۡرُوهٗا ٣٨﴾ [الإسراء:٣٨] والله تعالىٰ يكرهه ويأباه.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء:٣٩]

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة..

﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ **فإنَّ الحكمة: الأمر بـ:** محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق.. **والنهي عن:** أراذل الأخلاق وأسوأ الأعمال.. وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات من الحكمة العالية التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب ليأمر بها أفضل الأمم فهي من الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا.. **ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله كما افتتحها بذلك فقال..**

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾ خالدًا مخلَّدًا، فإنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار..

﴿مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء:٣٩] قد لحقتك اللائمة واللعنة والذم من الله وملائكته والناس أجمعين.

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [الإسراء:٤٠]

وهذا إنكار شديد علىٰ من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات فقال..

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ اختار لكم الصفوة والقسم الكامل..

﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ واتخذ لنفسه من الملائكة إناثًا، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله..

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء:٤٠] فيه أعظم الجرأة علىٰ الله؛ حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكمتم له بأردأ القِسمين وهن الإناث، وهو الذي خلقكم واصطفاكم بالذكور، فتعالىٰ الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء:٤١].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يخبر تعالىٰ أنه صرَّف لعباده في هذا القرآن، أي: نوَّع الأحكام ووضحها، وأكثر من الأدلة والبراهين علىٰ ما دعا إليه، ووعظ وذكَّر..

﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه وما يضرهم فيدعوه..

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء:٤١] ولكن أبىٰ أكثرُ الناس إلا نفورًا عن آيات الله لبغضهم للحق ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل حتىٰ تعصبوا لباطلهم ولم يعيروا آيات الله لهم سمعا ولا ألقوا لها بالًا.. **ومن أعظم ما صرَّف فيه الآيات والأدلة**: التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به، ونهىٰ عن ضده، وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئًا كثيرًا، بحيث من أصغىٰ إلىٰ بعضها لا تدع في قلبه شكًّا ولا ريبًا.. ومن الأدلة علىٰ ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا فقال..

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء:٤٢]

﴿قُل﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر..

﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ علىٰ موجب زعمهم وافترائهم..

﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء:٤٢] لاتخذوا سبيلًا إلىٰ الله بعبادته والإنابة إليه والتقرب وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرىٰ شدة افتقاره لعبودية ربه إلها مع

الله؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؟! فعلىٰ هذا المعنىٰ تكون هذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ [الفرقان: ١٧-١٨]..

ويحتمل أن المعنىٰ في قوله: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝٤٢ ﴾ **أي:** لطلبوا السبيل وسعوا في مغالبة الله تعالىٰ، فإما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، فأمَا وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التي يعبدون من دون الله مقهورة مغلوبة ليس لها من الأمر شيء، فلِمَ اتخذوها وهي بهذه الحال؟! فيكون هذا كقوله تعالىٰ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤٣﴾ [الإسراء:٤٣]

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ تقدس وتنزه وعلت أوصافه..

﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك به واتخاذ الأنداد معه..

﴿عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤٣﴾ [الإسراء:٤٣] فَعَلا قَدرُه، وعظم وجلت كبرياؤه التي لا تقادر أن يكون معه آلهة، فقد ضل من قال ذلك ضلالًا مبينًا وظلم ظلمًا كبيرًا.. لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة، وصغرت لدىٰ كبريائه السماوات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن ﴿ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ ﴾ [الزمر: ٦٧].. وافتقر إليه العالم العلوي والسفلي فقرًا ذاتيًا لا ينفك عن أحد منهم في وقت من الأوقات.. هذا الفقر بجميع وجوهه فقر من جهة الخلق والرزق والتدبير، وفقر من جهة الاضطرار إلىٰ أن يكون معبودهم ومحبوبهم الذي إليه يتقربون وإليه في كل حال يفزعون.. ولهذا قال..

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤٤﴾ [الإسراء:٤٤]

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ من حيوان ناطق وغير ناطق ومن أشجار ونبات وجامد وحي وميت..

﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ بلسان الحال ولسان المقال..

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ تسبيح باقي المخلوقات التي علىٰ غير لغتكم بل يحيط بها علام الغيوب..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء:٤٤] حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولًا تكاد السماوات والأرض تتفطر منه وتخر له الجبال، ولكنه أمهلهم وأنعم عليهم وعافاهم ورزقهم ودعاهم إلىٰ بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، ليعطيهم الثواب الجزيل ويغفر لهم ذنبهم.. **فلولا حلمه ومغفرته** لسقطت السماوات علىٰ الأرض ولما ترك علىٰ ظهرها من دابة.

﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾ [الإسراء:٤٥]

يخبر تعالىٰ عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه وأعرضوا عنه أنه يحول بينهم وبين الإيمان فقال..

﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الذي فيه الوعظ والتذكير والهدىٰ والإيمان والخير والعلم الكثير..

﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾ [الإسراء:٤٥] يسترهم: عن فهمه حقيقة، وعن التحقق بحقائقه، والانقياد إلىٰ ما يدعو إليه من الخير.

﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ
رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦﴾ [الإسراء:٤٦]

﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ أغطية وأغشية..

﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعونه سماعًا تقوم به عليهم الحجة..

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ صممًا عن سماعه..

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ داعيًا لتوحيده ناهيًا عن الشرك به..

﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء:٤٦] من شدة بغضهم له ومحبتهم لما هم عليه من الباطل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر].

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء:٤٧]

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن؛ لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة، يريدون أن يعثروا علىٰ أقلِّ شيء ليقدحوا به.. وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم متعمدون علىٰ عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة لم يفده الاستماع شيئًا.. ولهذا قال..

﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي: متناجين..

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في مناجاتهم..

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء:٤٧] فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنوها علىٰ أنه مسحور، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي، لا يدري ما يقول.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء:٤٨]

﴿ٱنظُرْ﴾ متعجبًا..

﴿كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ التي هي أضل الأمثال وأبعدها عن الصواب..

﴿فَضَلُّواْ﴾ في ذلك.. أو فصارت سببًا لضلالهم؛ لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني علىٰ فاسد أفسد منه..

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء:٤٨] لا يهتدون أيَّ اهتداء، فنصيبهم الضلال المحض والظلم الصرف.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ٤٩﴾ [الإسراء:٤٩]

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ يخبر تعالىٰ عن قول المنكرين للبعث وتكذيبهم به واستبعادهم بقولهم..

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي: أجسادًا بالية..

﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ٤٩﴾ [الإسراء:٤٩] أي: لا يكون ذلك وهو محال بزعمهم.. فجهلوا أشد الجهل؛ حيث كذبوا رسلَ الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة.. فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرون عليه جعلوا قدرة الله كذلك.. فسبحان من جعل خلقًا من خلقه يزعمون أنهم أولو العقول والألباب مثالًا في جهل أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها براهين وأعلاها، ليرىٰ عباده أنه ما ثم إلا توفيقه وإعانته أو الهلاك والضلال، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران].. ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعادًا

﴿۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١﴾ [الإسراء:٥٠-٥١]

﴿۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ﴾ أي: يعظم..

﴿فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ لتسلموا بذلك علىٰ زعمكم من أن تنالكم قدرة الله، أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزي الله في أي حالة تكونون، وعلىٰ أي وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.. فدعوا التدبير والتصريف لمن هو علىٰ كل شيء قدير، وبكل شيء محيط..

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ حين تقيم عليهم الحجة في البعث..

﴿مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ فكما فطركم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، فإنه سيعيدكم خلقًا جديدًا ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]..

﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ﴾ يهزونها إنكارًا وتعجبًا مما قلت..

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾ متىٰ وقت البعث الذي تزعمه علىٰ قولك؟! لا إقرار منهم لأصل البعث، بل ذلك سفه منهم وتعجيز..

﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١﴾ [الإسراء:٥٠-٥١] فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار علىٰ تقريره والإقرار به وإثباته، وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب.

﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ٥٢﴾ [الإسراء:٥٢]

﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ﴾ للبعث والنشور وينفخ في الصور..

﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ﴾ تنقادون لأمره ولا تستعصون عليه..

﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾ هو المحمود تعالىٰ علىٰ فعله، ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد..

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ٥٢﴾ [الإسراء:٥٢] من سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.. فهذا الذي يقول عنه المنكرون: ﴿مَتَىٰ هُوَۖ﴾ ؟ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾ [المطففين].

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾ [الإسراء:٥٣]

وهذا من لطفه بعباده، حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة فقال..

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلىٰ الله، من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق علىٰ اختلاف مراتبهم ومنازلهم.. وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.. والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح فإن من مَلك لسانه مَلك جميع أمره..

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يسعىٰ بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.. فدواء

هذا: أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها.. وأن يلينوا فيما بينهم لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم..

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾ [الإسراء:٥٣] **فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه، فإنه يدعوهم** ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: ٦].. **وأما** إخوانهم: فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم وسعىٰ في العداوة فإنَّ الحزمَ كلَّ الحزمِ السعيُّ في صد عدوهم، وأن يقمعوا أنفسهم الأمارة بالسوء التي يدخل الشيطان من قِبَلها، فبذلك يطيعون ربهم ويستقيم أمرُهم ويُهدَون لرشدهم.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ٥٤﴾ [الإسراء:٥٤]

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ من أنفسكم، فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئًا والخير في عكسه..

﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ **فيوفق من شاء لأسباب الرحمة.. ويخذل من شاء فيضل عنها فيستحق العذاب..**

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ٥٤﴾ [الإسراء:٥٤] تدبر أمرهم وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل وأنت مبلغ هاد إلىٰ صراط مستقيم.

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ [الإسراء:٥٥]

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كلًا منهم ما يستحقه تقتضيه حكمته..

﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ ويفضل بعضهم علىٰ بعض في جميع الخصال الحسية والمعنوية، كما فضَّل بعض النبيين المشتركين بوحيه علىٰ بعض، بالفضائل والخصائص الراجعة إلىٰ ما منَّ به عليهم من الأوصاف الممدوحة والأخلاق المرضية

والأعمال الصالحة، وكثرة الأتباع ونزول الكتب علىٰ بعضهم المشتملة علىٰ الأحكام الشرعية والعقائد المرضية..

﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ۝٥٥﴾ [الإسراء:٥٥] كما أنزل علىٰ داود زبورًا، وهو الكتاب المعروف.. فإذا كان تعالىٰ قد فضل بعضهم علىٰ بعض، وآتىٰ بعضهم كتبًا، فلم ينكر المكذبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله عليه وما فضَّله به من النبوة والكتاب..

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء:٥٦]

﴿قُلِ﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أندادًا يعبدونهم كما يعبدون الله ويدعونهم كما يدعونه ملزمًا لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين..

﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ آلهة..

﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله.. فانظروا هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم الضر..

﴿فَلَا﴾ فإنهم لا..

﴿يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾ من مرض أو فقر أو شدة ونحو ذلك، فلا يدفعونه بالكلية..

﴿وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء:٥٦] وَلا يملكون أيضًا تحويلَه من شخصٍ إلىٰ آخر، من شدِّة إلىٰ ما دونها.. فإذا كانوا بهذه الصفة فلأي شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم ولا فعال نافعة، فاتخاذهم آلهة نقص في الدين والعقل وسفه في الرأي.. **ومن العجب**: أن السفه عند الاعتياد والممارسة وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول يراه صاحبه هو الرأي السديد والعقل المفيد.. ويرىٰ إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السفه والأمر المتعجب منه، كما قال المشركون: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾ [ص: ٥].. **ثم أخبر أيضًا** أنَّ الذين يعبدونهم من دون الله في شغل شاغل عنهم باهتمامهم بالافتقار إلىٰ الله وابتغاء الوسيلة إليه فقال..

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء:٥٧]

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة..

﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ يتنافسون في القرب من ربهم..

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ رحمته..

﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ فيجتنبون كل ما يوصل إلىٰ العذاب..

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء:٥٧] هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

📖 الفوائد

١- **هذه الأمور الثلاثة** (الخوف، والرجاء، والمحبة)، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي **الأصل والمادة في كل خير**.. فمن تمت له تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور.

٢- **علامة المحبة**: ما ذكره الله، أن **يجتهد** العبد في كل عمل يقربه إلىٰ الله، **وينافس في** قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها علىٰ أكمل الوجوه المقدور عليها.. **فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب.**

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء:٥٨]

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ما من قرية من القرىٰ المكذبة للرسل إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة..

﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ..

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ۝٥٨﴾ [الإسراء:٥٨] كتاب كتبه الله وقضاء أبرمه، لا بد من وقوعه.. فليبادر المكذبون بالإنابة إلىٰ الله وتصديق رسله قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩﴾ [الإسراء:٥٩]

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ يذكر تعالىٰ رحمته بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفًا من تكذيبهم لها، فإذا كذَّبوا بها عاجلهم العقاب وحل بهم من غير تأخير، كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها..

﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ﴾ ومن أعظم الآيات: الآية التي أرسلها الله إلىٰ ثمود..

﴿ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾ وهي الناقة العظيمة الباهرة، التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها..

﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ ومع ذلك كذَّبوا بها، فأصابهم ما قصَّ الله علينا في كتابه.. وهؤلاء كذلك لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا، فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة ما دل علىٰ صحة ما جاء به الموجب لهداية من طلب الهداية، فغيرها مثلها فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه خير لهم وأنفع..

﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩﴾ [الإسراء:٥٩] لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ۝٦٠﴾ [الإسراء:٦٠]

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ علمًا وقُدرة.. فليس لهم ملجأ يلجأون إليه ولا ملاذ يلوذون به عنه.. وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس..

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ﴾ أكثر المفسرين على أنها ليلة الإسراء..

﴿إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ ..

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم.. التي ذكرت..

﴿فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ والمعنى: **إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنة للناس** حتى استلج الكفار بكفرهم وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفًا رجع عنه.. **بسبب: أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء** ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقًا للعادة، **والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم** أيضًا من الخوارق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب.. **فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟! أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟!** فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم.. **ومن هنا تعلم: أن عدم التصريح في الكتاب والسنة بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة** المتأخرة **أولى وأحسن**؛ لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيرًا ربَّما لا تقبلها عقولهم لو أُخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريبًا في قلوب بعض المؤمنين ومانعًا يمنع من لم يدخل الإسلام، ومنفِّرًا عنه.. بل ذكر الله ألفاظًا عامة تتناول جميع ما يكون..

﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ﴾ بالآيات..

﴿فَمَا يَزِيدُهُمۡ﴾ التخويف..

﴿إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ٦٠﴾ [الإسراء:٦٠] وهذا أبلغ ما يكون في التملي بالشر ومحبته وبغض الخير وعدم الانقياد له.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ [الإسراء:٦١]

ينبه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان وحرصه على إضلالهم..

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وأنه لما خلق الله آدم استكبر عن السجود له.. و..

﴿قَالَ﴾ متكبراً..

﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١﴾ [الإسراء:٦١] من طين.. وبزعمه أنه خير منه؛ لأنه خُلق من نار.. وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه.. فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم..

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢﴾ [الإسراء:٦٢]

﴿قَالَ﴾ مخاطبا لله..

﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ لأستأصلنهم بالإضلال ولأغوينهم..

﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢﴾ [الإسراء:٦٢] عرَفَ الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.. ف..

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣﴾ [الإسراء:٦٣]

﴿قَالَ﴾ الله له..

﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ واختارك علىٰ ربه ووليه الحق..

﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣﴾ [الإسراء:٦٣] أي: مدَّخرًا لكم، موفرًا، جزاء أعمالكم.. ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم فقال..

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤﴾ [الإسراء:٦٤]

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ ويدخل في هذا كل داع إلىٰ المعصية..

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ **ويدخل فيه**: كل راكب وماش في معصية الله فهو من خيل الشيطان ورجله.. **والمقصود**: أن الله ابتلىٰ العباد بهذا العدو المبين الداعي لهم إلىٰ معصية الله بأقواله وأفعاله..

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم: من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم علىٰ الخير وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها، أو وضعها بغير حقها، أو استعمال المكاسب الردية.. **بل ذكر كثير من المفسرين** أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يسم الله في ذلك شارك فيه الشيطان كما ورد فيه الحديث..

﴿وَعِدْهُمْ﴾ الوعود المزخرفة التي لا حقيقة لها ولهذا قال..

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء:٦٤] باطلًا مضمحلًا، كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر؛ لأنهم يظنون أنهم علىٰ الحق، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة:٢٦٨].

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٦٥]

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد وذكر ما يعتصم به من فتنته وهو عبودية الله والقيام بالإيمان والتوكل فقال..

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم -بقيامهم بعبوديته- كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفايتهم..

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٦٥] لمن توكل عليه وأدّىٰ ما أُمِر به.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء:٦٦]

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ يذكر تعالىٰ نعمته علىٰ

العباد بما **سخر لهم** من الفلك والسفن والمراكب وألهمهم كيفية صنعتها.. **وسخر لها** البحر الملتطم يحملها علىٰ ظهره؛ لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٦٦﴾ [الإسراء:٦٦] وهذا من رحمته بعباده؛ فإنه لم يزل بهم رحيمًا رؤوفًا، يؤتيهم من كلِّ ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ [الإسراء:٦٧]

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ ومن رحمته الدالة علىٰ أنه وحده المعبود دون ما سواه أنهم إذا مسهم الضر في البحر، فخافوا من الهلاك، لتراكم الأمواج..

﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء، من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات، لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات، الذي تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال..

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ فلما كشف الله عنهم الضر ونجاهم إلىٰ البر..

﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع.. وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم.. وهذا من جهل الإنسان وكفره..

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ [الإسراء:٦٧] فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدىٰ الله فمن عليه بالعقل السليم واهتدىٰ إلىٰ الصراط المستقيم، فإنه يعلم أن الذي يكشف الشدائد وينجي من الأهوال هو الذي يستحق أن يفرد وتخلص له سائر الأعمال في الشدة والرخاء واليسر والعسر.. وأما من خذل ووكل إلىٰ عقله الضعيف فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة وإنجاءه في تلك الحال.. فلما حصلت له النجاة وزالت عنه المشقة ظن بجهله أنه قد أعجز الله ولم يخطر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية فضلا عن أمور الآخرة.. ولهذا ذكرهم الله بقوله..

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ [الإسراء:٦٨]

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ فهو على كل شيء قدير، إن شاء أنزل عليكم عذابًا من أسفل منكم بالخسف، أو من فوقكم بالحاصب، وهو العذاب الذي يحصبهم، فيصبحوا هالكين.. فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ [الإسراء:٦٨] ..

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء:٦٩]

﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ وإن ظننتم ذلك فأنتم آمنون من..

﴿أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر..

﴿تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ ريحًا شديدةً جدًا، تقصف ما أتت عليه..

﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ ..

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء:٦٩] تبعة ومطالبة، فإنَّ الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء:٧٠]

وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره حيث كرم بني آدم..

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بجميع وجوه الإكرام: فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة..

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ على الركاب: من الإبل والبغال والحمير.. والمراكب البرية..

﴿وَٱلۡبَحۡرِ﴾ وفي ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾، في السفن والمراكب..

﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المآكل والمشارب والملابس والمناكح.. فما من طيب تتعلق به حوائجهم إلا وقد أكرمهم الله به، وييسره لهم غاية التيسير..

﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ۝٧٠﴾ [الإسراء:٧٠] بما خصَّهم به من المناقب، وفضَّلهم به من الفضائل، التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات.. أفلا يقومون بشكر من أولىٰ النعم ودفع النقم، ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها علىٰ معاصيه.

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ۝٧١﴾ [الإسراء:٧١]

يخبر تعالىٰ عن حال الخلق يوم القيامة..

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ﴾ وأنه يدعو كل أناس..

﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ ومعهم إمامهم وهاديهم إلىٰ الرشد، وهم الرسل ونوابهم.. **فتعرض كل أمة**، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم.. **وتعرض أعمالهم** علىٰ الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين..

﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ لكونه اتبع إمامه، الهادي إلىٰ صراط مستقيم، واهتدىٰ بكتابه، فكثرت حسناته، وقلت سيئاته..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ قراءة سرور وبهجة، علىٰ ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم..

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ۝٧١﴾ [الإسراء:٧١] مما عملوه من الحسنات.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ۝٧٢﴾ [الإسراء:٧٢]

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا..

﴿أَعۡمَىٰ﴾ عن الحق فلم يقبله، ولم ينقد له، بل اتبع الضلال..

﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا..

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ [الإسراء:٧٢] فإن الجزاء من جنس العمل، كما تدين تدان.

📖 الفـوائـد

١- في هذه الآية دليل علىٰ أن كل أمة تدعىٰ إلىٰ دينها وكتابها.. هل عملت به أم لا؟

٢- وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه.

٣- وأنَّ الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، ومخالفته لها.

٤- وأن أهل الخير يعطون كتبهم بأيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم.. وأن أهل الشر بعكس ذلك، لأنهم لا يقدرون علىٰ قراءة كتبهم، من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾ [الإسراء:٧٣]

يذكر تعالىٰ منته علىٰ رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين علىٰ فتنته بكل طريق، فقال..

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه، وتحيلوا لك..

﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ﴾ علىٰ أن تفتري علىٰ الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك..

﴿وَإِذًا﴾ لو فعلت ما يهوون..

﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾ [الإسراء:٧٣] أي حبيبًا صفيًا، أعز عليهم من أحبابهم، لمَّا جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، المحببة للقريب والبعيد، والصديق والعدو.. ولكن **لتعلم أنهم لم يعادوك وينابذوك العداوة إلا للحق الذي جئت به لا لذاتك،** كما قال الله تعالىٰ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء:٧٤]

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ ومع هذا فـ ﴿لَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ على الحق، وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم..

﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء:٧٤] من كثرة المعالجة، ومحبتك لهدايتهم.

📖 **الفـوائـد**

١- في هذه الآية دليل على: **شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه**، وأنه ينبغي له أن لا يزال متملقًا لربه أن يثبته على الإيمان، ساعيًا في كل سبب موصل إلى ذلك؛ لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق، قال الله له: ﴿لَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ فكيف بغيره؟!

٢- وفيها تذكير الله لرسوله منته عليه، وعصمته من الشر، فدلَّ ذلك على أن الله **يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم** عند وجود أسباب الشر، بالعصمة منه، والثبات على الإيمان.

﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ
ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء:٧٥]

﴿إِذٗا﴾ لو ركنت إليهم بما يهوون..

﴿لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ لأصبناك بعذاب مضاعف، في الحياة الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك، وكمال معرفتك..

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء:٧٥] ينقذك مما يحل بك من العذاب.. ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر، ومن البشر فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة.

📖 **الفـوائـد**

في هذه الآية دليل علىٰ: **أنه بحسب علو مرتبة العبد**، وتواتر النعم عليه من الله **يعظم إثمه**، ويتضاعف جرمه، إذا فعل ما يلام عليه، لأن الله ذكر رسوله لو فعل -وحاشاه من ذلك- بقوله: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥ ﴾.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾ [الإسراء:٧٦]

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ﴾ أي: **من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض، ويجلوك منها..**

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾ [الإسراء:٧٦] **ولو فعلوا ذلك لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلا، حتىٰ تحل بهم العقوبة.**

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧﴾ [الإسراء:٧٧]

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ﴾ كل أمة كذبت رسولها وأخرجته عاجلها الله بالعقوبة.. ولما مكر به الذين كفروا وأخرجوه لم يلبثوا إلا قليلًا حتىٰ أوقع الله بهم بـ (بدر) وقتل صناديدهم، وفض بيضتهم، فله الحمد..

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧﴾ [الإسراء:٧٧] كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم.

📖 **الفـوائـد**

في هذه الآية دليل علىٰ: أن الله **إذا أراد إهلاك أمة تضاعف جرمها** وعظم وكبر.. فيحق عليها القول من الله فيوقع بها العقاب، **كما هي سنته في الأمم إذا أخرجوا رسولهم.**

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء:٧٨]

يأمر تعالىٰ نبيه محمدًا ﷺ بإقامة الصلاة تامة..

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا، في أوقاتها..

﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ ميلانها إلىٰ الأفق الغربي بعد الزوال.. فيدخل في ذلك: صلاة الظهر وصلاة العصر..

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ ظلمته.. فدخل في ذلك: صلاة المغرب وصلاة العشاء..

﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ صلاة الفجر.. وسميت قرآنا لـ: مشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها..

﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء:٧٨] ولفضل القراءة فيها حيث شهدها الله وملائكة الليل وملائكة والنهار.

الفـوائـد

١- في هذه الآية ذكر الأوقات الخمسة للصلوات المكتوبات.

٢- وأن الصلوات الموقعة فيه فرائض لتخصيصها بالأمر.

٣- وفيها: أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها، لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات.

٤- وأن الظهر والعصر يجمعان، والمغرب والعشاء كذلك، للعذر، لأن الله جمع وقتهما جميعًا.

٥- وفيه: فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن؛ لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها دل علىٰ فرضية ذلك.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء:٧٩]

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ صل به في سائر أوقاته..

﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات، بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.. **ويحتمل أن يكون المعنىٰ**: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلىٰ المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، ولكرامتك علىٰ الله، أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود..

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء:٧٩] وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمىٰ، حين يتشفع الخلائق بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتىٰ يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليرحمهم الله من هول الموقف وكربه، فيشفع عند ربه فيشفعه، ويقيمه مقامًا يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة علىٰ جميع الخلق.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ
وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ [الإسراء:٨٠]

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ اجعل مداخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلىٰ مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقتها الأمر..

﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ [الإسراء:٨٠] حجة ظاهرة، وبرهانًا قاطعًا علىٰ جميع ما آتيه وما أذره.. وهذا أعلىٰ حالة ينزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيرًا ومقربة له إلىٰ ربه، وأن يكون له -علىٰ كل حالة من أحواله- دليلًا ظاهرًا.. **وذلك متضمن لـ**: لعلم النافع، والعمل الصالح، للعلم بالمسائل والدلائل.

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإسراء:٨١]

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ والحق هو ما أوحاه الله إلىٰ رسوله محمد ﷺ.. فأمره الله أن يقول ويعلن: قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء..

﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ اضمحل وتلاشىٰ..

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء:٨١] هذا وصف الباطل.. ولكنه **قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق،** فعند مجيء الحق يضمحل الباطل، فلا يبقىٰ له حراك.. ولهذا **لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم** بآيات الله وبيناته.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء:٨٢]

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالقرآن مشتمل علىٰ الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكلِّ أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العاملين به.. فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب من: الشبه.. والجهالة.. والآراء الفاسدة.. والانحراف السيئ.. والقصود السيئة.. **فإنه مشتمل علىٰ:** العلم اليقيني الذي تزول به كل شبهة وجهالة.. والوعظ والتذكير الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله.. ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها.. وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها متىٰ فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل..

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء:٨٢] وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خسارًا، إذ به تقوم عليهم الحجة.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ۝٨٣﴾ [الإسراء:٨٣]

هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله..

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ فإن الإنسان -عند إنعام الله عليه- يفرح بالنعم ويبطر بها، ويعرض وينأىٰ بجانبه عن ربه، فلا يشكره ولا يذكره..

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ كالمرض ونحوه..

﴿كَانَ يَـُٔوسًا ۝٨٣﴾ [الإسراء:٨٣] من الخير، قد قطع ربُه رجاءَه، وظنَّ أن ما هو فيه دائم أبدًا.. وأما من هداه الله فإنه- عند النعم -يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضراء يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما يقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾ [الإسراء:٨٤]

﴿قُلۡ كُلّٞ﴾ من الناس..

﴿يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين.. ومن كان من غيرهم من المخذولين، لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم..

﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾ [الإسراء:٨٤] فيعلم من يصلح للهداية، فيهديه ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء:٨٥]

وهذا متضمن **لردع من يسأل المسائل التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم..**

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، **وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد**.. ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله..

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ من جملة مخلوقاته، التي أَمَرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم بغيرها..

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء:٨٥] ..

📖 الفوائد

في هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر الأولى بالسائل غيره، أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ [الإسراء:٨٦]

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ **فالذي تفضل به عليك قادر على أن يذهب به..**

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ [الإسراء:٨٦] **ثم لا تجد رادًا يرده، ولا وكيلًا يتوجه عند الله فيه.**

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الإسراء:٨٧]

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ **يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله، رحمة منه عليه وعلى عباده..**

﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الإسراء:٨٧] **وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله، فإن فضل الله عليه كبير، لا يقادر قدره.. فلتغتبط به، وتقر به عينك، ولا يحزنك تكذيب المكذبين، واستهزاء الضالين، فإنهم عرضت عليهم أجل النعم فردوها، لهوانهم على الله وخذلانه لهم.**

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨]

وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع، على صحة ما جاء به الرسول وصدقه.. حيث تحدى اللهُ الإنس والجن أن يأتوا بمثله.. وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه..

ووقع كما أخبر الله، **فإن دواعي أعدائه** المكذبين به **متوفرة** على رد ما جاء به بأي وجه كان، **وهم أهل اللسان** والفصاحة، **فلو كان عندهم أدنى تأهل** وتمكن من ذلك **لفعلوه..**

فعُلِم بذلك: أنهم أذعنوا غاية الإذعان، طوعًا وكرهًا، وعجزوا عن معارضته..

وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه، أن يعارض كلام رب الأرض والسماوات، المطلع علىٰ سائر الخفيات، الذي له الكمال المطلق، والحمد المطلق، والمجد العظيم.. الذي لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادًا، والأشجار كلها أقلام، لنفذ المداد، وفنيت الأقلام، ولم تنفد كلمات الله..

فكما أنه **ليس أحد من المخلوقين مماثلا لله في أوصافه فكلامه من أوصافه**، التي لا يماثله فيها أحد، **فليس كمثله شيء، في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله** تبارك وتعالىٰ..

فتبًا لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمدًا ﷺ افتراه علىٰ الله واختلقه من نفسه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء:٨٩]

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ **نوّعنا** فيه المواعظ والأمثال.. **وثنّينا** فيه المعاني التي يضطر إليها العباد.. **لأجل** أن يتذكروا ويتقوا..

﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء:٨٩] فلم يتذكر إلا القليل منهم، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة، وأعانهم الله بتوفيقه.. وأما أكثر الناس فأبوا إلا كفورًا لهذه النعمة، التي هي أكبر من جميع النعم، وجعلوا يتعنتون عليه باقتراح آيات غير آياته، يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة.

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ

جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء:٩٠-٩٥]

﴿وَقَالُواْ﴾ فيقولون لرسول الله ﷺ الذي أتىٰ بهذا القرآن المشتمل علىٰ كل برهان وآية..

﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ أي: أنهارًا جارية..

﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء.

﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ قطعًا من العذاب..

﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ جميعًا، أو مقابلة ومعاينة، يشهدون لك بما جئت به.

﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾ أي: مزخرف بالذهب وغيره..

﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ رقيًا حسيًا..

﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ﴾ ومع هذا فـ ﴿لَن نُّؤۡمِنَ﴾..

﴿لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ .. ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات، وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق وسوء الأدب مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات، أمره الله أن ينزهه فقال..

﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي﴾ عما تقولون علوًا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة..

﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾﴾ ليس بيده شيء من الأمر..

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾﴾ وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشرًا.. وهذا من رحمته بهم، أن أرسل إليهم بشرًا منهم، فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.. فلو..

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ يثبتون على رؤية الملائكة والتلقي عنهم.. ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء:٩٠-٩٥] ليمكنهم التلقي عنه.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء:٩٦]

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ **فمن شهادته لرسوله:** ما أيده به من المعجزات، وما أنزل عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناوأه..

﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء:٩٦] فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين، فإنه خبير بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء:٩٧]

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، فمن يهده، فييسره لليسرى ويجنبه العسرى..

﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ﴾ فهو المهتدي على الحقيقة..

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ ومن يضلله، فيخذله، ويكله إلى نفسه..

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ﴾ فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله، حين يحشرهم الله على وجوههم..

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ خزيًا عميًا وبكمًا، لا يبصرون ولا ينطقون..

﴿مَّأْوَاهُمْ﴾ مقرهم ودارهم..

﴿جَهَنَّمُ ۖ﴾ التي جمعت كل هم وغم وعذاب..

﴿كُلَّمَا خَبَتۡ﴾ تهيأت للانطفاء..

﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ۝٩٧﴾ [الإسراء:٩٧] سعرناها بهم لا يفتر عنهم العذاب.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ۝٩٨﴾ [الإسراء:٩٨]

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ولا يقضىٰ عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها.. ولم يظلمهم الله تعالىٰ، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم وأنكروا تمام قدرته..

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ۝٩٨﴾ [الإسراء:٩٨] لا يكون هذا لأنه في غاية البعد عن عقولهم الفاسدة.

﴿۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ۝٩٩﴾ [الإسراء:٩٩]

﴿۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وهي أكبر من خلق الناس..

﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ بلىٰ، إنه علىٰ ذلك قدير..

﴿وَجَعَلَ﴾ ولكنه قد ﴿جَعَلَ﴾ لذلك..

﴿لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ ولا شك، وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة، ومع إقامته الحجج والأدلة علىٰ البعث..

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ۝٩٩﴾ [الإسراء:٩٩] ظلمًا منهم وافتراء.

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ۝١٠٠﴾ [الإسراء:١٠٠]

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾ التي لا تنفد ولا تبيد..

﴿إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن

تنفد خزائن الله..

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء:١٠٠] ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾ [الإسراء:١٠١]

لست أيها الرسول المؤيد بالآيات أول رسول كذبه الناس..

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ لقد أرسلنا قبلك موسىٰ بن عمران الكليم، إلىٰ فرعون وقومه، وآتيناه..

﴿تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ كل واحدة منها تكفي لمن قصده اتباع الحق، كالحية، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والرجز، وفلق البحر.. فإن شككت في شيء من ذلك..

﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ﴾ مع هذه الآيات..

﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾ [الإسراء:١٠١] فـ..

﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ [الإسراء:١٠٢]

﴿قَالَ﴾ له موسىٰ..

﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ يا فرعون..

﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات..

﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ منه لعباده، فليس قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويجًا علىٰ قومك، واستخفافًا لهم..

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ [الإسراء:١٠٢] ممقوتًا، ملقىً في العذاب، لك الويل والذم واللعنة.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء:١٠٣-١٠٤]

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون..

﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يجليهم ويخرجهم منها..

﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ وأورثنا بني إسرائيل أرضهم وديارهم، ولهذا قال..

﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء:١٠٣-١٠٤] جميعًا ليجازىٰ كل عامل بعمله.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء:١٠٥]

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم، لأمر العباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم..

﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ بالصدق والعدل والحفظ من كل شيطان رجيم..

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل..

﴿وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء:١٠٥] لمن عصىٰ الله بالعقاب العاجل والآجل، ويلزم من ذلك بيان ما بشر به وأنذر.

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء:١٠٦]

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ وأنزلنا هذا القرآن مفرقًا، فارقًا بين الهدىٰ والضلال، والحق والباطل..

﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ علىٰ مهل، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه..

﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء:١٠٦] شيئًا فشيئًا، مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة.. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان] فإذا تبين أنه الحق، الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من الوجوه ف..

﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ
إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء:١٠٧]

﴿قُلْ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه..

﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاريه شيئًا، وإنما ضرر ذلك عليكم..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ فإنَّ لله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع..

﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء:١٠٧] يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٨]

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عما لا يليق بجلاله، مما نسبه إليه المشركون..

﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال..

﴿لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٨] لا خلف فيه ولا شك.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩]

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ علىٰ وجوههم..

﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن..

﴿خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩] وهؤلاء كالذين مَنَّ الله عليهم من مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله ابن سلام وغيره، ممن آمن في وقت النبي ﷺ وبعد ذلك.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَلَا تَجْهَرْ
بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء:١١٠]

﴿قُلِ﴾ يقول تعالىٰ لعباده..

﴿ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أيهما شئتم..

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ ليس له اسم غير حسن، أي: حتىٰ ينهىٰ عن دعائه

به، أيُّ اسم دعوتموه به حصل به المقصود.. والذي ينبغي أن يدعىٰ في كل مطلوب مما يناسب ذلك الاسم..

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ قراءتك..

﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فإن في كل من الأمرين محذورًا: **أما الجهر**: فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه سبوه، وسبوا من جاء به.. **وأما المخافتة**: فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء..

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الجهر والإخفات..

﴿سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء:١١٠] تتوسط فيما بينهما.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء:١١١]

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص..

﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ بل الملك كله لله الواحد القهار، فالعالم العلوي والسفلي كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء..

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ﴾ لا يتولىٰ أحدًا من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلىٰ أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياء إحسانًا منه إليهم ورحمة بهم ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧]..

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء:١١١] عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه بأسمائه الحسنىٰ، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة (الإسراء)

ولله الحمد والمنة والثناء الحسن

تفسير سورة الكهف وهي مكية

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ①﴾ [الكهف:١]

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو الثناء عليه بصفاته، التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية..

﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وأجل نعمه علىٰ الإطلاق، إنزاله الكتاب العظيم علىٰ عبده ورسوله، محمد ﷺ.. فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه علىٰ إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم.. ثم وصف هذا الكتاب بوصفين، مشتملين علىٰ أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما: **نفي** العوج عنه، **وإثبات** أنه قيم مستقيم..

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ①﴾ [الكهف:١] **فنفي العوج**: يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث.

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ②﴾ [الكهف:٢]

﴿قَيِّمًا﴾ **وإثبات الاستقامة**: يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلِّ الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفةً وإيمانًا وعقلًا، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس، وتطهرها وتنميها وتكملها، لاشتمالها علىٰ كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له.. وحقيق بكتاب موصوف بما ذُكِر أن يحمد الله نفسه علىٰ إنزاله، وأن يتمدح إلىٰ عباده به..

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ لينذر بهذا القرآن الكريم، عقابه الذي عنده، أي: قدره وقضاه، علىٰ من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، وهذا أيضا، من نعمه أن خوف عباده، وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم.. كما قال تعالىٰ -لما ذكر في هذا القرآن وصف النار- قال: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾ [الزمر] فمن رحمته بعباده، أن قيض العقوبات الغليظة علىٰ من خالف أمره، وبينها لهم، وبين لهم الأسباب الموصلة إليها..

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وأنزل الله علىٰ عبده الكتاب، ليبشر المؤمنين به، وبرسله وكتبه، الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي: الأعمال الصالحة، من واجب ومستحب، التي جمعت الإخلاص والمتابعة..

﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ٢﴾ [الكهف:٢] وهو الثواب الذي رتبه الله علىٰ الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله، الفوز برضا الله ودخول الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.. وفي وصفه بالحسن، دلالة علىٰ أنه لا مكدر فيه ولا منغص بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك لم يكن حسنه تاما.. ومع ذلك فهذا الأجر الحسن..

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ٣﴾ [الكهف:٣]

لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد..

وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة للمبشر به، وهو أن **هذا القرآن قد اشتمل علىٰ** كل عمل صالح، موصل لما تستبشر به النفوس، وتفرح به الأرواح.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥﴾ [الكهف:٤-٥]

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ٤﴾ من اليهود والنصارىٰ والمشركين.. الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة..

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين، لا علم منهم، ولا علم من آبائهم الذين قلدوهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوىٰ الأنفس..

﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾ عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد الذي يقتضي نقصه، ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية والإلهية، والكذب عليه؟! ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾ [الكهف].. ولهذا قال هنا..

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾ [الكهف:٥] كذبًا محضًا ما فيه من الصدق شيء، وتأمَّل كيف أبطل هذا القول بالتدريج، والانتقال من شيء إلىٰ أبطل منه، فأخبر أولا أنه.

🕮 الفوائد

تأمَّل كيف أبطل هذا القول بالتدريج، والانتقال من شيء إلىٰ أبطل منه:

فأخبر أولا: أنه ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ ﴾ والقول علىٰ الله بلا علم لا شك في منعه وبطلانه.

ثم أخبر ثانيا: أنه قول قبيح شنيع فقال ﴿ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ ﴾.

ثم ذكر ثالثًا مرتبته من القبح، وهو: الكذب المنافي للصدق.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ
يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف:٦]

ولما كان النبي ﷺ حريصا علىٰ هداية الخلق، ساعيًا في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف علىٰ المكذبين الضالين، شفقةً منه ﷺ عليهم، ورحمةً بهم..

أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف علىٰ هؤلاء، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء]، وقال ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨]، وهنا قال..

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ مهلكها، غما وأسفا عليهم..

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف:٦].. وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرًا لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم، فلم يهتدوا.. فإشغالك نفسك غما وأسفا عليهم، ليس فيه فائدة لك.

🕮 الفوائد

وفي هذه الآية ونحوها عبرة: فإنَّ المأمور بدعاء الخلق إلى الله، عليه التبليغ والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التوكل على الله في ذلك..

فإن اهتدوا فبها ونعمت، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن ذلك مضعف للنفس، هادم للقوى، ليس فيه فائدة، بل يمضي على فعله الذي كلف به وتوجه إليه، وما عدا ذلك فهو خارج عن قدرته..

وإذا كان النبي ﷺ يقول الله له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة] ، فمن عداهم من باب أولى وأحرى، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٢].

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ٨﴾ [الكهف:٧-٨]

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ يخبر تعالى: أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مآكل لذيذة، ومشارب، ومساكن طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنة واختبارا..

﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧﴾ أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه

المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة منقضية.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف:٧-٨] وستعود الأرض صعيدًا جرزا.. قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست أثارها، وزال نعيمها.

🕮 الفـوائـد

هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها..

ورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا..

فاغتر بزخرف الدنيا وزينتها، من نظر إلىٰ ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلىٰ أي حالة اتفقت..

فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات..

وأما من نظر إلىٰ باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه، فإنه يتناول منها ما يستعين به علىٰ ما خلق له، وانتهز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور، لا محل حبور، وشقة سفر، لا منزل إقامة..

فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم..

فنظر إلىٰ باطن الدنيا حين نظر المغتر إلىٰ ظاهرها، وعمل لآخرته، حين عمل البطال لدنياه، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ
كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف:٩]

﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ وهذا الاستفهام بمعنىٰ النفي، والنهي..

﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾ **أضافهم إلىٰ الكهف**، الذي هو الغار في الجبل..

﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ الكتاب الذي قد رقمت فيه أسماؤهم وقصتهم، لملازمتهم له دهرًا طويلا..

﴿كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف:٩] أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف، وما جرىٰ لهم، غريبة علىٰ آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها.. بل لله تعالىٰ من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها.. فلم يزل الله يري عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبين به الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال.. **وليس المراد بهذا:** النفي أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة.. **وإنما المراد:** أن جنسها كثير جدًا، فالوقوف معها وحدها في مقام العجب والاستغراب نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكر بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلىٰ التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان.. **ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصَّلها بعد ذلك فقال..**

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف:١٠]

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ الشباب..

﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم..

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تثبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير..

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف:١٠] يسر لنا كلَّ سببٍ موصل إلىٰ الرشد، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلىٰ محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم علىٰ أنفسهم وعلىٰ الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال..

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾ [الكهف:١١]

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾ أنمناهم..

﴿سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾ [الكهف:١١] وهي ثلاث مائة سنة وتسع سنين.. وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم وليكون آية بينة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢﴾ [الكهف:١٢]

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ من نومهم..

﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢﴾ [الكهف:١٢] لنعلم أيهم أحصىٰ لمقدار مدتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ [الكهف].. **وفي العلم بمقدار لبثهم**: ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالىٰ وحكمته ورحمته، فلو استمروا علىٰ نومهم لم يحصل الاطلاع علىٰ شيء من ذلك من قصتهم.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ [الكهف:١٣]

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ﴾ هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها علىٰ نبيه بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه..

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك علىٰ أنهم دون العشرة..

﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ آمنوا بالله وحده لا شريك له من دون قومهم.. فشكر الله لهم إيمانهم..

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ [الكهف:١٣] فزادهم هدىٰ.. أي: بسبب أصل اهتدائهم إلىٰ الإيمان زادهم الله من الهدىٰ، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ﴾ [مريم: ٧٦].

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ۝١٤﴾ [الكهف:١٤]

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ صبرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة.. وهذا من لطفه تعالىٰ بهم وبره، أن وفقهم للإيمان والهدىٰ، والصبر والثبات، والطمأنينة..

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي خلقنا ورزقنا، ودبرنا وربانا، هو خالق السماوات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك نفعًا ولا ضَرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.. فاستدلوا بتوحيد الربوبية علىٰ توحيد الإلهية، ولهذا قالوا..

﴿لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ من سائر المخلوقات..

﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا﴾ إن دعونا معه آلهة، بعد ما علمنا أنه الرب الإله الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة، إلا له..

﴿شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف:١٤] ميلًا عظيمًا عن الحق، وطريقا بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك، وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل علىٰ كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدىٰ من الله لهم.

﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف:١٥]

﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدىٰ، التفتوا إلىٰ ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبينوا أنهم ليسوا علىٰ يقين من أمرهم، بل في غاية الجهل والضلال فقالوا..

﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بحجة وبرهان، علىٰ ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلا إلىٰ ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم علىٰ الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال..

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف:١٥]..

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ [الكهف:١٦]

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ **قال بعضهم لبعض، إذ حصل لكم اعتزال** قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك، لأنهم لا سبيل لهم إلىٰ قتالهم، ولا بقائهم بين أظهرهم، وهم علىٰ غير دينهم..

﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ انضموا إليه واختفوا فيه..

﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ [الكهف:١٦] وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقولهم ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾.. **فجمعوا** بين: **التبري** من حولهم وقوتهم، **والالتجاء** إلىٰ الله في صلاح أمرهم، **ودعائه** بذلك، **وبين الثقة** بالله أنه سيفعل ذلك.. لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهيأ لهم من أمرهم مرفقا، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته علىٰ خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتىٰ المحل الذي ناموا فيه، كان علىٰ غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال..

﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف:١٧]

﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ حفظهم الله من الشمس، فيسَّر لهم غارًا إذا طلعت الشمس تميل عنه يمينًا، وعند غروبها تميل عنه شمالًا فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها..

﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ من الكهف أي: مكان متسع، وذلك ليطرقهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصًا مع طول المكث..

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ وذلك من آيات الله الدالة علىٰ قدرته ورحمته بهم، وإجابة

دعائهم وهدايتهم حتىٰ في هذه الأمور، ولهذا قال..

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ لا سبيل إلىٰ نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين..

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝١٧﴾ [الكهف:١٧] لا تجد من يتولاه ويدبِّره علىٰ ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلىٰ الخير والفلاح.. لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝١٨﴾ [الكهف:١٨]

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنهم أيقاظ، والحال أنهم نيام.. قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم منفتحة لئلا تفسد، فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظا، وهم رقود..

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وهذا أيضا من حفظه لأبدانهم؛ لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله أن قلَّبهم علىٰ جنوبهم يمينًا وشمالًا بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم.. والله تعالىٰ قادر علىٰ حفظهم من الأرض من غير تقليب، ولكنه تعالىٰ حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها..

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطًا ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فنائه، هذا حفظهم من الأرض.. وأما حفظهم من الآدميين..

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝١٨﴾ [الكهف:١٨] فأخبر أنه حماهم بالرعب، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتلأ قلبه رعبًا، وولىٰ منهم فرارًا.. وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جدًا.. والدليل علىٰ قربهم، أنهم لما استيقظوا أرسلوا أحدهم، يشتري لهم طعامًا من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدلَّ ذلك علىٰ شدة قربهم منها.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف:١٩-٢٠]

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ من نومهم الطويل..

﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ليتباحثوا للوقوف علىٰ الحقيقة من مدة لبثهم..

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وهذا مبني علىٰ ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم، فلهذا..

﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فردوا العلم إلىٰ المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلا، ولعل الله تعالىٰ -بعد ذلك- أطلعهم علىٰ مدة لبثهم: لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقينًا، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثًا.. ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعىٰ لذلك ما أمكنه، فإنَّ الله يوضح له ذلك.. وبما ذكر فيما بعده من قوله﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ فلولا أنه حصل العلم بحالهم لم يكونوا دليلًا علىٰ ما ذكر.. ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرىٰ منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بورقهم..

﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ بالدراهم، التي كانت معهم..

﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ليشتري لهم طعاما يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها..

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ وأمروه أن يتخير من الطعام أزكاه، أي: أطيبه وألذه..

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وأن يتلطف في ذهابه وشرائه وإيابه..

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ وأن يختفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرن بهم أحدا.. وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين..

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ إما الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لحنقهم عليهم وعلىٰ دينهم..

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ وإما أن يفتنوهم عن دينهم، ويردوهم في ملتم..

﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾ [الكهف:١٩-٢٠] وفي هذه الحال، لا يفلحون أبدًا، بل يحشرون في دينهم ودنياهم وأخراهم.

📖 الفـوائـد

وقد دلت هاتان الآيتان، علىٰ عدة فوائد:

١- منها: الحث علىٰ العلم، وعلىٰ المباحثة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

٢- ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلىٰ عالمه، وأن يقف عند حده.

٣- ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

٤- ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلىٰ حد الإسراف المنهي عنه لقوله ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾، وخصوصًا إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك، ولعلَّ هذا عمدة كثير من المفسرين القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك؛ لكونهم أمروه بأزكىٰ الأطعمة، التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

٥- ومنها: الحث علىٰ التحرز والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك علىٰ الإنسان وعلىٰ إخوانه في الدين.

٦- ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم وتركهم أوطانهم في الله.

٧- ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد، الداعية لبغضه وتركه، وأن هذه الطريقة هي طريقة المؤمنين المتقدمين، والمتأخرين لقولهم: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف:٢١]

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يخبر الله تعالىٰ، أنه أطلع الناس علىٰ حال أهل الكهف.. وذلك -والله أعلم- بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعامًا، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء..

﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فأراد الله أمرًا فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، علىٰ أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا بعد..

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن ناف لذلك.. فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة علىٰ الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية، وشهَّر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتىٰ عظمهم الذين اطلعوا عليهم..

﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم..

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ وقال من غلب علىٰ أمرهم، وهم الذين لهم الأمر..

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف:٢١] نعبد الله تعالىٰ فيه، ونتذكر به أحوالهم، وما جرىٰ لهم.. وهذه الحالة محظورة، نهىٰ عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها.. ولا يدل ذكرها هنا علىٰ عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلىٰ أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدًا، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذَّرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلىٰ ما ترىٰ.

🕮 الفوائد

في هذه القصة دليل علىٰ: أن من فر بدينه من الفتن سلَّمه الله منها.. وأن من حرص

علىٰ العافية عافاه الله.. ومن أوىٰ إلىٰ الله آواه الله، وجعله هداية لغيره.. ومن تحمَّل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران].

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾ [الكهف:٢٢]

يخبر تعالىٰ عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف اختلافًا صادرًا عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم علىٰ ثلاثة أقوال..

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ منهم: من يقول: ثلاثة، رابعهم كلبهم، ومنهم من يقول: خمسة، سادسهم كلبهم.. وهذان القولان، ذكر الله بعدهما، أن هذا رجم منهم بالغيب، فدلَّ علىٰ بطلانهما..

﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ ومنهم من يقول: سبعة وثامنهم كلبهم، وهذا -والله أعلم- الصواب؛ لأن الله أبطل الأولين ولم يبطله، فدل علىٰ صحته.. وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية ولا دنيوية، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم..

﴿فَلَا تُمَارِ﴾ تجادل وتحاج..

﴿فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ مبنيًا علىٰ العلم واليقين، ويكون أيضًا فيه فائدة، وأما المماراة المبنية علىٰ الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها، إما أن يكون الخصم معاندًا، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة المناقشات فيها، والبحوث المتسلسلة، تضييعًا للزمان، وتأثيرًا في مودة القلوب بغير فائدة..

﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم﴾ في شأن أهل الكهف..

﴿مِّنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب..

﴿أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف:٢٢] وذلك لأن مبنىٰ كلامهم فيهم علىٰ الرجم بالغيب والظن الذي لا يغني من الحق شيئًا.

📖 الفوائد

١- فيها دليل علىٰ المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوىٰ، إما لقصوره في الأمر المستفتىٰ فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجزه، وإذا نهي عن استفتاء هذا الجنس، فنهيه هو عن الفتوىٰ، من باب أولىٰ وأحرىٰ.

٢- وفي الآية أيضا دليل علىٰ أن الشخص قد يكون منهيًا عن استفتائه في شيء دون آخر، فيستفتىٰ فيما هو أهل له، بخلاف غيره، لأن الله لم ينه عن استفتائهم مطلقًا، إنما نهىٰ عن استفتائهم في قصة أصحاب الكهف، وما أشبهها.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف:٢٣-٢٤]

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجها للرسول ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين.. فنهىٰ الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلة..

﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ من دون أن يقرنه بمشيئة الله..

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وذلك لما فيه من المحذور، وهو: الكلام علىٰ الغيب المستقبل، الذي لا يدري، هل يفعله أم لا؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلىٰ مشيئة العبد استقلالًا.. وذلك محذور محظور، لأن المشيئة كلها لله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير]..

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ولِمَا في ذكر مشيئة الله، من تيسير الأمر وتسهيله، وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه، ولما كان العبد بشرًا، لا بد أن يسهو فيترك ذكر المشيئة، أمره الله أن يستثني بعد ذلك إذا ذكر، ليحصل المطلوب، وينفع المحذور.. ولما

كان العبد مفتقرًا إلىٰ الله في توفيقه للإصابة، وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله، أمره الله أن يقول..

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف:٢٣-٢٤] فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلىٰ الرشد.. وحري بعبد تكون هذه حاله ثم يبذل جهده ويستفرغ وسعه في طلب الهدىٰ والرشد، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره.

📖 **الفـوائـد**

يؤخذ من عموم قوله: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الأمر بذكر الله عند النسيان، فإنه يزيله، ويذكر العبد ما سها عنه.. وكذلك يؤمر الساهي الناسي لذكر الله أن يذكر ربه، ولا يكونن من الغافلين.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف:٢٥-٢٦]

لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب في شأن أهل الكهف، لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة، العالم بكل شيء، أخبره بمدة لبثهم..

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾..

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأن علم ذلك عنده وحده، فإنه من غيب السماوات والأرض، وغيبها مختص به، فما أخبر به عنها علىٰ ألسنة رسله فهو الحق اليقين، الذي لا يشك فيه، وما لا يطلع رسله عليه، فإن أحدا من الخلق، لا يعلمه..

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ تعجب من كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات، بعد ما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات.. ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامة

والخاصة، فهو الولي الذي يتولىٰ تدبير جميع الكون، الولي لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور وييسرهم لليسرىٰ، ويجنبهم العسرىٰ، ولهذا قال..

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ هو الذي تولىٰ أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يكلهم إلىٰ أحد من الخلق..

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾ [الكهف:٢٥-٢٦] وهذا يشمل الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه قضاءً وقدرًا، وخلقًا وتدبيرًا، والحاكم فيهم بأمره ونهيه، وثوابه وعقابه.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ
وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾ [الكهف:٢٧]

ولما أخبر أنه تعالىٰ، له غيب السماوات والأرض، فليس لمخلوق إليها طريق، إلا عن الطريق التي يخبر بها عباده، وكان هذا القرآن، قد اشتمل علىٰ كثير من الغيوب، أمر تعالىٰ بالإقبال عليه فقال..

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾ التلاوة: هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحىٰ الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتثال أوامره ونواهيه..

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته، أي: لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها، وبلوغها من الحسن فوق كل غاية ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، فلتمامها استحال عليها التغيير والتبديل، فلو كانت ناقصة لعرض لها ذلك أو شيء منه.. وفي هذا تعظيم للقرآن.. في ضمنه الترغيب علىٰ الإقبال عليه..

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ﴾ لن تجد من دون ربك..

﴿مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾ [الكهف:٢٧] ملجأ تلجأ إليه، ولا معاذًا تعوذ به.. فإذا تعيَّن أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو المألوه المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسئول في جميع المطالب.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨]

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ﴾ يأمر تعالىٰ نبيه محمدا ﷺ وغيره أسوته في الأوامر والنواهي، أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين..

﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أول النهار وآخره..

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ يريدون بذلك وجه الله.. فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها.. ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس علىٰ صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء، فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصىٰ..

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك..

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية.. فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة.. فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل علىٰ اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية، ولهذا قال..

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره..

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ صار تبعا لهواه، حيث ما اشتهت نفسه فعله، وسعىٰ في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية]..

﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾ مصالح دينه ودنياه..

﴿فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨] ضائعة معطلة.. فهذا قد نهىٰ الله عن طاعته؛ لأن طاعته تدعو إلىٰ الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لِمَا هو متصف به.

📖 **الفـوائـد**

١- دلت الآية علىٰ: أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماما للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك علىٰ لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها علىٰ هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلىٰ ما من الله به عليه..فحقيق بذلك، أن يُتبع ويُجعل إمامًا.

٢- والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر علىٰ طاعة الله، الذي هو أعلىٰ أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام.

٣- وفي الآية: استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك علىٰ أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف:٢٩]

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ قل للناس يا محمد: هو الحق من ربكم، أي: قد تبيَّن الهدىٰ من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بيَّنه الله علىٰ لسان رسوله، فإذا بان واتضح، ولم يبق فيه شبهة..

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه.. وقد أعطاه الله مشيئةً بها يقدر علىٰ الإيمان والكفر، والخير والشر.. فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره علىٰ الإيمان، كما قال تعالىٰ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].. وليس في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين.. ثم ذكر تعالىٰ مآل الفريقين فقال..

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر والفسوق والعصيان..

﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ أي: سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية..

﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ يطلبوا الشراب، ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد..

﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته..

﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ فكيف بالأمعاء والبطون؟! كما قال تعالىٰ ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾ [الحج: ٢٠- ٢١]..

﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ الذي يراد ليطفئ العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم..

﴿وَسَآءَتۡ﴾ النار..

﴿مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ [الكهف:٢٩] وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل الذي يرتفق به، فإنَّها ليست فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق، الذي لا يفتر عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب، كما نسوه.. ثم ذكر الفريق الثاني فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾ [الكهف:٣٠]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات..

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾ [الكهف:٣٠] **وإحسان العمل:** أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبِّعًا في ذلك شرع الله.. فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئًا منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف:٣١]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح..

﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها..

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة..

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ وحليتهم فيها الذهب..

﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ﴾ ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج..

﴿وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ والإستبرق، وهو ما رق منه..

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ وهي السرر المزيَّنة، المجمَّلة بالثياب الفاخرة فإنَّها لا تسمىٰ أريكة حتىٰ تكون كذلك.. وفي اتكائهم علىٰ الأرائك ما يدل علىٰ كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون.. وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة..

﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ للعاملين..

﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف:٣١] يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي مرتفق أحسن من دار أدنىٰ أهلها، يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألفي سنة، ولا يرىٰ فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطىٰ جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك فنعيمهم علىٰ الدوام متزايد في أوصافه وحسنه.. فنسأل الله الكريم، أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشر ما عندنا من التقصير والعصيان.

📖 **الفـوائـد**

دلت الآية الكريمة وما أشبهها، علىٰ أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة؛ لأنه أطلقها في قوله ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، وكذلك الحرير ونحوه.

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ٣٢﴾ [الكهف:٣٢]

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ..

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ اضرب للناس..

﴿مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ مثل هذين الرجلين، الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل، والثواب، ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما.. وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوىٰ ذلك من التكلف..

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين، أي: بستانين حسنين، من أعناب..

﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصًا أشرف الأشجار، العنب والنخل، فالعنب في وسطها، والنخل قد حف بذلك ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التي تكمل بها الثمار، وتنضج وتتجوهر..

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ٣٢﴾ [الكهف:٣٢] ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعًا، فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالىٰ أن كلا من الجنتين آتت أكلها.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ٣٣﴾ [الكهف:٣٣]

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: ثمرها وزرعها ضعفين، أي: متضاعفًا..

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ وأنها ﴿لَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم تنقص من أكلها أدنىٰ شيء..

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣﴾ [الكهف:٣٣] ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾ [الكهف:٣٤]

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ لذلك الرجل..

﴿ثَمَرٌ﴾ عظيم.. كما يفيده التنكير، أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحنت أشجارهما، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهىٰ زينة الدنيا في الحرث.. ولهذا اغتر هذا الرجل بهما، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته..

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الماجريات المعتادة، مفتخرًا عليه..

﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾ [الكهف:٣٤] فَخَرَ بكثرة ماله، وعزة أنصاره من عبيد، وخدم، وأقارب.. وهذا جهل منه، وإلا فأي افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزله فخر الصبي بالأماني، التي لا حقائق تحتها.. ثم لم يكفه هذا الافتخار علىٰ صاحبه، حتىٰ حكم بجهله وظلمه.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف:٣٥-٣٦]

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾..

﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ تنقطع وتضمحل..

﴿هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥﴾ فاطمأنَّ إلىٰ هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث.. فقال..

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾..

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ على ضرب المثل..

﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف:٣٥-٣٦] أي ليعطيني خيرًا من هاتين الجنتين.. **وهذا لا يخلو من أمرين:** إما أن يكون عالمًا بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء، فيكون زيادة كفر إلى كفره.. وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظًا من العقل، فأي: تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أنَّ من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة، **بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه** الذين ليس لهم في الآخرة نصيب.. والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [الكهف: ٣٥] فإثبات أن وصفه الظلم في حال دخوله الذي جرى منه من القول ما جرى، يدلُّ على تمرده وعناده.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٤٢ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝٤٣ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤﴾ [الكهف:٣٧-٤٤]

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المؤمن..

﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ ناصحًا له..

﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ ومذكرًا له حاله الأولى، التي أوجده الله فيها في الدنيا..

﴿مِن تُرَابٍ﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم..

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ونقلك من طور إلىٰ طور..

﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ حتىٰ سواك رجلًا، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسَّر لك الأسباب، وهيأ لك ما هيأ من نعم الدنيا.. فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالىٰ عليك.. فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلا وتجحد نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيرًا من جنتك؟! هذا مما لا ينبغي ولا يليق.. ولهذا لما رأىٰ صاحبه المؤمن حاله واستمراره علىٰ كفره وطغيانه، قال مخبرًا عن نفسه، علىٰ وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه عند ورود المجادلات والشبه..

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ فأقر بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزام طاعته وعبادته..

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ۝٣٨﴾ وأنه لا يشرك به أحدًا من المخلوقين.. ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولد، أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرض للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال..

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾..

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾ قال للكافر صاحبُه المؤمن: أنت -وإن فخرت علي بكثرة مالك وولدك، ورأيتني أقلَّ منك مالًا وولدًا- فإنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقىٰ، وما يُرجىٰ من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون..

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾..

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ علىٰ جنتك التي طغيت بها وغرتك..

﴿حُسْبَانًا﴾ عذابًا..

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بمطر عظيم أو غيره..

﴿فَتُصْبِحَ﴾ بسبب ذلك..

﴿صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾ قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا﴾ الذي مادتها منه..

﴿غَوْرًا﴾ غائرًا في الأرض..

﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ۝٤١﴾ أي: غائرًا لا يستطاع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها.. وإنما **دعا علىٰ جنته المؤمن غضبًا لربه،** لكونها غرته وأطغته واطمأن إليها، **لعلَّه ينيب ويراجع رشده،** ويبصر في أمره.. فاستجاب الله دعاءه..

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أصابه عذابٌ أحاط به واستهلكه، فلم يبق منه شيء.. والإحاطة بالثمر يستلزم تلفَ جميع أشجاره وثماره وزرعه.. فنَدِم كلَّ الندامة، واشتد لذلك أسفُه..

﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي علىٰ كثرة نفقاته الدنيوية عليها..

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض..

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٤٢﴾ وندم أيضا علىٰ شركه، وشره، ولهذا قال ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾..

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ۝٣٤﴾، فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئًا أشد ما كان إليهم حاجة..

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝٤٣﴾ وما كان بنفس منتصرًا، وكيف ينتصر؟! أي: يكون له أنصارًا علىٰ قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدَّره، لو اجتمع أهل السماء والأرض علىٰ إزالة شيء منه، لم يقدروا.. **ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه أن صاحب هذه الجنة** التي أحيط بها **تحسَّنَت حاله،** ورزَقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه.. **بدليل** أنه أظهر الندم علىٰ شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا :تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول..

﴿هُنَالِكَ﴾ في تلك الحال التي أجرىٰ الله فيها: **العقوبة** علىٰ من طغىٰ، وآثر الحياة الدنيا.. **والكرامة** لمن آمن، وعمل صالحًا، وشكر الله، ودعا غيره لذلك..

﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ تبيَّن وتوضَّح أن الولاية لله الحق: **فمن كان مؤمنًا** به تقيًا، كان له وليًا، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمَثُلات.. **ومن لم يؤمن** بربه ويتولاه، خسر دينه ودنياه، فثوابه الدنيوي والأخروي خير ثواب يرجىٰ ويؤمل..

﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ۝٤٤﴾ [الكهف:٤٠-٤٤] أي: عاقبةً ومآلا.

الفـوائـد

ففي هذه القصة العظيمة:

١- اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نِعَمًا دنيوية، فألهته عن آخرته وأطغته، وعصىٰ الله فيها، أن **مآلها الانقطاع والاضمحلال**.

٢- وأنه **وإن تمتع بها قليلًا فإنَّه يُحرمها طويلًا**.

٣- وأن العبد ينبغي له -إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده- أن **يضيف النعمة إلىٰ موليها** ومسديها، وأن يقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ ليكون شاكرًا لله متسببا لبقاء نعمته عليه، لقوله ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

٤- وفيها: الإرشاد إلىٰ **التسلي عن لذات الدنيا** وشهواتها، **بما عند الله** من الخير لقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

٥- وفيها أن المال والولد لا ينفعان، إن لم يعينا علىٰ طاعة الله كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [سبأ: ٣٧].

٦- وفيه الدعاء بتلف مال ما كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصًا إن فضَّل نفسه بسببه علىٰ المؤمنين، وفخر عليهم.

وفيها أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلىٰ الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم، فـ ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف:٤٥]

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ أصلًا ولمن قام بوراثته بعده تبعًا..

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ اضرب للناس مثل الحياة الدنيا؛ ليتصوروها حقَّ التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها.. فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولىٰ بالإيثار..

﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ وأن مثل هذه الحياة الدنيا، كمثل المطر، ينزل على الأرض، فيختلط نباتها.. تنبت من كل زوج بهيج..

﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ فبينا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيمًا تذروه الرياح.. فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي.. فأصبحت الأرض غبراء ترابًا، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب.. **كذلك هذه الدنيا:** بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصَّل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه.. إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام، وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سيئ أعماله.. هنالك يعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات.. **فالعاقل الجازم الموفق:** يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدِّري أنك قد مت، ولا بد أن تموتي، فأي: الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين؟ **فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه**، وربحه من خسرانه..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف:٤٥]..

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف:٤٦]

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء..

﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات.. **وهذا يشمل** جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله، وحقوق عباده، من صلاة،

وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات، والمماليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلىٰ الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات..

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦] **فهذه خير عند الله ثوابًا وخير أملًا،** فثوابها يبقىٰ ويتضاعف علىٰ الآباد، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة.. فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجد في تحصيلها المجتهدون.

📖 الفـوائـد

تأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها.. ذَكَر أن الذي فيها نوعان: **نوع من زينتها،** يتمتع به قليلًا ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته، وهو المال والبنون.. **ونوع يبقىٰ** وينفع صاحبه علىٰ الدوام، وهي الباقيات الصالحات.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً
وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف:٤٧]

يخبر تعالىٰ عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأهوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال..

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ يزيلها عن أماكنها، يجعلها كثيبًا، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلاشىٰ، وتكون هباءً منبثًا..

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ وتبرز الأرض فتصير قاعًا صفصفًا، لا عوج فيه ولا أمتًا..

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف:٤٧] ويحشر الله جميع الخلق علىٰ تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحدًا.. بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات، وقعور البحار، ويجمعهم بعد ما تفرَّقوا، ويعيدهم بعد ما تمزقوا، خلقًا جديدًا.

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ
بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف:٤٨]

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾ فيعرضون عليه صفًا؛ ليستعرضهم وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم..

﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ﴾ بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة.. ما معهم إلا الأعمال التي عملوها، والمكاسب في الخير والشر التي كسبوها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾ [الأنعام: ٩٤].. وقال هنا مخاطبًا للمنكرين للبعث، وقد شاهدوه عيانا..

﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨﴾ [الكهف:٤٨] أنكرتم الجزاء علىٰ الأعمال، وَوَعدَ الله ووعيدَه.. فها قد رأيتموه وذقتموه، فحينئذ تحضر كتب الأعمال.

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف:٤٩]

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ التي كتبتها الملائكة الكرام فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب..

﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ﴾ ويشفق منها المجرمون، فإذا رأوها مُسطرة عليهم أعمالهم، محصىٰ عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا..

﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾ لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة..

﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار..

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ لا يقدرون علىٰ إنكاره..

﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف:٤٩] فحينئذ يجازون بها، ويقررون بها، ويخزون، ويحق عليهم العذاب، ذلك بما قدمت أيديهم، وأن الله ليس بظلام للعبيد، بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾ [الكهف:٥٠]

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ يخبر تعالىٰ، عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، إكرامًا وتعظيمًا، وامتثالًا لأمر الله..

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ فامتثلوا ذلك..

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ وقال: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [ص: ٧٦]، فتبيَّن بهذا عداوته لله ولأبيكم ولكم..

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ فكيف تتخذونه..

﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ الشياطين..

﴿أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ﴾..

﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾ [الكهف:٥٠] بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته.

🕮 الفـوائـد

١- في هذه الآية: الحث علىٰ اتخاذ الشيطان عدوًا، والإغراء بذلك.

٢- وذكر السبب الموجب لذلك.

٣- وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي: ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوَّه الحقيقي وليًا، وترك الولي الحميد؟! قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠].

﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ [الكهف:٥١]

﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ يقول تعالىٰ: ما أشهدت الشياطين وهؤلاء المضلين..

﴿خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، أي: ما أحضرتهم ذلك، ولا شاورتهم عليه، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك؟! بل المنفرد بالخلق والتدبير والحكمة والتقدير هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته، فكيف يجعل له شركاء من الشياطين، يوالون ويطاعون، كما يطاع الله، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقًا، ولم يعاونوا الله تعالىٰ؟! ولهذا قال..

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ [الكهف:٥١] معاونين، مظاهرين لله علىٰ شأن من الشئون، أي: ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطًا من التدبير؛ لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم، فاللائق أن يقصيهم ولا يدنيهم.. ولما ذَكَر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفهه، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة.

﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ٥٢﴾ [الكهف:٥٢]

﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ﴾ وأن الله يقول لهم..

﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ﴾ بزعمكم..

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ علىٰ موجب زعمكم الفاسد.. وإلا فبالحقيقة ليس لله شريك في الأرض، ولا في السماء.. أي: نادوهم لينفعوكم ويخلصوكم من الشدائد..

﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره..

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم﴾ بين المشركين وشركائهم..

﴿مَّوۡبِقٗا ۝٥٢﴾ [الكهف:٥٢] مهلكا، يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض.. ويتبين حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريهم منهم، كما قال تعالىٰ ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف].

﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا
وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ۝٥٣﴾ [الكهف:٥٣]

﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقت كلمة العذاب علىٰ المجرمين، فرأوا جهنم قبل دخولها..

﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ فانزعجوا واشتد قلقهم؛ لظنهم أنهم مواقعوها.. وهذا الظن -قال المفسرون- إنه بمعنىٰ اليقين، فأيقنوا أنهم داخلوها..

﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ۝٥٣﴾ [الكهف:٥٣] معدلا يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه، وفي هذا من التخويف والترهيب، ما ترعد له الأفئدة والقلوب.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ
وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ۝٥٤﴾ [الكهف:٥٤]

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ يخبر الله تعالىٰ عن عظمة القرآن، وجلالته، وعمومه، وأنه صرَّف فيه من كل مثل، أي: من كل طريق موصل إلىٰ العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك.. ففيه: أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقادًا، وطمأنينة، ونورا.. وهذا مما يوجب: التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور.. ومع ذلك كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾ ولهذا قال..

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ۝٥٤﴾ [الكهف:٥٤] مجادلة ومنازعة فيه.. مع أن ذلك

غير لائق بهم، ولا عدل منهم.. والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعناد، لا لقصور في بيانه وحجته، وبرهانه، وإلا فلو جاءهم العذاب وجاءهم ما جاء قبلهم، لم تكن هذه حالهم، ولهذا قال..

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾ [الكهف:٥٥]

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ ما منع الناس من الإيمان..

﴿إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ والحال أن الهدىٰ الذي يحصل به الفرق، بين الهدىٰ والضلال، والحق والباطل، قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله.. فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان..

﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله وعادته في الأولين، من أنهم إذا لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب..

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾ [الكهف:٥٥] أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعاينة.. أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦﴾ [الكهف:٥٦]

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ لم نرسل الرسل عبثًا، ولا ليتخذهم الناس أربابًا، ولا ليدعوا إلىٰ أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلىٰ كل خير، وينهون عن كل شر..

﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ ويبشرونهم علىٰ امتثال ذلك بالثواب العاجل والأجل..

﴿وَمُنذِرِينَۚ﴾ وينذرونهم علىٰ معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله علىٰ العباد..

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ ومع ذلك يأبىٰ الظالمون الكافرون، إلا المجادلة بالباطل..

﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾ فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله..

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦﴾ [الكهف:٥٦] واستهزءوا برسل الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم.

📖 الفـوائـد

يأبىٰ الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويظهر الحق علىٰ الباطل ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: ١٨]..

ومن حكمة الله ورحمته أن **تقييضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلىٰ وضوح الحق وتبين شواهده وأدلته**، وتبين الباطل وفساده، فبضدها تتبين الأشياء.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾ [الكهف:٥٧]

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ يخبر تعالىٰ أنه لا أعظم ظلمًا، ولا أكبر جرمًا..

﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ من عبد ذُكِّر بآيات الله وبُيِّن له الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، وخُوِّف ورُهِّب ورُغِّب..

﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ فلم يتذكر بما ذكر به، ولم يرجع عما كان عليه..

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾ من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب.. **فهذا أعظم ظلما من المعرض** الذي لم تأته آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالمًا، فإنه أخف ظلمًا من هذا، لكون **العاصي علىٰ بصيرة وعلم، أعظم** ممن ليس كذلك..

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ ولكن الله تعالىٰ عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه لذنوبه، ورضاه لنفسه حالة الشر مع علمه بها، أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل علىٰ قلبه أكنة، أي: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعتها، فليس في إمكانها الفقه الذي يصل إلىٰ القلب..

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾ صممًا يمنعهم من: وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع.. وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهدايتهم سبيل..

﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾ [الكهف:٥٧] لأن الذي يرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالمًا.. وأما هؤلاء، الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق فتركوه، وطريق الضلال فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق.

📖 **الفـوائـد**

في هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يحال بينهم وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر عن ذلك.

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨﴾ [الكهف:٥٨]

ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته..

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله بإحسانه..

﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ وأنه لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل.. والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخرت عنها مدة طويلة، ولهذا قال..

﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨﴾ [الكهف:٥٨] لهم موعد، يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه.. وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعدا لهم، أنزل بهم بأسه، ولهذا قال..

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟
وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف:٥٩]

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي: بظلمهم، لا بظلم منا..

﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف:٥٩] وقتًا مقدَّرًا، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ
مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف:٦٠]

يخبر تعالىٰ عن نبيه موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وشدة رغبته في الخير وطلب العلم..

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو (يوشع بن نون) الذي نبأه الله بعد ذلك..

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ لا أزال مسافرًا وإن طالت عليَّ الشُّقَّة، ولحقتني المشقة..

﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ﴾ حتىٰ أصل إلىٰ..

﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ وهو المكان الذي أوحي إليه (أنك ستجد فيه عبدًا من عباد الله العالِمين، عنده من العلم، ما ليس عندك)..

﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف:٦٠] مسافة طويلة.. المعنىٰ: أن الشوق والرغبة حمل موسىٰ أن قال لفتاه هذه المقالة.. وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا
فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ [الكهف:٦١]

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ هو وفتاه..

﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وُعِد أنه متىٰ فقد الحوت فثَمَّ ذلك العبد الذي قصدته..

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ [الكهف:٦١] فاتخذ ذلك الحوت سبيله، أي: طريقه، في

البحر سربا وهذا من الآيات.. قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، لما وصلا إلىٰ ذلك المكان، أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حيا.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢﴾ [الكهف:٦٢]

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ فلما جاوز موسىٰ وفتاه مجمع البحرين..

﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ قال موسىٰ لفتاه..

﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾..

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢﴾ [الكهف:٦٢] لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلىٰ مجمع البحرين لم يجدا مس التعب فيه.. وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسىٰ علىٰ وجود مطلبه، وأيضًا فإنَّ الشوق المتعلق بالوصول إلىٰ ذلك المكان، سهَّلَ لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما وجدا مسَّ التعب، فلما قال موسىٰ لفتاه هذه المقالة..

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣﴾ [الكهف:٦٣]

﴿قَالَ﴾ له فتاه..

﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ﴾ ألم تعلم حين آوانا الليل..

﴿إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ إلىٰ تلك الصخرة، المعروفة بينهما..

﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ لأنه السبب في ذلك..

وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣﴾ [الكهف:٦٣] لما انسرب في البحر ودخل فيه كان ذلك من العجائب.. **قال المفسرون**: كان ذلك المسلك للحوت سَرَبًا، ولموسىٰ وفتاه عجبًا.. فلما قال له الفتىٰ هذا القول، وكان عند موسىٰ وعدٌ من الله أنه إذا فقد الحوت، وجد الخضر، فـ..

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف:٦٤]

﴿قَالَ﴾ موسىٰ..

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾ أي: نطلب..

﴿فَٱرْتَدَّا﴾ رجعا..

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف:٦٤] رجعا يقصان أثرهما إلىٰ المكان الذي نسيا فيه الحوت.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف:٦٥]

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ فلما وصلا إليه، وجدا عبدًا من عبادنا، وهو الخضر، **وكان عبدًا صالحًا، لا نبيًا** علىٰ الصحيح..

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أعطاه الله رحمةً خاصةً، بها زاد علمه وحسن عمله..

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ من عندنا..

﴿عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف:٦٥] وكان قد أُعطي من العلم ما لم يعط موسىٰ.. وإن كان موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصًا في العلوم الإيمانية، والأصولية، لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضلهم الله علىٰ سائر الخلق، بالعلم، والعمل، وغير ذلك.. فلما اجتمع به موسىٰ..

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦]

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قال له علىٰ وجه الأدب والمشاورة، والإخبار عن مطلبه..

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ هل أتبعك علىٰ أن تعلمني مما علمك الله..

﴿رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦] ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا.. وكان الخَضِر قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما به يحصل له الاطلاع علىٰ بواطن كثير من الأشياء التي خفيت، حتىٰ علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فـ..

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ
عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف:٦٧-٦٨]

﴿قَالَ﴾ الخضر لموسىٰ: لا أمتنع من ذلك..

﴿إِنَّكَ﴾ ولكنك..

﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ لا تقدر علىٰ اتباعي وملازمتي؛ لأنك ترىٰ ما لا تقدر علىٰ الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال..

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف:٦٧-٦٨] كيف تصبر علىٰ أمر ما أحطت بباطنه وظاهره، ولا علمت المقصود منه ومآله؟! فـ..

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف:٦٩]

﴿قَالَ﴾ موسىٰ..

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف:٦٩] وهذا عزم منه قبل أن يوجد الشيء الممتحن به.. **والعزم شيء ووجود الصبر شيء آخر**.. فلذلك ما صبر موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين وقع الأمر.. فحينئذ..

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ
حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف:٧٠]

﴿قَالَ﴾ له الخضر..

﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف:٧٠] لا تبتدئني بسؤال منك وإنكار، حتىٰ أكون أنا الذي أخبرك بحاله، في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاه عن سؤاله، ووعده أن يوقفه علىٰ حقيقة الأمر.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف:٧١]

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ﴾ اقتلع الخضر منها لوحًا، وكان له مقصود في ذلك، سيبينه، فلم يصبر موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب لغرق أهلها، ولهذا..

﴿قَالَ﴾ موسىٰ..

﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف:٧١] عظيمًا شنيعًا، وهذا من عدم صبره عَلَيْهِ السَّلَامُ، فـ..

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف:٧٢]

﴿قَالَ﴾ له الخضر..

﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف:٧٢] فوقع كما أخبرتك، وكان هذا من موسىٰ نسيانًا فـ..

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧٣]

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧٣] لا تعسر علي الأمر، واسمح لي، فإن ذلك وقع علىٰ وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة.. فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر الشدة علىٰ صاحبك، فسمح عنه الخضر..

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف:٧٤]

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ صغيرًا..

﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ الخضر.. فاشتد بموسىٰ الغضب، وأخذته الحميَّة الدينية، حين قتل غلامًا صغيرًا لم يذنب..

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف:٧٤] وأي نكر مثل قتل الصغير، الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحدًا؟! وكانت الأولىٰ من موسىٰ نسيانًا، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر.. فـ..

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف:٧٥-٧٦]

﴿۞ قَالَ﴾ له موسىٰ..

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾..

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا﴾ بعد هذه المرة..

﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ فأنت معذور بذلك، وبترك صحبتي..

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف:٧٥-٧٦] أعذرتَ مني، ولم تقصر.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف:٧٧]

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ أي: استضافاهم..

﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فلم يضيفوهما..

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ قد عاب واستُهدِم..

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الخضر، أي: بناه وأعاده جديدًا.. فـ..

﴿قَالَ﴾ له موسىٰ..

﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف:٧٧] أي: أهل هذه القرية لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجرة، وأنت تقدر عليها؟! فحينئذ لم يف موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بما قال، واستعذر الخضر منه، فقال له..

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف:٧٨]

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ﴾ فإنك شرطت ذلك علىٰ نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحبة..

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ سأخبرك..

﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف:٧٨] بما أنكرت عليَّ، وأنبئك بما لي في ذلك من المآرب، وما يئول إليه الأمر.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف:٧٩]

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها..

﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرأفة بهم..

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف:٧٩] كان مرورهم علىٰ ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب غصبها وأخذها ظلمًا، فأردت أن أخرقها ليكون فيها عيب، فتسلم من ذلك الظالم.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف:٨٠-٨١]

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتلته..

﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ وكان ذلك الغلام قد قُدِّر عليه أنه لو بلغ لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، أي: لحملهما علىٰ الطغيان والكفر.. إما لأجل محبتهما إياه، أو للحاجة إليه، أو يحدهما علىٰ ذلك.. أي: فقتلته لاطلاعي علىٰ ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنَين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟! وهو وإن كان فيه

إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإنَّ الله تعالىٰ سيعطيهما من الذرية، ما هو خير منه، ولهذا قال..

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ [الكهف:٨٠-٨١] ولدًا صالحًا، زكيًا، واصلًا لرحمه، فإنَّ الغلام الذي قُتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملهما علىٰ الكفر والطغيان.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾ [الكهف:٨٢]

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ الذي أقمته..

﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما، لكونهما صغيرين عَدِمَا أباهما، وحفظهما اللهُ أيضًا بصلاح والدهما..

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ فلهذا هدمت الجدار، واستخرجت ما تحته من كنزهما، وأعدته مجانًا..

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ هذا الذي فعلته رحمة من الله، آتاها الله عبده الخضر..

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ ما أتيت شيئًا من قبل نفسي، ومجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي فسرته لك..

﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾ [الكهف:٨٢]..

🕮 الفوائد

في هذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، ننبه علىٰ بعضه بعون الله، فـ:

١- منها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور.. فإن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رحل

مسافة طويلة، ولقي النَصَب في طلبه، **وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم،** واختار السفر لزيادة العلم علىٰ ذلك.

٢- ومنها: **البداءة بالأهم فالأهم،** فإن زيادة العلم وعلم الإنسان، أهم من ترك ذلك والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

٣- ومنها: جواز أخذ **الخادم** في الحضر والسفر لكفاية المؤن، وطلب الراحة.. كما فعل موسىٰ.

٤- ومنها: أن **المسافر** لطلب علم أو جهاد أو نحوه، **إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه،** وأين يريده، **فإنه أكمل من كتمه،** فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر علىٰ بصيرة، وإظهارًا لشرف هذه العبادة الجليلة.. كما قال موسىٰ: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾.. وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه، مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة.

٥- ومنها: **إضافة الشر وأسبابه إلىٰ الشيطان** علىٰ وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره.. لقول فتىٰ موسىٰ: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾.

٦- ومنها: جواز **إخبار الإنسان عما هو من مقتضىٰ طبيعة النفس** من نصب أو جوع أو عطش، **إذا لم يكن علىٰ وجه التسخط وكان صدقًا**.. لقول موسىٰ: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾.

٧- ومنها: **استحباب كون خادم الإنسان ذكيًا فطنًا كيسًا،** ليتم له أمره الذي يريده.

٨- ومنها: استحباب **إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعًا**.. لأن ظاهر قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ إضافة إلىٰ الجميع، أنه أكل هو وهو جميعًا[1].

٩- ومنها: أن المعونة تنزل علىٰ العبد علىٰ حسب قيامه بالمأمور به، وأن **الموافق لأمر الله يعان ما لا يعان غيره**.. لقوله: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾، والإشارة إلىٰ

---

(١) لعلَّ المصنف لو أبدل قوله (أنه أكل هو وهو جميعًا)، بـ (أنهما أكلا جميعًا) لكان أحسن، لما في الثانية من الإيجاز والتقليل، ولما في الأولىٰ من الإطناب الذي ليس وراءة فائدة حسب ما ظهر لي، هذا فضلًا عن توالي ضمائر متساوية في الرتبة دون حاجة.. والله أعلم.

السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما **الأول فلم يشتك منه التعب مع طوله،** لأنه هو السفر علىٰ الحقيقة، وأما الأخير فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلىٰ الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتىٰ إذا جاء وقت الغداء قال موسىٰ لفتاه ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فحينئذ تذكَّر أنه نسيه في الموضع الذي إليه منتهىٰ قصده.

١٠- ومنها: **أن ذلك العبد الذي لقياه ليس نبيًا، بل عبدًا صالحًا..** لأنه وصفه بالعبودية، وذكر منة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته.. ولو كان نبيًا لذكر ذلك كما ذكره غيره.. وأما قوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فإنه لا يدل علىٰ أنه نبي وإنما **يدل علىٰ الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء،** كما قال تعالىٰ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨].

١١- ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله لعباده نوعان: **علم مكتسب** يدركه العبد بجده واجتهاده.. **ونوع علم لدني،** يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

١٢- ومنها: التأدب مع المعلِّم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب.. لقول موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنك هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه.. بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يظهر للمعلم افتقارهم إلىٰ علمه، بل يدعي أنه يتعاون هم وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جدًا، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلىٰ تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

١٣- ومنها **تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه.. فإن موسىٰ -بلا شك- أفضل من الخضر.**

١٤- ومنها: **تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه، ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة..** فإن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكنَّ في هذا العلم الخاص كان عند الخضر، ما ليس عنده، فلهذا حرص علىٰ التعلم منه.. فعلىٰ هذا، لا ينبغي للفقيه المحدث إذا كان قاصرًا في علم النحو أو الصرف أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثًا ولا فقيهًا.

١٥- ومنها: **إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالىٰ**، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها.. لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: مما علمك الله تعالىٰ.

١٦- ومنها: **أن العلم النافع، هو العلم المرشد إلىٰ الخير**، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطرق الخير، وتحذير عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوىٰ ذلك، فإما أن يكون ضارًا، أو ليس فيه فائدة.. لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾.

١٧- ومنها: أن **من ليس له قوة الصبر علىٰ صحبة العالم والعلم**، وحسن الثبات علىٰ ذلك، أنه **يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم**، فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعىٰ فيه.. لقول الخضر -يعتذر من موسىٰ بذكر المانع لموسىٰ في الأخذ عنه- إنه لا يصبر معه.

١٨- ومنها: **أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علمًا وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه**، وإلا فالذي لا يدريه أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر.. لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ فجعل الموجب لعدم صبره وعدم إحاطته خُبرًا بالأمر.

١٩- ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، **وعدم المبادرة إلىٰ الحكم علىٰ الشيء**، حتىٰ يعرف ما يراد منه وما هو المقصود.

٢٠- ومنها: **تعليق الأمور المستقبلية** التي من أفعال العباد **بالمشيئة**، وأن لا يقول الإنسان للشيء (إني فاعل ذلك في المستقبل)، إلا أن يقول ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٢١- ومنها: **أن العزم علىٰ فعل الشيء ليس بمنزلة فعله**.. فإن موسىٰ قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ فوطن نفسه علىٰ الصبر ولم يفعل.

٢٢- ومنها: **أن المعلم إذا رأىٰ المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال** عن بعض الأشياء، حتىٰ يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، **فإن المصلحة تتبع**، كما إذا كان فهمه قاصرًا، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالا لا يتعلق في موضع البحث.

٢٣- ومنها: جواز **ركوب البحر**، في غير الحالة التي يخاف منها.

٢٤- ومنها: **أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه لا في حق الله، ولا في حقوق العباد**.. لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

٢٥- ومنها: **أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها**، وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإنَّ هذا مدعاة إلىٰ النفور منه والسآمة، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

٢٦- ومنها: **أن الأمور تجري أحكامها علىٰ ظاهرها**، وتعلق بها الأحكام الدنيوية، في الأموال والدماء وغيرها.. فإن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنكر علىٰ الخضر خرقه السفينة، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال، التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبادر إلىٰ الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلىٰ هذا العارض، الذي يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلىٰ الإنكار.

٢٧- ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه **يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير**، ويراعي أكبر المصلحتين، بتفويت أدناهما.. فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتىٰ يفتن أبويه عن دينهما أعظم شرًا منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته وإن كان يظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه، وإيمانهما خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر.. وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها، داخل في هذا.

٢٨- ومنها: القاعدة الكبيرة أيضا وهي: أن **عمل الإنسان في مال غيره إذا كان علىٰ وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز ولو بلا إذن، حتىٰ ولو ترتب علىٰ عمله إتلاف بعض مال الغير**.. كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلَّم من غصب الملك الظالم.. فعلىٰ هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما، في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار، فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظًا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسانٌ بعض المال افتداء للباقي جاز، ولو من غير إذن.

٢٩- ومنها: **أن العمل يجوز في البحر**، كما يجوز في البر.. لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم عملهم.

٣٠- ومنها: **أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة.. لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين، لهم سفينة.**

٣١- ومنها: **أن القتل من أكبر الذنوب**.. لقوله في قتل الغلام ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾.

٣٢- ومنها: **أن القتل قصاصًا غير منكر**.. لقوله ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

٣٣- ومنها: **أن العبد الصالح يحفظه الله** في نفسه، وفي ذريته.

٣٤- ومنها: **أن خدمة الصالحين أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها**.. لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، أن أباهما صالح.

٣٥- ومنها: استعمال **الأدب مع الله تعالىٰ في الألفاظ**.. فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلىٰ نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وأما الخير فأضافه إلىٰ الله تعالىٰ لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.. كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء].. وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن] مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

٣٦- ومنها: أنه ينبغي **للصاحب أن لا يفارق صاحبه** في حالة من الأحوال ويترك صحبته **حتىٰ يعتبه ويعذر منه**.. كما فعل الخضر مع موسىٰ.

٣٧- ومنها: **أن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة، مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها**، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

٣٨- ومنها: **أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قَدَرٌ محض**، أجراها الله وجعلها علىٰ يد هذا العبد الصالح، **ليستدل العباد بذلك علىٰ ألطافه في أقضيته**، وأنه يقدِّر علىٰ العبد أمورًا يكرهها جدًا، وهي صلاح دينه كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجًا من لطفه وكرمه، ليعرفوا ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكروهة.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف:٨٣]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ كان أهل الكتاب أو المشركون، سألوا رسول الله ﷺ عن قصة ذي القرنين..

﴿قُلْ﴾ فأمره الله أن يقول..

﴿سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف:٨٣] فيه نبأٌ مفيد، وخطاب عجيب.. أي: سأتلوا عليكم من أحواله ما يُتَذكَّر فيه، ويكون عبرة.. وأما ما سوىٰ ذلك من أحواله فلم يتله عليهم.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾
فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف:٨٤-٨٥]

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكه الله تعالىٰ، ومكَّنه من النفوذ في أقطار الأرض، وانقيادهم له..

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ أعطاه الله من الأسباب الموصلة له لِما وَصل إليه، ما به يستعين علىٰ قهر البلدان، وسهولة الوصول إلىٰ أقاصي العمران..

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف:٨٤-٨٥] وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها، أي: استعملها علىٰ وجهها.. فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادرًا علىٰ السبب.. فإذا اجتمع القدرة علىٰ السبب الحقيقي والعمل به، حصل المقصود، وإن عدما أو أحدهما لم يحصل.

🕮 الفوائد

هذه الأسباب التي أعطاه الله إياها، لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار علىٰ وجه يفيد العلم..

فلهذا لا يسعنا غير السكوت عنها..

وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها..

ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة، داخلية وخارجية..

بها صار له جندٌ عظيم، ذو عُدد وعَدد ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء، ومن تسهيل الوصول إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾ [الكهف:٨٦]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ **فأعطاه الله ما بلغ به مغرب الشمس، حتى رأى الشمس في مرأى العين..**

﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ **كأنها تغرب في عين حمئة، أي: سوداء، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس الماء، وإن كانت في غاية الارتفاع..**

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ﴾ **ووجد عندها، أي: عند مغربها قوما..**

﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ **إما أن تعذبهم بقتل، أو ضرب، أو أسر ونحوه..**

﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾ [الكهف:٨٦] **وإما أن تحسن إليهم.. فخُيِّر بين الأمرين؛** لأن الظاهر أنهم كفار أو فساق، أو فيهم شيء من ذلك، لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق، لم يرخص في تعذيبهم، **فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية** ما استحق به المدح والثناء، لتوفيق الله له لذلك، فـ..

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧﴾ [الكهف:٨٧]

﴿قَالَ﴾ **سأجعلهم قسمين..**

﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ **بالكفر..**

﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧﴾ [الكهف:٨٧] **تحصل له العقوبتان، عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة.**

﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨﴾ [الكهف:٨٨]

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة..

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف:٨٨] وسنحسن إليه، ونلطف له بالقول، ونيسر له المعاملة.. وهذا يدل على كونه **من الملوك الصالحين الأولياء**، العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد بما يليق بحاله.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ [الكهف:٨٩-٩١]

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي لما وصل إلى مغرب الشمس كر راجعا، قاصدا مطلعها، متبعا للأسباب، التي أعطاه الله، فوصل إلى مطلع الشمس ف..

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ وجدها تطلع على أناس ليس لهم ستر من الشمس.. **إما لعدم استعدادهم في المساكن**، وذلك لزيادة همجيتهم وتوحشهم، وعدم تمدنهم.. **وإما لكون الشمس دائمة عندهم**، لا تغرب عنهم غروبًا يُذكر، كما يوجد ذلك في شرق أفريقيا الجنوبي، فوصل إلى موضع انقطع عنه علم أهل الأرض، فضلًا عن وصولهم إليه إياه بأبدانهم.. ومع هذا فكل هذا بتقدير الله له، وعلمه به ولهذا قال..

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ [الكهف:٨٩-٩١] أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة، وعلِمْنا معه حيثما توَّجه وسار.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف:٩٢-٩٣]

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ قال المفسرون: ذهب متوجهًا من المشرق، قاصدا للشَمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سدان، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان، سدًا بين يأجوج ومأجوج وبين الناس..

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا﴾ وجد من دون السدين قومًا..

﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾ [الكهف:٩٢-٩٣] لعُجمة ألسنتهم، واستعجام أذهانهم وقلوبهم.. وقد أعطىٰ الله ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فَقِه به ألسنة أولئك القوم وفقههم، وراجعهم وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما أمتان عظيمتان من بني آدم، فـ..

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾ [الكهف:٩٤]

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك..

﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ جُعلًا..

﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾ [الكهف:٩٤] ودلَّ ذلك علىٰ عدم اقتدارهم بأنفسهم علىٰ بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه.. فبذلوا له أجرة، ليفعل ذلك.. وذكروا له السبب الداعي، وهو: إفسادهم في الأرض.. فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ولا رغبة في الدنيا، ولا تاركًا لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح.. فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر ربه علىٰ تمكينه واقتداره، فقال لهم..

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥﴾ [الكهف:٩٥]

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ مما تبذلون لي وتعطوني..

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم..

﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥﴾ [الكهف:٩٥] مانعًا من عبورهم عليكم.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف:٩٦-٩٧]

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد..

﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا﴾ أوقدوها إيقادًا عظيمًا، واستعملوا لها المنافيخ لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس، الذي يريد أن يلصقه بين زبر الحديد..

﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ نحاسًا مذابًا، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السدُّ استحكامًا هائلًا وامتنع به مَن وراءه من الناس مِن ضرر يأجوج ومأجوج..

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ فما لهم استطاعة ولا قدرة علىٰ الصعود عليه لارتفاعه..

﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف:٩٦-٩٧] ولا علىٰ نقبه لإحكامه وقوته.. فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلىٰ موليها و..

﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾ [الكهف:٩٨]

﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾ من فضله وإحسانه عليَّ.. وهذه **حال الخلفاء الصالحين**، إذا مَنَّ اللهُ عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم واعترافهم بنعمة الله.. كما قال سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠].. **بخلاف أهل التجبر** والتكبر والعلو في الأرض، فإن النعم الكبار تزيدهم أشرًا وبطرًا.. كما قال قارون -لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة- قال: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]..

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ لخروج يأجوج ومأجوج..

﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: ذلك السد المحكم المتقن..

﴿دَكَّآءَۖ﴾ دكه فانهدم، واستوىٰ هو والأرض..

﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾ [الكهف:٩٨]..

﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠﴾ [الكهف:٩٩-١٠٠]

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ **يحتمل: أن الضمير يعود إلىٰ يأجوج ومأجوج**، وأنهم إذا خرجوا علىٰ الناس -من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها- يموج بعضهم ببعض، كما قال تعالىٰ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء: ٩٦].. **ويحتمل: أن الضمير يعود إلىٰ الخلائق يوم القيامة**، وأنهم يجتمعون فيه فيكثرون ويموج بعضهم ببعض، من الأهوال والزلازل العظام، بدليل قوله..

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ إذا نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله الأرواح إلىٰ الأجساد..

﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ ثم حشرهم وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين، ليُسألوا ويحاسبوا، ويُجزون بأعمالهم، فأما الكافرون -علىٰ اختلافهم- فإنَّ جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبدًا..

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الكهف:٩٩-١٠٠] كما قال تعالىٰ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء] أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها وحميمها وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب ما تبكم له القلوب، وتصم الآذان.. وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في الدنيا.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي
وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ [الكهف:١٠١]

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي﴾ معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥].. وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٥]..

﴿وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ [الكهف:١٠١] لا يقدرون علىٰ سمع آيات الله الموصلة إلىٰ الإيمان، لبغضهم القرآن والرسول.. فإن المبغض لا يستطيع أن يلقي سمعه إلىٰ كلام من أبغضه.. فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم سمع ولا بصر ولا عقل نافع.. فقد كفروا بالله وجحدوا آياته، وكذَّبوا رسله، فاستحقوا جهنم، وساءت مصيرا.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف:١٠٢]

وهذا برهان وبيان، لبطلان دعوىٰ المشركين الكافرين، الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله.. يقول الله لهم علىٰ وجه الاستفهام والإنكار المتقرر بطلانه في العقول..

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَۚ﴾ **لا يكون ذلك، ولا يوالي وليَّ الله معاديًا لله أبدًا،** فإن الأولياء موافقون لله في محبته ورضاه وسخطه وبغضه.. فيكون علىٰ هذا المعنىٰ مشابهًا لقوله تعالىٰ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ [سبأ: ٤٠- ٤١].. فمن زعم أنه يتخذ وليَّ الله وليًا له وهو معاد لله فهو كاذب.. **ويحتمل -وهو الظاهر- أن المعنىٰ:** أفحسب الكفار بالله المنابذون لرسله **أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم وينفعونهم من دون الله ويدفعون عنهم الأذىٰ؟!** هذا حسبان باطل وظن فاسد، فإن جميع المخلوقين ليس بيدهم من النفع والضر شيء.. ويكون هذا كقوله تعالىٰ ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء]، ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، ونحو ذلك من الآيات التي يَذكرُ اللهُ فيها أن المتَّخذ من دونه وليًا ينصره ويواليه ضال خائب الرجاء، غير نائل لبعض مقصوده..

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف:١٠٢] أي: ضيافة وقِرىٰ، فبئس النزل نزلهم، وبئست جهنم ضيافتهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف:١٠٣]

﴿قُلْ﴾ يا محمد، للناس -علىٰ وجه التحذير والإنذار..

﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف:١٠٣] هل أخبركم بأخسر الناس أعمالًا علىٰ الإطلاق؟

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف:١٠٤]

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ **بطل واضمحل كل ما عملوه من عمل..**

﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف:١٠٤] **يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسله ومعاداة؟! فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، فـ** ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: ١٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ
فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف:١٠٥]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ **جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانية الدالة علىٰ وجوب الإيمان به، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر..**

﴿فَحَبِطَتۡ﴾ **بسبب ذلك..**

﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف:١٠٥] **لأن الوزن فائدته مقابلة الحسنات بالسيئات،** والنظر في الراجح منها والمرجوح، **وهؤلاء لا حسنات لهم لعدم شرطها،** وهو الإيمان، كما قال تعالىٰ ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾ [طه].. لكن **تُعد أعمالهم وتحصىٰ ويقررون بها،** ويخزون بها علىٰ رءوس الأشهاد، **ثم يعذبون عليها،** ولهذا قال..

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦﴾ [الكهف:١٠٦]

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة وَزْنًا؛ لحقارتهم وخستهم..

﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ **بكفرهم بآيات الله..**

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦﴾ [الكهف:١٠٦] **واتخاذهم آياته ورسله هزوا يستهزئون بها ويسخرون منها.. مع أن الواجب في آيات الله ورسله الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام.. وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم، وتعسوا، وانتكسوا في العذاب.. ولما بيَّن مآل الكافرين وأعمالهم، بين أعمال المؤمنين ومآلهم فقال..**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾ [الكهف:١٠٧]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ **بقلوبهم..**

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ **بجوارحهم.. وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة، والباطنة..**

﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾ [الكهف:١٠٧] **فهؤلاء -علىٰ اختلاف طبقاتهم** من الإيمان والعمل الصالح -لهم جنات الفردوس.. **يحتمل**: أن المراد بجنات الفردوس، أعلىٰ الجنة، وأوسطها، وأفضلها.. وأن هذا الثواب **لمن كمل فيه الإيمان** والعمل الصالح، والأنبياء والمقربون.. **ويحتمل**: أن يراد بها جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب **جميع طبقات أهل الإيمان**، من المقربين، والأبرار، والمقتصدين، كل بحسب حاله.. **وهذا أولىٰ المعنيين لـ**: عمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلىٰ الفردوس، ولأن الفردوس يطلق علىٰ البستان المحتوي علىٰ الكرم أو الأشجار الملتفة وهذا صادق علىٰ جميع الجنة، فجنة الفردوس نزل وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح.

📖 الفوائد

وأيُّ ضيافة أجل وأكبر وأعظم من هذه الضيافة المحتوية علىٰ كلِّ نعيم للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة..

وأعلىٰ ذلك وأفضله وأجله، التنعم بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرءوف الرحيم..

فلله تلك الضيافة، ما أجلها وأجملها، وأدومها وأكملها، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر علىٰ القلوب..

فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علمًا حقيقيًا يصل إلىٰ قلوبهم لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتًا تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كلَّ لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة..

ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفذت.. فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف:١٠٨]

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع..

﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف:١٠٨] تحولًا ولا انتقالًا؛ لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيمًا فوق ما هم فيه.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف:١٠٩]

﴿قُل﴾ لهم مخبرًا عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها..

﴿لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم..

﴿مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ أي: وأشجار الدنيا، من أولها إلىٰ آخرها، من أشجار البلدان والبراري، والبحار، أقلام..

﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ وتكسرت الأقلام..

﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف:١٠٩] وهذا شيء عظيم، لا يحيط

به أحد.. وفي الآية الأخرىٰ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان].. وهذا من باب تقريب المعنىٰ إلىٰ الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات، منقضية منتهية.. وأما كلام الله فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهىٰ، فأي سعة وعظمة تصورتها القلوب فالله فوق ذلك.. وهكذا سائر صفات الله تعالىٰ، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض لكان بالنسبة إلىٰ علم العظيم أقل من نسبة عصفور وقع علىٰ حافة البحر فأخذ بمنقاره من البحر، بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن الله له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلىٰ ربك المنتهىٰ.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]

﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم..

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله و﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [فصلت:٦] عبد من عبيد ربي..

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحيه الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم..

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلىٰ العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه.. ولهذا قال..

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب..

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠] لا يرائي بعمله، بل يعمله خالصًا لوجه الله تعالىٰ، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب.. وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة (الكهف)، ولله الحمد

تفسير سورة مريم، وهي مدنية

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾[مريم:١-٦]

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ سنقصه عليك، ونفصله تفصيلًا يُعرف به حالةُ نبيِّه زكريا، وآثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة.. **فإن في قَصِّها:** عبرة للمعتبرين، وأسوة للمقتدين.. ولأن **في تفصيل رحمته لأوليائه،** وبأي سبب حصلت لهم، **مما يدعو إلىٰ محبة الله تعالىٰ،** والإكثار من ذكره ومعرفته، والسبب الموصل إليه.. وذلك أن الله تعالىٰ اجتبىٰ واصطفىٰ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلىٰ ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته، كإخوانه من المرسلين ومن اتبعهم..

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ فلما رأىٰ من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد ينوب منابه في دعوة الخلق إلىٰ ربهم والنصح لهم، شكا إلىٰ ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداءً خفيًا، ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصًا، فـ..

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ وهىٰ وضعف، وإذا ضعف العظم، الذي هو عماد البدن، ضعف غيره..

﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ لأن الشيب دليل الضعف والكِبَر، ورسول الموت ورائده ونذيره، **فتوسل إلىٰ الله تعالىٰ بضعفه وعجزه**.. وهذا **من أحب الوسائل إلىٰ الله، لأنه** يدل علىٰ التبري من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته..

﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤﴾ لم تكن يا رب تردني خائبًا ولا محرومًا من الإجابة، بل لم تزل بي حفيًا ولدعائي مجيبًا، ولم تزل ألطافك تتوالىٰ علي، وإحسانك واصلًا إليَّ.. وهذا توسل إلىٰ الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة.. فسأل الذي أحسن سابقًا، أن يتمم إحسانه لاحقًا..

﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ وإني خفت من يتولىٰ علىٰ بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك.. وظاهر هذا أنه **لم ير فيهم أحدًا فيه لياقة للإمامة في الدين**.. وهذا فيه **شفقة زكريا** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **ونصحه**، وأن طلبه للولد ليس كطلب غيره قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأىٰ غيرَه غيرَ صالحٍ لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدًا، يقوم بالدين من بعده..

﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ واشتكىٰ أن امرأته عاقر، أي: ليست تلد أصلًا، وأنَّه قد بلغ من الكبر عتيًا، أي: عمرًا يندر معه وجود الشهوة والولد..

﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾ وهذه الولاية ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال..

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾ [مريم:١-٦] أي: عبدًا صالحًا ترضاه، وتحببه إلىٰ عبادك.. **والحاصل**: أنه سأل الله ولدًا ذكرًا صالحًا، يبق بعد موته، ويكون وليًا من بعده، ويكون نبيًا مرضيًا عند الله وعند خلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد.. ومن رحمة الله بعبده، أن يرزقه ولدًا صالحًا، جامعًا لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم.، فرحمه ربه واستجاب دعوته فقال..

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ

ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ
خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ
قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ
مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم:٧-١١]

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ بَشَّرَهُ الله تعالىٰ علىٰ يد الملائكة..

﴿بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ سماه الله له (يحيىٰ).. وكان اسمًا موافقًا لمسماه، يحيا حياة حسية، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية وهي حياة القلب والروح بالوحي والعلم والدين..

﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧﴾ لم يسم هذا الاسم قبله أحد.. **ويحتمل أن المعنىٰ**: لم نجعل له من قبل مَثِيلًا ومساميًا، فيكون ذلك بشارة بكماله، واتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاق مَن قبله.. ولكن علىٰ هذا الاحتمال، هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصًا بإبراهيم وموسىٰ ونوح عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، ونحوهم ممن هو أفضل من يحيىٰ قطعًا.. فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود الذي طلبه استغرب وتعجب و..

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ والحال أن المانع من وجود الولد، موجود بي وبزوجتي؟

﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ وكأنه وقت دعائه، لم يستحضر هذا المانع؛ لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم علىٰ الولد، وفي هذه الحال حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك..

﴿قَالَ﴾ فأجابه الله بقوله..

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، ولكن قدرة الله تعالىٰ صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها فذلك هين عليه..

﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩﴾ ليس بأصعب من إيجاده قبل ولم يكن شيئا..

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ يطمئن بها قلبي.. وليس هذا شكًا في خبر الله، وإنما هو كما قال الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن

لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] فطلب زيادة العلم، والوصول إلىٰ عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلىٰ طلبته رحمة به، فـ..

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾ وفي الآية الأخرىٰ ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ [آل عمران:٤١]، والمعنىٰ واحد؛ لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام ومؤداها واحد.. **وهذا من الآيات العجيبة،** فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام، وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة، بل كان سويًا لا نقص فيه، من الأدلة علىٰ قدرة الله الخارقة للعوائد، ومع هذا ممنوع من الكلام الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم.. **وأما التسبيح والتهليل والذكر** ونحوه، **فغير ممنوع منه،** ولهذا قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران].. فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامتثل لأمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فعكف في محرابه..

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ﴾..

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ بالإشارة والرمز..

﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم:٧-١١] لأن البشارة بـ (يحيىٰ) في حق الجميع مصلحة دينية.

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم:١٢-١٥]

دل الكلام السابق علىٰ ولادة يحيىٰ، وشبابه، وتربيته.. فلما وصل إلىٰ حالة يفهم فيها الخطاب أَمَرَه اللهُ أن يأخذَ الكتاب بقوة..

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ بجد واجتهاد.. **وذلك بـ:** الاجتهاد في **حفظ** ألفاظه، **وفهم** معانيه، **والعمل** بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة.. فامتثل أمر ربه، وأقبل علىٰ الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة، ما لا يوجد في غيره ولهذا قال..

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ أي: معرفة أحكام الله والحكم بها، وهو في حال صغره وصباه..

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وآتيناه أيضًا ﴿حَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: رحمة ورأفة، تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله..

﴿وَزَكَوٰةً﴾ طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه وتَزَكَّىٰ عقلُه.. **وذلك يتضمن: زوال** الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، **وزيادة الأخلاق الحسنة**، والأوصاف المحمودة، ولهذا قال..

﴿وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾ فاعلًا للمأمور، تاركًا للمحظور.. ومن كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا، وكان من أهل الجنة التي أُعدت للمتقين، وحصل له من الثواب الدنيوي والأخروي، ما رتَّبَه اللهُ علىٰ التقوىٰ..

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ وكان أيضًا ﴿بَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ لم يكن عاقًا، ولا مسيئًا إلىٰ أبويه، بل كان محسنًا إليهما بالقول والفعل..

﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ لم يكن متجبرًا متكبرًا عن عبادة الله، ولا مترفعًا علىٰ عباد الله، ولا علىٰ والديه، بل كان متواضعًا، متذللًا مطيعًا، أوَّابًا لله علىٰ الدوام.. **فجمع بين** القيام بحق الله، وحق خلقه.. ولهذا حصلت له السلامة من الله في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها، فلذا قال..

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم:١٢-١٥] **وذلك يقتضي سلامته من**: الشيطان، والشر، والعقاب **في هذه الأحوال الثلاثة** وما بينها.. **وأنه سالم من** النار والأهوال.. ومن أهل دار السلام.. فصلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ والده وعلىٰ سائر المرسلين، وجعلنا من أتباعهم، إنه جواد كريم.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ

﴿أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ [مريم:١٦-٢١]

لما ذكر قصة زكريا ويحيىٰ، وكانت من الآيات العجيبة، انتقل منها إلىٰ ما هو أعجب منها، تدريجًا من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ فقال..

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ الكريم..

﴿مَرْيَمَ﴾ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، وهذا من أعظم فضائلها، أن تُذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تُذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاءً لعملها الفاضل، وسعيها الكامل، أي: واذكر في الكتاب مريم في حالها الحسنة..

﴿إِذِ﴾ حين..

﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ تباعدت عن أهلها..

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦﴾ مما يلي الشرق، عنهم..

﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ سترًا ومانعًا، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب، لتعتزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتقنت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالىٰ، وذلك امتثال منها لقوله تعالىٰ ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣]..

﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾ كاملًا من الرجال، في صورة جميلة وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا تحتمل رؤيته علىٰ ما هو عليه.. فلمَّا رأته في هذه الحال، وهي معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها، خافت أن يكون رجلًا قد تعرَّض لها بسوء، وطَمع فيها، فاعتصمت بربها واستعاذت منه ف..

﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ أي: ألتجئ به وأعتصم برحمته أن تنالني بسوء..

﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه فاترك التعرض لي.. فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوىٰ.. وهي في تلك الحالة الخالية

والشباب والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه.. وهذه العفة -خصوصًا مع اجتماع الدواعي وعدم المانع- من أفضل الأعمال، ولذلك أثنىٰ الله عليها فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: ٩١].. فأعاضها الله بعفتها ولدًا من آيات الله ورسولًا من رسله، فلما رأىٰ جبريلُ منها الروع والخيفة..

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك..

﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه، فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال الحميدة.. فتعجبت من وجود الولد من غير أب فـ..

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾ والولد لا يوجد إلا بذلك..

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ تدلُّ علىٰ كمال قدرة الله تعالىٰ، وعلىٰ أن الأسباب جميعهًا لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيري عبادُه خرقَ العوائد في بعض الأسباب العادية؛ لئلا يقفوا مع الأسباب ويقطعوا النظر عن مُقَدِّرُها ومسببها..

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ ولنجعله رحمةً منًّا به وبوالدته وبالناس.. **أما رحمة الله به**: فلِمَا خصَّه الله بوحيه ومَنَّ عليه بما مَنَّ به علىٰ أولي العزم.. **وأما رحمته بوالدته**: فَلِمَا حصَّل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة.. **وأما رحمته بالناس**: فإنَّ أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولًا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة..

﴿وَكَانَ﴾ وجود عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ هذه الحالة..

﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ [مريم:١٦-٢١] قضاءً سابقًا، فلابدَّ من نفوذ هذا التقدير والقضاء.. فنفخ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في جيبها..

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم:٢٢-٢٦]

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ﴾ **لما حملت بعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، خافت من الفضيحة..**

﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ **فتباعدت عن الناس..**

﴿مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ **فلما قرب ولادها..**

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ **ألجأها المخاض إلىٰ جذع نخلة.. فلما آلمها: وجعُ الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها..**

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ **تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث..**

﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ **فلا تُذكر.. وهذا التمني بناء علىٰ ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة**، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل..

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ **فحينئذ سكَّنَ المَلَكُ روعَها، وثبَّت جأشها، وناداها..**

﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ **لعلَّه في مكانٍ أنزل من مكانها، وقال لها..**

﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ **لا تجزعي ولا تهتمي، فـ..**

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ **نهرًا تشربين منه..**

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ **طريًا لذيذًا نافعًا..**

﴿فَكُلِى﴾ **من التمر..**

﴿وَٱشْرَبِى﴾ **من النهر..**

﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ **بعيسىٰ، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب والهني..**

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ﴾ **وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحدًا من البشر أن تقول على وجه الإشارة..**

﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ **سكوتًا..**

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم:٢٢-٢٦] **لا تخاطبيهم بكلام؛ لتستريحي من قولهم** وكلامهم، وكان معروفا عندهم **أن السكوت من العبادات** المشروعة.. وإنَّما **لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها:** لأن الناس **لا يصدقونها، ولا فيه فائدة،** وليكون تبرئتها **بكلام عيسىٰ في المهد،** أعظم شاهد علىٰ براءتها.. فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج ودعواها أنه من غير أحد من أكبر الدعاوىٰ، التي لو أقيم عدة من الشهود لم تصدق بذلك.. **فجعلت بينة هذا الخارق للعادة، أمرًا من جنسه، وهو كلام عيسىٰ في حال صغره جِدًا،** ولهذا قال تعالىٰ..

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:٢٧-٣٣]

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ **فلمَّا تعلَّت مريم من نفاسها، أتت بعيسىٰ قومَها تحمله،** وذلك **لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها،** فأتت غيرَ مباليةٍ ولا مكترثةٍ، فـ..

﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ **عظيمًا وخيمًا،** وأرادوا بذلك البغاء، حاشاها من ذلك..

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ **الظاهر أنه أخ لها حقيقي،** فنسبوها إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء.. وليس هو هارون بن عمران أخا موسىٰ؛ لأن بينهما قرونا كثيرة..

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾﴾ لم يكن أبواك إلا صالحَين سالمَين من الشر، وخصوصًا هذا الشر، الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت علىٰ غير وصفهما، وأتيت بما لم يأتيا به؟! وذلك أن الذرية -في الغالب- بعضها من بعض، في الصلاح وضده، فتعجبوا -بحسب ما قام بقلوبهم- كيف وقع منها..

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ فأشارت لهم إليه، أي: كلموه.. وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها، أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٦].. فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك و..

﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾﴾ لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن، فحينئذ..

﴿قَالَ﴾ عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو في المهد صبي..

﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ فخاطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهًا، أو ابنًا للإله، تعالىٰ الله عن قول النصارىٰ المخالفين لعيسىٰ في قوله ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، ومدعون موافقته..

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ قضىٰ أن يؤتيني الكتب..

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾﴾ فأخبرَهُم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه.. ثم ذكر تكميله لغيره فقال..

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ في أي مكان، وأي زمان.. فالبركة جعلها الله فيَّ، من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلىٰ الله في أقواله وأفعاله، فكلُّ من جالسه، أو اجتمع به نالته بركته، وسعد به مصاحبُه..

﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة..

﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ وحقوق عباده التي أجلها الزكاة..

﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾﴾ مدة حياتي، أي: فأنا ممتثل لوصية ربي، عامل عليها، منفِّذٌ لها..

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ ووصاني أيضًا، أن أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها..

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبرًا علىٰ الله، مترفعا علىٰ عباده..

﴿شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ في دنياي أو أخراي، فلم يجعلني كذلك، بل جعلني مطيعًا له خاضعًا خاشعًا متذللًا متواضعًا لعباد الله، سعيدًا في الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني.. فلمَّا تمَّ له الكمال ومحامد الخصال قال..

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:٢٧-٣٣] من فضل ربي وكرمه حصلت لي السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة.. وذلك يقتضي سلامته من الأهوال، ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام.. فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر، علىٰ أنه رسول الله، وعبد الله حقًا.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم:٣٤-٣٦]

﴿ذَٰلِكَ﴾ الموصوف بتلك الصفات..

﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ من غير شك ولا مرية، بل..

﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ وكلام الله، الذي لا أصدق منه قيلا ولا أحسن منه حديثًا.. فهذا الخبر اليقيني عن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما قيل فيه مما يخالف هذا فإنه مقطوع ببطلانه، وغايته أن يكون شكًّا من قائله لا علم له به، ولهذا قال..

﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يشكون فيمارون بشكهم، ويجادلون بخرصهم.. فمن قائل عنه: إنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، تعالىٰ الله عن إفكهم وتقولهم علوا كبيرا.. ف..

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ ما ينبغي ولا يليق؛ لأن ذلك من الأمور المستحيلة؛ لأنه الغني الحميد المالك لجميع الممالك، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه، ولدًا؟!

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزَّه وتقدَّس عن الولد والنقص..

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ من الأمور الصغار والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب.. فإذا كان قدره ومشيئته نافذًا في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟!

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ إذا كان إذا أراد شيئًا قال له..

﴿كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ فكيف يستبعد إيجاده عيسىٰ من غير أب؟! ولهذا أخبر عيسىٰ أنه عبد مربوب كغيره، فقال..

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ الذي خلقنا، وصوَّرنا، ونفَّذ فينا تدبيره، وصرفنا تقديره..

﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أخلصوا له العبادة، واجتهدوا في الإنابة.. وفي هذا الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والاستدلال بالأول علىٰ الثاني، ولهذا قال..

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ٣٦﴾ [مريم:٣٤-٣٦] طريق معتدل، موصل إلىٰ الله، لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا فإنه من طرق الغيِّ والضلال.

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾ [مريم:٣٧]

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ لمَّا بيَّن تعالىٰ حال عيسىٰ بن مريم الذي لا يُشَك فيها ولا يُمترىٰ، أخبرَ أنَّ الأحزاب، أي: فرق الضلال، من اليهود والنصارىٰ وغيرهم، علىٰ اختلاف طبقاتهم اختلفوا في عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.. فمِن غال فيه وجاف، فمنهم من قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة، ومنهم من لم يجعله رسولًا، بل رماه بأنه ولد بغي، كاليهود.. وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وآراؤهم فاسدة، مبنية علىٰ الشك والعناد، والأدلة الفاسدة، والشبه الكاسدة.. وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال..

﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارىٰ، القائلون بعيسىٰ قول الكفر.. **وتأمَّل** كيف قال: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بعد قوله ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ ولم يقل (فويل لهم) ليعود الضمير إلىٰ الأحزاب؛ لأن من الأحزاب المختلفين طائفة أصابت الصواب ووافقت الحق، فقالت في عيسىٰ: (إنه عبد الله ورسوله) فآمنوا به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير داخلين في هذا الوعيد، فلهذا خصَّ الله بالوعيد الكافرين..

﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾ [مريم:٣٧] مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلئ بالزلازل والأهوال، المشتمل علىٰ الجزاء بالأعمال، فحينئذ يتبيَّن ما كانوا يخفون ويبدون، وما كانوا يكتمون.

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ [مريم:٣٨]

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ **ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم! فيقرون بكفرهم وشركهم وأقوالهم، ويقولون:** ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ [السجدة] **ففي القيامة، يستيقنون حقيقة ما هم عليه..**

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ [مريم:٣٨] **وليس لهم عذر في هذا الضلال؛ لأنهم بين معاند ضال على بصيرة، عارف بالحق، صادفٌ عنه، وبين ضال عن طريق الحق، متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راض بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساع في معرفة الحق من الباطل.**

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٤٠﴾ [مريم:٣٩-٤٠]

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾ **الإنذار هو: الإعلام بالمخوِّف على وجه الترهيب، والإخبار بصفاته..**

﴿يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ **وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها.. ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقي شقاوة لا سعادة بعدها، وخسر نفسه وأهله.. فحينئذ يتحسر، ويندم ندامة تتقطع منها القلوب، وتنصدع منها الأفئدة.. وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من الرجوع، ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟! فهذا قدامهم..**

﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ **والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر فعلى سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة، وشملتهم السكرة..**

﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩﴾ **فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية..**

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ فالدنيا وما فيها، من أولها إلىٰ آخرها، ستذهب عن أهلها، ويذهبون عنها، وسيرث الله الأرض ومن عليها..

﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ۝٤٠﴾ [مريم:٣٩-٤٠] ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا، فمن فعل خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢﴾ [مريم:٤١-٤٢]

أجل الكتب وأفضلها وأعلاها هذا الكتاب المبين، والذكر الحكيم..

فإن ذُكرِ فيه الأخبار: كانت أصدق الأخبار وأحقها..

وإن ذكر فيه الأمر والنهي: كانت أجل الأوامر والنواهي، وأعدلها وأقسطها..

وإن ذكر فيه الجزاء: والوعد والوعيد، كان أصدق الأنباء وأحقها وأدلها علىٰ الحكمة والعدل والفضل..

وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون: كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل..

ولهذا **كثيرًا ما يبدئ ويعيد في قصص الأنبياء**، الذين فضلهم علىٰ غيرهم، ورفع قدرهم، وأعلىٰ أمرهم.. **بسبب** ما قاموا به، من عبادة الله ومحبته، والإنابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلىٰ الله، والصبر علىٰ ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية..

فذكر اللهُ في هذه السورة جملةً من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكرهم: **لأن في ذكرهم** إظهار الثناء علىٰ الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، **وفيه** الحث علىٰ الإيمان بهم ومحبتهم، والاقتداء بهم.. فقال..

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١﴾ [مريم:٤١] **جَمَعَ اللهُ** له بين الصديقية والنبوة.. **فالصديق**: كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدِّق بكلِّ ما أمر بالتصديق به.. **وذلك يستلزم**: العلم العظيم الواصل إلىٰ القلب، المؤثر فيه، الموجب

لليقين، والعمل الصالح الكامل.. **وإبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ، **وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة**، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلىٰ الله، وصبر علىٰ ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه، وذكر الله مراجعته إياه، فقال..

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ مهجنا له عبادة الأوثان..

﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢﴾ [مريم:٤١-٤٢] أصنامًا ناقصةً في ذاتها، وفي أفعالها.. فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعًا ولا ضرًا.. بل لا تملك لأنفسها شيئًا من النفع، ولا تقدر علىٰ شيء من الدفع.. فهذا برهان جلي دال علىٰ أن **عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلًا** وشرعًا.. ودل بتنبيهه وإشارته أن **الذي يجب ويَحسُن عبادةُ من له الكمال**، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالىٰ.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾ [مريم:٤٣]

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يا أبت لا تحقرني وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك، والمقصود من هذا قوله..

﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾ [مريم:٤٣] مستقيمًا معتدلًا، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال.. وفي هذا: من **لطف الخطاب ولينه** ما لا يخفىٰ، فإنه لم يقل: (يا أبت أنا عالم، وأنت جاهل)، أو (ليس عندك من العلم شيء)، وإنما أتىٰ بصيغة تقتضي أنَّ عندي وعندك علمًا، وأنَّ الذي وصل إليَّ لم يصل إليك ولم يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾ [مريم:٤٤]

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ﴾ لأنَّ من عبد غير الله، فقد عبد الشيطان، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾ [يس]..

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤﴾ [مريم:٤٤] فمن اتبع خطواته فقد اتخذه وليًا، وكان عاصيًا لله بمنزلة الشيطان.. **وفي ذكر إضافة العصيان إلىٰ اسم الرحمن، إشارة إلىٰ أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله**، وتغلق عليه أبوابها.. كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال..

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ۝٤٥﴾ [مريم:٤٥]

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ **بسبب إصرارك علىٰ الكفر، وتماديك في الطغيان..**

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ۝٤٥﴾ [مريم:٤٥] في الدنيا والآخرة، فتنزل بمنازله الذميمة، وترتع في مراتعه الوخيمة.. **فتدرج الخليل** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **بدعوة أبيه**، بالأسهل فالأسهل، **فأخبره بعلمه**، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنك إن أطعتني اهتديت إلىٰ صراط مستقيم، **ثم نهاه عن عبادة الشيطان**، وأخبره بما فيها من المضار، **ثم حذره عقاب الله** ونقمته إن أقام علىٰ حاله، **وأنه يكون وليا للشيطان.. فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقي**، وأجاب بجواب جاهل و..

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ
لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ۝٤٦﴾ [مريم:٤٦]

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾ **فتبجح بآلهته التي هي من الحجر والأصنام**، ولام إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوخيم، يتمدح بعبادة الأوثان، ويدعو إليها.

﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾ عن شتم آلهتي، ودعوتي إلىٰ عبادة الله..

﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ قتلًا بالحجارة..

﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ۝٤٦﴾ [مريم:٤٦] لا تكلمني زمانًا طويلًا.. فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، و..

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾ [مريم:٤٧]

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ ستسلم من خطابي إياك بالشتم والسب وبما تكره..

﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذي تحصل به المغفرة، فـ..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾ [مريم:٤٧] رحيمًا رءوفًا بحالي، معتنيًا بي.. فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلمَّا تبين له أنه عدو لله، وأنه لا يفيد فيه شيئًا، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه.. وقد **أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم**، فمن اتباع ملته سلوك طريقه في الدعوة إلىٰ الله، بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة، والانتقال من مرتبة إلىٰ مرتبة والصبر علىٰ ذلك، وعدم السآمة منه.. والصبر علىٰ ما ينال الداعي من أذىٰ الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعلي.. فلما آيس من قومه وأبيه قال..

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ
أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم:٤٨]

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنتم وأصنامكم..

﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة..

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم:٤٨] عسىٰ الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي.. **وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم**، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجع فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون، **أن يشتغل بإصلاح نفسه**، ويرجو القبول من ربه، **ويعتزل الشر وأهله**.

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ
إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [مريم:٤٩]

ولما كان **مفارقة الإنسان لوطنه** ومألفه وأهله وقومه، **من أشق شيء علىٰ النفس**،

لأمور كثيرة معروفة، ومنها انفراده عمن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئا لله عوضه الله خيرًا منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه..

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا﴾ من إسحاق ويعقوب..

﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾ [مريم:٤٩] فحصل له هبة هؤلاء الصالحين المرسلين إلىٰ الناس الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم:٥٠]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم﴾ لإبراهيم وابنيه..

﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون..

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم:٥٠] وهذا أيضًا من الرحمة التي وهبها لهم؛ **لأن الله وعد كل محسن أن ينشر له ثناءً صادقًا بحسب إحسانه**، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب، العالي غير الخفي، **فذكرهم ملأ الخافقين**، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب، وفاضت بها الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين.. ولا تزال أذكارهم في سائر العصور، متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١﴾ [مريم:٥١]

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ واذكر في هذا القرآن العظيم..

﴿مُوسَىٰٓ ۚ﴾ بن عمران، علىٰ وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرئ بفتح اللام، علىٰ معنىٰ أن الله تعالىٰ اختاره واستخلصه، واصطفاه علىٰ العالمين.. وقرئ بكسرها، علىٰ معنىٰ أنه كان مخلص لله تعالىٰ، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته، فوصفه الإخلاص في جميع أحواله.. والمعنيان متلازمان، فإن الله

أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه..

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١﴾ [مريم:٥١] **جمع الله له بين الرسالة والنبوة.. فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع، دقه وجله.. والنبوة تقتضي إيحاء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه.. فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق..** بل خصه الله من أنواع الوحي بأجل أنواعه وأفضلها، وهو: تكليمه تعالىٰ وتقريبه مناجيًا لله تعالىٰ، وبهذا **اختص من بين الأنبياء بأنه كليم الرحمن**، ولهذا قال..

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢
وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ۝٥٣﴾ [مريم:٥٢-٥٣]

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ **الأيمن من موسىٰ في وقت مسيره.. أو الأيمن: أي الأبرك من اليُمن والبركة،** ويدل علىٰ هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [النمل:٨]..

﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ والفرق بين النداء والنجاء.. أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك.. وفي هذه **إثبات الكلام لله تعالىٰ** وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ۝٥٣﴾ [مريم:٥٢-٥٣] هذا من **أكبر فضائل موسىٰ** وإحسانه، **ونصحه لأخيه هارون،** أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولًا مثله، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمته أخاه هارون نبيًا.. **فنبوة هارون تابعة لنبوة موسىٰ** عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، فساعده علىٰ أمره، وأعانه عليه.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ
وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤﴾ [مريم:٥٤]

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في القرآن الكريم..

﴿إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ لا يعد وعدا إلا وفى به، وهذا شامل للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد.. ولهذا لمَّا وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له وقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات] وفى بذلك ومكَّن أباه من الذبح، الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان..

﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾ [مريم:٥٤] وصفه بالرسالة والنبوة، التي هي أكبر منن الله على عبده، وأهلها من الطبقة العليا من الخلق.

﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم:٥٥]

﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾ كان مقيمًا لأمر الله على أهله، فيأمرهم..

﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ المتضمنة للإخلاص للمعبود..

﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد.. فكمَّل نفسه وكمَّل غيره، وخصوصًا أخص الناس عنده وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم..

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم:٥٥] وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي هو عن ربه.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم:٥٦-٥٧]

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اذكر في الكتب على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال..

﴿إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦﴾ جمع الله له بين **الصديقية**: الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، **وبين اصطفائه لوحيه**، واختياره لرسالته..

﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم:٥٦-٥٧] رفع الله ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم:٥٨]

لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين، وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم قال..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ **أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومنة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم، وأن من أطاع الله كان** ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء: ٦٩] **الآية، وأن بعضهم..**

﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ **أي: من ذريته..**

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ **فهذه خير بيوت العالم..**

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ **اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم..**

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ **وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد..**

﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم:٥٨] **خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم.. ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صمًا وعميانًا.. وفي إضافة الآيات إلىٰ اسمه** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ **دلالة علىٰ أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلىٰ الحق، وبصرهم من العمىٰ، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.**

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم:٥٩]

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ لما ذكر تعالىٰ هؤلاء الأنبياء المخلصون المتبعون لمراضي ربهم، المنيبون إليه، ذكر من أتىٰ بعدهم، وبدَّلوا ما أُمِروا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلىٰ الخلف والوراء، فـ..

﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي آكد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض..

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ والسبب الداعي لذلك، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها، فصارت هممهم منصرفة إليها، مقدَّمة لها علىٰ حقوق الله.. فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال علىٰ شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصلوها، وعلىٰ أي وجه اتفقت تناولوها..

﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم:٥٩] عذابًا مضاعفًا شديدًا، ثم استثنىٰ تعالىٰ فقال..

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠﴾ [مريم:٦٠]

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزما جازما أن لا يعاودها..

﴿وَءَامَنَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر..

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ وهو العمل الذي شرعه الله علىٰ ألسنة رسله، إذا قصد به وجهه..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح..

﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ المشتملة علىٰ النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم..

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠﴾ [مريم:٦٠] من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفا عددها. ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي..

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١﴾ [مريم:٦١]

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا حول ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحبور..

﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ وعدها الرحمن.. **أضافها إلىٰ اسمه**﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ لأن فيها من الرحمة والإحسان ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، **وسماها تعالىٰ رحمته،** فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران: ١٠٧].. وأيضا **ففي إضافتها إلىٰ رحمته،** ما يدل علىٰ استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته، التي هي أثرها وموجبها..

﴿عِبَادَهُۥ﴾ **والعباد في هذه الآية،** المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفا لهم كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] ونحوه.. بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيدًا لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم، ودبرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها..

﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ **وقوله:** ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ **يحتمل أن تكون متعلقة بـ**﴿ وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، **فيكون المعنىٰ علىٰ هذا:** أن الله وعدهم إياها وعدًا غائبًا، لم يشاهدوه ولم يروه، فآمنوا بها، وصدَّقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشدَّ لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا، مدح له بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع.. **ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده،** أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حبًا، وأجل شوقًا.. **ويحتمل أيضا، أن المعنىٰ: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف،** ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلىٰ طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة].. **والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولىٰ،** بدليل قوله..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١﴾ [مريم:٦١] لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾ [مريم:٦٢]

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾ كلامًا لاغيًا لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتمًا، ولا عيبًا، ولا قولًا فيه معصية لله، أو قولًا مكدرًا..

﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر لله، وتحية، وكلام سرور، وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية، من الحور والملائكة والولدان، والنغمات المطربة، والألفاظ الرخيمة.. لأن الدار دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام في جميع الوجوه..

﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا﴾ من المآكل والمشارب وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي: وقت رَغِبوا.. ومن تمامها ولذاتها وحسنها، أن تكون في أوقات معلومة..

﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾ [مريم:٦٢] ليعظم وقعها ويتم نفعها، فـ..

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مريم:٦٣]

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ﴾ التي وصفناها بما ذكر..

﴿ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مريم:٦٣] نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يبغون عنه حولا، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران].

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا
وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤﴾ [مريم:٦٤]

استبطأ النبي ﷺ جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مرة في نزوله إليه فقال له: (لو تأتينا أكثر مما تأتينا) -تشوقا إليه، وتوحشا لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله- فأنزل الله تعالىٰ علىٰ لسان جبريل..

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا ابتدرنا أمره، ولم نعص له أمرًا، كما قال عنهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم] فنحن عبيد مأمورون..

﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾ له الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة، في الزمان والمكان.. فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأننا عبيد مدبرون، فيبقىٰ الأمر دائرًا بين: هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟ ولهذا قال..

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ٦٤﴾ [مريم:٦٤] لم يكن لينساك ويهملك، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ [الضحىٰ]، بل لم يزل معتنيًا بأمورك، مجريًا لك علىٰ أحسن عوائده الجميلة، وتدابيره الجميلة.. **فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد**، فلا يحزنك ذلك ولا يهمك، واعلم **أن الله هو الذي أراد ذلك، لما له من الحكمة** فيه.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ٦٥﴾ [مريم:٦٥]

ثم علل إحاطة علمه، وعدم نسيانه، بأنه..

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ فربوبيته للسماوات والأرض، وكونهما علىٰ أحسن نظام وأكمله، ليس فيه غفلة ولا إهمال ولا سدىٰ ولا باطل، **برهان قاطع علىٰ علمه الشامل**، فلا تشغل نفسك بذلك..

﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ بل اشغلها بما ينفعك ويعود عليك طائله، وهو عبادته وحده لا شريك له..

﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ اصبر نفسك عليها وجاهدها، وقم عليها أتمَّ القيام وأكملها بحسب قدرتك.. وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشتهيات، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [طه: ١٣١] إلىٰ أن قال: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه]..

﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ٦٥﴾ [مريم:٦٥] هل تعلم لله مساميًا ومشابهًا ومماثلًا من المخلوقين.. وهذا **استفهام بمعنىٰ النفي** المعلوم بالعقل، أي: لا تعلم له مساميًا ولا مشابهًا، لأنه الرب، وغيره مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص.. ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالىٰ، **فهذا برهان قاطع علىٰ أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية**،

وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل.. فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلَّل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنىٰ.

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ۝٦٦﴾ [مريم:٦٦]

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المراد بالإنسان هاهنا كل منكر للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول مستفهمًا علىٰ وجه النفي والعناد والكفر..

﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ۝٦٦﴾ [مريم:٦٦] كيف يعيدني الله حيًا بعد الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟! هذا لا يكون ولا يتصور.. وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيء، وعناده لرسل الله وكتبه، فلو نظر أدنىٰ نظر، وتأمل أدنىٰ تأمل، لرأىٰ استبعاده للبعث في غاية السخافة.. ولهذا ذكر تعالىٰ برهانًا قاطعًا، ودليلًا واضحًا، يعرفه كل أحد علىٰ إمكان البعث فقال..

﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ۝٦٧﴾ [مريم:٦٧]

﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ﴾ أو لا يلفت نظره، ويستذكر حالته الأولىٰ..

﴿وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ۝٦٧﴾ [مريم:٦٧] وأن الله خلقه أول مرة، ولم يك شيئا.. فمن قدر علىٰ خلقه من العدم ولم يكن شيئًا مذكورا، أليس بقادر علىٰ إنشائه بعد ما تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧].

الفوائد

وفي قوله: ﴿ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾: دعوة للنظر، بالدليل العقلي بألطف خطاب.. وأن إنكار من أنكر ذلك مبني علىٰ غفلة منه عن حاله الأولىٰ، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ
ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ۝٦٨﴾ [مريم:٦٨]

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أقسم الله تعالىٰ وهو أصدق القائلين بربوبيته، ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث، هم وشياطينهم فيجمعهم لميقات يوم معلوم..

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨﴾ [مريم:٦٨] جاثين علىٰ ركبهم من شدة الأهوال، وكثرة الزلزال، وفظاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال..

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم:٦٩-٧٢]

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩﴾ ثم لننزعن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر والعتوأشدهم عتوًا، وأعظمهم ظلمًا، وأكبرهم كفرًا، فيقدمهم إلىٰ العذاب.. ثم هكذا يقدم إلىٰ العذاب، الأغلظ إثمًا، فالأغلظ.. وهم في تلك الحال متلاعنون، يلعن بعضهم بعضًا، ويقول أخراهم لأولاهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝٣٨ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [الأعراف: ٣٨- ٣٩] وكل هذا تابع لعدله وحكمته وعلمه الواسع ولهذا قال..

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾ علمُنا محيطٌ بمن هو أولىٰ صليًا بالنار، قد علمناهم وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب..

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق، بَرُّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد إلا سَيَرِدُ النار..

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ حُكمًا حتَّمه الله علىٰ نفسه، وأوعد به عباده، فلابد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه.. **واختلف في معنىٰ الورود: فقيل:** ورودها **حضورها** للخلائق كلهم، حتىٰ يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعد ينجي الله المتقين.. **وقيل:** ورودها **دخولها**، فتكون علىٰ المؤمنين بردًا وسلامًا.. **وقيل:** الورود هو **المرور علىٰ الصراط**، الذي

هو علىٰ متن جهنم، فيمر الناس علىٰ قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعىٰ، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يخطف فيلقىٰ في النار، كل بحسب تقواه، ولهذا قال..

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الله تعالىٰ بفعل المأمور، واجتناب المحظور..

﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي..

﴿فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم:٦٩-٧٢] وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم:٧٣-٧٤]

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وإذا تتلىٰ علىٰ هؤلاء الكفار آياتنا بينات، أي: واضحات الدلالة علىٰ وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان، قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزءوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، علىٰ أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق..

﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ نحن والمؤمنون..

﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا﴾ في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات..

﴿وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾﴾ أي: مجلسا.. أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالا وأولادًا، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة، والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين.. **وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق**، وإلا فكثرة الأموال والأولاد وحسن المنظر، كثيرًا ما يكون سببًا لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا﴾ أي: متاعًا، من أوان وفرش، وبيوت، وزخارف..

﴿وَرِءْيًا ۝٧٤﴾ [مريم:٧٣-٧٤] وأحسن رئيا، أي: أحسن مرأىٰ ومنظرًا، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور.. فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثا ورئيا، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء، وهم أقل منهم وأذل، معتصمين من العذاب؟! ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣﴾ [القمر]؟!.. **وعُلِم من هذا: أن الاستدلال علىٰ خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة،** وأنه من طرق الكفار.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۝٧٥﴾ [مريم:٧٥]

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ﴾ لما ذكر دليلهم الباطل، الدال علىٰ شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا: أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه، وسعىٰ فيها، فإن الله يمده منها، ويزيده فيها حبًا، عقوبة له علىٰ اختيارها علىٰ الهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام]..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟﴾ أي: القائلون: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣﴾..

﴿مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ بقتل أو غيره..

﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ التي هي باب الجزاء علىٰ الأعمال..

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوىٰ مضمحلة، ويتيقنون أنهم أهل الشر..

﴿وَأَضْعَفُ جُندًا ۝٧٥﴾ [مريم:٧٥] ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئًا، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلىٰ الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۝٧٦ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ
وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم:٧٦-٨٠]

لما ذكر أنه يمد للظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته..

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ﴾ والهدىٰ **يشمل العلم النافع، والعمل الصالح**.. فكل من سلك طريقًا في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أمورًا أخر، لا تدخل تحت كسبه.. وفي هذا دليل علىٰ **زيادة الإيمان ونقصه**، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالىٰ ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١] ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، ويدل عليه أيضا الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور، أعظم تفاوت.. ثم قال..

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الأعمال الباقية، التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها ولا تضمحل هي الصالحات منها.. من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقراءة، وتسبيح، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلىٰ المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية.. فهذه الأعمال..

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ خير عند الله، ثوابها وأجرها..

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ وكثير للعاملين نفعها وردها.. وهذا من باب **استعمال أفعل التفضيل في غير بابه**، فإنه ما ثم غير الباقيات الصالحات عمل ينفع، ولا يبقىٰ لصاحبه ثوابه ولا ينجع.. **ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات**: -والله أعلم- أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد وحسن المقام ونحو ذلك علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه..

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أفلا تتعجب من حالة هذا الكافر، الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة..

﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ أنه سيؤتى في الآخرة مالًا وولدًا، أي: يكون من أهل الجنة.. هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمنا بالله وادعى هذه الدعوى، لسهل الأمر.. وهذه الآية -وإن كانت نازلة في كافر معين- **فإنها تشمل كل كافر زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة، قال الله توبيخا له وتكذيبا..**

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ أحاط علمه بالغيب، حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون، أنه يؤتى يوم القيامة مالا وولدا؟!

﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه متقول، قائل ما لا علم له به.. وهذا التقسيم والترديد في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة؛ **فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا يخلو: إما أن يكون قوله صادرا عن علم بالغيوب** المستقبلة، وقد علم أن هذا لله وحده، فلا أحد يعلم شيئا من المستقبلات الغيبية، إلا من أطلعه الله عليه من رسله، **وإما أن يكون متخذا عهدا عند الله**، بالإيمان به، واتباع رسله، الذين عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، والناجون الفائزون، **فإذا انتفى هذان الأمران، علم بذلك بطلان الدعوى**، ولهذا قال تعالى..

﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر كما زعم، فليس للقائل اطلاع على الغيب، لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسائل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهدا، لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تقوله، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال..

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ نزيده من أنواع العقوبات، كما ازداد من الغي والضلال..

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ نرثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فردًا، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان..

﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم:٧٦-٨٠] فيرى من وخيم العذاب وأليم العقاب ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا ۝٨٣﴾ [مريم:٨١-٨٣]

وهذا من عقوبة الكافرين.. أنهم لما لم يعتصموا بالله..

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ۝٨١﴾ ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به ووالوا أعداءه من الشياطين..

﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢﴾ سلطهم عليهم، وقيضهم لهم..

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا ۝٨٣﴾ [مريم:٨١-٨٣] فجعلت الشياطين تؤزهم إلىٰ المعاصي أزا، وتزعجهم إلىٰ الكفر إزعاجا، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم ويتشربها، فيسعىٰ فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهده ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل.. وهذا كله جزاء له علىٰ توليه من وليه وتوليه لعدوه، جعل له عليه سلطان، وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النحل].

﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا ۝٨٤﴾ [مريم:٨٤]

﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أي: علىٰ هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب..

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا ۝٨٤﴾ [مريم:٨٤] أي: أن لهم أياما معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدًا ۝٨٦ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا ۝٨٧﴾ [مريم:٨٥-٨٧]

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ۝٨٥﴾ يخبر تعالىٰ عن تفاوت الفريقين المتقين، والمجرمين.. **وأن المتقين له** -باتقاء الشرك والبدع والمعاصي- يحشرهم إلىٰ موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفودا إليه.. والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء وحسن الظن بالوافد إليه ما هو معلوم، فالمتقون يفدون إلىٰ الرحمن، راجين منه رحمته وعميم إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدَّموه من العمل بتقواه، واتباع مراضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب علىٰ ألسنة رسله، فتوجهوا إلىٰ ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله..

﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ۝٨٦﴾ **وأما المجرمون:** فإنهم يساقون إلىٰ جهنم وردًا، أي: عطاشا.. وهذا أبشع ما يكون من الحالات، سوقهم علىٰ وجه الذل والصغار إلىٰ أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمئهم ونصبهم يستغيثون فلا يغاثون، ويَدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال..

﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالىٰ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الزمر: ٤٤]، وقد أخبر أنه ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر]، لأنهم لم يتخذوا عنده عهدًا بالإيمان به وبرسله..

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ۝٨٧﴾ [مريم:٨٥-٨٧] وإلا فمن اتخذ عنده عهدًا فآمن به وبرسله واتبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].. **وسمىٰ الله الإيمان به واتباع رسله عهدًا،** لأنه عهد في كتبه وعلىٰ ألسنة رسله، بالجزاء الجميل لمن اتبعهم.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾ [مريم:٨٨-٩٣]

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨﴾ وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين،

الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدًا، كقول النصارىٰ: المسيح ابن الله، واليهود: عزير ابن الله، والمشركين: الملائكة بنات الله، تعالىٰ الله عن قولهم علوًا كبيرًا..

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ عظيمًا وخيمًا.. من عظيم أمره أنه..

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ علىٰ عظمتها وصلابتها..

﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ من هذا القول..

﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ منه، أي: تتصدع وتنفطر..

﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ تندك الجبال من أجل هذه الدعوىٰ القبيحة، تكاد هذه المخلوقات أن يكون منها ما ذُكِر.. والحال أنه..

﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾ لا يليق ولا يكون..

﴿لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ وذلك لأن اتخاذه الولد يدل علىٰ نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد.. والولد أيضًا من جنس والده، والله تعالىٰ لا شبيه له ولا مثل ولا سمي..

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم:٨٨-٩٣] ذليلًا منقادًا، غير متعاص ولا ممتنع.. الملائكة، والإنس، والجن وغيرهم، الجميع مماليك، متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء، فكيف يكون له ولد، وهذا شأنه وعظمة ملكه؟!

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾
وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم:٩٤-٩٥]

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم، أهل السماوات والأرض، وأحصاهم وأحصىٰ أعمالهم، فلا يضل ولا ينسىٰ، ولا تخفىٰ عليه خافية..

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم:٩٤-٩٥] لا أولاد، ولا مال، ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله ويوفيه حسابه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾ [مريم:٩٦]

هذا من نعمه علىٰ عباده، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم ودًا.. أي: محبة ووِدادًا في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض.. وإذا كان لهم في القلوب ود تيسر لهم كثير من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل.. ولهذا ورد في الحديث الصحيح: «إن الله إذا أحب عبدا، نادىٰ جبريل: إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[1]، وإنما جعل الله لهم ودًا، لأنهم ودوه، فوددهم إلىٰ أوليائه وأحبابه.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ۝٩٧﴾ [مريم:٩٧]

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ يخبر تعالىٰ عن نعمته تعالىٰ، وأن الله يسَّر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ.. يسر ألفاظه ومعانيه، ليحصل المقصود منه والانتفاع به..

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بالترغيب في المبشَّر به من الثواب العاجل والآجل.. وذكر الأسباب الموجبة للبشارة..

﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ۝٩٧﴾ [مريم:٩٧] شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم.. فتنذرهم، فتقوم عليهم الحجة، وتتبين لهم المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة.. ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم، فقال..

(١) أخرجه البخاري [٣٢٠٩]، ومسلم [٢٦٣٧] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم:٩٨]

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ من قوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وغيرهم من المعاندين المكذبين، لما استمروا في طغيانهم، أهلكهم الله فليس لهم من باقية..

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم:٩٨] والركز: الصوت الخفي.. أي: لم يبق منهم عين ولا أثر، بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وأسمارهم عظة للمتعظين.

تم تفسير سورة (مريم)، ولله الحمد والشكر

تفسير سورة طه، وهي مكية

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾ [طه:١-٨]

﴿طه ۝١﴾ من جملة الحروف المقطعة، المفتتح بها كثير من السور، وليست اسما للنبي ﷺ..

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ ليس المقصود بالوحي وإنزال القرآن عليك وشرع الشريعة، لتشقىٰ بذلك.. ويكون في الشريعة تكليف يشق علىٰ المكلفين وتعجز عنه قوىٰ العاملين.. وإنما الوحي والقرآن والشرع شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصِّلًا للسعادة والفلاح والفوز، وسهَّله غاية التسهيل، ويسَّر كل طرقه وأبوابه.. وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان.. فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوىٰ عليه من الخير في الدنيا والآخرة، ولهذا قال..

﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ إلا ليتذكر به من يخشىٰ الله تعالىٰ.. **فيتذكر ما فيه من الترغيب** إلىٰ أجل المطالب، فيعمل بذلك، **ومن الترهيب** عن الشقاء والخسران، فيرهب منه، **ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصَّلة** التي كان مستقرًا في عقله حسنها مجملًا، فوافق التفصيلُ ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله﴿ تَذۡكِرَةٗ ﴾.. **والتذكرة لشيء كان موجودًا**، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله.. **وخص بالتذكرة مَنْ** يخشىٰ؛ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من

خشية الله مثقال ذرة؟! هذا ما لا يكون، ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ [الأعلىٰ].. **ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم** وأنه تنزيل خالق الأرض والسماوات المدبر لجميع المخلوقات..

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ أي: فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم.. وكثيرا ما **يقرن بين الخلق والأمر** كما في هذه الآية وكما في قوله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفي قوله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ **وذلك** أنه الخالق الآمر الناهي، فكما أنه لا خالق سواه، فليس علىٰ الخلق إلزام ولا أمر ولا نهي إلا من خالقهم، **وأيضًا** فإنَّ **خلقه** للخلق فيه التدبير القدري الكوني **وأمره** فيه التدبير الشرعي الديني، **فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة**، فلم يخلق شيئًا عبثا، **فكذلك لا يأمر ولا ينهىٰ إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان**، فلمَّا بيَّن أنه الخالق المدبر الآمر الناهي أخبر عن عظمته وكبريائه فقال..

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها..

﴿ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ استواء يليق بجلاله ويناسب عظمته وجماله، فاستوىٰ علىٰ العرش، **واحتوىٰ علىٰ الملك**..

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من مَلَك وإنسي وجني وحيوان وجماد ونبات..

﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ أي: الأرض، فالجميع مُلك لله تعالىٰ، عبيد مدبرون مسخرون تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا..

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ الكلامَ الخفيَّ..

﴿وَأَخْفَى ۝٧﴾ من السر الذي في القلب ولم ينطق به.. أو (السر) ما خطر علىٰ القلب ﴿وَأَخْفَى﴾ ما لم يخطر، يعلم تعالىٰ أنه يخطر في وقته وعلىٰ صفته.. **المعنىٰ**: أن علمه تعالىٰ محيط بجميع الأشياء، دقيقها وجليلها، خفيها وظاهرها، فسواء جهرت بقولك أو أسررته فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالىٰ.. **فلما قرر كماله المطلق** بعموم خلقه وعموم أمره ونهيه

وعموم رحمته وسعة عظمته وعلوه علىٰ عرشه وعموم ملكه وعموم علمه، **نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة** وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة وعبادة غيره باطلة فقال..

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب والذل والخوف والرجاء والمحبة والإنابة والدعاء، إلا هو..

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾ [طه:١-٨] له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنىٰ.. **من حسنها:** أنها كلها أسماء دالة علىٰ المدح، فليس فيها اسم لا يدل علىٰ المدح والحمد.. **ومن حسنها:** أنها ليست أعلامًا محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف.. **ومن حسنها:** أنها دالة علىٰ الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها.. **ومن حسنها:** أنه أمر العباد أن يدعوه بها؛ لأنها وسيلة مقربة إليه، يحبها ويحب من يحبها، ويحب من يحفظها، **ويحب من يبحث عن معانيها**، ويتعبد له بها قال تعالىٰ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤﴾ [طه:٩-١٤]

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ علىٰ وجه الاستفهام التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها..

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ في حاله التي هي مبدأ سعادته، ومنشأ نبوته..

﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ أنه رأىٰ نارًا من بعيد، وكان قد ضلَّ الطريق، وأصابه البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره..

﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾..

﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ أبصرت..

﴿نَارٗا﴾ وكان ذلك في جانب الطور الأيمن..

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ تصطلون به..

﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ يهديني الطريق.. وكان مطلبه النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثَمَّ النور المعنوي، نور الوحي، الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية، هداية الصراط المستقيم، الموصلة إلىٰ جنات النعيم، **فحصل له أمر لم يكن في حسابه، ولا خطر بباله..**

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النار التي آنسها من بعيد، وكانت -في الحقيقة- نورًا، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل علىٰ ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره»[1].. فلما وصل إليها..

﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١﴾ نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم]..

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ أخبره أنه ربه..

﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ وأمره أن يستعد ويتهيأ لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه..

﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾ لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقديسه إلا أن الله اختاره لمناجاته كليمه موسىٰ لكفىٰ.. وقد قال كثير من المفسرين: (إن الله أمره أن يلقي نعليه لأنهما من جلد حمار) فالله أعلم بذلك..

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ تخيرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه، تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال..

﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾ ألق سمعك للذي أوحي إليك، فإنه حقيق بذلك؛ لأنه أصل الدين ومبدأه، وعماد الدعوة الإسلامية.. ثم بين الذي يوحيه إليه بقوله..

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ الله المستحق الألوهية المتصف بها؛ لأنه الكامل في أسمائه

---

(١) أخرجه مسلم [١٧٩] وغيره من حديث أبي موسىٰ الاشعري.

وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا مثيل ولا كفو ولا سمي..

﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ بجميع أنواع العبادة، ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها..

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم خص الصلاة بالذكر، وإن كانت داخلة في العبادة، **لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح..**

﴿لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه:٩-١٤] اللام للتعليل، أي: **أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي؛** لأن ذكره تعالىٰ أجل المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطَّل عن ذكر الله معطَّل عن كل خير، وقد خرب كلَّ الخراب.. فشرع اللهُ للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصًا الصلاة، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر.. وهذا النوع يقال له توحيد الألوهية وتوحيد العبادة، **فالألوهية وصفه تعالىٰ، والعبودية وصف عبده.**

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾ [طه:١٥]

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ لا بد من وقوعها..

﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ عن نفسي، كما في بعض القراءات، كقوله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥]، فعلمها قد أخفاه عن الخلائق كلهم، فلا يعلمها مَلَك مقرب، ولا نبي مرسل، **والحكمة في إتيان الساعة..**

﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾ [طه:١٥] من الخير والشر، فهي الباب لدار الجزاء ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١﴾ [النجم].

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦﴾ [طه:١٦]

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا﴾ فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة، والجزاء، والعمل لذلك..

﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ من كان كافرًا بها، غير معتقد لوقوعها، يسعىٰ في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، ويقيم من الشبه ما يقدر عليه..

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ متبعًا في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلىٰ الحق، وإنما قصاراه اتباع هواه..

﴿فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه:١٦] فإياك أن تصغي إلىٰ من هذه حاله، أو تقبل شيئا من أقواله وأعماله، الصادرة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها.. وإنما حذر الله تعالىٰ عمن هذه حاله لأنه من أخوف ما يكون علىٰ المؤمن بوسوسته وتدجيله، وكون النفوس مجبولة علىٰ التشبه والاقتداء بأبناء الجنس.

🕮 الفـوائـد

١- في هذا تنبيه وإشارة إلىٰ: **التحذير عن كل داع إلىٰ باطل،** يصد عن الإيمان الواجب، **أو عن كماله،** أو يوقع الشبهة في القلب.. وعن النظر في الكتب المشتملة علىٰ ذلك.

٢- وذكر في هذا الإيمان به، وعبادته، والإيمان باليوم الآخر؛ لأن **هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان،** وركن الدين، وإذا تمت تم أمر الدين، ونقصه أو فقده بنقصها، أو نقص شيء منها.. **وهذه نظير قوله تعالىٰ** في الإخبار عن ميزان سعادة الفرق -الذين أوتوا الكتاب- وشقاوتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة].

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾
فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا
سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ
سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه:١٧-٢٣]

لما بيَّن الله لموسىٰ أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه،

وتقر به عينه، ويقوي إيمانه، بتأييد الله له على عدوه فقال..

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ هذا مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضع، أخرج الكلام بطريق الاستفهام، فـ..

﴿قَالَ﴾ موسى..

﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ ذكر فيها هاتين المنفعتين: **منفعة لجنس الآدمي**: وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة، **ومنفعة للبهائم**: وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه، هشَّ بها، أي: ضرب الشجر، ليتساقط ورقه، فيرعاه الغنم.. هذا الخُلُق الحسن من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الذي من آثاره حسن رعاية الحيوان البهيم، **والإحسان إليه دل على عناية من الله له واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته..**

﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ﴾ مقاصد..

﴿أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ غير هذين الأمرين.. **ومن أدب موسى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملًا عن السؤال عن عينها، أو منفعتها أجابه بعينها، ومنفعتها فـ..**

﴿قَالَ﴾ **الله له..**

﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ انقلبت بإذن الله ثعبانا عظيمًا، فولى موسى هاربًا خائفًا، ولم يعقِّب.. **وفي وصفها بأنها (تسعى)** إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تخييل لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.. فـ..

﴿قَالَ﴾ **الله لموسى..**

﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ ليس عليك منها بأس..

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي: هيئتها وصفتها، إذ كانت عصا.. فامتثل موسى أمر الله إيمانًا به وتسليمًا.. فأخذها فعادت عصاه التي كان يعرفها.. هذه آية.. ثمَّ ذكر الآية الأخرى فقال..

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أدخل يدك في جيبك، وضم عليك عضدك الذي هو جناح الإنسان..

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ بياضًا ساطعًا من غير عيب ولا برص..

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢﴾ قال الله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٣٢﴾ [القصص]..

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣﴾ [طه:١٧-٢٣] أي: فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعىٰ، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين؛ لأجل أن نريك من آياتنا الكبرىٰ الدالة علىٰ صحة رسالتك، وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك، ويزداد علمك، وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهانًا لمن أرسلت إليهم.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧﴾ [طه:٢٤-٣٧]

لما أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ، ونبأه، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلىٰ فرعون، ملك مصر، فقال..

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ تمرد وزاد علىٰ الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتىٰ إنه ادعىٰ الربوبية والألوهية، قبحه الله.. أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله، أنه لا يعذب أحدًا، إلا بعد قيام الحجة بالرسل.. فحينئذ علِم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه تحمل حملا عظيما، حيث أُرسل إلىٰ هذا الجبار العنيد، **الذي ليس له منازع في مصر من الخلق**، وموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وحده، وقد جرىٰ منه ما جرىٰ من القتل.. فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب، التي هي من تمام الدعوة، فـ..

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥﴾ وسِّعه وأفسحه، لأتحمل الأذىٰ القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري.. **فإنَّ الصدر إذا ضاق لم يصلح صاحبه لهداية الخلق**

ودعوتهم، قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وعسىٰ الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم..

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ سهل عَلَيَّ كلَّ أمر أسلكه، وكل طريق أقصده في سبيلك، وهوِّن عليَّ ما أمامي من الشدائد.. **ومن تيسير الأمر**: أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كلَّ أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلىٰ قبول..

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾ وكان في لسانه ثقل، لا يكاد يفهم عنه الكلام، كما قال المفسرون كما قال الله عنه أنه قال﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤] فسأل الله أن يحل منه عقدة..

﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ يفقهوا ما يقول، فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني..

﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾ مُعِينًا يعاونني ويؤازرني ويساعدني علىٰ من أُرسلتُ إليهم..

﴿مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾﴾ وسَأَلَ أن يكون من أهله؛ لأنه من باب البر، وأحق ببر الإنسان قرابته.. ثم عيَّنه بسؤاله فقال..

﴿هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ قوِّني به وشد به ظهري قال الله﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ [القصص: ٤٥]..

﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ في النبوة، بأن تجعله نبيًا رسولًا كما جعلتني.. ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال..

﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ عَلِمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ **مدار العبادات كلها والدين علىٰ ذكر الله**، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان علىٰ البر والتقوىٰ، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات..

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فَمُنَّ علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك، فـ..

﴿قَالَ﴾ الله..

﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٢٤-٣٦] **أُعطيتَ جميع ما طلبت: فسنشرح صدرك.. وتيسر أمرك.. ونحل عقدة من لسانك.. يفقهوا قولك.. ونشد عضدك بأخيك هارون** ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص].

📖 الفـوائـد

هذا السؤال من موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يدل علىٰ: **كمال معرفته بالله، وكمال فطنته، ومعرفته للأمور، وكمال نصحه..**

وذلك، أن الداعي إلىٰ الله، المرشد للخلق -خصوصًا إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان- **يحتاج:**

إلىٰ سعة صدر وحلم تام علىٰ ما يصيبه من الأذىٰ..

ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون، لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه، ليحببه إلىٰ النفوس، وإلىٰ تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه..

ويحتاج مع ذلك أيضا أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلىٰ سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلًا بحسب حاله..

وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء، يساعدونه علىٰ مطلوبه؛ **لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر،** فلذلك سأل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذه الأمور فأعطيها..

وإذا نظرت إلىٰ **حالة الأنبياء المرسلين إلىٰ الخلق رأيتهم بهذه الحال بحسب أحوالهم،** خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنَّه في الذروة العليا من كل صفة كمال، وله من شرح الصدر وتيسير الأمر وفصاحة اللسان وحسن التعبير والبيان والأعوان علىٰ الحق من الصحابة فمن بعدهم ما ليس لغيره.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ
ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى
وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ
فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا
وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ
سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ
لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه:٣٧-٤١]

لمَّا ذكر منته علىٰ عبده ورسوله موسىٰ بن عمران، في الدين، والوحي، والرسالة، وإجابة سؤاله.. ذكر نعمته عليه وقت التربية والتنقلات في أطواره فقال..

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ حيث ألهمنا أمَّك أن تقذفك في التابوت وقت الرضاع، خوفًا من فرعون؛ لأنه أمر بذبح أبناء بني إسرائيل.. فأخفته أمه، وخافت عليه خوفًا شديدًا..

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ فقذفته في التابوت..

﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ ثم قذفته في اليم، أي: شط نيل مصر..

﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ﴾ فأمر الله اليمَّ أن يلقيه في الساحل.. وقيَّض أن يأخذه أعدىٰ الأعداء لله ولموسىٰ، ويتربىٰ في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه، ولهذا قال..

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ فكلُّ من رآه أحبه..

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ ولتتربىٰ علىٰ نظري وفي حفظي وكلاءتي.. وأي نظر وكفالة أجلّ وأكمل من ولاية البر الرحيم، القادر علىٰ إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه؟! فلا ينتقل من حالة إلىٰ حالة، إلا والله تعالىٰ هو الذي دبَّر ذلك لمصلحة موسىٰ..

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ ومن حسن تدبيره: أن موسىٰ لما وقع في يد عدوه، قلقت أمه قلقًا شديدًا، وأصبح فؤادها فارغًا، وكادت تخبر به، لولا أن الله ثبتها وربط علىٰ قلبها، ففي هذه الحالة حرَّم الله علىٰ موسىٰ المراضع، فجعلوا يعرضون عليه المراضع، فلا يقبل ثدي امرأة قط.. فجاءت أخت موسىٰ، فقالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القصص: ١٢]..

﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ ليكون مآله إلىٰ أمه فترضعه، ويكون عندها، مطمئنة ساكنة، قريرة العين..

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ وهو القبطي، لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها، وجد رجلين يقتتلان، واحدًا من شيعة موسىٰ، والآخر من عدوه قبطي ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، فدعا الله وسأله المغفرة، فغفر له، ثم فر هاربًا لما سمع أنَّ الملأ طلبوه، يريدون قتله..

﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ فنجاه الله من الغمِّ، من عقوبة الذنب، ومن القتل..

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك، وبلوناك، فوجدناك مستقيما في أحوالك.. أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتىٰ وصلت إلىٰ ما وصلت إليه..

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حين فرَّ هاربًا من فرعون وملئه، حين أرادوا قتله، فتوجه إلىٰ مدين، ووصل إليها، وتزوج هناك، ومكث عشر سنين، أو ثمان سنين..

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ جئت مجيئًا قد مضىٰ به القدر، وعَلِمَه الله وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان، ليس مجيئك اتفاقًا من غير قصد ولا تدبير منا.. وهذا يدل علىٰ **كمال اعتناء الله بكليمه** موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهذا قال..

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه:٣٨-٤١] أجريت عليك صنائعي ونعمي، وحسن عوائدي، وتربيتي..لتكون لنفسي حبيبًا مختصًا، وتبلغ في ذلك مبلغًا لا يناله أحد من الخلق، إلا النادر منهم.. وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ، يبذل غاية جهده، ويسعىٰ نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك، فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم، وما تحسبه يفعل بمن أراده لنفسه، واصطفاه من خلقه؟!

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه:٤٢-٤٦]

لما امتن الله على موسىٰ بما امتن به، من النعم الدينية والدنيوية قال له..

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ هارون..

﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ أي: الآيات التي مِنِّي، الدالة علىٰ الحق وحسنه، وقبح الباطل، كاليد والعصا ونحوهما، في تسع آياتٍ إلىٰ فرعون وملئه..

﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝٤٢﴾ لا تفترا ولا تكسلا عن مداومة ذكري، بل استمرَّا عليه، والزماه كما وعدتما بذلك ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾ [طه: ٣٣- ٣٤].. **فإن ذكر الله فيه معونة علىٰ جميع الأمور**، يسهلها، ويخفف حملها..

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ جاوز الحد في كفره وطغيانه، وظلمه وعدوانه..

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ سهلًا لطيفًا، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في المقال، أو فظاظة في الأفعال..

﴿لَّعَلَّهُۥ﴾ بسبب القول اللين..

﴿يَتَذَكَّرُ﴾ ما ينفعه فيأتيه..

﴿أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ ما يضره فيتركه، فإنَّ القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه..

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن تبلغه رسالاتك ونقيم عليه الحجة..

﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾ يتمرد عن الحق، ويطغىٰ بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه..

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ﴾ أن يفرط عليكما..

﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه:٤٢-٤٦] أي: أنتما بحفظي ورعايتي أسمع أقوالكما، وأرىٰ جميعَ أحوالكما، فلا تخافا منه.. فزال الخوف عنهما واطمأنت قلوبهما بوعد ربهما.

📖 **الفـوائـد**

قد فُسِّر القولُ اللين في قوله ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النازعات]، فإن في هذا الكلام من لطف القول وسهولته وعدم بشاعته ما لا يخفىٰ علىٰ المتأمل..

فإنه أتىٰ بـ (هل) الدالة علىٰ العَرض والمشاورة، التي لا يشمئز منها أحد.

ودعاه إلىٰ التزكي والتطهر من الأدناس التي أصلها التطهر من الشرك، الذي يقبله كل عقل سليم.

ولم يقل: (أزكيك)، بل قال: (تزكىٰ) أنت بنفسك.

ثم دعاه إلىٰ سبيل ربه الذي رباه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها وذكرها، فقال ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾..

فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنه بالقلوب علم أنه لا ينجع فيه تذكير فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨﴾ [طه:٤٧-٤٨]

﴿فَأْتِيَاهُ﴾ بهذين الأمرين..

﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ دعوته إلىٰ الإسلام..

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ﴾ وتخليص هذا الشعب الشريف -بني إسرائيل- من قيده وتعبيده لهم، ليتحرروا ويملكوا أمرهم، ويقيم فيهم موسىٰ شرع الله ودينه..

﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ تدل علىٰ صدقنا: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٠٨﴾ [الأعراف: ١٠٧-١٠٨] إلىٰ آخر ما ذكر الله عنهما..

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧﴾ أي: من اتبع الصراط المستقيم واهتدىٰ بالشرع المبين حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة..

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ﴾ خبر من عند الله، لا من عند أنفسنا..

﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بأخبار الله وأخبار رسله..

﴿وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه:٤٧-٤٨] عن الانقياد لهم واتباعهم.. **وهذا فيه: الترغيب** لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، **والترهيب**: من ضد ذلك.. ولكن لم يفد فيه هذا الوعظ والتذكير، فأنكر ربه وكفر وجادل في ذلك ظلماً وعنادًا

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه:٤٩-٥١]

﴿قَالَ﴾ فرعون لموسىٰ علىٰ وجه الإنكار..

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ فأجاب موسىٰ بجواب شاف كاف واضح، ف..

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطىٰ كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال علىٰ حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته..

﴿ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ كلَّ مخلوق إلىٰ ما خلقه له.. **وهذه الهداية العامة** المشاهدة في جميع المخلوقات، فكلُّ مخلوق تجده يسعىٰ لِمَا خُلِق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتىٰ إن الله تعالىٰ أعطىٰ الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به علىٰ ذلك.. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، فالذي خلق المخلوقات وأعطاها خَلقهَا الحسن، الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها، هو الرب علىٰ الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودًا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب.. فلو قُدِّر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك.. ولهذا لما لم يمكن فرعون أن يعاند هذا الدليل القاطع، **عدل إلىٰ المشاغبة، وحاد عن المقصود** ف..

﴿قَالَ﴾ لموسىٰ..

﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه:٤٩-٥١] ما شأنهم، وما خبرهم، وكيف وصلت بهم الحال؟ وقد سبقونا إلىٰ الإنكار والكفر والظلم والعناد، ولنا فيهم أسوة.. ف..

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه:٥٢-٥٥]

﴿قَالَ﴾ موسىٰ..

﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ﴾ قد أحصىٰ أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علمًا وخُبرًا..

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسىٰ ما علمه منها.. **ومضمون ذلك:** أنهم قَدِمُوا إلىٰ ما قَدَّموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنىٰ لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فتلك أمة قد خلت، لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم..فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك والآيات التي أريناكها قد تحققت صدقها ويقينها، وهو الواقع، فانقد إلىٰ الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدال بالباطل.. وإن كنت قد شككت فيها، أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فَرُدَّ الدليلَ بالدليل، والبرهانَ بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلًا ما دام الملوان.. كيف وقد أخبر الله عنه، أنه جحدها مع استيقانها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: ١٤]، وقال موسىٰ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، فعُلِم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض.. ثم استطرد في هذا الدليل القاطع، بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال..

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فراشًا، بحالةٍ تتمكنون من السكون فيها، والقرار، والبناء، والغراس، وإثارتها للازدراع وغيره، وذللها لذلك، ولم يجعلها ممتنعة عن مصلحة من مصالحكم..

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلىٰ أرض، ومن قطر إلىٰ قطر، حتىٰ كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلىٰ جميع الأرض بأسهل ما يكون،

وينتفعون بأسفارهم أكثر مما ينتفعون بإقامتهم..

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أنزل المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل: ٦٥]..

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ وأنبت بذلك جميع أصناف النوابت على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها، وتباين أحوالها، فساقه، وقدَّره، ويسَّره، رزقًا لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمي وحيوان، ولهذا قال..

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ وسياقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك على أن **الأصل في جميع النوابت الإباحة**، فلا يحرم منهم إلا ما كان مضرا، كالسموم ونحوه..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ على أنه الرب المعبود، المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى..

﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾ لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل الله وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتمام عنايته.. **وخص الله أولي النهى بذلك:** لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، **وأما من عداهم:** فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم، حظ البهائم، يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ [يوسف].. ولما ذكر كرم الأرض، وحسن شكرها لِمَا ينزله الله عليها من المطر، وأنها بإذن ربها تخرج النبات المختلف الأنواع، أخبر أنه خلقنا منها..

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ وفيها يعيدنا إذا متنا فَدُفِنَّا فيها..

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه:٥٢-٥٥] ومنها يخرجنا تارة أخرى فكما أوجدنا منها من العدم.. وقد علمنا ذلك وتحققناه، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها.. وهذان دليلان على الإعادة عقليان واضحان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾ [طه:٥٦-٥٩]

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ يخبر تعالىٰ، أنه أُريَ فرعونَ من الآيات والعبر والقواطع..

﴿كُلَّهَا﴾ جميع أنواعها العيانية، والأفقية والنفسية..

﴿فَكَذَّبَ﴾ فما استقام ولا ارعوىٰ، وإنما كذب وتولىٰ، كذب الخبر..

﴿وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾ وتولىٰ عن الأمر والنهي.. وجعل الحق باطلًا والباطل حقًا، وجادل بالباطل ليضل الناس، فـ..

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧﴾ زعم أن هذه الآيات التي أُرَاه إياها موسىٰ، سحرٌ وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم، والاستيلاء عليها، **ليكون كلامه مؤثرا في قلوب قومه، فإنَّ الطباع تميل إلىٰ أوطانها**، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها.. فأخبرهم أن موسىٰ هذا قصده، ليبغضوه ويسعوا في محاربته..

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ فلنأتينك بسحر مثل سحرك فأمهلنا..

﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨﴾ مستو علمنا وعلمك به.. أو مكانًا مستويًا معتدلًا ليتمكن من رؤية ما فيه.. فـ..

﴿قَالَ﴾ موسىٰ..

﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وهو عيدهم، الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم..

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾ [طه:٥٦-٥٩] يجمعون كلهم في وقت الضحىٰ.. وإنما سأل موسىٰ ذلك؛ لأن يوم الزينة ووقت الضحىٰ منه يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء علىٰ حقائقها، ما لا يحصل في غيره.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ [طه:٦٠-٦٢]

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ جميع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسىٰ.. فأرسل في مدائنه من يحشر السحرة الماهرين في سحرهم.. وكان **السحر إذ ذاك متوفرًا**، وعلمه علمًا مرغوبًا فيه، فجمع خلقًا كثيرًا من السحرة..

﴿ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ كلٌّ منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.. فكان الجمع حافلًا، حضره الرجال والنساء، والملأ والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضَّوا الناس علىٰ الاجتماع، وقالوا للناس: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء: ٣٩- ٤٠].. فحين اجتمعوا من جميع البلدان وعظهم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ وأقام عليهم الحجة، وقال لهم..

﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم، وتغالبون الحق، وتفترون علىٰ الله الكذب..

﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ فيستأصلكم بعذاب من عنده..

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ ويخيب سعيكم وافتراؤكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملائه، ولا تسلمون من عذاب الله..

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ **وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب**.. لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لمَّا سمعوا كلام موسىٰ، وارتبكوا، ولعلَّ من جملة نزاعهم، الاشتباه في موسىٰ، هل هو علىٰ الحق أم لا؟.. ولكن هم إلىٰ الآن ما تم أمرهم، ليقضي الله أمرًا كان مفعولا ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]..

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ [طه:٦٠-٦٢] فحينئذ أسرُّوا فيما بينهم النجوىٰ، وأنهم يتفقون علىٰ مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بدينهم، والنجوىٰ التي أسروها فسرها بقوله..

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه:٦٣-٦٤]

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾ كمقالة فرعون السابقة.. **فإمَّا أن يكون ذلك توافقًا من فرعون والسحرة** علىٰ هذه المقالة من غير قصد، **وإما أن يكون تلقينا منه لهم مقالته**، التي صمَّم عليها، وأظهرها للناس.. **وزادوا علىٰ قول فرعون أن قالوا..**

﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ طريقة السحر، حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم، الذي أشغلتم زمانكم فيه، ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة.. وهذا حض من بعضهم علىٰ بعض **علىٰ الاجتهاد في مغالبته**، ولهذا قالوا..

﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ **أظهروه دفعة واحدة، متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقًا رأيكم وكلمتكم..**

﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ ليكون أمكن لعملكم، وأَهيَب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل..

﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه:٦٣-٦٤] واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفائز، فهذا يوم له ما بعده من الأيام.. فلله درهم! ما أصلبهم في باطلهم وأشدهم فيه! حيث أتوا بكل سبب ووسيلة وممكن، ومكيدة يكيدون بها الحق.. ويأبىٰ الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق علىٰ الباطل.. فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ

تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾
فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه:٦٥-٧٠]

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ **عصاك..**

﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ **خيروه.. مُوهمين أنهم علىٰ جزم من ظهورهم عليه بأيِّ حالةٍ كانت، فـ..**

﴿قَالَ﴾ **لهم موسىٰ..**

﴿بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ **فألقوا حبالهم وعصيهم..**

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ﴾ **أي: إلىٰ موسىٰ..**

﴿مِن سِحۡرِهِمۡ﴾ **البليغ..**

﴿أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ **أنها حيَّات تسعىٰ، فلما خُيِّل إلىٰ موسىٰ ذلك..**

﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ **كما هو مقتضىٰ الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره..**

﴿قُلۡنَا﴾ **له تثبيتًا وتطمينًا..**

﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ **عليهم، أي: ستعلو عليهم وتقهرهم، ويذلوا لك ويخضعوا..**

﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ **أي: عصاك..**

﴿تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾**..**

﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ **أي: كيدهم ومكرهم، ليس بمثمر لهم ولا ناجح، فإنه من كيد السحرة الذين يموهون علىٰ الناس، ويلبسون الباطل، ويخيلون أنهم علىٰ الحق.. فألقىٰ موسىٰ عصاه، فتلقفت ما صنعوا كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع، فعلم السحرة علما يقينًا أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان..**

﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه:٦٥-٧٠] **فوقع الحق وظهر وسطع، وبطل السحر والمكر والكيد في ذلك المجمع العظيم، فصارت بيِّنة ورحمة للمؤمنين، وحجة علىٰ المعاندين فـ..**

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ
فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ
أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى
فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا
لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه:٧١-٧٣]

﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة..

﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن؟! استغرب ذلك منهم لـ: أدبهم معه، وذلهم، وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذاك..

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه بعد هذا البرهان، واستخف عقول قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة ليس لأن الذي معه الحق، بل لأنه تمالأ هو والسحرة ومكروا ودبَّروا أن يُخرجوا فرعونَ وقومَه من بلادهم.. فقَبِل قومُه هذا المكر منه، وظنوه صدقًا ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف].. **مع أن هذه المقالة التي قالها لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل** ومعرفة بالواقع؛ فإن موسى أتى من مَدين وحيدًا، وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم، بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات، فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى، فسعى ما أمكنه وأرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم، فجاءوا إليه ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص وكادوا أشد الكيد على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان.. فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى واتفقوا على ما صدر؟! هذا من أمحل المحال.. ثم توعد فرعون السحرة فقال..

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ﴾ كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد، يقطع يده اليمنى ورجله اليسرى..

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ لأجل أن تشتهروا وتختزوا..

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١﴾ يعني -بزعمه هو- أو الله، وأنه أشد عذابًا من الله، وأبقىٰ قلبًا للحقائق، وترهيبًا لمن لا عقل له..

ولهذا لما عرف السحرة الحق ورزقهم الله من العقل ما يدركون به الحقائق..

﴿قَالُواْ﴾ أجابوه بقولهم..

﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ لن نختارك وما وعدتنا به من الأجر والتقريب علىٰ ما أرانا الله من الآيات البينات الدالات علىٰ أن الله هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل وحده ،وأن ما سواه باطل..

﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ ونؤثرك علىٰ الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون..

﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ مما أوعدتنا به من القطع والصلب والعذاب..

﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ إنما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا ينقضي ويزول ولا يضرنا بخلاف عذاب الله لمن استمر علىٰ كفره فإنه دائم عظيم.. وهذا كأنه جواب منهم لقوله ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١﴾.. وفي هذا الكلام من السحرة دليل علىٰ أنه **ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة..**

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي: كُفرَنا ومعاصينا، فإن الإيمان مكفِّر للسيئات، والتوبة تجب ما قبلها.. وقولهم..

﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾ الذي عارضنا به الحق، هذا دليل علىٰ أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم وإنما **أكرههم فرعون** إكراهًا.. والظاهر -والله أعلم- أنَّ موسىٰ لمَّا وعظهم كما تقدم في قوله ﴿وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ﴾ أثَّر معهم ووقع منهم موقعًا كبيرًا، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة، ثم إن فرعون ألزمهم ذلك **وأكرههم علىٰ المكر الذي أجروه، ولهذا تكلموا بكلامه** السابق قبل إتيانهم حيث قالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾، فجروا علىٰ ما سنَّه لهم وأكرههم عليه.. ولعلَّ هذه النكتة التي قامت بقلوبهم -من كراهتهم لمعارضة الحق بالباطل وفعلهم ما فعلوا علىٰ وجه الإغماض- هي التي أثرت معهم، ورحمهم الله بسببها

ووفقهم للإيمان والتوبة..

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ﴾ مما وعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه..

﴿وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾ [طه:٧١-٧٣] ثوابًا وإحسانًا لا ما يقول فرعون﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ يريد أنه أشد عذابا وأبقىٰ.

📖 الفـوائـد

جميع ما أتىٰ من قصص موسىٰ مع فرعون يذكر الله فيه إذا أتىٰ علىٰ قصة السحرة أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب..

ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم يأت في ذلك حديث صحيح..

والجزم بوقوعه أو عدمه يتوقف علىٰ الدليل، والله أعلم بذلك وغيره..

ولكن توعده إياهم بذلك مع اقتداره **دليل علىٰ وقوعه، ولأنه لو لم يقع لذكره الله**، ولاتفاق الناقلين علىٰ ذلك.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾ [طه:٧٤-٧٦]

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ﴾ يخبر تعالىٰ أن من أتاه، وقدِم عليه..

﴿مُجۡرِمٗا﴾ وصفه الجرم من كل وجه، وذلك يستلزم الكفر- واستمر علىٰ ذلك حتىٰ مات..

﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ فإن له نار جهنم، الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب الأكباد والقلوب.. ومن شدة ذلك أن المعذب فيها لا يموت ولا يحيا..

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤﴾ لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محشوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفتر عنه ساعة، يستغيث فلا

يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.. نعم! إذا استغاث أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإذا دعا أجيب بـ ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون]..

﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا﴾ ومن يأت ربه مؤمنًا به مصدقًا لرسله، متبعًا لكتبه..

﴿قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الواجبة والمستحبة..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥﴾ المنازل العاليات، وفي الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات..

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

﴿وَذَٰلِكَ﴾ الثواب..

﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾ [طه:٧٤-٧٦] تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها.. وزكّىٰ أيضا نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح.. **فإنَّ للتزكية معنيين:** التنقية وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير.. وسميت الزكاة زكاة، لهذين الأمرين.

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه:٧٧-٧٩]

لما ظهر موسىٰ بالبراهين علىٰ فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلىٰ الإسلام، ويسعىٰ في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه.. وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد علىٰ بني إسرائيل.. ويريه الله من الآيات والعبر، ما قصه الله علينا في القرآن.. وبنو إسرائيل لا يقدرون أن يظهروا إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا علىٰ فرعون وأذاه.. فأراد الله تعالىٰ أن ينجيهم من عدوهم، ويمكّن لهم في الأرض ليعبدوه جهرا، ويقيموا أمره..

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ فأوحىٰ إلىٰ نبيه موسىٰ أن سِر أو سيروا أول

الليل، ليتمادوا في الأرض.. وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه.. فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل هم ونساؤهم وذريتهم.. فلما أصبح أهل مصر إذا ليس فيها منهم داع ولا مجيب.. فحنق عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المدائن من يجمع له الناس ويحضهم علىٰ الخروج في أثر بني إسرائيل، ليوقع بهم وينفذ غيظه.. والله غالب علىٰ أمره.. فتكاملت جنود فرعون فسار بهم يتبع بني إسرائيل، فأتبعوهم مشرقين ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء].. وقلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم، قد امتلأ عليهم غيظًا وحنقًا.. وموسىٰ مطمئن القلب، ساكن البال، قد وثق بوعد ربه، فقال: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء]..

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ فأوحىٰ الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فانفرق اثني عشر طريقًا، وصار الماء كالجبال العالية، عن يمين الطرق ويسارها، وأيبس الله طرقهم التي انفرق عنها الماء..

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون..

﴿وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧﴾ ولا يخشوا من الغرق في البحر.. فسلكوا في تلك الطرق..

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ فجاء فرعون وجنوده، فسلكوا وراءهم، حتىٰ إذا تكامل قوم موسىٰ خارجين وقوم فرعون داخلين..

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨﴾ أمر الله البحر فالتطم عليهم، وغشيهم من اليم ما غشيهم، وغرقوا كلهم، ولم ينجح منهم أحد.. وبنو إسرائيل ينظرون إلىٰ عدوهم، قد أقر الله أعينهم بهلاكه.. وهذا عاقبة الكفر والضلال، وعدم الاهتداء بهدي الله، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتىٰ به موسىٰ، واستخفافه إياهم..

﴿وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه:٧٧-٧٩] وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردهم موارد الغي والضلال، ثم أوردهم مورد العذاب والنكال.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ۝٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ۝٨١ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه:٨٠-٨٢]

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ **يُذكِّر تعالىٰ بني إسرائيل منته العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم..**

﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ ومواعدته لموسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **بجانب الطور الأيمن**، لينزل عليه الكتاب.. الذي فيه الأحكام الجليلة، والأخبار الجميلة، **فتتم عليهم النعمة الدينية، بعد النعمة الدنيوية..**

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ۝٨٠﴾ ويذكر منته أيضًا عليهم في التيه، بإنزال المن والسلوىٰ، والرزق الرغد الهنيء، الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم..

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ واشكروه علىٰ ما أسدىٰ إليكم من النعم..

﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ في رزقه، فتستعملونه في معاصيه، وتبطرون النعمة..

﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ فإنكم إن فعلتم ذلك، حل عليكم غضبي أي: غضبت عليكم، ثم عذبتكم..

﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ۝٨١﴾ ردىٰ وهلك، وخاب وخسر، لأنه عدم الرضا والإحسان، وحل عليه الغضب والخسران.. ومع هذا، فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال..

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ﴾ كثير المغفرة والرحمة..

﴿لِّمَن تَابَ﴾ من الكفر والبدعة والفسوق..

﴿وَءَامَنَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر..

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان..

﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه:٨٠-٨٢] سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدىٰ بالدين القويم.. فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتىٰ بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء، فإن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات، يذهب السيئات، **وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها**: من تعلم علم، وتدبر آية أو حديث حتىٰ يتبين له معنىٰ من المعاني يهتدي به، ودعوة إلىٰ دين الحق، ورد بدعة أو كفر أو ضلالة، وجهاد، وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية، **كلها مكفرات للذنوب**، محصلات لغاية المطلوب.

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ۝٨٦﴾ [طه:٨٣-٨٦]

كان الله تعالىٰ قد واعد موسىٰ أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتمها بعشر، فلما تم الميقات، بادر موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ الحضور للموعد شوقًا لربه، وحرصًا علىٰ موعوده، فقال الله له..

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣﴾ ما الذي قدَّمك عليهم؟ ولِمَ لَم تصبر حتىٰ تقدِم أنت وهم؟

﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ قريبًا مني، وسيصلون في أثري..

﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤﴾ والذي عجلني إليك يا رب طلبًا لقربك ومسارعة في رضاك، وشوقا إليك، فـ..

﴿قَالَ﴾ الله له..

﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ بعبادتهم للعجل، ابتليناهم، واختبرناهم، فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة كفروا..

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ وصاغه فصار﴿لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟﴾ لهم ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ فنسيه موسىٰ، فافتتن به بنو إسرائيل، فعبدوه، ونهاهم هارون فلم ينتهوا..

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ فلما رجع موسىٰ إلىٰ قومه وهو غضبان أسف، أي: ممتلئ غيظًا وحنقًا وغمًّا..

﴿قَالَ﴾ لهم موبخًا ومقبِّحًا لفعلهم..

﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وذلك بإنزال التوراة..

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: المدة، **فتطاولتم غيبتي** وهي مدة قصيرة؟! هذا قول كثير من المفسرين.. **ويحتمل أن معناه**: أفطال عليكم **عهد النبوة والرسالة**، فلم يكن لكم بالنبوة علم ولا أثر، واندرست آثارها، فلم تقفوا منها علىٰ خبر، فانمحت آثارها لبعد العهد بها، فعبدتم غير الله لغلبة الجهل، وعدم العلم بآثار الرسالة؟! أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم، والعلم قائم، والعذر غير مقبول..

﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أم أردتم بفعلكم أن يحل عليكم غضب من ربكم؟! فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه.. وهذا هو الواقع..

﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ۝٨٦﴾ [طه:٨٣-٨٦] حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت بكم هارون، فلم ترقبوا غائبًا، ولم تحترموا حاضرًا.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا
مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧﴾ [طه:٨٧]

﴿قَالُوا۟﴾ له..

﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا، وملك منا لأنفسنا..

﴿وَلَٰكِنَّا﴾ ولكن السبب الداعي لذلك..

﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أننا تأثمنا من زينة القوم التي عندنا.. وكانوا فيما يذكرون استعاروا حُليًّا كثيرًا من القبط، فخرجوا وهو معهم..

﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ وألقوه وجمعوه حين ذهب موسىٰ ليراجعوه فيه إذا رجع..

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧﴾ [طه:٨٧] وكان السامري قد بصر يوم الغرق بأثر الرسول، فسوَّلت له نفسه أن يأخذ قبضةً من أثره، وأنه إذا ألقاها علىٰ شيء حيا، فتنة وامتحانًا، فألقاها علىٰ ذلك العجل الذي صاغه بصورة عجل، فتحرك العجل، وصار له خوار وصوت، وقالوا: إن موسىٰ ذهب يطلب ربه، وهو هاهنا، فنسيه.

﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾ [طه:٨٨-٨٩]

﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ وهذا من بلادتهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جمادًا، فظنوه إله الأرض والسماوات..

﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾ أفلا يرَوْنَ أن العجل لا ﴿يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾، أي: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه..

﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾ [طه:٨٨-٨٩] فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يُعبد، وهو أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدرون علىٰ بعض الأشياء من النفع والدفع، بإقدار الله لهم.

﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ٩٤﴾ [طه:٩٠-٩٤]

﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ إن اتخاذهم العجل ليسوا معذورين فيه، فإنَّه وإن كانت عرضت لهم الشبهة في أصل عبادته، فإن هارون قد نهاهم عنه،

وأخبرهم أنه فتنة..

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ وأن ربهم الرحمن، الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنقم..

﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ۝٩٠﴾ وأنه أمرهم أن يتبعوه، ويعتزلوا العجل، فأبوا.. و..

﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ۝٩١﴾ فأقبل موسىٰ علىٰ أخيه لائمًا له.. و..

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم؟

﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝٩٣﴾ في قولي ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤٢﴾ [الأعراف].. فأخذ موسىٰ برأس هارون ولحيته يجره من الغضب والعتب عليه ف..

﴿قَالَ﴾ هارون..

﴿يَبۡنَؤُمَّ﴾ ترقيق له وإلا فهو شقيقه..

﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾..

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ۝٩٤﴾ [طه:٩٠-٩٤] فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك لتركت ما أمرتني بلزومه، وخشيت لائمتك، و﴿أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ حيث تركتهم وليس عندهم راع ولا خليفة، فإنَّ هذا يفرقهم ويشتت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء.. فندم موسىٰ علىٰ ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك ف﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٥١﴾ [الأعراف].. ثم أقبل علىٰ السامري.

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ۝٩٦ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ۝٩٧﴾ [طه:٩٥-٩٧]

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥﴾ أي: ما شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟ فـ..

﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ وهو جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، علىٰ فرس، رآه وقت خروجهم من البحر وغرق فرعون وجنوده.. علىٰ ما قاله المفسرون..

﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ فقبضت قبضة من أثر حافر فرسه..

﴿فَنَبَذۡتُهَا﴾ علىٰ العجل..

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ۝٩٦﴾ أن أقبضها، ثم أنبذها، فكان ما كان، فـ..

﴿قَالَ﴾ له موسىٰ..

﴿فَٱذۡهَبۡ﴾ تباعد عني واستأخر مني..

﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ تُعاقب في الحياة عقوبة..

﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد، حتىٰ إن من أراد القرب منك، قلت له: لا تمسني، ولا تقرب مني، عقوبة علىٰ ذلك، حيث مسَّ ما لم يمسه غيره، وأجرىٰ ما لم يُجره أحد..

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾ فتجازىٰ بعملك، من خير وشر..

﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾ أي: العجل..

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ۝٩٧﴾ [طه:٩٥-٩٧] ففعل موسىٰ ذلك.. فلو كان إلها لامتنع ممن يريده بأذىٰ، ويسعىٰ له بالإتلاف.. كان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إتلافه وهم ينظرون، علىٰ وجه لا تمكن إعادته، بالإحراق والسحق، وذَريهِ في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حُبِّه، كما زال شخصه.. ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوىٰ داع إلىٰ الباطل، فلما تبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال..

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ۝٩٨﴾ [طه:٩٨]

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ لا معبود إلا وجهه الكريم..

﴿ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ فلا يؤله ولا يحب ولا يرجىٰ ولا يخاف ولا يدعىٰ إلا هو..

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨] لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنىٰ، والصفات العلىٰ، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه:٩٩-١٠١]

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ **يمتن الله تعالىٰ علىٰ نبيه ﷺ بما قصَّه عليه من** أنباء السابقين، وأخبار السالفين.. كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها التي لا ينكرها أحدٌ من أهل الكتاب.. فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن دراها، فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم دليل علىٰ أنَّك رسول الله حقًا، وما جئت به صدق، ولهذا قال..

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ **عطية نفيسة، ومنحة جزيلة..**

﴿مِن لَّدُنَّا﴾ **من عندنا..**

﴿ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ وهو هذا القرآن الكريم.. **ذكر** للأخبار السابقة واللاحقة.. **وذكر** يتذكر به ما لله تعالىٰ من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء.. وهذا مما يدل علىٰ أن **القرآن مشتمل علىٰ أحسن ما يكون من الأحكام**، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها.. وإذا كان القرآن ذكرًا للرسول ولأمته، **فيجب تلقيه بالقبول** والتسليم والانقياد والتعظيم، **وأن يهتدىٰ بنوره** إلىٰ الصراط المستقيم، **وأن يقبلوا عليه** بالتعلم والتعليم.. **وأما مقابلته بالإعراض** أو ما هو أعظم منه من الإنكار، فإنَّه كفر لهذه النعمة، **ومن فعل ذلك فهو مستحق للعقوبة**، ولهذا قال..

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ **فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلم معانيه الواجبة..**

﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذابا علىٰ أصحابها، بحسب صغرها وكبرها..

﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١﴾ [طه:٩٩-١٠١] بئس الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة.. ثم استطرد، فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال..

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾ [طه:١٠٢-١٠٤]

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كل علىٰ حسب حاله، فالمتقون يحشرون إلىٰ الرحمن وفدا..

﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢﴾ والمجرمون يحشرون زرقا ألوانهم من الخوف والقلق والعطش..

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾ يتناجون بينهم، ويتخافتون في قِصَر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم..

﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣﴾ ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك..

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون..

﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾ أعدلهم وأقربهم إلىٰ التقدير..

﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾ [طه:١٠٢-١٠٤] والمقصود من هذا: الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوها ساهين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين علىٰ ما يضرهم، فها قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم، والدعاء بالويل والثبور، كما قال تعالىٰ: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾ [المؤمنون: ١١٢- ١١٤].

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ

ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه:١٠٥-١١٢]

يخبر تعالىٰ عن أهوال القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال..

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ ماذا يُصنع بها يوم القيامة، وهل تبقىٰ بحالها أم لا؟

﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ يزيلها ويقلعها من أماكنها، فتكون كالعهن وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثا، فتضمحل وتتلاشىٰ، ويسويها بالأرض..

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ ويجعل الأرض قاعًا صفصفًا مستويًا..

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ لا يرىٰ فيه أيها الناظر عِوَجًا، هذا من تمام استوائها..

﴿وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ أودية وأماكن منخفضة أو مرتفعة، فتبرز الأرض، وتتسع للخلائق، ويمدها الله مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال..

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلىٰ الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة..

﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ﴾ لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقًا وصدقًا، لجميع الخلق، يسمعهم جميعهم، ويصيح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة..

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خاشعة أصواتهم للرحمن..

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ إلا وطء الأقدام، أو المخافتة سرًا بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظارًا لحكم الرحمن فيهم.. **والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يرىٰ الخلائق منه من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار**، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه، فيختص المؤمنون به وبرسله بالرحمة.. **فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟**

وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذُكِر؟ **قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه،** ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصًا في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨]، مع قوله ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، مع قوله ﷺ: «إن لله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة، بها يتراحمون ويتعاطفون، حتىٰ إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تطأه -أي: - من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة، ضم هذه الرحمة إلىٰ تسع وتسعين رحمة، فرحم بها العباد»، مع قوله ﷺ: «لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها».. فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك.. فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته.. وتعالىٰ من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمُه كلَّ حي.. وجلَّ من غَني عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه علىٰ الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنىٰ لهم عنه طرفة عين..

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ **لا يشفع أحدٌ عنده من الخلق..**

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ **إلا إذا أذن في الشفاعة..**

﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ١٠٩﴾ ولا يأذن إلا لمن رضي قوله، أي: شفاعته، من الأنبياء والمرسلين، وعباده المقربين، فيمن ارتضىٰ قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص.. فإذا اختل واحد من هذه الأمور، فلا سبيل لأحد إلىٰ شفاعة من أحد..

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ١١٠﴾..

﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ **تعنو وجوههم،** أي: تذل وتخضع، فترىٰ في ذلك الموقف العظيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين علىٰ ركبهم، **عانية وجوههم،** لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا يفعل به، قد اشتغل كل بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحبيبه ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: ٣٧].. فحينئذ يحكم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.. وينقسم الناس في ذلك الموقف قسمين: ظالمين بكفرهم وشرهم..

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝١١١﴾ فهؤلاء لا ينالهم إلا الخيبة والحرمان، والعذاب الأليم في جهنم، وسخط الديان.. **والقسم الثاني**: من آمن..

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الإيمان المأمور به، وعمل صالحًا من واجب ومسنون..

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ زيادة في سيئاته..

﴿وَلَا هَضْمًا ۝١١٢﴾ [طه:١٠٥-١١٢] أي: نقصًا من حسناته، بل تغفر ذنوبه، وتطهر عيوبه، وتضاعف حسناته ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾ [طه:١١٣]

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وكذلك أنزلنا هذا الكتاب باللسان الفاضل العربي، الذي تفهمونه وتفقهونه، ولا يخفىٰ عليكم لفظه، ولا معناه..

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ نوعناها أنواعًا كثيرة: **تارة** بذكر أسمائه الدالة علىٰ العدل والانتقام.. **وتارة** بذكر المثلات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة.. **وتارةً** بذكر آثار الذنوب، وما تكسبه من العيوب.. **وتارة** بذكر أهوال القيامة، وما فيها من المزعجات والمقلقات.. **وتارة** بذكر جهنم وما فيها من أنوع العقاب وأصناف العذاب..

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ كل هذا رحمة بالعباد، لعلهم يتقون الله فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم..

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾ [طه:١١٣] فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم.. **فكونه عربيًا، وكونه مصرفا فيه من الوعيد، أكبر سبب وأعظم داع للتقوىٰ والعمل الصالح**.. فلو كان غير عربي، أو غير مصرف فيه، لم يكن له هذا الأثر.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤﴾ [طه:١١٤]

لما ذكر تعالىٰ حكمه الجزائي في عباده، وحكمه الأمري الديني، الذي أنزله في كتابه، وكان هذا من آثار ملكه قال..

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ جل وارتفع وتقدس عن كل نقص وآفة..

﴿ٱلْمَلِكُ﴾ الذي الملك وصفه، والخلق كلهم مماليك له، وأحكام الملك القدرية والشرعية، نافذة فيهم..

﴿ٱلْحَقُّ﴾ وجوده وملكه وكماله حق، فصفات الكمال لا تكون حقيقة إلا لذي الجلال، ومن ذلك الملك، فإن غيره من الخلق وإن كان له ملك في بعض الأوقات علىٰ بعض الأشياء فإنه ملك قاصر باطل يزول، وأما الرب فلا يزال ولا يزول، ملكًا حيًا قيومًا جليلًا..

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، واصبر حتىٰ يفرغ منه، فإذا فرغ منه فاقرأه، فإن الله قد ضمن لك جمعه في صدرك وقراءتك إياه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة].. ولما كانت عجلته ﷺ علىٰ تلقف الوحي ومبادرته إليه تدل علىٰ محبته التامة للعلم وحرصه عليه أمره الله تعالىٰ أن يسأله زيادة العلم..

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤] فإنَّ العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله، والطريق إليها: الاجتهاد والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت.

📖 الفوائد

يؤخذ من هذه الآية الكريمة:

١- الأدب في تلقي العلم.

٢- وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنىٰ ويصبر حتىٰ يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام ملقي العلم، فإنه سبب للحرمان.

٣- وكذلك المسئول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل، ويعرف المقصود منه قبل الجواب، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه:١١٥]

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ ولقد وصينا آدم وأمرناه، وعهدنا إليه عهدًا ليقوم به، فالتزمه، وأذعن له وانقاد، وعزم علىٰ القيام به..

﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه:١١٥] ومع ذلك نسي ما أمر به، وانتقضت عزيمته المحكمة، فجرىٰ عليه ما جرىٰ، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ فخطئوا، ولم يثبت علىٰ العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها واعترف، فغفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم.. ثم ذكر تفصيل ما أجمله فقال..

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه:١١٦-١٢٢]

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله، وكرمه، أمر الملائكة بالسجود له، إكراما وتعظيما وإجلالا..

﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ فبادروا بالسجود ممتثلين..

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]، فتبينت حينئذ عداوته البليغة لآدم وزوجه..

﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾ لما كان عدوًا لله، وظهر من حسده ما كان سبب العداوة، فحذَّر اللهُ آدمَ وزوجةَ منه، وقال..

﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ إذا أخرجت منها، فإن لك فيها الرزق الهني، والراحة التامة..

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨﴾ لا تصيبك الشمس بحرها..

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم التعب والنصب.. ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة فقال:﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة]..

﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾ فلم يزل الشيطان يسول لهما، ويزين أكلَّ الشجرة، ويقول..

﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾ الشجرة التي من أكل منها خلد في الجنة..

﴿وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ لا ينقطع إذا أكلت منها، فأتاه بصورة ناصح، وتلطف له في الكلام، فاغتر به آدم..

﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا﴾ وأكلا من الشجرة فسُقط في أيديهما..

﴿فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ وسقطت كسوتهما، واتضحت معصيتهما، وبدا لكل منهما سوأة الآخر، بعد أن كانا مستورين..

﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ وجعلا يخصفان علىٰ أنفسهما من ورق أشجار الجنة؛ ليسترا بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم..

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ بادرا إلىٰ التوبة والإنابة، وقالا:﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف]..

﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ فاجتباه ربه، واختاره، ويسر له التوبة..

﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [طه:١١٦-١٢٢] فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.. ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكره.. فتمت النعمة عليه وعلىٰ ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف، وأن يكونوا علىٰ حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم، ليلا ونهارا ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ

لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف].

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٥]

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ يخبر تعالىٰ أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلىٰ الأرض..

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وأن يتخذوا الشيطان عدوًا لهم، فيأخذوا الحذر منه، ويعدوا له عدته ويحاربوه..

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ وأنه سيُنزِل عليهم كتبًا، ويرسل إليهم رسلا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلىٰ جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين.. وأنهم أي وقت جاءهم ذلك الهدىٰ، الذي هو الكتب والرسل..

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ فإن من اتبعه اتبع ما أمر به، واجتنب ما نهي عنه..

﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة..

﴿وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ ولا يشقىٰ فيهما، بل قد هدي إلىٰ صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة.. وقد نفىٰ عنه الخوف والحزن في آية أخرىٰ، بقوله ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة].. واتباع الهدىٰ بتصديق الخبر، وعدم معارضته بالشبه، وامتثال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة..

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه علىٰ وجه الإعراض عنه، أو ما هو أعظم من ذلك، بأن يكون علىٰ وجه الإنكار له، والكفر به..

﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ فإن جزاءه أن نجعل معيشته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذابًا.. وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه ويعذب،

جزاء لإعراضه عن ذكر ربه.. وهذه إحدىٰ الآيات الدالة علىٰ عذاب القبر.. والثانية قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام].. والثالثة قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].. والرابعة قوله عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].. **والذي أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف،** وقصرها علىٰ ذلك -والله أعلم- آخر الآية، وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة.. **وبعض المفسرين يرىٰ أن المعيشة الضنك عامة** في دار الدنيا، بما يصيب المُعرض عن ذكر ربه، من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقييدها..

﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ هذا المعرض عن ذكر ربه..

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ البصر علىٰ الصحيح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]..

﴿قَالَ﴾ علىٰ وجه الذل والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة..

﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ﴾ في دار الدنيا..

﴿بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٥] فما الذي صيرني إلىٰ هذه الحالة البشعة.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٦-١٢٧]

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ﴾ بإعراضك عنها..

﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ تترك في العذاب.. فأجيب بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك، وعشيت عنه ونسيته ونسيت حظك منه، أعمىٰ الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلىٰ النار أعمىٰ، أصم، أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب..

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ هذا الجزاء..

﴿نَجۡزِي﴾ به..

﴿مَنۡ أَسۡرَفَ﴾ بأن تعدىٰ الحدود، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له..

﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ﴾ الدالة علىٰ جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه..

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا أضعافا مضاعفة..

﴿وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه:١٢٦-١٢٧] لكونه لا ينقطع، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع، فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾ [طه:١٢٨]

﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ أفلم يهد هؤلاء المكذبين المعرضين، ويدلهم علىٰ سلوك طريق الرشاد، وتجنب طريق الغي والفساد..

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ ما أحل الله بالمكذبين قبلهم، من القرون الخالية، والأمم المتتابعة، الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسمارهم، وينظرون بأعينهم..

﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾ مساكنهم من بعدهم، كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رسلنا، وأعرضوا عن كتبنا، أصبناهم بالعذاب الأليم؟! فما الذي يؤمّن هؤلاء أن يحل بهم، ما حل بأولئك؟! ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ٤٣ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤﴾ [القمر: ٤٣- ٤٤]، لا شيء من هذا كله، فليس هؤلاء الكفار خيرًا من أولئك حتىٰ يدفع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شر منهم؛ لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون أن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحقر من ذلك..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾ [طه:١٢٨] فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهداية؛ لكونها من الآيات الدالة علىٰ صحة رسالة الرسل الذين جاءوهم، وبطلان

ما هم عليه.. ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولو النهىٰ، أي: العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه:١٢٩-١٣٠]

هذا تسلية للرسول، وتصبير له عن المبادرة إلىٰ إهلاك المكذبين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم، ولزومه لهم، لأن الله جعل العقوبات سببًا وناشئًا عن الذنوب، ملازمًا لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب..

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم..

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ وضرب الأجل المسمىٰ، فالأجل المسمىٰ ونفوذ كلمة الله هو الذي أخر عنهم العقوبة إلىٰ إبان وقتها.. ولعلهم يراجعون أمر الله، فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة، إذا لم تحق عليهم الكلمة.. ولهذا أمر الله رسوله بالصبر علىٰ أذيتهم بالقول..

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه..

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في هذه الأوقات الفاضلة..

﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ قبل طلوع الشمس وغروبها، وفي أطراف النهار، أوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته..

﴿لَعَلَّكَ﴾ إن فعلت ذلك..

﴿تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه:١٢٩-١٣٠] بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتتسلىٰ بها عن أذيتهم، فيخف حينئذ عليك الصبر.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١]

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تمد عينيك معجبًا، ولا تكرر النظر مستحسنًا..

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ إلىٰ أحوال الدنيا والمُمَتَّعين بها..

﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المجملة..

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجابًا بأبصار المعرضين، ويتمتع بها -بقطع النظر عن الآخرة- القوم الظالمون، ثم تذهب سريعًا، وتمضي جميعًا، وتقتل محبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة..

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ وإنما جعلها الله فتنةً واختبارًا، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملا كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف: ٧-٨]..

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ **العاجل** من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة.. **والآجل** من النعيم المقيم والعيش السليم في جوار الرب الرحيم..

﴿خَيْرٌ﴾ مما متعنا به أزواجًا في ذاته وصفاته..

﴿وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾ [طه:١٣١] لكونه لا ينقطع أكلها دائم وظلها كما قال تعالىٰ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلىٰ: ١٦-١٧].

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية: إشارة إلىٰ أن العبد إذا رأىٰ من نفسه طموحًا إلىٰ زينة الدنيا وإقبالًا عليها، أن يُذَكِّرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ
نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢﴾ [طه:١٣٢]

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ حث أهلك علىٰ الصلاة وأزعجهم إليها، من فرض ونفل..

والأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمرًا بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها..

﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ علىٰ الصلاة، بإقامتها بحدودها وأركانها، وآدابها وخشوعها.. فإن ذلك مشق علىٰ النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها علىٰ ذلك، والصبر معها دائمًا.. فإنَّ العبد إذا أقام صلاته علىٰ الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم.. وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع..ثم ضمن تعالىٰ لرسوله الرزق..

﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال..

﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ رزقك علينا، قد تكفَّلنا به، كما تكفَّلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوىٰ، ولهذا قال..

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ في الدنيا والآخرة..

﴿لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه:١٣٢] التي هي فعل المأمور وترك المنهي، فمن قام بها كان له العاقبة، كما قال تعالىٰ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص].

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾ [طه:١٣٣-١٣٥]

﴿وَقَالُواْ﴾ قال المكذبون للرسول ﷺ..

﴿لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح، كقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾ [الإسراء].. **وهذا تعنت منهم وعناد وظلم: فإنهم** هم والرسول بشر عبيد لله، فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي ينزلها ويختار منها ما يختار

بحسب حكمته هو الله.. **ولأن قولهم** ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [العنكبوت: ٥٠] **يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه ولا بينة على حقه، وهذا كذب وافتراء، فإنه أتى من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات ما يحصل ببعضه المقصود ولهذا قال..**

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ **إن كانوا صادقين في قولهم وأنهم يطلبون الحق بدليله..**

﴿بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ **أي: هذا القرآن العظيم، المصدِّق لِمَا في الصحف الأولى، من التوراة والإنجيل والكتب السابقة، المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضا مذكور فيها ومبشَّر بالرسول بها، وهذا كقوله تعالى** ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت].. **فالآيات تنفع المؤمنين، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم.. وأما المعرضون عنها المعارضون لها، فلا يؤمنون بها ولا ينتفعون بها** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس]..

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟﴾ **وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها، لتقوم عليهم حجة الله، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب..**

﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ **بالعقوبة، فها قد جاءكم رسولي ومعه آياتي وبراهيني، فإن كنتم كما تقولون، فصدِّقوه..**

﴿قُلْ﴾ **يا محمد مخاطبا للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به ريب المنون..**

﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ **فتربَّصُوا بي الموت.. وأنا أتربص بكم العذاب** ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] **أي: الظفر أو الشهادة،** ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]..

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ **المستقيم..**

﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ [طه:١٣٣-١٣٥] **بسلوكه، أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه هو الفائز الراشد، الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب، وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه. والله أعلم.**

تفسير سورة الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وهي مكية

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤﴾ [الأنبياء:١-٤]

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ هذا تعجب من حالة الناس، وأنه لا ينجع فيهم تذكير، ولا يرعون إلىٰ نذير، وأنهم قد قرب حسابهم، ومجازاتهم علىٰ أعمالهم الصالحة والطالحة.. **وفي معنىٰ قوله** ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ **قولان: أحدهما**: أن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلىٰ أمته تقوم الساعة، فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم، لقوله ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها»[1].. **والقول الثاني**: أن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات قامت قيامته، ودخل في دار الجزاء علىٰ الأعمال، وأنَّ هذا تعجب من كل غافل معرض، لا يدري متىٰ يفجأه الموت، صباحًا أو مساء، فهذه حالة الناس كلهم، إلا من أدركته العناية الربانية، فاستعد للموت وما بعده..

﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾ والحال أنهم في غفلة معرضون، أي: **غفلة** عما خلقوا له، **وإعراض** عما زجروا به.. كأنهم للدنيا خلقوا، وللتمتع بها ولدوا، وأن الله تعالىٰ لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم، ولهذا قال..

(١) أخرجه البخاري [٤٩٣٦]، ومسلم [٩٦٧] وغيرهما من حديث سهل بن سعد.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ يذكرهم ما ينفعهم ويحثهم عليه وما يضرهم، ويرهبهم منه..

﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ سماعًا تقوم عليهم به الحجة..

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ بأبدانهم..

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ وقلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية.. قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل، والأقوال الردية.. مع أن الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة، تقبل قلوبهم علىٰ أمر الله ونهيه، وتستمعه استماعًا تفقه المراد منه، وتسعىٰ جوارحهم، في عبادة ربهم، التي خلقوا لأجلها، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم علىٰ بال، فبذلك يتم لهم أمرهم، وتستقيم أحوالهم، وتزكوا أعمالهم.. ثم ذكر ما يتناجىٰ به الكافرون الظالمون..

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ علىٰ وجه العناد، ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا وتواطأوا فيما بينهم، أن يقولوا في الرسول ﷺ..

﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إنَّه بشر مثلكم، فما الذي فضله عليكم، وخصه من بينكم، فلو ادعىٰ أحد منكم مثل دعواه، لكان قوله من جنس قوله، ولكنه يريد أن يتفضل عليكم، ويرأس فيكم.. فلا تطيعوه، ولا تصدقوه.. وأنه ساحر، وما جاء به من القرآن سحر، فانفروا عنه، ونفِّروا الناس، وقولوا..

﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقًا، بما شاهدوا من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم.. ولكن حملهم علىٰ ذلك الشقاء والظلم والعناد.. والله تعالىٰ قد أحاط علما بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال..

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ الخفي والجلي..

﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ في جميع ما احتوت عليه أقطارهما..

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات، علىٰ تفنن الحاجات..

﴿الْعَلِيمُ ۝٤﴾ [الأنبياء:١-٤] بما في الضمائر، وأكنته السرائر.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الأنبياء:٥-٦]

يذكر تعالىٰ ائتفاك المكذبين بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن العظيم.. وأنهم سفهوه، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة..

﴿بَلْ قَالُوٓاْ﴾ فتارة يقولون..

﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ﴾ بمنزلة كلام النائم الهاذي، الذي لا يحس بما يقول..

﴿بَلِ﴾ وتارة يقولون..

﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ واختلقه وتقوله من عند نفسه..

﴿بَلْ﴾ وتارة يقولون..

﴿هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما جاء به شعر.. وكل من له أدنىٰ معرفة بالواقع من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به، جزم جزمًا لا يقبل الشك، أنه أجلُّ الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحدًا من البشر لا يقدر علىٰ الإتيان بمثل بعضه.. كما تحدَّىٰ اللهُ أعداءَه بذلك، ليعارضوا مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدروا علىٰ شيء من معارضته.. وهم يعلمون ذلك، وإلا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقضَّ مضاجعهم وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء..

وإنما يقولون هذه الأقوال فيه -حيث لم يؤمنوا به- تنفيرًا عنه لمن لم يعرفه.. وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة علىٰ صحة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كاف شاف.. فمن طلب دليلًا غيره، أو اقترح آية من الآيات سواه، فهو جاهل ظالم، مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذَّبوه وطلبوا من الآيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة..

لأنهم **إن كان قصدهم معرفة الحق** إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، **وإن كان قصدهم التعجيز** وإقامة العذر لأنفسهم إن لم يأت بما طلبوا، فإنهم بهذه الحالة -علىٰ فرض إتيان ما طلبوا من الآيات- لا يؤمنون قطعًا، فلو جاءتهم كل آية، لا يؤمنون حتىٰ يروا العذاب الأليم.. ولهذا قال الله عنهم..

﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥﴾ كناقة صالح، وعصا موسىٰ، ونحو ذلك.. قال الله..

﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾ أي: بهذه الآيات المقترحة.. وإنما سنته تقتضي أنَّ من طلبها ثم حصلت له فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة..

﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ [الأنبياء:٥-٦] فالأولون ما آمنوا بها، أفيؤمن هؤلاء بها؟! ما الذي فضلهم علىٰ أولئك؟! وما الخير الذي فيهم يقتضي الإيمان عند وجودها؟! وهذا الاستفهام بمعنىٰ النفي، أي: لا يكون ذلك منهم أبدًا.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٩﴾ [الأنبياء:٧-٩]

هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلا كان مَلَكًا، لا يحتاج إلىٰ طعام وشراب، وتصرف في الأسواق، وهلا كان خالدا؟ فإذا لم يكن كذلك، دلَّ علىٰ أنه ليس برسول.. وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسل، تشابهوا في الكفر، فتشابهت أقوالهم..

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ فأجاب تعالىٰ عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول، **المقرين بإثبات الرسل قبله،** ولو لم يكن إلا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم علىٰ دينه وملته.. فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين..

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ من الكتب السالفة، كأهل التوراة والإنجيل، يخبرونكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم بَشَر من جنس المرسل إليهم..

﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾..

﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ إن الرسل قبل محمد ﷺ كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق..

﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ وتطرأ عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره..

﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ﴾ وأن الله أرسلهم إلىٰ قومهم وأممهم،

فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صَدَقَهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم **ولأتباعهم**..

﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ [الأنبياء:٧-٩] وأهلك المسرفين المكذبين لهم.. فما بال محمد ﷺ تقام الشبه الباطلة علىٰ إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يقر بهم المكذبون لمحمد؟! فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر ولن يقروا برسول من غير البشر إن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها، وتناقضهم بها..

فلو قُدِّر انتقالهم من هذا إلىٰ إنكار نبوة البشر رأسًا، وأنه لا يكون نبيٌّ إن لم يكن مَلَكًا مخلَّدًا، لا يأكل الطعام، فقد أجاب الله تعالىٰ عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام]، وأن البشر لا طاقة لهم بتلقي الوحي من الملائكة ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾ [الإسراء].

📖 الفـوائـد

١- هذه الآية وإن كان سببها خاصـًا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر وهم أهل العلم، فإنَّها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم.

٢- والسؤال لأهل العلم.

٣- ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

٤- وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم.

٥- ونهي له أن يتصدىٰ لذلك.

٦- وفي هذه الآية: دليل علىٰ أن النساء ليس منهن نبية، لا مريم ولا غيرها لقوله ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾.

﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء:١٠]

﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا﴾ لقد أنزلنا إليكم - أيها المرسل إليهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - كتابًا جليلًا وقرآنًا مبينًا..

﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم، إن تذكرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم..

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء:١٠] ما ينفعكم وما يضركم؟! كيف لا ترضون ولا تعملون علىٰ ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة؟! فلو كان لكم عقل، لسلكتم هذا السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق، التي فيها ضعتكم وخستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، عُلِم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي رجيح.

📖 الفوائد

هذه الآية مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول الذين تذكروا بالقرآن، من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشرف علىٰ الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد..

كما أنه معلوم ما حصل لمن لم يرفع بهذا القرآن رأسًا -ولم يهتد به ويتزك به- من المقت والضعة، والتدسية، والشقاوة..

فلا سبيل إلىٰ سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب.

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾ [الأنبياء:١١-١٥]

يقول تعالىٰ محذرًا لهؤلاء الظالمين المكذبين للرسول، بما فُعِل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل..

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أهلكنا بعذاب مستأصل..

﴿مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ تلفت عن آخرها..

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ وأن هؤلاء المهلكين لما أحسوا بعذاب الله وعقابه، وباشرهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع..

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾ ولا طريق لهم إلىٰ النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم ندمًا وقلقًا وتحسُّرًا علىٰ ما فعلوا، وهروبًا من وقوعه، فقيل لهم علىٰ وجه التهكم بهم..

﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ لا يفيدكم الركوض والندم..

﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلىٰ ما أترفتم فيه، من اللذات، والمشتهيات..

﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ ومساكنكم المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وألهتكم، حتىٰ جاءكم أمر الله، فكونوا فيها متمكنين، وللذاتها جانين، وفي منازلكم مطمئنين معظمين..

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم، كما كنتم سابقًا، مسئولين من مطالب الدنيا، كحالتكم الأولىٰ.. وهيهات، أين الوصول إلىٰ هذا؟! وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزهم، وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم.. ولهذا..

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: الدعاء بالويل والثبور والندم والإقرار علىٰ أنفسهم بالظلم، وأن الله عادل فيما أحل بهم..

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ بمنزلة النبات الذي قد حُصِد وأنيم..

﴿خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء:١١-١٥] قد خمدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات.. فاحذروا -أيها المخاطبون- أن تستمروا علىٰ تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم كما حلَّ بأولئك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء:١٦-١٧]

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ يخبر تعالىٰ أنه ما خلق السماوات والأرض عبثًا ولا لعبًا من غير فائدة.. بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد علىٰ أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قيله، الصادقة رسله فيما تخبر عنه، وأن القادر علىٰ خلقهما مع سعتهما وعظمهما، قادر علىٰ إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته..

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ علىٰ الفرض والتقدير المحال..

﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ من عندنا..

﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء:١٦-١٧] ولم نطلعكم علىٰ ما فيه عبث ولهو؛ لأن ذلك نقص ومَثَلُ سَوء، لا نحب أن نريه إياكم.. فالسماوات والأرض اللذان بمرأىٰ منكم علىٰ الدوام، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو.. كلُّ هذا تنزل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة.. فسبحان الحليم الرحيم الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء:١٨-١٩]

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ يخبر تعالىٰ، أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل.

﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ وإنَّ كلَّ باطل قِيل وجُودِل به، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدمغه، فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه..

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾ مضمحل فانٍ.. وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو رد حق، إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية

ما يُذهب ذلك القولَ الباطل ويقمعه، فإذا هو متبيِّنٌ بطلانه لكل أحد.. وهذا يتبين باستقراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك تجدها كذلك.. ثم قال..

﴿وَلَكُمُ﴾ أيها الواصفون الله، بما لا يليق به، من اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنداد والشركاء، حظكم من ذلك، ونصيبكم الذي تدركون به..

﴿ٱلْوَيْلُ﴾ والندامة والخسران..

﴿مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان.. ثم أخبر أنه له ملك السماوات والأرض..

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما بينهما.. فالكل عبيده ومماليكه، فليس لأحد منهم مُلك ولا قسط من المُلك، ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله.. فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة؟! وكيف يجعل لله منها ولد؟! فتعالىٰ وتقدَّس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون.. ولهذا قال..

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ من الملائكة..

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء:١٨-١٩] لا يملون، ولا يسأمونها؛ لشدة رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة أبدانهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]

مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقتٌ فارغ ولا خال منها، وهم علىٰ كثرتهم بهذه الصفة.. وفي هذا من بيان عظمته وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تصرف العبادة لغيره.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء:٢١-٢٤]

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لما بيَّن تعالىٰ كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له.. أنكر علىٰ المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة..

﴿هُمۡ يُنشِرُونَ ۝٢١﴾ استفهام بمعنىٰ النفي، أي: لا يقدرون علىٰ نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالىٰ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان:٣] ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ۝٧٥﴾ [يس: ٧٤- ٧٥].. فالمشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله، الذي له الكمال كله وبيده الأمر والنفع والضر.. وهذا من عدم توفيقه، وسوء حظه، وتوفر جهله، وشدة ظلمه، فإنه لا يصلح الوجود، إلا علىٰ إله واحد، كما أنه لم يوجد، إلا برب واحد.. ولهذا قال..

﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ﴾ في السماوات والأرض..

﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات.. **وبيان ذلك:** أن العالم العلوي والسفلي، علىٰ ما يُرىٰ، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة..

فدلَّ ذلك علىٰ: أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل علىٰ عجز الآخر، وعدم اقتداره، واتفاقهما علىٰ مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذًا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار..

ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]، ومنه -علىٰ أحد التأويلين- قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤٣﴾ [الإسراء:٤٢-٤٣].. ولهذا قال هنا..

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزَّه وتقدَّس عن كلِّ نقصٍ لكماله وحده..

﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها.. فربوبية ما دونه من باب أولىٰ..

﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه..

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وعزته، وكمال قدرته.. لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه.. لا بقول، ولا بفعل.. ولكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها، وإتقانها، أحسن كل شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال؛ لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال..

﴿وَهُمْ﴾ أي: المخلوقين كلهم..

﴿يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ عن أفعالهم وأقوالهم.. لعجزهم وفقرهم.. ولكونهم عبيدًا.. قد استحقت أفعالهم وحركاتهم.. فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم ولا في غيرهم، مثقال ذرة.. ثم رجع إلىٰ تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة.. فقل لهم موبخا ومقرعا..

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ﴾ أي: حجتكم ودليلكم علىٰ صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلًا، بل قد قامت الأدلة القطعية علىٰ بطلانه، ولهذا قال..

﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ﴾ قد اتفقت الكتب والشرائع علىٰ صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك.. **فهذا كتاب الله** الذي فيه ذكرُ كل شيء بأدلته العقلية والنقلية.. **وهذه الكتب السابقة**، كلها براهين وأدلة لما قلت.. ولما عُلِم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان علىٰ بطلان ما ذهبوا إليه، عُلِم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعيًا، وإن وجد معارضات فإنها شبه لا تغني من الحق شيئا..

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ﴾ وإنما أقاموا علىٰ ما هم عليه تقليدًا لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدىٰ.. وليس عدم علمهم بالحق لخفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفتوا إليه أدنىٰ التفات، لتبين لهم الحق من الباطل تبينًا واضحًا جليًّا.. ولهذا قال..

﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء:٢١-٢٤]..

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء:٢٥-٢٩]

ولما حول تعالىٰ علىٰ ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليهم في بيان هذه المسألة، بيَّنها أتم تبيين في قوله..

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ **فكل** الرسل الذين من قبلك مع كتبهم، **زبدة رسالتهم وأصلها: الأمر** بعبادة الله وحده لا شريك له، **وبيان أنه** الإله الحق المعبود، **وأن عبادة** ما سواه باطلة...

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ **يخبر تعالىٰ عن** سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا - قبحهم الله- أن الله اتخذ ولدًا فقالوا: الملائكة بنات الله!! **تعالىٰ** الله عن قولهم.. **وأخبر عن وصف الملائكة** بـ: أنهم عبيد مربوبون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، **وصيرهم عبيد، من كرامته ورحمته**، وذلك لِمَا خصَّهم به من الفضائل، والتطهير عن الرذائل، **وأنَّهم في غاية الأدب مع الله**، والامتثال لأوامره.. ف..

﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ **لا يقولون قولًا مما يتعلق بتدبير المملكة، حتىٰ يقول الله،** لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه.

﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ **مهما أمرهم، امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه فعلوه، فلا** يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله.. ومع هذا، فالله قد أحاط بهم علمه..

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ **فعلم** أمورهم الماضية والمستقبلة، **فلا خروج** لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره.. **ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا**

يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه..

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ فإذا أذن لهم وارتضىٰ من يشفعون فيه، شفعوا فيه.. ولكنه تعالىٰ لا يرضىٰ من القول والعمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، متَّبعًا فيه الرسول.. **وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون..**

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله، وعنت وجوههم لعزه وجماله.. فلمَّا بيَّن أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئًا من العبودية، بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك، ذَكَر أيضًا أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوىٰ..

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ وأن من قال منهم..

﴿إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ علىٰ سبيل الفرض والتنزل..

﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾..

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء:٢٥-٢٩] وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص الفقير إلىٰ الله من جميع الوجوه مشاركةَ الله في خصائص الإلهية والربوبية؟!

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء:٣٠]

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، علىٰ أنه الرب المحمود الكريم المعبود..

﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فيشاهدون السماء والأرض..

﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ فيجدونهما رتقا: **هذه**: ليس فيها سحاب ولا مطر.. **وهذه**: هامدة ميتة لا نبات فيها..

﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ السماء بالمطر.. والأرض بالنبات..

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافيًا لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلىٰ بلد ميت، قد اغبرت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت، وتحركت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج،

مختلف الأنواع، متعدد المنافع.. أليس ذلك دليلا علىٰ أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتىٰ، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال..

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ٣٠﴾ [الأنبياء:٣٠] إيمانًا صحيحًا، ما فيه شك ولا شرك.. ثم عدد تعالىٰ **الأدلة الأفقية فقال..**

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ٣١ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ٣٣﴾ [الأنبياء:٣١-٣٣]

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ ومن الأدلة علىٰ قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها..

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ لئلا تميد بالعباد، أي: لئلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل..

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالًا كثيرًا جدًا، فلو بقيت بحالها جبالًا شامخات، وقُلَلًا باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.. فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاجًا سبلًا، أي: طرقًا سهلة لا حزنة..

﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ٣١﴾ لعلهم يهتدون إلىٰ الوصول، إلىٰ مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك علىٰ وحدانية المنان.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾ للأرض التي أنتم عليها..

﴿مَّحْفُوظًا﴾ من السقوط، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن﴾ [فاطر:٤١] محفوظًا أيضًا من استراق الشياطين للسمع..

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ٣٢﴾ غافلون لاهون، وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب.. وغير ذلك من المشاهد

فيها، من الكواكب الثوابت والسيارات..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ وشمسها وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار..

﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ۝٣٣﴾ [الأنبياء:٣١-٣٣] وكونهما دائمًا في فلكهما سابحين.. وكذلك النجوم.. فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم، ويهدأون ويسكنون وينتشرون في نهارهم، ويسعون في معايشهم..

كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم حزما لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقتة في وقت معلوم، إلىٰ أجل محتوم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا ستزول وتضمحل، ويفنيها الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها.. وينتقل المكلفون إلىٰ دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملًا موفرًا.. ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةًۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء:٣٤-٣٥]

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٍ﴾ لما كان أعداء الرسول يقولون تربصوا به ريب المنون.. قال الله تعالىٰ: هذا طريق مسلوك، ومعبد منهوك، فلم نجعل لبشر..

﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد..

﴿ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ في الدنيا.. فإذا مت فسبيلُ أمثالك من الرسل والأنبياء والأولياء، وغيرهم..

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ فهل إذا مت خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذًا إن كان.. وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فان، ولهذا قال..

﴿كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدىٰ، وعمّر سنين..

﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ ولكن الله تعالىٰ أوجد عباده في الدنيا وأمرهم، ونهاهم، وابتلاهم..

﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ﴾ بالخير والشر، بالغنىٰ والفقر، والعز والذل، والحياة والموت..

﴿فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا﴾ منه تعالىٰ، ليبلوهم أيهم أحسن عملا، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو..

﴿تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء:٣٤-٣٥] فنجازيكم بأعمالكم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

🕮 الفـوائـد

هذه الآية تدل علىٰ **بطلان قول من يقول ببقاء الخضر**، وأنه مخلد في الدنيا.. فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٣٩ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤١﴾ [الأنبياء:٣٦-٤١]

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا رسول الله ﷺ، استهزأوا به وقالوا..

﴿أَهَٰذَا﴾ المحتقر بزعمهم..

﴿ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ الذي يسب آلهتكم ويذمها، ويقع فيها.. أي: فلا تبالوا به، ولا تحتفلوا به.. هذا استهزاؤهم واحتقارهم له بما هو من كماله، فإنه الأكمل الأفضل.. الذي من فضائله ومكارمه: إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته..

ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كلَّ خُلُقٍ ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب وجحدهم لرسله فصاروا بذلك من أخس الخلق وأرذلهم..

﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٦﴾ ومع هذا فذكرهم للرحمن الذي هو أعلىٰ حالاتهم كافرون بها؛ لأنهم لا يذكرونه ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون، فذِكرُهم كفر وشرك، فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟! وفي ذكر اسمه﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن -مسدي النعم كلها، ودافع النقم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا إياه - بالكفر والشرك..

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ خُلِق عجولًا يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين ويتباطئونها، والكافرون يتولون ويستعجلون بالعذاب، تكذيبًا وعنادًا..

﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ في انتقامي ممن كفر بي وعصاني..

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾ ذلك..

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾ وكذلك الذين كفروا يقولون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] قالوا هذا القول اغترارًا، ولمَّا يحق عليهم العقاب، وينزل بهم العذاب.. والله تعالىٰ، يمهل ولا يهمل ويحلم، ويجعل لهم أجلًا مؤقتا﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف:٣٤].. ف..

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حالهم الشنيعة..

﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ إذ قد أحاط بهم من كل جانب، وغشيهم من كل مكان..

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٣٩﴾ لا ينصرهم غيرهم، فلا نصروا ولا انتصروا.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ النار..

﴿بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم..

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ إذ هم أذل وأضعف من ذلك..

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾ يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب.. فلو علموا هذه الحالة حق

المعرفة لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم قالوا ما قالوا.. ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦] سلَّاه بأنَّ هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم، فقال..

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾ نزل بهم..

﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنبياء:٣٦-٤١] نَزَل بهم العذاب، وتقطعت عنهم الأسباب.. فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء:٤٢-٤٤]

يقول تعالىٰ -ذاكرًا عجز هؤلاء، الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلىٰ ربهم الرحمن، الذي رحمته، شملت البر والفاجر، في ليلهم ونهارهم- فقال..

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ يحرسكم ويحفظكم..

﴿بِٱلَّيْلِ﴾ إذ كنتم نائمين علىٰ فرشكم، وذهبت حواسكم..

﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ وقت انتشاركم وغفلتكم..

﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو..

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فلهذا أشركوا به، وإلا فلو أقبلوا علىٰ ذكر ربهم، وتلقوا نصائحه، لهدوا لرشدهم، ووفقوا في أمرهم..

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ إذا أردناهم بسوء، هل من آلهتهم من يقدر علىٰ منعهم من ذلك السوء والشر النازل بهم؟!

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ لا يعانون علىٰ أمورهم من جهتنا، وإذا لم يعانوا من الله فهم مخذولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع

مضرة.. والذي أوجب لهم استمرارهم علىٰ كفرهم وشركهم قوله..

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهوا بها، عمَّا له خُلِقوا..

﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ وطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وعظم طغيانهم، وتغلظ كفرانهم.. فلو لفتوا أنظارهم إلىٰ من عن يمينهم، وعن يسارهم من الأرض، لم يجدوا إلا هالكًا، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة علىٰ الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك، ولهذا قال..

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ بموت أهلها وفنائهم، شيئًا فشيئًا، حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، فلو رأوا هذه الحالة لم يغتروا ويستمروا علىٰ ما هم عليه..

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء:٤٢-٤٤] الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ وبطاقتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتىٰ يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم لقبض أرواحهم أذعنوا وذلُّوا ولم يظهر منهم أدنىٰ ممانعة؟

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ
إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء:٤٥-٤٦]

﴿قُلْ﴾ يا محمد، للناس كلهم..

﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله إليّ، فإن استجبتم، فقد استجبتم لله، وسيثيبكم علىٰ ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله..

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ الأصمُّ لا يسمع صوتًا، لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت، أن يوجد محل قابل لذلك.. كذلك الوحي سبب

لحياة القلوب والأرواح، وللفقه عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدىٰ، كان بالنسبة للهدىٰ والإيمان بمنزلة الأصم بالنسبة إلىٰ الأصوات، فهؤلاء المشركون، صم عن الهدىٰ.. فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصًا في هذه الحالة، التي لم يأتهم العذاب، ولا مسهم ألمه..

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ فلو مسهم..

﴿نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ ولو جزءًا يسيرًا، ولا يسير من عذابه..

﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء:٤٥-٤٦] لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والثبور والندم والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم للعذاب.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧]

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يخبر تعالىٰ عن حكمه العدل وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة، التي يبين فيها مثاقيل الذر، الذي توزن بها الحسنات والسيئات..

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مسلمة أو كافرة..

﴿شَيْـًٔا﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزاد في سيئاتها..

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر..

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ وأحضرناها، ليجازىٰ بها صاحبها، كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وقالوا ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ﴾ [الكهف:٤٩]..

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧] يعني بذلك نفسه الكريمة فكفىٰ به حاسبًا، أي: عالمًا بأعمال العباد، حافظًا لها، مثبتًا لها في الكتاب، عالمًا بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلًا للعمال جزاءها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء:٤٨-٥٠]

كثيرا ما يجمع تعالىٰ بين هذين الكتابين الجليلين، اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما، ولا أعظم ذكرًا ولا أبرك ولا أعظم هدىً وبيانًا، وهما التوراة والقرآن..

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ فأخبر أنه آتىٰ موسىٰ أصلًا وهارون تبعًا..

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ وهي التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال..

﴿وَضِيَآءً﴾ وأنها﴿ ضِيَآءً﴾ أي: نور يهتدي به المهتدون، ويأتم به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية..

﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر.. وخص ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بالذكر، لأنهم المنتفعون بذلك، علمًا وعملًا.. ثم فسر المتقين فقال..

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولىٰ، فيتورعون عما حرَّم، ويقومون بما ألزم..

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف.. والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات الواردة علىٰ شيء واحد وموصوف واحد..

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن..

﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ **فوصفه بوصفين جليلين:** كونه **ذكرًا** يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، **وسماه ذكرًا،** لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلًا والنهي عن القبيح عقلًا.. **وكونه** ﴿مُبَارَكًا﴾ يقتضي كثرة خيراته ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا

القرآن، فإنَّ كل خير ونعمة وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به.. فإذا كان ذكرًا مباركًا وجب تلقيه بالقبول والانقياد والتسليم، وشكر الله علىٰ هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه.. وأما مقابلته بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحًا وإنكاره، وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالىٰ علىٰ من أنكره فقال..

﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنبياء:٤٨-٥٠]..

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا
عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ
أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ
وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟
مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُوا۟
مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ
يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١
قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا
فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ
۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦
أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ
وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ
إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ
ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا

صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء:٥١-٧٣]

لما ذكر تعالىٰ موسىٰ ومحمدا صلىٰ الله عليهما وسلم، وكتابيهما قال..

﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ وهو قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٣].. وأضاف الرشد إليه، لكونه رشدًا بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان...

﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبل إرسال موسىٰ ومحمد ونزول كتابيهما.. فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد الذي كمَّل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحدا من العالمين غير محمد..

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ أعطيناه رشده، واختصصناه بالرسالة والخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة؛ لعلمنا أنه أهل لذلك، وكفء له، لزكائه وذكائه.. ولهذا ذكر محاجته لقومه، ونهيهم عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة، فقال..

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ التي مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، علىٰ صور بعض المخلوقات..

﴿ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ مقيمون علىٰ عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتىٰ أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجائب، تعبدون ما تنحتون.. فأجابوا بغير حجة جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنىٰ شبهة فـ..

﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ كذلك يفعلون، فسلكنا سبيلهم، وتبعناهم علىٰ عبادتها.. ومن المعلوم أن **فعل أحد من الخلق سوىٰ الرسل ليس بحجة**، ولا تجوز به القدوة، خصوصًا في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا..

﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم مضلِّلًا للجميع..

﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾﴾ ضلال بين واضح، وأي ضلال أبلغ من

ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد؟! أي: فليس ما قلتم يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح البيِّن لكل أحد..

﴿قَالُوٓاْ﴾ علىٰ وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيههم، وتسفيه آبائهم..

﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجَد؟

﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥﴾ أم كلامك لنا، كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا.. وإنما رددوا الكلام بين الأمرين؛ لأنهم نزَّلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفيه لا يعقل ما يقول، فردَّ عليهم إبراهيم ردًا بيَّن به وجه سفههم، وقلة عقولهم فـ..

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلي، والدليل السمعي: **أما الدليل العقلي**: فإنه قد عَلم كلُّ أحد -حتىٰ هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم- أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدبر لهن، بجميع أنواع التدبير، فيكون كلُّ مخلوق مفطورًا مدبَّرًا متصرفًا فيه، **ودخل في ذلك**: جميع ما عُبِد من دون الله، أفيليق عند من له أدنىٰ مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقًا متصرفًا فيه، لا يملك نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبِّر؟! **أما الدليل السمعي**: فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإنَّ ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القِسم شهادة أحد من الرسل علىٰ ذلك فلهذا قال إبراهيم..

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل..

﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾ وأي شهادة -بعد شهادة الله- أعلىٰ من شهادة الرسل؟! خصوصًا أولي العزم منهم، خصوصًا خليل الرحمن.. ولما بيَّن أنَّ أصنامهم ليس لها من التدبير شيءٌ، أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها، وليكيد كيدًا يحصل به إقرارهم بذلك فلهذا قال..

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ أكسرها علىٰ وجه الكيد..

﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧﴾ عنها إلىٰ عيد من أعيادهم، فلمَّا تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية..

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ كسرًا وقطعًا، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسَّرها كلَّها..

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ إلا صنمَهُم الكبير، فإنَّه ترَكَه لمقصد سيبينه.. **وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإنَّ كل ممقوت عند الله لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا علىٰ وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلىٰ ملوك الأرض المشركين يقول: «إلىٰ عظيم الفرس»، «إلىٰ عظيم الروم» ونحو ذلك، ولم يقل (إلىٰ العظيم) وهنا قال تعالىٰ ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾، ولم يقل: (كبيرًا من أصنامهم) فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقَّره الله، إلا إذا أضيف إلىٰ من عظَّمه..**

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنبياء:٦٤].. فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي..

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾ فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولىٰ به، حيث كسَّرها ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه، ومن عدله وتوحيده.. وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأىٰ ما يُفعَلُ بها..

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيبهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسَّرها.. أو أنَّ بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها..

﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾ فلمَّا تحققوا أنه إبراهيم..

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ﴾ أي: بإبراهيم..

﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بمرأىٰ منهم ومسمع..

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾ يحضرون ما يصنع بمن كسَّر آلهتهم، وهذا الذي أرادَ إبراهيم، وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس، ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسىٰ حين واعد فرعون: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩].. فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم..

﴿قَالُوٓاْ﴾ له..

﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ التكسير..

﴿بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢﴾ وهذا استفهام تقرير.. أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام علىٰ هذا الأمر؟ ف..

﴿قَالَ﴾ إبراهيم والناس شاهدون..

﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ كسَّرها غضبًا عليها لمَّا عُبِدَت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده.. وهذا الكلام من إبراهيم **المقصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه**، ولهذا قال..

﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ وأراد الأصنام المكسرة، اسألوها لِمَ كُسِرَت؟ والصنم الذي لم يكسر، اسألوه: لأي شيء كسَّرها.. إن كان عندهم نطق فسيجيبونكم إلىٰ ذلك، وأنا وأنتم وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها ممن يريدها بأذىٰ..

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا علىٰ أنفسهم بالظلم والشرك..

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم.. ولكن لم يستمروا علىٰ هذه الحالة..

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم..

﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾ فكيف تهكم بنا وتستهزئ بنا وتأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟! ف..

﴿قَالَ﴾ إبراهيم - موبخًا لهم ومعلنًا بشركهم علىٰ رءوس الأشهاد، ومبينًا عدم استحقاق آلهتهم للعبادة-:..

﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾ فلا نفع ولا دفع..

﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ ما أضلكم وأخسر صفقتكم! وما أخسكم أنتم وما عبدتم من دون الله!

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلمَّا عدمتم العقل، وارتكبتم

الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم أحسن حالًا منكم.. فحينئذ لمَّا أفحمهم، ولم يبينوا حجةً، استعملوا قوتهم في معاقبته، فـ..

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ اقتلوه أشنع القتلات، بالإحراق..

﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ غضبًا لآلهتكم، ونصرةً لها.. فتعسًا لهم تعسًا، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلهًا..

﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾..

﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ﴾ فانتصر اللهُ لخليله لما ألقوه في النار.. وقال لها..

﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ فكانت عليه بردًا وسلامًا، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكروه..

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ حيث عزموا على إحراقه..

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾ في الدنيا والآخرة، كما جعل اللهُ خليله وأتباعه هم الرابحين المفلحين..

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.. قيل: إنه ابن أخيه.. ، فنجاه الله، وهاجر..

﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ أي: الشام.. فغادر قومه في (بابل) من أرض العراق ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت:٢٦].. ومن بركة الشام: أنَّ كثيرًا من الأنبياء كانوا فيها، وأنَّ الله اختارها مهاجرًا لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس..

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾ حين اعتزل قومه..

﴿إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ ابن إسحاق..

﴿نَافِلَةٗۖ﴾ بعد ما كبُر، وكانت زوجته عاقرًا، فبشرته الملائكة بإسحاق ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود].. ويعقوب هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين..

﴿وَكُلّٗا﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب..

﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢﴾ قائمين بحقوقه، وحقوق عباده..

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره.. وهذا من أكبر نعم الله علىٰ عبده، أن يكون إمامًا يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون.. وذلك لمَّا صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون..

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يهدون الناس بديننا، لا يأمرون بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته.. **ولا يكون العبد إمامًا حتىٰ يدعو إلىٰ أمر الله**..

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها.. وهذا **شامل لجميع الخيرات كلها**، من حقوق الله، وحقوق العباد..

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ هذا من باب **عطف الخاص علىٰ العام**، لـ: شرف هاتين العبادتين وفضلهما.. **ولأن** من كمَّلهما كما أمر كان قائمًا بدينه، ومن ضيعهما كان لما سواهما أضيع.. **ولأن** الصلاة أفضل الأعمال التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال التي فيها الإحسان لخلقه..

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا﴾ لا لغيرنا..

﴿عَٰبِدِينَ ۝٧٣﴾ [الأنبياء:٥١-٧٣] مديمين علىٰ العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم.. فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم.. فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ۝٧٤ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾ [الأنبياء:٧٤-٧٥]

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ هذا ثناء من الله علىٰ رسوله (لوط) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بـ: العلم الشرعي.. والحكم بين الناس بالصواب والسداد.. وأن الله أرسله إلىٰ قومه يدعوهم إلىٰ عبادة الله، وينهاهم عما هم عليه من الفواحش..

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم..

﴿إِنَّهُمْ﴾ لأنهم..

﴿كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ كذبوا الداعي، وتوعدوه بالإخراج.. ونجى الله لوطا وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلًا ليبعدوا عن القرية، فسروا ونجوا، من فضل الله عليهم ومنته..

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ التي من دخلها كان من الآمنين من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة، وبر وسرور وثناء.. وذلك لـ..

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء:٧٤-٧٥] الذين صلحت أعمالهم وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم.. والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله.. كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير.. وأعظم الناس صلاحًا الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧]

﴿وَنُوحًا﴾ واذكر عبدنا ورسولنا، نوحا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. مثنيًا مادحًا..

﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ حينَ أرسله اللهُ إلىٰ قومه، فلبث فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلىٰ عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويبدي فيهم ويعيد، ويدعوهم سرًا وجهارًا، وليلًا ونهارًا.. فلمَّا رآهم لا ينجع فيهم الوعظ، ولا يفيد لديهم الزجر، **نادىٰ ربَّه**، وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]..

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾..

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧] فاستجاب اللهُ له **فأغرقهم** ولم يبق منهم أحدًا.. ونجَّىٰ الله نوحًا وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون وجعل ذريته هم الباقين.. **ونصرهم** الله علىٰ قومه المستهزئين.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾ [الأنبياء:٧٨-٨١]

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ واذكر هذين النبيين الكريمين ﴿دَاوُۥدَ﴾، و﴿سُلَيۡمَٰنَ﴾ مثنيًا مبجلًا.. إذ آتاهما اللهُ العلمَ الواسعَ والحكمَ بَينَ العبادِ، بدليل قوله..

﴿إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ إذ تحاكم إليهما صاحب حرث..

﴿إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ نفشت فيه غنم القوم الآخرين.. أي: رعت ليلًا فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرعه..

﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾ **فقضىٰ فيه داود** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بـ: **أنَّ** الغنم تكون لصاحب الحرث، نظرًا إلىٰ تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة.. **وحكم فيها سليمان** بـ: حكمٍ موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلىٰ صاحب الحرث، فينتفع بدرها وصوفها، ويقومون علىٰ بستان صاحب الحرث، حتىٰ يعود إلىٰ حاله الأولىٰ، فإذا عاد إلىٰ حاله ترادًّا ورجع كلٌّ منهما بما له، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ولهذا قال..

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ فهمناه هذه القضية.. **ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها**، ولهذا خصَّها بالذكر بدليل قوله..

﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان..

﴿ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ وهذا دليل علىٰ: أن **الحاكم قد يصيب الحق والصواب وقد يخطئ ذلك**، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.. ثم ذكر ما خص به كلًا منهما فقال..

﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكرًا وتسبيحًا وتمجيدًا.. وكان قد أعطاه الله من حسن الصوت ورقته ورخامته ما لم يؤته أحدًا من الخلق.. فكان إذا سبح وأثنىٰ علىٰ الله جاوبته الجبال الصمُّ والطيور البُهم.. وهذا فضل الله عليه وإحسانه فلهذا قال..

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾..

﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾ عَلَّمَ اللهُ داودَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ صنعة الدروع، فهو **أوَّل من صنعها** وعَلِمَها وسَرَت صناعته إلىٰ من بعده، فَألَانَ اللهُ له الحديد، وعلَّمه كيف يسردها.. والفائدة فيها كبيرة..

﴿لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾ هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب، واشتداد البأس..

﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾ نعمة الله عليكم، حيث أجراها علىٰ يد عبده داود، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل:٨١].. **يحتمل**: أن تعليم الله لداود صنعة الدروع وإِلَانتها أمرٌ خارق للعادة، وأن يكون -كما قاله المفسرون- إن الله ألان له الحديد حتىٰ كان يعمله كالعجين والطين، من دون إذابة له علىٰ النار.. **ويحتمل**: أن تعليم الله له علىٰ جاري العادة، وأن إِلَانَة الحديد له بما علَّمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها.. **وهذا هو الظاهر**؛ لأن الله امتن بذلك علىٰ العباد وأَمَرهم بشكرها، ولولا أنَّ صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد، لم يمتن عليهم بذلك، ويذكر فائدتها، **لأن الدروع التي صنع داود** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **متعذر أن يكون المراد أعيانها، وإنما المنة بالجنس.. والاحتمال الذي ذكره المفسرون لا دليل عليه**، إلا قوله ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠﴾ [سبأ:١٠]، وليس فيه أن الإلانة من دون سبب، والله أعلم بذلك..

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ سخرناها..

﴿عَاصِفَةٗ﴾ سريعة في مرورها..

﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ حيث دُبرت امتثلت أمرَه، غدوها شهر ورواحها شهر..

﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ وهي أرض الشام، حيث كان مقره.. فيذهب علىٰ الريح

شرقًا وغربًا، ويكون مأواها ورجوعها إلىٰ الأرض المباركة..

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١﴾ [الأنبياء:٧٨-٨١] **قد أحاط علمنا بجميع الأشياء، وعلمنا من داود وسليمان ما أوصلناهما به إلىٰ ما ذكرنا.**

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ۝٨٢﴾ [الأنبياء:٨٢]

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ **وهذا أيضًا من خصائص سليمان** عَلَيْهِ‌السَّلَامُ**، أن الله** سخر له الشياطين والعفاريت، وسلطه علىٰ تسخيرهم في الأعمال التي لا يقدر علىٰ كثير منها غيرهم، **فكان منهم من يغوص له في البحر**، ويستخرج الدر واللؤلؤ وغير ذلك..

﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ **ومنهم من يعمل له** ﴿مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سبأ:١٣]، **وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس**.. **ومات وهم علىٰ عمله، وبقوا بعده سنة، حتىٰ علموا موته، كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ..**

﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ۝٨٢﴾ [الأنبياء:٨٢] **لا يقدرون علىٰ الامتناع منه وعصيانه، بل حفظهم الله له، بقوته وعزته وسلطانه.**

﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤]

﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ واذكر عبدنا ورسولنا أيوب -مثنيًا معظمًا له، رافعًا لقدره- حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجده صابرًا راضيًا عنه.. وذلك أن الشيطان سُلِّط علىٰ جسده، ابتلاءً من الله وامتحانًا، فنفخ في جسده، فتقرَّح قروحًا عظيمة ومكث مدةً طويلة، واشتدَّ به البلاء، ومات أهلُه، وذهب مالُه.. فنادىٰ ربه: رب..

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾ فتوسل إلىٰ الله بالإخبار عن حال نفسه -وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ- وبرحمة ربه الواسعة العامة..

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ فاستجاب الله له، وقال له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص:٤٢]..

﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ﴾ فركض برجله، فخرجت من ركضته عين ماء باردة، فاغتسل منها وشرب، فأذهب الله عنه ما به من الأذى..

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ﴾ رددنا عليه أهلَه وماله..

﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ بأن منحه الله العافية من الأهل والمال شيئا كثيرًا..

﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ به، حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثوابًا عاجلًا قبل ثواب الآخرة..

﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤] جعلناه عبرة للعابدين الذين ينتفعون بالعبر، فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أثابه الله بعد زواله، ونظروا السبب، وجدوه الصبر، ولهذا أثنىٰ الله عليه به في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص:٤٤] فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضر.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥
وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾ [الأنبياء:٨٥-٨٦]

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ واذكر عبادنا المصطفين، وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء.. إسماعيل بن إبراهيم..

﴿وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ نبيين من أنبياء بني إسرائيل..

﴿كُلّٞ﴾ من هؤلاء المذكورين..

﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾ والصبر: هو حبس النفس ومنعها مما تميل بطبعها إليه.. وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر علىٰ طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة.. فلا يستحق العبد اسم الصبر التام حتىٰ يوفي هذه الثلاثة حقها... فهؤلاء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله بالصبر، فدلَّ أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي..

﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾ [الأنبياء:٨٥-٨٦] ووصفهم أيضا بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلب، بمعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح

اللسان، بأن يكون رطبا من ذكر الله، **وصلاح الجوارح**، باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي.. **فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله برحمته**، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل.. ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالىٰ نوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفىٰ بذلك شرفًا وفضلًا.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ واذكر عبدنا ورسولنا (ذا النون) -وهو يونس، أي: صاحب النون، وهي الحوت- بالذكر الجميل، والثناء الحسن.. فإن الله تعالىٰ أرسله إلىٰ قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمَدٍ سماه لهم.. فجاءهم العذاب ورأوه عيانًا، فعجوا إلىٰ الله، وضجوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس:٩٨]، وقال: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].. **وهذه الأمة العظيمة الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر فضائله..**

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ ولكنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذهب مغاضبًا، وأبق عن ربه؛ لذنب من الذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلىٰ تعيينها، لقوله: ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ [الصافات:١٤٠]، ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الذاريات: ٤٠]، أي: فاعل ما يلام عليه.. **والظاهر أنَّ عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك..**

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ ظنَّ أن الله لا يقدر عليه، أي: يضيق عليه في بطن الحوت.. أو ظن أنه سيفوت الله تعالىٰ.. ولا مانع من عروض هذا الظن للكُمَّل من الخلق، علىٰ وجه لا يستقر، ولا يستمر عليه.. فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا من يلقون منهم في البحر لمَّا خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصابت القرعةُ يونسَ، فالتقمه الحوت، وذهب به إلىٰ ظلمات البحار..

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ فنادىٰ في تلك الظلمات..

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ فأقر لله تعالىٰ بكمال الألوهية، ونزهه عن كل نقص وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنايته.. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصافات] ولهذا قال هنا..

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ أي: الشدة التي وقع فيها..

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨] وهذا **وعد وبشارة لكل مؤمن** وقع في شدة وغم، أن الله تعالىٰ سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف لإيمانه، كما فعل بـ (يونس) عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠]

﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ واذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوها بذكره، ناشرًا لمناقبه وفضائله، التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحه للخلق، ورحمة الله إياه..

﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ أي أنه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦﴾ [مريم].. من هذه الآيات علمنا أن قوله ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ [الأنبياء:٨٩] أنه لمَّا تقارب أجله خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلىٰ الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فردًا، ولا يخلف من يشفعه ويعينه، علىٰ ما قام به..

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ خير الباقين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك منِّي، ولكني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازيني ثوابه..

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سميًا..

﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ بعد ما كانت عاقرًا، لا يصلح رحمها للولادة، فأصلح الله رحمها للحمل، لأجل نبيه زكريا.. **وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح**، أنه مبارك علىٰ قرينه.. فصار يحيىٰ مشتركًا بين الوالدين.. ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين كلًا علىٰ انفراده، أثنىٰ عليهم عمومًا فقال..

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها علىٰ الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلةً يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها..

﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ يسألوننا الأمور **المرغوب** فيها، **من مصالح الدنيا والآخرة**، ويتعوذون بنا من الأمور **المرهوب** منها، **من مضار الدارين**.. وهم **راغبون راهبون، لا غافلون لاهون، ولا مدلون**..

﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠] خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩١ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤﴾ [الأنبياء:٩١-٩٤]

واذكر مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ، مثنيًا عليها، مبيِّنًا لقدرها، شاهرًا لشرفها فقال..

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ حفظته من الحرام وقربانه.. **بل ومن الحلال**، فلم تتزوج، لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها بالخدمة لربها..

﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ وحين جاءها جبريل في صورة بشر سَوِّي تام الخلق والحُسن ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم:١٨]، فجازاها الله من جنس عملها، ورزقها ولدًا من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فحملت بإذن الله..

﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ حيث حملت به.. ووضعته من دون مسيس أحد.. وحيث تكلَّم في المهد.. وبرأها مما ظن بها المتهمون.. وأخبر عن نفسه في تلك الحالة.. وأجرىٰ الله علىٰ يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم.. **فكانت وابنها آية للعالمين**، يتحدث بها جيلًا بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون.. ولما ذكر الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، قال مخاطبًا للناس..

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ هؤلاء الرسل المذكورون هم..

﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ وأئمتكم الذين بهم تأتمون، وبهديهم تقتدون..

﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ كلهم علىٰ دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضا واحد.. ولهذا قال..

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ الذي خلقتكم، وربيتكم بنعمتي في الدين والدنيا، فإذا كان الربُّ واحدًا، والنبي واحدًا، والدين واحدًا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة، كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال..

﴿فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ فرتَّب العبادة علىٰ ما سبق بالفاء، **ترتيب المسبب علىٰ سببه**.. وكان اللائق الاجتماع علىٰ هذا الأمر، وعدم التفرق فيه، ولكن **البغي والاعتداء أبيا إلا الافتراق والتقطع**.. ولهذا قال..

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقًا، وتشتتوا، كل يدَّعي أن الحق معه والباطل مع الفريق الآخر، و﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣].. وقد عُلِمَ أنَّ المصيب منهم من كان سالكًا للدين القويم، والصراط المستقيم، مؤتمًا بالأنبياء.. وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء.. فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال..

﴿كُلٌّ﴾ من الفِرق المتفرقة وغيرهم..

﴿إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾ فنجازيهم أتمَّ الجزاء.. ثم **فصَّل جزاءه فيهم، منطوقًا ومفهومًا،** فقال..

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: **الأعمال التي شَرَعَتْهَا الرسل، وحثَّت عليها الكتب..**

﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ **بالله وبرسله، وما جاءوا به..**

﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ **لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافًا كثيرة..**

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤﴾ [الأنبياء:٩١-٩٤] **مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي مع الحفظة.. أي: ومن لم يعمل من الصالحات،** أو عملها وهو ليس بمؤمن، فإنَّه **محروم خاسر، في دينه ودنياه.**

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾ [الأنبياء:٩٥]

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ **يمتنع على القرىٰ المهلَكة المعذَّبة..**

﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾ [الأنبياء:٩٥] إلىٰ الدنيا، ليستدركوا ما فرَّطوا فيه، فلا سبيل إلىٰ الرجوع لمن أُهلِكَ وعُذِّب.. فليحذر المخاطَبون أن يستمروا علىٰ ما يوجب الإهلاك، فيقع بهم، فلا يمكن رفعه، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء:٩٦-٩٧]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ **هذا تحذير من الله للناس، أن يقيموا علىٰ الكفر** والمعاصي، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج.. وهما **قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سدَّ عليهم ذو القرنين، لمَّا شُكِيَ إليه إفسادهم في الأرض..**

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦﴾ وفي آخر الزمان، ينفتح السد عنهم.. فيخرجون إلىٰ الناس في هذه الحالة والوصف الذي ذكره الله من كل من مكان مرتفع، وهو الحدب.. ينسلون أي: يسرعون.. وفي هذا **دلالة علىٰ كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض،** إما

بذواتهم، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرِّب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، **وأنهم يقهرون الناس،** ويعلون عليهم في الدنيا، وأنه **لا يد لأحدٍ بقتالهم**..

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: يوم القيامة، الذي وعد الله بإتيانه، ووعده حق وصدق..

﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ففي ذلك اليوم ترى أبصارَ الكفارَ شاخصةً، من شدة الأفزاع والأهوال المزعجة، والقلاقل المفظعة، وما كانوا يعرفون من جناياتهم وذنوبهم..

﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ وأنهم يدعون بالويل والثبور، والندم والحسرة على ما فات، ويقولون لـ..

﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ اليوم العظيم، فلم نَزَل فيها مستغرقين، وفي لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين، ووردنا القيامة، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة لماتوا..

﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء:٩٦-٩٧] اعترفوا بـ: ظلمهم، وعدل الله فيهم.. فحينئذ يؤمر بهم إلى النار، هم وما كانوا يعبدون، ولهذا قال..

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠١]

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره..

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقودها وحطبها..

﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾ وأصنامكم.. **والحكمة في دخول الأصنام النار** وهي جماد لا تعقل وليس عليها ذنب، **بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم** (١)، فلهذا قال..

---

(١) ولعلَّ من الحكمة أيضًا في ذلك: أن يتعظ من عُبد وهو راض، عندما يعلم أن من عُبد وهو لا يشعر سيدخل النار، فكيف بمن يعلم أنَّه يُعبَد من دون الله ويرضى بذلك؟!.. وليحذر كلُّ من يعلم أنَّ بعض الناس يعملون العمل الصالح لأجله ويرضى بذلك، فكيف بغير الصالح؟!.. والله تعالى أعلم.

﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل:٣٩]..

﴿وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩﴾ وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها..

﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾ من شدة العذاب..

﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾ صم بكم عمي.. أو **لا يسمعون من الأصوات غيرَ صوتها**، لشدة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها.. **ودخول آلهة المشركين النار**، إنما هو الأصنام، أو من عبد، **وهو راض بعبادته**[1].. وأما المسيح، وعزير، والملائكة ونحوهم، ممن عُبِد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله، وفي اللوح المحفوظ، وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرىٰ والأعمال الصالحة..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا﴾ عن النار..

﴿مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠١] فلا يدخلونها.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء:١٠٢-١٠٣]

﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ ولا يكونون قريبًا منها، بل يبعدون عنها، غاية البعد، حتىٰ لا يسمعوا حسيسها، ولا يروا شخصها..

﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾ من المآكل، والمشارب، والمناكح والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه علىٰ الأحقاب..

---

(١) انظر التعليق السابق.

﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع.. وذلك يوم القيامة، حين تُقَرَّب النار، تتغيظ علىٰ الكافرين والعاصين، فيفزع الناس لذلك الأمر، وهؤلاء لا يحزنهم؛ لعلمهم بما يُقدِمُون عليه، وأنَّ الله قد أمَّنَهم مما يخافون..

﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إذا بعثوا من قبورهم، وأتوا علىٰ النجائب وفدًا، لنشورهم، مهنئين لهم قائلين..

﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء:١٠٢-١٠٣] فليهنكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره.

﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء:١٠٤-١٠٥]

﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ يخبر تعالىٰ أنه يوم القيامة يطوي السماوات، علىٰ عظمها واتساعها..

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ كما يَطوي الكاتبُ للسِّجل، أي: الورقة المكتوب فيها.. فتُنثَر نجومها، ويُكوَّر شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها..

﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا لخلقهم، فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئًا، كذلك نعيدهم بعد موتهم.

﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ ننفذ ما وعدنا؛ لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء..

﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ وهو الكتاب المزبور، والمراد: الكتب المنزلة، كالتوراة ونحوها..

﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ كتبناه في الكتب المنزلة بعد ما كتبنا في الكتاب السابق الذي هو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه.. والمكتوب في ذلك..

﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أرض الجنة..

﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء:١٠٤-١٠٥] **الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يورثهم الله الجنات،** كقول أهل الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ [الزمر:٧٤].. **ويحتمل أن المراد: الاستخلاف في الأرض،** وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها كقوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور:٥٥].

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾ [الأنبياء:١٠٦-١١٢]

يثني الله تعالىٰ علىٰ كتابه العزيز (القرآن) ويبين **كفايته التامة عن كل شيء، وأنه لا يستغنىٰ عنه** فقال..

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦﴾ **يتبلغون به في الوصول** إلىٰ ربهم، وإلىٰ دار كرامته، **فوصَّلَهم** إلىٰ أجلِّ المطالب، وأفضل الرغائب.. وليس للعابدين الذين هم أشرف الخلق وراءه غاية: **لأنه الكفيل بمعرفة ربهم،** بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبالإخبار بالغيوب الصادقة، **وبالدعوة لحقائق الإيمان،** وشواهد الإيقان المبين للمأمورات كلها، والمنهيات جميعًا، **المعرف** بعيوب النفس والعمل، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان، وبيان مداخله علىٰ الإنسان.. **فمن لم يغنه القرآن فلا أغناه الله،** ومن لا يكفيه فلا كفاه الله.. **ثم أثنىٰ علىٰ رسوله الذي جاء بالقرآن** فقال..

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ **فهو رحمته المهداة لعباده: فالمؤمنون به** قبلوا هذه الرحمة، وشكروها، وقاموا بها.. **وغيرهم كفرها**، وبدَّلوا نعمة الله كفرًا، وأَبَوا رحمة الله ونعمته..

﴿قُلۡ﴾ يا محمد..

﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال..

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨﴾ منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم علىٰ ما منَّ عليهم بهذه النعمة التي فاقت المِنَن..

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذِّرهم حلول المثلات، ونزول العقوبة..

﴿فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ﴾ أعلمتكم بالعقوبة..

﴿عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾ أي: علمي وعلمكم بذلك مستو، فلا تقولوا إذا أنزل بكم العذاب: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾ [المائدة:١٩]، بل الآن استوىٰ علمي وعلمكم لما أنذرتكم، وحذرتكم، وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكتم عنكم شيئا..

﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ من العذاب.. لأنَّ عِلمَه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء..

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾..

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ﴾ لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم..

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾ وأن تتمتعوا في الدنيا إلىٰ حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم..

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ بيننا وبين القوم الكافرين.. فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة بما عاقب الله به الكافرين من وقعة (بدر) وغيرها..

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ [الأنبياء:١٠٦-١١٢] نسأل ربنا الرحمن، ونستعين به علىٰ ما تصفون من قولكم سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم.. فنحن في هذا لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل علىٰ حولنا وقوتنا.. وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته.. وقد فعل، ولله الحمد.

تفسير سورة الحج، قيل: مكية، وقيل: مدنية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج:١-٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ **يخاطب الله الناس كافة، بـ: أن يتقوا ربهم، الذي رباهم** بالنعم الظاهرة والباطنة.. فحقيق بهم أن يتقوه بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمتثلوا أوامره، مهما استطاعوا.. ثم ذكر **ما يعينهم على التقوىٰ**، ويحذرهم من تركها، وهو **الإخبار بأهوال القيامة**، فقال..

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ **لا يُقدَّر قدرُه، ولا يبلُغ كنهُه؛ ذلك بأنها إذا وقعت** الساعة رجفت الأرض وارتجت، وزلزلت زلزالها، وتصدعت الجبال واندكت، وكانت كثيبًا مهيلًا، ثم كانت هباءً منبثًا، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج.. فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، ويكون من القلاقل والبلابل ما تنصدع له القلوب، وتجل منه الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال..

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ **مع أنها مجبولة علىٰ شدة محبتها** لولدها، خصوصًا في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها..

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ **من شدة الفزع والهول**..

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ **تحسبهم -أيها الرائي لهم- سكارىٰ من** الخمر، وليسوا سكارىٰ..

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج:١-٢] فلذلك أذهب عقولهم، وفرَّغ قلوبهم، وملأها من الفزع، وبلغت القلوبُ الحناجرَ، وشخصت الأبصار.

الفوائد

في ذلك اليوم:

لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا..

ويومئذ ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس:٣٤-٣٧]..

وهناك ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٨]..

وتسود حينئذ وجوه وتبيض وجوه..

وتنصب الموازين التي يوزن بها مثاقيل الذر من الخير والشر..

وتنشر صحائف الأعمال وما فيها من جميع الأعمال والأقوال والنيات من صغير وكبير..

وينصب الصراط علىٰ متن جهنم..

وتزلف الجنة للمتقين..

وبرزت الجحيم للغاوين ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ [الفرقان:١٢-١٣]، ويقال لهم ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:١٤]، وإذا نادوا ربهم ليخرجهم منها قال ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلَّها، لم يفقدوا منها نقيرًا ولا قطميرًا.. هذا والمتقون في روضات الجنات يحبرون، وفي أنواع اللذات يتفكهون، وفيما اشتهت أنفسهم خالدون..

فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه أن يعد له عدته وأن لا يلهيه الأمل فيترك العمل، وأن تكون تقوىٰ الله شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة الله وذكره روح أعماله.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج:٣-٤]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ومن الناس طائفة وفرقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق.. والحال أنهم في غاية الجهل، ما عندهم من العلم شيء..

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ وغاية ما عندهم تقليد أئمة الضلال من كل شيطان مريد، متمرد علىٰ الله وعلىٰ رسله، معاند لهم، قد شاقَّ الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين يدعون إلىٰ النار..

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قُدِّرَ علىٰ هذا الشيطان المريد..

﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ اتبعه..

﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ عن الحق، ويجنبه الصراط المستقيم..

﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج:٣-٤] وهذا نائب إبليس حقًا، فإن الله قال عنه ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

🕮 الفوائد

هذا الذي يجادل في الله قد جمع بين ضلاله بنفسه، وتصديه إلىٰ إضلال الناس، وهو متبع ومقلد لكل شيطان مريد..

ظلمات بعضها فوق بعض..

ويدخل في هذا: جمهور أهل الكفر والبدع، فإنَّ أكثرهم مقلِّدة، يجادلون بغير علم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ

لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج:٥]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه.. مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم، وتصدقوا رسله في ذلك.. ولكن إذا أبيتم إلا الريب، فهاكم دليلين عقليين تشاهدونهما، كل واحد منهما يدل دلالة قطعية علىٰ ما شككتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب.. **أحدهما**: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيعيده، فقال فيه..

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وذلك بخلق أبي البشر آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: مَنِيٍّ، وهذا ابتداء أول التخليق..

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ تنقلب تلك النطفة بإذن الله دمًا أحمر..

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ ينتقل الدمُّ مضغة، أي: قطعة لحم، بقدر ما يمضغ، وتلك المضغة تارة تكون..

﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ مصوَّر منها خلق الآدمي..

﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ تارة، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها..

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أصلَ نشأتكم، مع قدرته تعالىٰ علىٰ تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن ليبين لنا كمال حكمته، وعظيم قدرته، وسعة رحمته..

﴿وَنُقِرُّ﴾ نُبقي..

﴿فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ من الحمل، الذي لم تقذفه الأرحام..

﴿مَا نَشَآءُ﴾ إبقاءه..

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو مدة الحمل..

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم..

﴿طِفْلًا﴾ لا تعلمون شيئًا، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرينا لكم في ثديها الرزق..

﴿ثُمَّ﴾ تنتقلون طورًا بعد طور..

﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾ حتىٰ تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل..

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ من قبل أن يبلغ سن الأشد..

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ ومنكم من يتجاوزه فيرد إلىٰ أرذل العمر، أي: أخسه وأرذله، وهو سن الهِرَم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل، كما زالت باقي القوة، وضعفت..

﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ لأجل أن لا يعلم هذا المعمِّر شيئًا مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله.. **فقوة الآدمي محفوفة بضُعفَين**: ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهِرم ونقصه، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم:٥٤].. **والدليل الثاني**: إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه..

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾ خاشعة مغبَرة لا نبات فيها، ولا خُضر..

﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾ تحرَّكت بالنبات..

﴿وَرَبَتۡ﴾ ارتفعت بعد خشوعها وذلك لزيادة نباتها..

﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ﴾ أي: صنف، من أصناف النبات..

﴿بَهِيجٖ ٥﴾ [الحج:٥] يبهج الناظرين، ويُسِر المتأملين.. **فهذان الدليلان القاطعان، يدلان علىٰ هذه المطالب الخمسة**، وهي هذه..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦
وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾ [الحج:٦-٧]

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أنشأ الآدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها..

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الرب المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة..

﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها..

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾ كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم..

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ فلا وجه لاستبعادها..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾ [الحج:٦-٧] فيجازيكم بأعمالكم حسنها وسيئها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾ [الحج:٨-٩]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن﴾ المجادلة المتقدمة للمقلِّد، وهذه المجادلة للشيطان المريد، الداعي إلىٰ البدع، فأخبر أنه..

﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ يجادل رسلَ الله وأتباعهم بالباطل؛ ليدحض به الحق..

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ صحيح..

﴿وَلَا هُدٗى﴾ غير متبع في جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد..

﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ واضح بيِّن، أي: فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات يوحيها إليه الشيطان ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام:١٢١]، ومع هذا..

﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ لاوي جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كِبرِه عن الحق، واحتقاره للخلق.. فقد فَرِح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهلَ الحق وما معهم من الحق..

﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس..

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: ليكون من دعاة الضلال.. ويدخل تحت هذا جميعُ أئمة الكفر والضلال.. ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال..

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة.. وهذا من آيات الله العجيبة، فإنك لا تجد داعيا من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من المقت بين العالمين، واللعنة، والبغض، والذم، ما هو حقيق به، وكل بحسب حاله..

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾ [الحج:٨-٩] نذيقه حرَّها الشديد، وسعيرها البليغ، وذلك بما قدمت يداه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عمران:١٨٢].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾ [الحج:١١-١٣]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ ومن الناس من هو **ضعيف الإيمان،** لم يدخل الإيمانُ قلبَه، ولم تخالطه بشاشته، بل **دخل فيه إما خوفًا، وإما عادة** علىٰ وجه لا يثبت عند المحن..

﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ إن استمر رزقه رغدًا، ولم يحصل له من المكاره شيء، اطمأنَّ بذلك الخير، لا بإيمانه.. فهذا ربَّما أنَّ الله يعافيه، ولا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه..

﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ من حصول مكروه، أو زوال محبوب..

﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ ارتد عن دينه..

﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ **أما في الدنيا:** فإنه لا يحصل له بالردة ما أمَّله الذي جعل الردَّة رأسًا لماله، وعوضا عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له.. **وأما الآخرة:** فظاهر، حُرِم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار..

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ الواضح البيِّن..

﴿يَدۡعُواْ﴾ هذا الراجع علىٰ وجهه..

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ وهذا صفة كل مدعو ومعبود من دون الله، فإنَّه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا..

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢﴾ الذي قد بلغ في البعد إلىٰ حد النهاية.. حيث أعرض عن عبادة النافع الضار، الغني المغني، وأقبل علىٰ عبادة مخلوق مثله أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلىٰ حصول ضد مقصوده أقرب، ولهذا قال..

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ فإنَّ ضرره في العقل والبدن والدنيا والآخرة معلوم..

﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ أي: هذا المعبود..

﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾ [الحج:١١-١٣] أي: القرين الملازم علىٰ صحبته.. **فإن المقصود من المولىٰ والعشير حصول النفع، ودفع الضرر**، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [الحج:١٤]

لما ذكر تعالىٰ **المجادل بالباطل، وأنه علىٰ قسمين: مقلِّد، وداع**.. ذكر أن **المتسمي بالإيمان أيضا علىٰ قسمين: قسم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم، والقسم الثاني: المؤمن حقيقة**، صدَّق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ فأخبر تعالىٰ أنه يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.. **وسميت (الجنة) جنة**؛ لاشتمالها علىٰ المنازل والقصور والأشجار والنوابت التي تُجِنُّ مَن فيها، ويَستَتِرُ بها من كثرتها..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [الحج:١٤] فما أراده تعالىٰ فعله من غير ممانع ولا معارض.. ومن ذلك: إيصال أهل الجنة إليها.. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ [الحج:١٥]

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله، وأن دينه سيضمحل، فإنَّ النصر من الله ينزل من السماء..

﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ ذلك الظان..

﴿بِسَبَبٍ﴾ حبل..

﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وليرقىٰ إليها..

﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ النصر النازل عليه من السماء..

﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ أي: ما يكيد به الرسول، ويعمله من محاربته، والحرص علىٰ إبطال دينه..

﴿مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج:١٥] ما يغيظه من ظهور دينه.. وهذا استفهام بمعنىٰ النفي، وأنه لا يقدر علىٰ شفاء غيظه بما يعمله من الأسباب..

الفوائد

١- **معنىٰ هذه الآية الكريمة:** يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ، الساعي في إطفاء دينه، الذي يظن بجهله، أن سعيه سيفيده شيئًا!

اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول، فإنَّ ذلك لا يُذهب غيظَك، ولا يشفي كمدك.. فليس لك قدرة في ذلك..

ولكن سنشير عليك برأي، تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول إن كان ممكنا.. ائت الأمر مع بابه، وارتق إليه بأسبابه..

اعمد إلىٰ حبل من ليف أو غيره، ثم علِّقه في السماء، ثم اصعد به حتىٰ تصل إلىٰ الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدها وأغلقها واقطعها، فبهذه الحال تشفي غيظك.. فهذا هو الرأي والمكيدة..

وأما ما سوىٰ هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق.

٢- **وهذه الآية الكريمة:** فيها من **الوعد والبشارة بنصر الله** لدينه ولرسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفىٰ، **ومن تأييس الكافرين**، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره، ولو كره الكافرون، أي: وَسَعُوا مهما أمكنهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [الحج:١٦]

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ لما فصَّلنا في هذا القرآن ما فصَّلنا..

﴿أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ جعلناه آيات بينات واضحات دالات علىٰ جميع المطالب والمسائل النافعة..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ۝١٦﴾ [الحج:١٦] ولكن الهداية بيد الله، **فمن أراد الله هدايته** اهتدىٰ بهذا القرآن، وجعله إماما له وقدوة، واستضاء بنوره.. **ومن لم يرد الله هدايته**، فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم ينفعه القرآن شيئا، بل يكون حجة عليه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ
أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝١٧ أَلَمۡ
تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ
وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ۝١٨ ۞ هَٰذَانِ
خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ
مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ
مِنۡ حَدِيدٖ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلۡحَرِيقِ ۝٢٢ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا
حَرِيرٞ ۝٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٢٤﴾ [الحج:١٧-٢٤]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ يخبر تعالىٰ عن **طوائف أهل الأرض من الذين أوتوا الكتاب**، من المؤمنين واليهود والنصارىٰ والصابئين.. ومن المجوس، ومن المشركين.. أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهدها، ولهذا قال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝١٧﴾ ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾.. واعترض تعالىٰ بين هذه الآيات بذكر سجود المخلوقات له..

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ

﴿وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ جميع من في السماوات والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، الذي يشمل الحيوانات كلها..

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم المؤمنون..

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وجب وكتب، لكفره وعدم إيمانه، فلم يوفقه للإيمان، لأن الله أهانه..

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ ولا رادَّ لما أراد، ولا معارض لمشيئته.. فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته، مستكينة لعزته، عانية لسلطانه، دل علىٰ أنه وحده، الرب المعبود، والملك المحمود، وأن من عدل عنه إلىٰ عبادة سواه، فقد ضل ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينًا..

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ كل يدَّعي أنه المحق..

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يشمل كل كافر، من اليهود، والنصارىٰ، والمجوس، والصابئين، والمشركين..

﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ يجعل لهم ثياب من قطران، وتشعل فيها النار، ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم..

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ الماء الحار جدًا..

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ يصهر ما في بطونهم من اللحم والشحم والأمعاء، من شدة حره، وعظيم أمره..

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ بيد الملائكة الغلاظ الشداد، تضربهم فيها وتقمعهم..

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ فلا يُفتَّر عنهم العذاب، ولا هم ينظرون، ويقال لهم توبيخا..

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ المحرق للقلوب والأبدان..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ومعلوم أن هذا الوصف لا يَصدُق علىٰ غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب، وجميع الرسل..

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ يسورون في أيديهم، رجالهم ونساؤهم أساور الذهب..

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾..

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ فتمَّ نعيمهم بذكر أنواع المأكولات اللذيذات، المشتمل عليها لفظ الجنات، وذكر الأنهار السارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس، والحلي الفاخر.. وذلك بسبب أنهم..

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله، أو إحسان إلىٰ عباد الله..

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج:١٧-٢٤] الصراط المحمود؛ وذلك لأن جميع الشرع كله محتو علىٰ الحكمة والحمد، وحسن المأمور به، وقبح المنهي عنه، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، المشتمل علىٰ العلم النافع والعمل الصالح.. أو: وهدوا إلىٰ صراط الله الحميد؛ لأن الله كثيرًا ما يضيف الصراط إليه؛ لأنه يوصل صاحبه إلىٰ الله.. وفي ذكر (الحميد) هنا؛ ليبين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم ومنته عليهم، ولهذا يقولون في الجنة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج:٢٦-٢٩]

يذكر تعالىٰ عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن.. فقال..

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قِسمًا من ذريته

من سكانه، وأمره الله ببنيانه، فبناه على تقوى الله، وأسسه على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره..

﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ بأن يخلص لله أعماله، ويبنيه على اسم الله..

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس.. **وأضافه الرحمن إلى نفسه:** لشرفه، وفضله، ولتعظم محبته في القلوب، وتنصَب إليه الأفئدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب..

﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ﴾ للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات، من ذكر، وقراءة، وتعلم علم، وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القُرَب..

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ المصلين.. أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته، والتقرب إليه عند بيته، فهؤلاء لهم الحق، ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم.. **ويدخل في تطهيره:** تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش المتعبدين بالصلاة والطواف.. **وقدَّم الطواف** على الاعتكاف والصلاة؛ **لاختصاصه بهذا البيت،** ثم الاعتكاف لاختصاصه بجنس المساجد..

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أعلمهم به، وادعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم، فرضه وفضيلته.. فإنك إذا دعوتهم..

﴿يَأْتُوكَ﴾ حجاجًا وعمارًا..

﴿رِجَالًا﴾ مشاة على أرجلهم من الشوق..

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ ناقة ضامر، تقطع المهامه والمفاوز، وتواصل السير..

﴿يَأْتِينَ﴾ حتى تأتي إلى أشرف الأماكن..

﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ من كل بلد بعيد.. وقد فعل الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا في ذلك وأعادا.. وقد حصل ما وعد الله به، أتاه الناسُ رجالًا وركبانًا من مشارق الأرض ومغاربها.. ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام، مُرغبًّا فيه فقال..

﴿لِّيَشْهَدُوا﴾ لينالوا ببيت الله..

﴿مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ **منافع دينية**: من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه.. **ومنافع دنيوية**: من التكسب، وحصول الأرباح الدنيوية.. وكل هذا أمر مشاهد كل يعرفه..

﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية.. أي: **ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا..**

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ **شكرًا لله على ما رزقهم منها، ويسَّرَها لهم، فإذا ذبحتموها..**

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ **شديد الفقر..**

﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ **يقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذىٰ، الذي لحقهم في حال الإحرام..**

﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ **التي أوجبوها علىٰ أنفسهم، من الحج، والعمرة والهدايا..**

﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ﴾ وهذا أمر **بالطواف خصوصًا** بعد الأمر بالمناسك عمومًا: لفضله.. وشرفه.. ولكونه المقصود وما قبله وسائل إليه.. ولعله -والله أعلم أيضًا- لفائدة أخرىٰ، وهو أنَّ الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعًا لنسك، أم مستقلًا بنفسه..

﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحج:٢٦-٢٩] أي: القديم.. **أفضل المساجد علىٰ الإطلاق.. المعتق من تسلط الجبابرة عليه..**

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحج:٣٠]

﴿ذَٰلِكَۖ﴾ الذي ذكرنا لكم من تلكم الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمات الله وإجلالها وتكريمها.. لأن..

﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وحرمات الله: كل ما له حرمة، وأمر باحترامه بعبادة أو غيرها، كالمناسك كلها، وكالحرم والإحرام، وكالهدايا، وكالعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها.. **فتعظيمها**: إجلالها بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون، ولا

متكاسل، ولا متثاقل..

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ تعظيم حرمات الله من الأمور المحبوبة لله، المقربة إليه، التي من عظمها وأجلها، أثابه الله ثوابا جزيلا، وكانت خيرا له في دينه ودنياه وأخراه عند ربه.. **ثم ذكر منته وإحسانه بما أحله لعباده من بهيمة الأنعام..**

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ من إبل وبقر وغنم، وشَرَعَها من جملة المناسك التي يتقرب بها إليه، فعظمت منته فيها من الوجهين..

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في القرآن تحريمه، من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة:٣] الآية.. ولكن الذي من رحمته بعباده، أن حرمه عليهم، ومنعهم منه، تزكية لهم، وتطهيرًا من الشرك به وقول الزور، ولهذا قال..

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ﴾ الخبَث القذر..

﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ الأنداد، التي جعلتموها آلهة مع الله، فإنها أكبر أنواع الرجس.. والظاهر أن (من) هنا ليست لبيان الجنس، كما قاله كثير من المفسرين.. وإنما هي للتبعيض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون منهيًا عنها عمومًا، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصًا..

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج:٣٠] جميع الأقوال المحرمات فإنها من قول الزور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور.. فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور، **أمرهم أن يكونوا..**

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١]

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه..

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾..

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فمَثَله..

﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ سقط منها..

﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ بسرعة..

﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ۝٣١﴾ [الحج:٣١] بعيد.. كذلك المشرك، **فالإيمان بمنزلة السماء**، محفوظة مرفوعة، ومن **ترك الإيمان بمنزلة الساقط من السماء**، عرضة للآفات والبليات، فإمَّا أن تخطفه الطير فتقطِّعه أعضاء.. **كذلك المشرك** إذا ترك الاعتصام بالإيمان، **تخطفته الشياطين** من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه.

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ۝٣٢ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ۝٣٣﴾ [الحج:٣٢-٣٣]

﴿ذَٰلِكَۖ﴾ الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرماته وشعائره.. **والمراد بالشعائر: أعلام الدين** الظاهرة [(١)]، **ومنها** المناسك كلها، كما قال تعالىٰ:﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة:١٥٨]، **ومنها** الهدايا والقربان للبيت.. **وتقدم أن معنىٰ تعظيمها**: إجلالها، والقيام بها، وتكميلها علىٰ أكمل ما يقدر عليه العبد.. **ومنها الهدايا**: فتعظيمها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكمَّلة من كل وجه..

﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ۝٣٢﴾ فتعظيم شعائر الله صادر من تقوىٰ القلوب، فالمعظم لها يبرهن علىٰ تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله..

﴿لَكُمۡ فِيهَا﴾ في الهدايا المسوقة من البُدن ونحوها..

﴿مَنَٰفِعُ﴾ ينتفع بها أربابها، بالركوب، والحلب ونحو ذلك، مما لا يضرها..

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ مقدَّر موقت، وهو ذبحها إذا وصلت مَحِلَّهَا..

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ۝٣٣﴾ [الحج:٣٢-٣٣] أي: الحرم كله، مِنَىٰ وغيرها.. فإذا ذُبحت أكلوا منها وأهدوا، وأطعموا البائس الفقير.

---

(١) وسيؤكد المصنف هذا المعنىٰ عند الآية (٣٦).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج:٣٤-٣٥]

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم السالفة..

﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ فاستبقوا إلىٰ الخيرات، وتسارعوا إليها، ولننظر أيكم أحسن عملًا..

والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكا: لإقامة ذكره، والالتفات لشكره، ولهذا قال..

﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ﴾..

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة علىٰ هذا الأصل، وهو ألوهية الله، وإفراده بالعبودية، وترك الشرك به، ولهذا قال..

﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ﴾ انقادوا واستسلموا له لا لغيره، فإنَّ الإسلام له طريق إلىٰ الوصول إلىٰ دار السلام..

﴿وَبَشِّرِ﴾ خير الدنيا والآخرة..

﴿ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ والمخبت: الخاضع لربه المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.. ثم ذَكَر صفات المخبتين فقال..

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خوفًا وتعظيمًا، فتركوا لذلك المحرمات، لخوفهم ووجلهم من الله وحده..

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من البأساء والضراء، وأنواع الأذىٰ.. فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم، محتسبين ثوابه، مرتقبين أجره..

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الذين جعلوها قائمةً مستقيمةً كاملة، بأن أدَّوا اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة..

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج:٣٤-٣٥] وهذا يشمل جميع النفقات، **الواجبة**: كالزكاة، والكفارة، والنفقة علىٰ الزوجات والمماليك، والأقارب.. **والنفقات المستحبة**:

كالصدقات بجميع وجوهها.. **وأتي بـ﴿ مِنۡ ﴾ المفيدة للتبعيض،** ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغَّب فيه، **وأنه جزء يسير مما رزق الله،** ليس للعبد في تحصيله قدرة لولا تيسير الله له ورزقه إياه.. **فيا أيها المرزوق من فضل الله!** أنفق مما رزقك الله، ينفق الله عليك، ويزدك من فضله.

﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾ [الحج:٣٦-٣٧]

﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ هذا دليل علىٰ أن الشعائر عام في جميع أعلام الدين الظاهرة [(١)].. وتقدَّم أنَّ الله أخبر أنَّ من عظَّم شعائره فإنَّ ذلك من تقوىٰ القلوب.. وهنا أخبر أن من جملة شعائره (البدن)، أي: الإبل، والبقر -علىٰ أحد القولين- فتعظَّم وتستسمن، وتستحسن..

﴿لَكُمۡ﴾ أي: المُهدي وغيره..

﴿فِيهَا خَيۡرٞۖ﴾ من الأكل، والصدقة، والانتفاع، والثواب، والأجر..

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ عند ذبحها، قولوا (بسم الله) واذبحوها..

﴿صَوَآفَّۖ﴾ قائمات، بأن تقام علىٰ قوائمها الأربع، ثم تعقل يدها اليسرىٰ، ثم تنحر..

﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ سقطت في الأرض جنوبها، حين تسلخ، ثم يسقط الجزار جنوبها علىٰ الأرض، فحينئذ قد استعدت لأن يؤكل منها..

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ وهذا خطاب للمُهدي، فيجوز له الأكل من هديه..

﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ﴾ الفقير الذي لا يسأل تقنعًا، وتعففا..

﴿وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ والفقير الذي يسأل، فكل منهما له حق فيهما..

---

(١) كما تقدَّم في الآية (٣٢).

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا﴾ أي: البدن..

﴿لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٣٦﴾ **الله علىٰ تسخيرها**، فإنه لولا تسخيره لها لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذللها لكم وسخرها، رحمة بكم وإحسانا إليكم، فاحمدوه..

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ ليس المقصود منها ذبحها فقط، ولا ينال الله من لحومها ولا دمائها شيء، لكونه الغني الحميد.. وإنما يناله الإخلاصُ فيها، والاحتساب والنية الصالحة، ولهذا قال..

﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ **ففي هذا حث وترغيب علىٰ الإخلاص في النحر**، وأن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخرًا ولا رياء، ولا سمعة، ولا مجرد عادة.. **وهكذا سائر العبادات**، إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوىٰ الله، كانت كالقشور الذي لا لب فيه، والجسد الذي لا روح فيه..

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ **تعظِّموه وتُجلوه**..

﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ مقابلة لهدايته إياكم، فإنَّه يستحق أكملَ الثناء وأجل الحمد، وأعلىٰ التعظيم..

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٧﴾ [الحج:٣٦-٣٧] **بعبادة الله**، بأن يعبدوا الله كأنهم يرونه، فإن لم يصلوا إلىٰ هذه الدرجة فليعبدوه معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم، ورؤيته إياهم.. **والمحسنين لعباد الله** بجميع وجوه الإحسان، من نفع مال، أو علم، أو جاه، أو نصح، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو كلمة طيبة ونحو ذلك.. فالمحسنون لهم البشارة من الله، بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن الله إليهم، كما أحسنوا في عبادته ولعباده ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج:٣٨]

هذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا..

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ **يدافع عنهم كلَّ مكروه**، ويدفع عنهم كلَّ شر -

بسبب إيمانهم- من شر الكفار، **وشر وسوسة الشيطان**، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم.. ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف.. كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة **بحسب إيمانه**، فمستقل ومستكثر..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ خائن في أمانته التي حمَّله الله إياها، فيبخس حقوق الله عليه ويخونها، ويخون الخلق..

﴿كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج:٣٨] لنعم الله.. يوالي عليه الإحسان ويتوالىٰ منه الكفر والعصيان.. فهذا لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقته، وسيجازيه علىٰ كفره وخيانته.. **ومفهوم الآية**: أن الله **يحب كل أمين** قائم بأمانته، شكور لمولاه.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج:٣٩-٤١]

كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، ومأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلىٰ المدينة، وأوذوا، وحصل لهم منعة وقوة، أذن لهم بالقتال.. قال تعالىٰ..

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يُقاتِلون..

﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ وإنما أذن لهم، لأنهم ظلموا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم..

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ فليستنصروه، وليستعينوا به.. **ثم ذكر صفة ظلمهم فقال..**

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ ألجئوا إلىٰ الخروج بالأذية والفتنة..

﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ﴾ أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم..

﴿أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ إلا أنهم وحدوا الله، وعبدوه مخلصين له الدين.. فإن كان هذا ذنبًا فهو ذنبهم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج:٨].. وهذا يدل علىٰ **حكمة الجهاد**، وأن المقصود منه **إقامة دين الله**، وذَبُّ الكفار المؤذين للمؤمنين -البادئين لهم بالاعتداء- عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة، ولهذا قال:..

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ﴾ فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين..

﴿لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ لهدمت هذه المعابد الكبار لطوائف أهل الكتاب، معابد اليهود والنصارىٰ، والمساجد للمسلمين..

﴿يُذۡكَرُ فِيهَا﴾ في هذه المعابد..

﴿ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ تقام فيها الصلوات، وتتلىٰ فيها كتب الله، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر.. فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لاستولىٰ الكفار علىٰ المسلمين، فخربوا معابدهم، وفتنوهم عن دينهم.. فدلَّ هذا أن **الجهاد مشروع**، **لأجل دفع الصائل** والمؤذي، ومقصود لغيره.. ودل ذلك علىٰ أن **البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة** بعبادة الله، وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها، **من فضائل المجاهدين** وببركتهم، دفع الله عنها الكافرين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].. ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع..

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ يقوم بنصر دينه مخلصًا له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمةُ الله هي العليا..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ كامل القوة، عزيز لا يرام، قد قهر الخلائق، وأخذ بنواصيهم.. **فأبشروا يا معشر المسلمين**، فإنكم وإن ضعف عَددكم وعُددكم، وقوي عدد عدوكم وعُدتهم، فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم علىٰ من خلقكم وخلق ما تعملون..

فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلابد أن ينصركم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧].. **وقوموا أيها المسلمون بحق الإيمان** والعمل الصالح، فقد ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥]..

ثم ذكر علامة من ينصره وبها يعرف، **أنَّ من ادَّعىٰ أنه ينصر الله وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب** فقال..

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض..**

﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات..

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ **التي عليهم خصوصًا، وعلىٰ رعيتهم عمومًا، آتوها أهلَها، الذين هم أهلُها..**

﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل كلَّ معروف حسَّنه شرعًا وعقلًا من حقوق الله، وحقوق الآدميين..

﴿وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ كل منكر شرعًا وعقلًا معروف قبحه، **والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به:** فإذا كان المعروف والمنكر **يتوقف علىٰ** تعلم وتعليم، أجبروا الناس علىٰ التعلم والتعليم.. وإذا كان **يتوقف علىٰ** تأديب مقدر شرعًا، أو غير مقدر كأنواع التعزير، قاموا بذلك.. وإذا كان **يتوقف علىٰ** جعل أناس متصدين له، لزم ذلك.. ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به..

﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٣٩-٤١] **جميع الأمور ترجع إلىٰ الله..** وقد أخبر أن العاقبة للتقوىٰ.. فمن سلَّطه الله علىٰ العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة.. **ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوىٰ نفسه، فإنَّه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشئومة، وعاقبته مذمومة.**

📖 **الفـوائـد**

فإن قلت: نرىٰ الآن **مساجد المسلمين عامرة لم تخرب،** مع أنها كثير منها إمارة صغيرة، وحكومة غير منظمة، **مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج.. بل نرىٰ المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون،** مع قدرة ولاتهم من الكفار علىٰ هدمها.. والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعًا..

أجيب بـ: أن هذا السؤال والاستشكال داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها **تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها،** وداخل في حكمها، تعتبره عضوًا من أعضاء المملكة، وجزء من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بعُددها أو عَددها، أو مالها، أو عملها، أو خدمتها، **فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب،** الدينية والدنيوية، **وتخشىٰ إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها،** وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصًا المساجد، فإنها -ولله الحمد- في غاية الانتظام، حتىٰ في عواصم الدول الكبار..

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، **نظرًا لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارىٰ،** الذي أخبر الله أنه لا يزال إلىٰ يوم القيامة، فتبقىٰ الحكومة المسلمة التي لا تقدر تدافع عن نفسها، سالمة من كثير ضررهم، لقيام الحسد عندهم، **فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها، خوفًا من احتمائها بالآخر..** مع أن الله تعالىٰ **لا بد أن يري عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعد به** في كتابه، وقد ظهرت -ولله الحمد- أسبابه بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلىٰ دينهم، والشعور مبدأ العمل، فنحمده ونسأله أن يتم نعمته.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ

ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا
لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٢-٤٦]

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ..

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ وإن يكذبك هؤلاء المشركون.. فلست بأول رسول كُذِّب، وليسوا بأول أُمة كَذبت رسولَها..

﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ أي: قوم شعيب..

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المكذبين.. فلم أعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلتهم حتىٰ استمروا في طغيانهم يعمهون، وفي كفرهم وشرهم يزدادون..

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعذاب أخذ عزيز مقتدر..

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: إنكاري عليهم كفرَهم وتكذيبَهم، كيف حاله؟ كان أشدَّ العقوبات، وأفظعَ المثلات.. فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أُهلك بالريح العقيم، ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة.. فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيرًا منهم، ولا كُتب لهم براءة في الكتب المنزلة من الله.. وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير، ولهذا قال..

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وكم من قرية..

﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بالعذاب الشديد، والخزي الدنيوي..

﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، لم يكن عقوبتنا لها ظُلمًا منَّا..

﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ فديارهم متهدمة قصورها، وجدرانها قد سقطت عروشها، فأصبحت خرابًا بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت آهلة بأهلها آنسة..

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ وكم من بئر قد كان يزدحم عليه الخلق لشربهم، وشرب مواشيهم، ففُقِد أهلُه، وعُدِم منه الوارد والصادر..

﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥﴾ وكم من قصر تعب عليه أهله فشيَّدوه، ورفعوه، وحصَّنوه، وزخرفوه.. فحين جاءهم أمر الله، لم يغن عنهم شيئًا، وأصبح خاليًا من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر، ومثالًا لمن فكَّر ونظر.. ولهذا دعا اللهُ عبادَه إلىٰ السير في الأرض لينظروا، ويعتبروا، فقال..

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بأبدانهم وقلوبهم..

﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ آيات الله، ويتأملون بها مواقع عبره..

﴿أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾ أخبارَ الأمم الماضين، وأنباء القرون المعذَّبين، وإلا فمجرد نظر العين وسماع الأذن وسير البدن الخالي من التفكر والاعتبار، غير مفيد، ولا موصل إلىٰ المطلوب، ولهذا قال..

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج:٤٢-٤٦] أي أنَّ هذا العمىٰ الضار في الدين عمىٰ القلب عن الحق حتىٰ لا يشاهده، كما لا يشاهد الأعمىٰ المرئيات.. وأمَّا عَمَىٰ البصر، فغايته بلغة ومنفعة دنيوية.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٤٧ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ٤٨﴾ [الحج:٤٧-٤٨]

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾ يستعجلك هؤلاء المكذبون..

﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾ لجهلهم، وظلمهم، وعنادهم، وتعجيزًا لله، وتكذيبًا لرسله..

﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ فما وعدهم به من العذاب لا بد من وقوعه، ولا يمنعهم منه مانع.. وأما عجلته والمبادرة فيه فليس ذلك إليك يا محمد.. **ولا يستفزنك عجلتهم وتعجيزهم إيانا**، فإن أمامهم يوم القيامة، الذي يجمع فيه أوَّلهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم، ولهذا قال..

﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٤٧﴾ من طوله، وشدته، وهوله.. فسواء أصابهم عذاب في الدنيا، أم تأخر عنهم العذاب، فإنَّ هذا اليوم لا بد أن يدركهم.. **ويحتمل أن المراد**: أن الله حليم، ولو استعجلوا العذاب فإنَّ يوما عنده كألف سنة مما

تعدون، فالمدة وإن تطاولتموها واستبطأتم فيها نزول العذاب، فإنَّ الله يمهل المُدد الطويلة ولا يهمل، حتىٰ إذا أخذ الظالمين بعذابه لم يفلتهم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أمهلتها مدة طويلة..

﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم موجبًا لمبادرتنا بالعقوبة..

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب..

﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج:٤٧-٤٨] مع عذابها في الدنيا، سترجع إلىٰ الله فيعذبها بذنوبها.. فليحذر هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله، ولا يغتروا بالإمهال.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج:٤٩-٥١]

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يأمر تعالىٰ عبده ورسوله محمدا ﷺ أن يخاطب الناس جميعًا..

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ بأنه رسول الله حقًا، مبشرًا للمؤمنين بثواب الله، منذرًا للكافرين والظالمين من عقابه..

﴿مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ بيِّن الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالمخوِّف؛ وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة علىٰ صدق ما أنذرهم به.. ثم ذَكَر تفصيل النذارة والبشارة فقال..

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم إيمانًا صحيحًا صادقًا..

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم..

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس:٩] أي: الجنات التي يتنعم بها بأنواع النعيم من المآكل والمشارب والمناكح والصور والأصوات، والتنعم برؤية الرب الكريم وسماع كلامه..

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1] أي: جحدوا نعمة ربهم

(١) سَبَقَ قَلَمُ المصنف هنا، كما في الآية ٥٢، فانظر التعليق هناك.

وكذَّبوا رسله وآياته.. فـ..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾ [الحج:٤٩-٥١] الملازمون لها، المصاحبون لها في كل أوقاتهم، فلا يخفف عنهم من عذابها ولا يفتُر عنهم لحظة من عقابها.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج:٥٢-٥٤]

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ يخبر تعالىٰ بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأنَّ الله ما أرسلَ قبلَ محمدٍ..

﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: قرأ قراءته التي يُذَكِّرُ بها الناس، ويأمرهم وينهاهم..

﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في قراءته، من طرقه ومكايده، ما هو مناقض لتلك القراءة.. مع أن الله تعالىٰ قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتبه، أو يختلط بغيره.. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، **وللعوارض أحكام**، ولهذا قال..

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يزيله ويذهبه ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته، و..

﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقىٰ خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾(١) أي: كامل القوة والاقتدار، فبكمال قوته، يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقيه الشياطين..

---

(١) سَبَقَ قَلَمُ المصنف هنا، وفسّر الآية بناء علىٰ سهوه.. ولو لم يسبق القلم لقال: والله عليم: بما يلقيه الشيطان، فيحفظ وحيه، ويزيل ما تلقيه الشياطين.. والله تعالىٰ أعلم.

﴿حَكِيمٌ ۝٥٢﴾ يضع الأشياء مواضعها، فمن كمال حكمته مكَّن الشياطين من الإلقاء المذكور، ليحصل ما ذكره بقوله..

﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ﴾ لطائفتين من الناس، لا يبالي الله بهم، وهم..

﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنىٰ شبهة تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان داخلهم الريب والشك، فصار فتنة لهم..

﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها.. فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان جعلوه حجة لهم علىٰ باطلهم، وجادلوا به، وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال..

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣﴾ مشاقة لله، ومعاندة للحق، ومخالفة له، بعيد من الصواب.. **فما يلقيه الشيطان يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين**، فيظهر به ما في قلوبهم، من الخبث الكامن فيها.. **وأما الطائفة الثالثة، فإنه يكون رحمة في حقها**، وهم المذكورون بقوله..

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لأن الله منحهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين: الحق المستقر الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما علىٰ كل منهما من الشواهد.. وليعلموا أن الله حكيم، **يقيض بعض أنواع الابتلاء ليظهر بذلك كمائن النفوس** الخيرة والشريرة..

﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشُّبَه..

﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم..

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بسبب إيمانهم..

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٤﴾ [الحج:٥٢-٥٤] عَلِم بالحق، وعَمِل بمقتضاه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، **وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.**

🕮 الفوائد

هذه الآيات فيها بيان أن للرسول ﷺ أسوة بإخوانه المرسلين.. لما وقع منه عند

قراءته ﷺ ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾، فلما بلغ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم] ألقىٰ الشيطان في قراءته: (تلك الغرانيق العلىٰ، وإن شفاعتهن لترتجىٰ)، فحصل بذلك للرسول حزن، وللناس فتنة، كما ذكر الله.. فأنزل الله هذه الآيات.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج:٥٥]

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ يخبر تعالىٰ عن حالة الكفار.. وأنهم لا يزالون في شك مما جئتهم به يا محمد.. لعنادهم، وإعراضهم، وأنهم لا يبرحون مستمرين علىٰ هذه الحال..

﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ مفاجأة..

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج:٥٥] لا خير فيه، وهو يوم القيامة.. فإذا جاءتهم الساعة أو أتاهم ذلك اليوم، علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وأبلسوا وأيسوا من كل خير، وودوا لو آمنوا بالرسول واتخذوا معه سبيلًا.. ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم علىٰ مريتهم وفريتهم.

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥٧﴾ [الحج:٥٦-٥٧]

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم القيامة..

﴿لِّلَّهِ﴾ تعالىٰ، لا لغيره..

﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بحكمه العدل، وقضائه الفصل..

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسله، وما جاءوا به..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ليصدِّقوا بذلك إيمانهم..

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا يصفه الواصفون، ولا

تدركه العقول..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسله..

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الهادية للحق والصواب، فأعرضوا عنها، أو عاندوها..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾ [الحج:٥٦-٥٧] من شدته وألمه وبلوغه للأفئدة.. كما استهانوا برسله وآياته أهانهم الله بالعذاب.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩﴾ [الحج:٥٨-٥٩]

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذه بشارة كبرىٰ لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله، ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله، فهذا قد وجب أجره علىٰ الله..

﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾ سواء مات علىٰ فراشه، أو قتل مجاهدًا في سبيل الله..

﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان، والحسن والإحسان، ونعيم القلب والبدن..

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾.. **ويحتمل أن المعنىٰ: أن المهاجر في سبيل الله قد تكفل برزقه** في الدنيا، رزقًا واسعًا حسنا، سواء علم الله منه أنه **يموت علىٰ فراشه، أو يقتل شهيدًا،** فكلهم مضمون له الرزق، فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله سيفتقر ويحتاج، فإن رازقه هو خير الرازقين.. **وقد وقع كما أخبر،** فإن المهاجرين السابقين تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم، نصرةً لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيرا، حتىٰ فتح الله عليهم البلاد، ومكَّنهم من العباد، فاجتبوا من أموالها ما كانوا به من أغنىٰ الناس.. ويكون علىٰ هذا القول، قوله..

﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ﴾ إما ما **يفتحه الله عليهم من البلدان،** خصوصًا فتح مكة المشرفة، فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور.. وإما المراد به **رزق الآخرة،** وأن ذلك دخول الجنة.. فتكون الآية جمعت بين الرزقين، رزق الدنيا، ورزق الآخرة.. **واللفظ صالح لذلك كله، والمعنىٰ صحيح،** فلا مانع من إرادة الجميع..

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بالأمور، ظاهرها وباطنها، متقدِّمها ومتأخرها..

﴿حَلِيمٌ ۝٥٩﴾ [الحج:٥٨-٥٩] يعصيه الخلائق، ويبارزونه بالعظائم، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

﴿۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ [الحج:٦٠]

﴿۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ ذلك بأن من جُني عليه وظُلم، فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته، فإن فَعَل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم..

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾ فإن بُغي عليه بعد هذا..

﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ فإن الله ينصره؛ لأنه مظلوم، فلا يجوز أن يبغي عليه بسبب أنه استوفىٰ حقه، وإذا كان المجازي غيره، بإساءته إذا ظُلِم بعد ذلك، نصره الله، فالذي بالأصل لم يعاقب أحدًا، إذا ظلم وجُني عليه فالنصر إليه أقرب..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة..

﴿غَفُورٌ ۝٦٠﴾ [الحج:٦٠] ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم.. فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة.. فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم أن تعفوا وتصفحوا وتغفروا، ليعاملكم الله كما تعاملون عباده ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ:٤٠].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج:٦١-٦٢]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ذلك الذي شَرَع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة، هو حسن التصرف، في تقديره وتدبيره، الذي..

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ يُدخِل هذا علىٰ هذا، وهذا علىٰ

هذا، فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه في الآخر، ثم بالعكس.. فيترتب علىٰ ذلك قيام الفصول، ومصالح الليل والنهار، والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمه علىٰ العباد، وهي من الضروريات لهم..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف، اللغات، علىٰ تفنن الحاجات..

﴿بَصِيرٌ ٦١﴾ يرىٰ دبيب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠]..

﴿ذَٰلِكَ﴾ صاحب الحُكم والأحكام..

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت، الذي لا يزال ولا يزول.. الأول: الذي ليس قبله شيء.. الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق، ولقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق، النافعة الباقية علىٰ الدوام.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام والأنداد، من الحيوانات والجمادات..

﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الذي هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة.. لأنها متعلقة بمضمحل فان، فتبطل تبعًا لغايتها ومقصودها..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ **في ذاته**: فهو عال علىٰ جميع المخلوقات.. **وفي قدره**: فهو كامل الصفات.. **وفي قهره**: لجميع المخلوقات..

﴿ٱلْكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحج:٦١-٦٢] في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته.. **الذي من عظمته وكبريائه**: أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه.. **ومن كبريائه**: أن كرسيه وسع السماوات والأرض.. **ومن عظمته وكبريائه**: أن نواصي العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته.. **ومن كبريائه**: أن العبادات كلها الصادرة من أهل السماوات والأرض كلها، المقصود منها تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه، **ولهذا كان التكبير شعارًا للعبادات الكبار**، كالصلاة وغيرها.. **وحقيقة الكبرياء** التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج:٦٣-٦٤]

هذا حث منه تعالىٰ، وترغيب في النظر بآياته الدالات علىٰ وحدانيته، وكماله فقال..

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك..

﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو المطر، فينزل علىٰ أرض خاشعة مجدَبة، قد اغبرت أرجاؤها، ويبس ما فيها من شجر ونبات..

﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها بذلك منظر بهيج، إنَّ الذي أحياها بعد موتها وهمودها لمحيي الموتىٰ بعد أن كانوا رميمًا..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ **اللطيف**: الذي يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلىٰ عبده الخير، ويدفع عنه الشر، بطرق لطيفة تخفىٰ علىٰ العباد.. **ومن لطفه**: أنه يُري عبدُه عزته في انتقامه وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد علىٰ الهلاك.. **ومن لطفه**: أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، وبذور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلىٰ ذلك البذر، الذي خفي علىٰ عِلم الخلائق، فينبت منه أنواع النبات..

﴿خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخفايا الأمور..

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وعبيدًا، يتصرف فيهم بملكه وحكمته وكمال اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمر شيء..

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ بذاته، الذي له الغنىٰ المطلق التام من جميع الوجوه.. **ومن غناه**: أنه لا يحتاج إلىٰ أحد من خلقه، ولا يواليهم من ذِلّة، ولا يتكثر بهم من قلة.. **ومن غناه**: أنه ما اتخذ صاحبةً ولا ولدًا.. **ومن غناه**: أنه صمد، لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلىٰ ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه، فهو يُطعم ولا يَطعم.. **ومن غناه**: أن الخلق كلهم مفتقرون إليه، في إيجادهم، وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم.. **ومن غناه**: أنَّه لو اجتمع من في السماوات ومن في الأرض، الأحياء منهم والأموات، في صعيد واحد،

فسأل كلٌّ منهم ما بلغت أمنيته، فأعطاهم فوق أمانيهم، ما نقص ذلك من ملكه شيء.. **ومن غناه**: أن يده سحَّاءٌ بالخير والبركات، الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس.. **ومن غناه وكرمه**: ما أودعه في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج:٦٣-٦٤] المحمود في ذاته، **وفي أسمائه** لكونها حسنى، **وفي صفاته** لكونها كلها صفات كمال، **وفي أفعاله** لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، **وفي شرعه** لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة.. **الذي له الحمد، الذي** يملأ ما في السماوات والأرض وما بينهما وما شاء بعدها، **الذي** لا يحصي العباد ثناء على حمده، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.. **وهو المحمود** على توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله.. **وهو الغني في حمده، الحميد في غناه.**

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج:٦٥-٦٦]

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ **ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابغة، وأياديه الواسعة، و..**

﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من حيوانات، ونبات، وجمادات، فجميع ما في الأرض مسخر لبني آدم.. **حيواناتها** لركوبه وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه.. **وأشجارها** وثمارها يقتاتها، وقد سُلِّط على غرسها واستغلالها.. **ومعادنها** يستخرجها وينتفع بها..

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ وسخر لكم الفلك، وهي السفن..

﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ تحملكم، وتحمل تجاراتكم، وتوصلكم من محل إلى محل، وتستخرجون من البحر حليةً تلبسونها.. ومن رحمته بكم أنه..

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ فلولا رحمته وقدرته، سقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر:٤١]..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ أرحم بهم من والديهم ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضر.. ومن رحمته: أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أوجدكم من العدم..

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد أن أحياكم..

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ﴾ بعد موتكم، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته..

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: جنسه، إلا من عصمه الله..

﴿لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج:٦٥-٦٦] لنعم الله.. كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدرةِ ربه.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج:٦٧-٧٠]

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا﴾ يخبر تعالىٰ أنه جعل لكل أمة..

﴿مَنسَكًا﴾ معبدًا وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ﴾ [المائدة:٤٨] الآية..

﴿هُمْ نَاسِكُوهُۖ﴾ عاملون عليه بحسب أحوالهم.. فلا اعتراض على شريعة من الشرائع **خصوصًا من الأميين**، أهل الشرك والجهل المبين.. فإنه إذا ثبتت رسالة الرسول بأدلتها، وجب أن يتلقىٰ جميع ما جاء به بالقبول والتسليم، وترك الاعتراض، ولهذا قال..

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون علىٰ بعض ما جئتهم به، بعقولهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة، بقياسهم الفاسد، يقولون: (تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله) وكقولهم ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ [البقرة:٢٧٥]، ونحو ذلك من اعتراضاتهم، التي **لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها**، بل لكل مقام مقال.. فصاحب هذا الاعتراض المنكر لرسالة الرسول، **إذا زعم أنه يجادل ليسترشد**، يقال له: **الكلام معك في إثبات الرسالة** وعدمها، وإلا **فالاقتصار علىٰ هذه دليلٌ أن مقصوده التعنت** والتعجيز..

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلىٰ ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي علىٰ ذلك، سواء اعترض المعترضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء، لـ..

﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧﴾ معتدل موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به.. فأنت علىٰ ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك.. ولست علىٰ أمر مشكوك فيه أو حديث مفترىٰ، فتقف مع الناس ومع أهوائهم وآرائهم، ويوقفك اعتراضهم.. ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩].. مع أن في **قوله:** ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج:٦٧] **إرشاد لأجوبة المعترضين علىٰ جزئيات الشرع**، بالعقل الصحيح، فإن الهدىٰ وصف لكل ما جاء به الرسول، والهدىٰ: ما تحصل به الهداية، من مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعرف حسنها وعدلها وحكمتها بالعقل والفطرة السليمة، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات.. ولهذا أمره الله بالعدول عن جدالهم في هذه الحالة، فقال..

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨﴾ هو عالم بمقاصدكم ونياتكم.. فمجازيكم عليها في يوم القيامة..

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٦٩﴾ فمن وافق الصراط المستقيم فهو من أهل النعيم.. ومن زاغ عنه فهو من أهل الجحيم.. ومن تمام حكمه أن يكون حُكمًا بعلم، فلذلك ذكر إحاطة علمه، وإحاطة كتابه فقال..

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يخفىٰ عليه منها خافية، من ظواهر الأمور وبواطنها، خفيها وجليها، متقدمها ومتأخرها..

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ أن ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض قد أثبته الله في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة..

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج:٦٧-٧٠] وإن كان تصوره عندكم لا يحاط به، فالله تعالىٰ يسيرٌ عليه أن يحيط علمًا بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتابٍ مطابق للواقع.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج:٧١-٧٢]

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ﴾ يذكر تعالىٰ حالة المشركين به، العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم علىٰ ما فعلوه.. فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين.. وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو في نفس الأمر له حجة ما علمها، فأخبر هنا أن الله **لم ينزل في ذلك سلطانًا**، أي: حجة تدل عليه وتجوزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة علىٰ فساده وبطلانه.. ثم توعد **الظالمين** منهم المعاندين للحق فقال..

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم وحل.. وهل لهؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قصد في اتباع الآيات والهدىٰ إذا جاءهم؟! أم هم راضون بما هم عليه من الباطل؟! ذكر ذلك بقوله..

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ التي هي آيات الله الجليلة، المستلزمة لبيان الحق من الباطل، لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأسًا، بل..

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ من بغضها وكراهتها، ترىٰ وجوههم معبسة، وأبشارهم مكفهرة..

﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ، من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته.. فهذه الحالة من الكفار بئس الحالة، وشرها بئس الشر.. ولكن ثم ما هو شر منها، حالتهم التي يؤولون إليها، فلهذا قال..

﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾ [الحج:٧١-٧٢] فهذه شرها طويل عريض، ومكروهها وآلامها تزداد علىٰ الدوام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ [الحج:٧٣-٧٤]

هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع، فقال..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار.. المؤمنون يزدادون علما وبصيرة.. والكافرون تقوم عليهم الحجة..

﴿ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ ألقوا إليه أسماعكم، وتفهموا ما احتوىٰ عليه، ولا يصادف منكم قلوبًا لاهية، وأسماعًا معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ شمل كلَّ ما يُدعىٰ من دون الله..

﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولىٰ..

﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ بل أبلغ من ذلك..

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ وهذا غاية ما يصير من العجز..

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ الذي هو المعبود من دون الله..

﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف.. وأضعف منهما من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين، فهذا..

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ حيث **سوَّىٰ** الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، **سوَّىٰ** من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ [الحج:٧٣-٧٤] كامل القوة، كامل العزة.. **من كمال قوته وعزته:** أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.. **ومن كمال قوته:** أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا.. **ومن كمال قوته:** أنه يبعث الخلق كلَّهم -أولهم وآخرهم- بصيحة واحدة.. **ومن كمال قوته:** أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية، بشيء يسير، وسوط من عذابه.

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ [الحج:٧٥-٧٦]

لما بيَّن تعالىٰ كماله وضعف الأصنام، وأنه المعبود حقًا.. بيَّن حالة الرسل، وتميزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل فقال..

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ يختار ويجتبي من الملائكة رسلًا..

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ رسلا **يكونون أزكىٰ** ذلك النوع، **وأجمعه** لصفات المجد، **وأحقه** بالاصطفاء.. **فالرسل لا يكونون إلا** صفوة الخلق علىٰ الإطلاق..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ والذي اختارهم واصطفاهم ليس جاهلًا بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئًا دون شيء، **وإنما المصطفىٰ لهم** السميع، البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء..

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ فاختياره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام:١٢٤]..

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٧٦﴾ [الحج:٧٥-٧٦] هو يرسل الرسل يدعون الناس إلىٰ الله، فمنهم: المجيب، ومنهم: الراد لدعوتهم، ومنهم: العامل، ومنهم: الناكل، فهذا وظيفة الرسل.. وأما الجزاء علىٰ تلك الأعمال، فمصيرها إلىٰ الله، فلا تعدم منه فضلًا أو عدلًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ [الحج:٧٧-٧٨]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ يأمر تعالىٰ، عباده المؤمنين بالصلاة، وخصَّ منها الركوع والسجود؛ لفضلهما وركنيتهما.

﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ وعبادته التي هي قرة العيون، وسلوة القلب المحزون.. وأن ربوبيته وإحسانه علىٰ العباد يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة..

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ ويأمرهم بفعل الخير عمومًا.. وعلَّق تعالىٰ الفلاح علىٰ هذه الأمور فقال..

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ۝٧٧﴾ تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروه المرهوب، فلا طريق للفلاح سوىٰ الإخلاص في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبيده، فمن وفق لذلك، فله القدح المعلىٰ، من السعادة والنجاح والفلاح..

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب.. فالجهاد في الله حق جهاده هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلىٰ سبيله بكل طريق موصل إلىٰ ذلك، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ، وغير ذلك..

﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ اختاركم -يا معشر المسلمين- من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل، فقابلوا هذه المنحة العظيمة،

بالقيام بالجهاد فيه حق القيام.. ولما كان قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج:٧٨] ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما يشق، احترز منه بقوله..

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ أي: مشقة وعسر، بل يسَّره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة.. فأولًا ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس، لا يثقلها ولا يؤودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما أمر به، إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه.. ويؤخذ من هذه الآية، قاعدة شرعية، وهي أن (المشقة تجلب التيسير) و(الضرورات تبيح المحظورات)، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية شيء كثير معروف في كتب الأحكام..

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ هذه الملة المذكورة، والأوامر المزبورة، ملة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها، فالزموها واستمسكوا بها..

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ في الكتب السابقة، مذكورون ومشهورون..

﴿وَفِي هَٰذَا﴾ هذا الكتاب، وهذا الشرع.. أي: ما زال هذا الاسم لكم قديمًا وحديثًا..

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ بأعمالكم خيرها وشرها..

﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ لكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمةً وسطًا عدلًا خيارًا، تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه..

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها وحدودها، وجميع لوازمها..

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة لمستحقيها شكرًا لله على ما أولاكم..

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك، ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم..

﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ الذي يتولى أموركم، فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره..

﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ نعم المولى لمن تولاه، فحصل له مطلوبه..

﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ [الحج:٧٧-٧٨] لمن استنصره فدفع عنه المكروه.

تم تفسير سورة (الحج)، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المؤمنون، وهي مكية

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ
ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦
فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون:١-١١]

هذا تنويه من الله بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأيِّ شيء وصلوا إلىٰ ذلك..

وفي ضمن ذلك: الحث علىٰ الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها..

فليزن العبد نفسه وغيره علىٰ هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيادةً ونقصًا، كثرةً وقلةً، فقوله..

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كل ما يرام المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين..

﴿ٱلَّذِينَ﴾ من صفاتهم الكاملة أنَّـ..

﴿هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ والخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالىٰ، مستحضرًا لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدبًا بين يدي ربه، مستحضرًا جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلىٰ آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة والمقصود منها.. وهو الذي

يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثابًا عليها، فإنَّ الثواب علىٰ حسب ما يعقل القلب منها..

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة..

﴿مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ رغبة عنه، وتنزيهًا لأنفسهم، وترفعًا عنه ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان:٧٢].. وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولىٰ وأحرىٰ.. وإذا ملك العبدُ لسانه وخزَّنه -إلا في الخير- كان مالكًا لأمره، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلىٰ يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «كف عليك هذا»[1].. فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات..

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ مؤدون لزكاة أموالهم، علىٰ اختلاف أجناس الأموال.. مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها.. فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلىٰ خلقه بأداء الزكاة..

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ عن الزنا، **ومن تمام حفظها** تجنب ما يدعو إلىٰ ذلك، كالنظر واللمس ونحوهما.. فحفظوا فروجهم من كل أحد..

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ من الإماء المملوكات.. ويدل قوله ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ [المؤمنون:٦] أنه **يشترط في حل المملوكة أن تكون كلها في ملكه**، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان..

﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ بقربهما، لأن الله تعالىٰ أحلهما..

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ غير الزوجة والسرية..

---

(١) أخرجه الترمذي في [جامعه/ ٢٦١٦- بشار] وغيره من حديث معاذ بن جبل، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.اهـ

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلىٰ ما حرمه، المتجرئون علىٰ محارم الله.. وعموم هذه الآية يدل علىٰ **تحريم نكاح المتعة**، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصودًا بقاؤها، ولا مملوكة، **وتحريم نكاح المحلل** لذلك..

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾ مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون علىٰ القيام بها وتنفيذها.. وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ [الأحزاب:٧٢] فجميع ما أوجبه الله علىٰ عبده أمانة، علىٰ العبد حفظها بالقيام التام بها.. **وكذلك يدخل في ذلك** أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلىٰ العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨].. وكذلك العهد، **يشمل** العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود، التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها..

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها.. فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها؛ لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم علىٰ الصلاة من غير خشوع، أو علىٰ الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات..

﴿هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ الذي هو أعلىٰ الجنة ووسطها وأفضلها؛ لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها.. **أو المراد بذلك** جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين علىٰ درجاتهم ومراتبهم، كل بحسب حاله..

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون:١-١١] لا يظعنون عنها، ولا يبغون عنها حولًا، لاشتمالها علىٰ أكمل النعيم وأفضله وأتمه من غير مكدر ولا منغص.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا

﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦﴾ [المؤمنون:١٢-١٦]

ذكر الله في هذه الآيات أطوار الآدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلىٰ آخر ما يصير إليه..

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ فذكر ابتداء خلق أبِ النوع البشري آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وأنه..

﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢﴾ قد سُلَّت، وأُخِذت من جميع الأرض.. ولذلك جاء بنوه علىٰ قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك..

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي: جنس الآدميين..

﴿نُطۡفَةٗ﴾ تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر..

﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣﴾ وهو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك..

﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ﴾ التي قد استقرت قبل..

﴿عَلَقَةٗ﴾ دمًا أحمر، بعد مضي أربعين يومًا من النطفة..

﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ﴾ بعد أربعين يومًا..

﴿مُضۡغَةٗ﴾ قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمضغ من صغرها..

﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ﴾ اللينة..

﴿عِظَٰمٗا﴾ صلبة، قد تخللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها..

﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾ جعلنا اللحم كسوة للعظام، كما جعلنا العظام عمادًا للحم، وذلك في الأربعين الثالثة..

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جمادًا، إلىٰ أن صار حيوانًا..

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ تعالىٰ وتعاظم وكثر خيره..

﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ [السجدة: ٧- ٩] فَخَلْقُهُ كله حسن.. والإنسان من أحسن

مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها..

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الخلق، ونفخ الروح..

﴿لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ في أحد أطواركم وتنقلاتكم..

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون:١٢-١٦] فتجازون بأعمالكم حسَنِها وسَيئِها، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة:٣٦-٤٠].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون:١٧]

لما ذكر تعالى خلق الآدمي، ذكر سَكَنه، وتوفرَ النعم عليه من كل وجه فقال..

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ سقفًا للبلاد، ومصلحة للعباد..

﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ سبع سماوات طباقًا، كل طبقة فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع..

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون:١٧] فكما أنَّ خَلقَنا عام لكل مخلوق، فعِلمُنا أيضًا محيط بما خَلقنَا، فلا نغفل مخلوقًا ولا ننساه، ولا نخلق خلقًا فنضيعه.. ولا نغفل عن السماء فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في لجج البحار وجوانب الفلوات، ولا دابة إلا سقنا إليها رزقها ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦].

🕮 الفوائد

كثيرًا ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه كقوله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١] لأن خلق المخلوقات من أقوى الأدلة العقلية، على علم خالقها وحكمته.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون:١٨-٢٠]

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ يكون رزقًا لكم ولأنعامكم..

﴿بِقَدَرٍ﴾ بقدر ما يكفيكم.. فلا ينقصه بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود.. ولا يزيده زيادة لا تحتمل، بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش معه النباتات والأشجار.. بل أنزله وقت الحاجة لنزوله ثم صرفه عند التضرر من دوامه..

﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرة منزله جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضًا معدًا في خزائن الأرض، بحيث لم يذهب نازلًا حتىٰ لا يوصل إليه، ولا يبلغ قعره..

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ إما بأن لا ننزله، أو ننزله فيذهب نازلًا لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه.. وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه علىٰ نعمته، ويقدِّروا عَدَمها، ماذا يحصل به من الضرر، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك:٣٠]..

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ بذلك الماء..

﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين..

﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ خص تعالىٰ هذين النوعين، مع أنه ينشئ منه غيرهما من الأشجار، لفضلهما ومنافعهما، التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله..

﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ في تلك الجنات..

﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ من تين، وأترج، ورمان، وتفاح وغيرها..

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ وهي شجرة الزيتون، أي: جنسها.. خصت بالذكر، لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها، التي ذكر بعضها في..

﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ فيها الزيت، الذي هو دهن، يستعمل استعماله من الاستصباح به..

﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠﴾ [المؤمنون:١٨-٢٠] واصطباغ الآكلين، أي: يجعل إداما للآكلين، وغير ذلك من المنافع.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾ [المؤمنون:٢١-٢٢]

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم الأنعام، الإبل والبقر والغنم، فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمنتفعين..

﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من لبن، يخرج من بين فرث ودم، خالص سائغ للشاربين..

﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم..

﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾ أفضل المآكل من لحم وشحم..

﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾ [المؤمنون:٢١-٢٢] جعلها سفنًا لكم في البر، تحملون عليها أثقالكم إلىٰ بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم، وتحمل متاعكم، قليلا كان أو كثيرًا.. فالذي أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع الإحسان، وأدرَّ علينا من خيره المدرار، هو الذي يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه علىٰ معاصيه.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ

عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون:٢٣-٣٠]

يذكر تعالىٰ رسالة عبده ورسوله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أوّل رسولٍ أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلىٰ قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده، فقال..

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أخلصوا له العبادة، لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها...

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فيه إبطال ألوهية غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالىٰ.. لأنه الخالق الرازق، الذي له الكمال كله، وغيره بخلاف ذلك..

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام، التي صُوِّرت علىٰ صور قوم صالحين، فعبدوها مع الله.. فاستمر علىٰ ذلك، يدعوهم سرًا وجهارًا، وليلًا ونهارًا، ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهم لا يزدادون إلا عتوًا ونفورًا..

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ الأشراف والسادة المتبوعون، علىٰ وجه المعارضة لنبيهم نوح، والتحذير من اتباعه..

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ قصده حين ادعىٰ النبوة أن يزيد عليكم فضيلة، ليكون متبوعًا.. وإلا فما الذي يفضله عليكم، وهو من جنسكم؟!.. وهذه المعارضة لا زالت موجودة في مكذبي الرسل.. وقد أجاب الله عنها بجواب شاف علىٰ ألسنة رسله كما في قوله ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: لرسلهم﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١٠- ١١]، فأخبروا أن هذا فضل الله ومنته، فليس لكم أن تحجروا علىٰ الله وتمنعوه من إيصال فضله علينا.. وقالوا هنا..

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ وهذه أيضا معارضة بالمشيئة باطلة، فإنه وإن كان لو شاء لأنزل ملائكة فإنه حكيم رحيم، حكمته ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس الآدميين، لأن المَلَك لا قدرة لهم علىٰ مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل، ثم

يعود اللَبس عليهم كما كان.. وقولهم..

﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ بإرسال الرسول..

﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ وأي حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آبائهم الأولين؟! لأنهم لم يحيطوا علمًا بما تقدَّم، فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم، وعلىٰ تقدير أنه لم يرسل فيهم رسولًا، **فإما أن يكونوا علىٰ الهدىٰ**، فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، **وإما أن يكونوا علىٰ غيره** فليحمدوا ربهم ويشكروه أن خصهم بنعمة لم تأت آباءهم ولا شعروا بها ولا يجعلوا عدم الإحسان علىٰ غيرهم سببًا لكفرهم للإحسان إليهم..

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ أي: مجنون..

﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾ أي: انتظروا به..

﴿حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾ إلىٰ أن يأتيه الموت.. **وهذه الشبه التي أوردوها** معارضة لنبوة نبيهم، **دالة علىٰ شدة كفرهم** وعنادهم، **وعلىٰ أنهم في غاية الجهل** والضلال، فإنها لا تصلح للمعارضة بوجه من الوجوه كما ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة متعارضة.. فقوله ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المؤمنون:٢٤] أثبتوا أن له عقلًا يكيدهم به ليعلوهم ويسودهم ويحتاج -مع هذا- أن يُحذَّر منه لئلا يغتر به، فكيف يلتئم مع قولهم ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ [المؤمنون:٢٥]؟! وهل هذا إلا من مشبه ضال، منقلب عليه الأمر، قصده الدفع بأي طريق اتفق له، غير عالم بما يقول.. ويأبىٰ الله إلا أن يظهر خزي من عاداه وعادىٰ رسله، فلما رأىٰ نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فرارًا..

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦﴾ فاستنصر ربه عليهم غضبًا لله، حيث ضيَّعوا أمره وكذبوا رسوله ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧﴾ [نوح:٢٦-٢٧]، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ [الصافات:٧٥]..

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ عند استجابتنا له، سببًا ووسيلة للنجاة، قبل وقوع أسبابه..

﴿أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفينة..

﴿بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ بأمرنا لك ومعونتنا.. وأنت في حفظنا وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك..

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بإرسال الطوفان الذي عذبوا به..

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فارت الأرض، وتفجرت عيونًا، حتىٰ محل النار، الذي لم تجر العادة إلا ببعده عن الماء..

﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أدخل في الفلك من كل جنس من الحيوانات، ذكرًا وأنثىٰ، تبقىٰ مادة النسل لسائر الحيوانات، التي اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في الأرض..

﴿وَأَهۡلَكَ﴾ أدخلهم..

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾ كابنه..

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ لا تدعُني أن أنجيهم..

﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧﴾ فإن القضاء والقدر، قد حتم أنهم مغرقون..

﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ علوتم عليها، واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم.. فاحمدوا الله علىٰ النجاة والسلامة..

﴿فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨﴾ وهذا تعليم منه له ولمن معه، أن يقولوا هذا شكرًا له وحمدًا علىٰ نجاتهم من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم..

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ وبقيت عليكم نعمة أخرىٰ، فادعوا الله فيها، وهي أن ييسر الله لكم منزلًا مباركًا.. فاستجاب الله دعاءه، قال الله: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود:٤٤] إلىٰ أن قال: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود:٤٨] الآية..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في هذه القصة..

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ **تدل**: علىٰ أن الله وحده المعبود.. وعلىٰ أن رسوله نوحًا صادق، وأن قومه كاذبون.. وعلىٰ رحمة الله بعباده، حيث حملهم في صلب أبيهم نوح، في الفلك لما غرق أهل الأرض.. والفلك أيضا من آيات الله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:١٥].. ولهذا **جمعها هنا لأنها تدل علىٰ عدة آيات** ومطالب...

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ٣٠﴾ [المؤمنون:٢٣-٣٠]..

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون:٣١-٤١]

لما ذكر نوحا وقومه، وكيف أهلكهم قال..

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ الظاهر أنهم (ثمود) قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأن هذه القصة تشبه قصتهم..

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه وصدقه، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم إذا كان منهم، وأبعد عن اشمئزازهم، فدعا إلىٰ ما دعت إليه الرسل أممهم..

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فكلهم اتفقوا علىٰ هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أممهم، الأمر بعبادة الله، والإخبار أنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطلان ذلك وفساده، ولهذا قال..

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ربكم، فتجتنبوا هذه الأوثان والأصنام..

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة، وأطغاهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لنبيهم، وتكذيبًا وتحذيرًا منه..

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ من جنسكم..

﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فما الذي يُفَضِّلُه عليكم؟! فهلا كان مَلَكًا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب..

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيسًا وهو مثلكم..

﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ إنكم لمسلوبو العقل، نادمون علىٰ ما فعلتم.. وهذا من العجب! فإن الخسارة والندامة حقيقة لمن لم يتابعه ولم يَنقد له، والجهل والسفه العظيم لمن تكبر عن الانقياد لبشر خصه الله بوحيه، وفضله برسالته، وابتلي بعبادة الشجر والحجر.. وهذا نظير قولهم: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر: ٢٤- ٢٥].. فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة علىٰ الأعمال فقالوا..

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾..

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ بعيد بعيد ما يعدكم به من البعث بعد أن تمزقتم وكنتم ترابًا وعظامًا.. فنظروا نظرًا قاصرًا، ورأوا هذا بالنسبة إلىٰ قَدرِهم غير ممكن، فقاسوا قدرة الخالق بقَدرِهم، تعالىٰ الله.. فأنكروا قدرته علىٰ إحياء الموتىٰ، وعجزوه غاية التعجيز، ونسوا خلقهم أوَّل مرة، وأنَّ الذي أنشأهم من العدم فإعادته لهم بعد البلىٰ أهون عليه، وكلاهما هين لديه.. فَلِمَ لا ينكرون أوَّل خلقهم ويكابرون المحسوسات ويقولون: إننا لم نزل موجودين، حتىٰ يسلم لهم إنكارهم للبعث، وينتقلوا معهم إلىٰ الاحتجاج علىٰ إثبات وجود الخالق العظيم؟ **وهنا دليل آخر وهو**: أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتىٰ إنه علىٰ كل شيء قدير.. **وثَمَّ دليل آخر وهو**: ما أجاب به المنكرين للبعث في قوله ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: ٢-٣]، فقال في جوابهم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق:٤]، أي في البَلىٰ ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق:٤]..

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت أناس ويحيا أناس..

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾..

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ٣٨﴾ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾[1] فلهذا أتىٰ بما أتىٰ به من توحيد الله وإثبات المعاد.. ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أي ارفعوا عنه العقوبة بالقتل وغيره احترامًا له، ولأنه مجنون غير مؤاخذ بما يتكلم به، أي: فلم يبق -بزعمهم الباطل- مجادلة معه لصحة ما جاء به، فإنهم قد زعموا بطلانه، وإنما بقي الكلام هل يوقعون به أم لا؟ فبزعمهم أن عقولهم الرزينة اقتضت الإبقاء عليه وترك الإيقاع به مع قيام الموجب.. فهل فوق هذا العناد والكفر غاية؟! ولهذا لما اشتد كفرهم ولم ينفع فيهم الإنذار دعا عليهم نبيهم فـ..

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٣٩﴾ أي بإهلاكهم وخزيهم الدنيوي قبل الآخرة..

﴿قَالَ﴾ اللهُ مجيبًا لدعوته..

﴿عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ٤٠﴾..

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ﴾ لا بالظلم والجور، بل بالعدل، وظلمهم أخذتهم الصيحة فأهلكتهم عن آخرهم..

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ﴾ هشيمًا يبسًا بمنزلة غثاء السيل الملقىٰ في جنبات الوادي.. وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]..

﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ [المؤمنون:٣١-٤١] أي: أُتبعوا مع عذابهم البعد واللعنة والذم من العالمين ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان:٢٩].

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ٤٢﴾ [المؤمنون:٤٢]

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين..

﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ ٤٢﴾ [المؤمنون:٤٢]..

---

(١) كتب الشيخ هذه الآية فقال: (إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتىٰ حين) وهذا سبق قلم منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسيفسرها فيما يلي علىٰ نحو مما أثبت، وقد تركت تفسيره للآيات كما هو.اهـ من هامش المطبوع الأصل.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون:٣٤-٤٤]

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ **كل أمة في وقت مسمىٰ، وأجل محدود، لا تتقدم عنه ولا تتأخر..**

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ **وأرسلنا إليهم رسلًا متتابعة، لعلهم يؤمنون وينيبون، فلم يزل الكفر والتكذيب دأب الأمم العصاة، والكفرة البغاة..**

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ **مع أنَّ كلَّ رسول يأتي من الآيات ما يؤمن علىٰ مثله البشر، بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم يدلُّ علىٰ حقية ما جاءوا به..**

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ **بالهلاك، فلم يبق منهم باقية، وتعطلت مساكنهم من بعدهم..**

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ **يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين، ونكالًا للمكذبين، وخزيًا عليهم مقرونًا بعذابهم..**

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون:٣٤-٤٤] **ما أشقاهم!! وتعسا لهم!! ما أخسر صفقتهم!!**

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٩]

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ **بن عمران كليم الرحمن..**

﴿وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ **حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله..**

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ **الدالة علىٰ صدقهما وصحة ما جاءا به..**

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ **حجة بينة، من قوتها أن تقهر القلوب وتتسلط عليها لقوتها، فتنقاد لها قلوب المؤمنين، وتقوم الحجة البينة علىٰ المعاندين وهذا كقوله** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ

ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾، ولهذا: رئيس المعاندين عرف الحق وعاند ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾ أي بتلك الآيات البينات ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾ [الإسراء:١٠١] فـ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال تعالىٰ ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل:١٤] وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ [المؤمنون:٤٥].

﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ كـ(هامان) وغيره من رؤسائهم..

﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ تكبَّروا عن الإيمان بالله، واستكبروا علىٰ أنبيائه..

﴿وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ٤٦﴾ وَصفهُم العلو والقهر والفساد في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكثر منهم..

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ كِبرًا وتيهًا وتحذيرًا لضعفاء العقول وتمويهًا..

﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ كما قاله من قبلهم سواء بسواء، تشابهت قلوبهم في الكفر فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا مِنَّةَ الله عليهما بالرسالة..

﴿وَقَوۡمُهُمَا﴾ أي: بنو إسرائيل..

﴿لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧﴾ مُعبَّدون بالأعمال والأشغال الشاقة، كما قال تعالىٰ ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ [البقرة:٤٩].. فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟ وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟.. ونظير قولهم قول قوم نوح ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء]، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود:٢٧].. من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق وأنه تكذيب ومعاندة، ولهذا قال..

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ٤٨﴾ في الغرق في البحر.. وبنو إسرائيل ينظرون..

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بعد ما أهلك اللهُ فرعون، وخلَّص الشعب الإسرائيلي مع موسىٰ، وتمكَّن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه، قال الله تعالىٰ ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٤٥] ولهذا قال هنا..

﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٤٩﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٩] أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

📖 الفـوائـد

مر عليَّ منذ زمان طويل كلامٌ لبعض العلماء لا يحضرني الآن اسمه، وهو أنه **بعد بعث موسىٰ ونزول التوراة، رفع الله العذاب عن الأمم، أي: عذاب الاستئصال**، وشرع للمكذبين[1] المعاندين الجهاد.. ولم أدر من أين أخذه؟

فلما تدبرت هذه الآيات، مع الآيات التي في سورة القصص، تبين لي وجهه..

أما هذه الآيات: فلأن الله ذكر الأمم المهلَكة المتابعة علىٰ الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسىٰ بعدهم، وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس.. ولا يرد علىٰ هذا إهلاك فرعون؛ فإنَّه قبل نزول التوراة..

وأما الآيات التي في سورة القصص: فهي صريحة جدًا، فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٤٣]، فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس وهدىٰ ورحمة.

ولعل من هذا ما ذَكَر اللهُ في سورة (يونس) من قولة: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [يونس: ٧٤] أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٧٤ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [يونس: ٧٤- ٧٥] **الآيات والله أعلم.**

﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ
إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ۝٥٠﴾ [المؤمنون:٥٠]

﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ وامتننا علىٰ عيسىٰ ابن مريم، وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة، حيث حملته وولدته من غير أب، وتكلم في المهد صبيًا، وأجرىٰ الله علىٰ يديه من

---

(١) يعني: لعقوبة المكذبين.

الآيات ما أجرى..

﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾ مكان مرتفع، وهذا -والله أعلم- وقت وضعها..

﴿ذَاتِ قَرَارٖ﴾ مستقر وراحة..

﴿وَمَعِينٖ ۝٥٠﴾ [المؤمنون:٥٠] أي: ماء جار، بدليل قوله: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ﴾ [مريم:٢٤] أي: تحت المكان الذي أنت فيه، لارتفاعه ﴿سَرِيّٗا﴾ أي: نهرًا، وهو المعين.. ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ [مريم:٢٥-٢٦]..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون:٥١-٥٦]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هذا أمر مِنه تعالىٰ لرسله بأكل الطيبات، التي هي الرزق الطيب الحلال..

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ وشكر الله بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن، والدنيا والآخرة..

﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١﴾ ويخبرهم أنه بما يعملون عليم.. فكل عمل عملوه وكل سعي اكتسبوه فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله.. ولهذا قال تعالىٰ للرسل..

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ﴾ جماعتكم -يا معشر الرسل- جماعة..

﴿وَٰحِدَةٗ﴾ متفقة علىٰ دين واحد..

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ وربكم واحد..

﴿فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ بامتثال أوامري، واجتناب زواجري.. وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، لأنهم بهم يقتدون، وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢].. فالواجب من كل

المنتسبين إلىٰ الأنبياء وغيرهم أن يمتثلوا هذا، ويعملوا به.. ولكن أبىٰ الظالمون المفترقون إلا عصيانًا، ولهذا قال..

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ تقطع المنتسبون إلىٰ اتباع الأنبياء..

﴿أَمْرَهُم﴾ أي: دينهم..

﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًاۖ﴾ قطعًا..

﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عندهم من العلم والدين..

﴿فَرِحُونَ ٥٣﴾ يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم علىٰ غير الحق، مع أن المحق منهم من كان علىٰ طريق الرسل من أكل الطيبات والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون..

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم المحقون..

﴿حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾ إلىٰ أن ينزل العذاب بهم، فإنهم لا ينفع فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر، وكيف يفيد من يزعم أنه علىٰ الحق، ويطمع في دعوة غيره إلىٰ ما هو عليه؟!

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ٥٥﴾ أيظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليل علىٰ أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟! وهذا مقدم لهم، ليس الأمر كذلك..

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾..

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون:٥١-٥٦] أنما نملي لهم ونمهلهم ونمدهم بالنعم ليزدادوا إثمًا، وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤].

🕮 الفوائد

دل هذا علىٰ: أن الرسل كلهم متفقون علىٰ **إباحة الطيبات** من المآكل، **وتحريم الخبائث** منها، وأنهم **متفقون علىٰ كل عمل صالح** وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات، واختلفت بها الشرائع، فإنها كلها عمل صالح، ولكن تتفاوت بتفاوت الأزمنة.

ولهذا: **الأعمال الصالحة التي هي صلاح في جميع الأزمنة، قد اتفقت عليها الأنبياء**

والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدين له، ومحبته، وخوفه، ورجائه، والبر، والصدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلىٰ الضعفاء والمساكين واليتامىٰ، والحنو والإحسان إلىٰ الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة..

ولهذا: كان **أهل العلم والكتب السابقة والعقل، حين بعث الله محمدا ﷺ، يستدلون علىٰ نبوته بأجناس ما يأمر به وينهىٰ عنه**، كما جرىٰ لهرقل وغيره، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء الذين من قبله، ونهىٰ عما نهوا عنه، دل علىٰ أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب، فلا بد أن يأمر بالشر، وينهىٰ عن الخير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون:٥٧-٥٩]

لما ذكر تعالىٰ الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل علىٰ خيرهم وفضلهم.. ذكر **الذين جمعوا بين الإحسان والخوف**، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ **وجلون، مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم**: خوفًا أن يضع عليهم عدله، فلا يبقىٰ لهم حسنة.. وسوء ظن بأنفسهم، أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالىٰ.. وخوفًا علىٰ إيمانهم من الزوال.. ومعرفةً منهم بربهم وما يستحقه من الإجلال والإكرام.. وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوِّف من الذنوب، والتقصير في الواجبات..

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾ **إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا.. ويتفكرون أيضًا في الآيات القرآنية ويتدبرونها**، فيَبِينُ لهم من معاني القرآن وجلالته واتفاقه، وعدم اختلافه وتناقضه، وما يدعو إليه من معرفة الله وخوفه ورجائه، وأحوال الجزاء، فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان، ما لا يعبر عنه اللسان.. **ويتفكرون أيضا في الآيات الأفقية**، كما في قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠] إلىٰ آخر الآيات..

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون:٥٧-٥٩] **لا شركًا جليًا، كاتخاذ غير الله**

معبودًا، يدعوه ويرجوه.. ولا شركًا خفيًا، كالرياء ونحوه.. بل هم مخلصون لله، في أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون:٦٠-٦٢]

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾ يعطون من أنفسهم مما أمروا به..

﴿مَآ ءَاتَوا۟﴾ من كل ما يقدرون عليه، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك..

﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ ومع هذا ﴿قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة..

﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله، لعلمهم بربهم، وما يستحقه من أصناف العبادات..

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ في ميدان التسارع في أفعال الخير، همهم ما يقربهم إلىٰ الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه.. فكل خير سمعوا به أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه.. قد نظروا إلىٰ أولياء الله وأصفيائه أمامهم ويمنة ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفىٰ عند ربهم، فنافسوهم.. ولمَّا كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالىٰ أن هؤلاء من القسم السابقين فقال..

﴿وَهُمْ لَهَا﴾ للخيرات..

﴿سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول.. ومع هذا قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون.. ولما ذكر مسارعتهم إلىٰ الخيرات وسبقهم إليها، ربما وهم واهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر، أخبر تعالىٰ..

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ أي: بقدر ما تسعه ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها، رحمة منه وحكمة، لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادة السالكين في كل وقت إليه..

﴿وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو الكتاب الأول، الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع

يكون، فلذلك كان حقًا..

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٢﴾ [المؤمنون:٦٠-٦٢] لا ينقص من إحسانهم، ولا يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١﴾ [المؤمنون:٦٣-٧١]

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يخبر تعالىٰ أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم، والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلىٰ هذا القرآن، فلا يهتدون به، ولا يصل إلىٰ قلوبهم منه شيء ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ [الإسراء:٤٥-٤٦].. فلما كانت قلوبهم في غمرة منه عملوا بحسب هذا الحال من الأعمال الكفرية والمعاندة للشرع ما هو موجب لعقابهم..

﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ ولكن ﴿لَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ هذه الأعمال..

﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣﴾ فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم؛ فإنَّ الله يمهلهم ليعملوا هذه الأعمال التي بقيت عليهم مما كتب عليهم، فإذا عملوها واستوفوها انتقلوا بشر حالة إلىٰ غضب الله وعقابه..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ أي: متنعميهم الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تحصل لهم المكاره.. فإذا أخذناهم..

﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾ ووجدوا مسَّه..

﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤﴾ يصرخون ويتوجعون؛ لأنه أصابهم أمرٌ خالف ما هم عليه، ويستغيثون فيقال لهم..

﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٥﴾ وإذا لم تأتهم النصرة من الله وانقطع عنهم الغوث من جانبه لم يستطيعوا نصر أنفسهم ولم ينصرهم أحد.. فكأنه قيل: ما السبب الذي أوصلهم إلىٰ هذا الحال؟ قال..

﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ لتؤمنوا بها، وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك، بل..

﴿فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦﴾ راجعين القهقرىٰ إلىٰ الخلف؛ وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون، وبالإعراض عنه يستأخرون، وينزلون إلىٰ أسفل سافلين..

﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ﴾ قال المفسرون: معناه مستكبرين به، الضمير يعود إلىٰ البيت المعهود عند المخاطبين، أو الحرم، أي: متكبرين علىٰ الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا وأعلىٰ..

﴿سَٰمِرًا﴾ جماعة يتحدثون بالليل حول البيت..

﴿تَهۡجُرُونَ ٦٧﴾ تقولون الكلام الهجر، الذي هو القبيح، في هذا القرآن، فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن الإعراض عنه، ويوصي بعضهم بعضا بذلك ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، وقال الله عنهم ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ٦١﴾ [النجم]، ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ﴾ [الطور].. فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل، لا جرم حقت عليهم العقوبة.. ولمَّا وقعوا فيها لم يكن لهم ناصر ينصرهم، ولا مغيث ينقذهم، ويوبخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة..

﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ أفلا يتفكرن في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه، أي: فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه.. ودل هذا علىٰ أن تدبر القرآن يدعو إلىٰ كل خير ويعصم من كل شر.. والذي منعهم من تدبره أن علىٰ قلوبهم أقفالها..

﴿أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾ أو منعهم من الإيمان أنه جاءهم رسول

وكتاب ما جاء آباءهم الأولين، فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك.. ولهذا قالوا هم ومن أشبههم من الكفار ما أخبر الله عنهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣] فأجابهم بقوله: ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ [الزخرف:٢٤] فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق؟ فأجابوا بحقيقة أمرهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾ [الزخرف:٢٤]..

﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٦٩﴾ **أو منعهم من اتباع الحق أن رسولهم محمدا ﷺ غير معروف عندهم، فهم منكرون له؟ يقولون لا نعرفه ولا نعرف صدقه، دعونا حتىٰ** نتظر حاله، ونسأل عنه من له به خبرة.. أي: لم يكن الأمر كذلك، فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته، حتىٰ كانوا يسمونه قبل البعثة (الأمين).. فلِمَ لا يصدقونه حين جاءهم بالحق العظيم والصدق المبين؟!

﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ﴾ أي: جنون فلهذا قال ما قال، والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة بكلامه؛ لأنه يهذي بالباطل والكلام السخيف.. قال الله في الرد عليهم في هذه المقالة..

﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ بالأمر الثابت الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه ولا تناقض، فكيف يكون من جاء به به جنة؟! وهلا يكون إلا في أعلىٰ درج الكمال من العلم والعقل ومكارم الأخلاق.. وأيضًا: فإن في هذا الانتقال مما تقدَّم، أي: بل الحقيقة التي منعتهم من الإيمان أنه جاءهم بالحق..

﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠﴾ وأعظم الحق الذي جاءهم به إخلاص العبادة لله وحده وترك ما يعبد من دون الله.. وقد علم كراهتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه، فكون الرسول أتىٰ بالحق **وكونهم كارهين للحق بالأصل هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق،** لا شكًا ولا تكذيبًا للرسول كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].. فإن قيل: لِمَ لَم يكن الحق موافقًا لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا ويسرعوا الانقياد؟ أجاب تعالىٰ بقوله..

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض؛ لفساد التصرف والتدبير المبني علىٰ الظلم وعدم العدل، فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل..

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بهذا القرآن، المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم حين يقومون به، ويكونون به سادة الناس..

﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون:٦٣-٧١] شقاوة منهم وعدم توفيق، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] نسوا الله فأنساهم أنفسهم.. فالقرآن ومن جاء به أعظم نعمة ساقها الله إليهم.. فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض.. فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟! وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران؟!

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [المؤمنون:٧٢]

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أو منعهم من اتباعك يا محمد أنك تسألهم علىٰ الإجابة أجرًا ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور:٤٠]، يتكلفون من اتباعك بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك..

﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [المؤمنون:٧٢] وهذا كما قال الأنبياء لأممهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، أي: ليسوا يدعون الخلق طمعًا فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعون نصحًا لهم، وتحصيلًا لمصالحهم، بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم.. فجزاهم الله عن أممهم خير الجزاء، ورزقنا الاقتداء بهم في جميع الأحوال.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون:٧٣-٧٤]

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ذكر الله تعالىٰ في

هذه الآيات الكريمات: كل سبب موجب للإيمان.. وذكر الموانع.. وبين فسادها واحدًا بعد واحد.. **فذكر من الموانع:** أن قلوبهم في غمرة، وأنهم لم يدبروا القول، وأنهم اقتدوا بآبائهم، وأنهم قالوا برسولهم جنة، كما تقدم الكلام عليها..

وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم: تدبر القرآن، وتلقي نعمة الله بالقبول، ومعرفة حال الرسول محمد ﷺ، وكمال صدقه وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجرا، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم، وأن الذي يدعوهم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود، من قرب حنيفية سمحة، **حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل**..

فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم موجب لمن يريد الحق أن يتبعك؛ لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه، وموافقته للمصالح، فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟! فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك، لأنهم..

﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون:٧٣-٧٤] متجنبون منحرفون، عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات.. وهكذا كل من خالف الحق، لا بد أن يكون منحرفًا في جميع أموره، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص:٥٠].

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون:٧٥-٧٧]

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟﴾ هذا بيان لشدة تمردهم وعنادهم.. وأنهم إذا أصابهم الضر دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه، إن الله إذا كشف الضر عنهم لجوا، أي: استمروا..

﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يجولون في كفرهم، حائرين مترددين.. كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك، وأنهم يدعون مخلصين له الدين، وينسون ما يشركون به، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بالشرك وغيره..

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ قال المفسرون: المراد بذلك: الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم بذلك، ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد..

﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ أي: خضعوا وذلوا..

﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ إليه ويفتقرون، بل مر عليهم ذلك ثم زال، كأنه لم يصبهم، لم يزالوا في غيهم وكفرهم.. ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، وهو قوله..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كالقتل يوم بدر وغيره..

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون:٧٥-٧٧] آيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه.. فليحذروا قبل نزول **عذاب الله الشديد** الذي لا يرد، **بخلاف مجرد العذاب**، فإنه ربما أقلع عنهم، كالعقوبات الدنيوية التي يؤدب الله بها عباده، قال تعالىٰ فيها: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون:٧٨-٨٠]

يخبر تعالىٰ بمننه علىٰ عباده الداعية لهم إلىٰ شكره، والقيام بحقه فقال..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتدركوا به المسموعات، فتنتفعوا في دينكم ودنياكم..

﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتدركوا بها المبصرات، فتنتفعوا بها في مصالحكم..

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: العقول التي تدركون بها الأشياء، وتتميزون بها عن البهائم.. فلو عدمتم السمع والأبصار والعقول، بأن كنتم صمًا عميًا بكمًا ماذا تكون حالكم؟! وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم؟! أفلا تشكرون الذي منَّ عليكم بهذه النعم، فتقومون بتوحيده وطاعته؟!

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ولكنكم قليل شكركم، مع توالي النعم عليكم..

﴿وَهُوَ﴾ تعالىٰ..

﴿ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بثَّكم في أقطارها وجهاتها، وسلطكم علىٰ استخراج مصالحها ومنافعها، وجعلها كافية لمعايشكم ومساكنكم..

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩﴾ بعد موتكم، فيجازيكم بما عملتم في الأرض من خير وشر.. وتُحَدِّثُ الأرض التي كنتم فيها بأخبارها..

﴿وَهُوَ﴾ تعالىٰ وحده..

﴿ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ المتصرف في الحياة والموت، هو الله وحده..

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما وتناوبهما، فلو شاء أن يجعل النهار سرمدًا، مَن إله غير الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه؟! ولو شاء أن يجعل الليل سرمدًا، مَن إله غير الله يأتيكم بضياء؟! أفلا تبصرون؟! ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣].. ولهذا قال هنا..

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠﴾ [المؤمنون:٧٨-٨٠] فتعرفون أنَّ الذي وهب لكم من النعم السمع والأبصار والأفئدة، والذي نشركم في الأرض وحده، والذي يحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده، أن ذلك موجب لكم أن تخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه.. فلو كان لكم عقل لم تفعلوا ذلك.

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨٣﴾ [المؤمنون:٨١-٨٣]

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١﴾ بل سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد و..

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢﴾ هذا لا يتصور، ولا يدخل العقل، بزعمهم..

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ ما زلنا نوعد بأن البعث كائن، نحن وآباؤنا،

ولم نره، ولم يأت بعد..

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون:٨١-٨٣] أي: قصصهم وأسمارهم، التي يُتحدث بها وتلهىٰ، وإلا فليس لها حقيقة.. وكَذَبُوا قبَّحهم الله؛ فإن الله أراهم من آياته أكبر من البعث ومثله، ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] الآيات، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج:٥] الآيات.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]

﴿قُل﴾ لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره، **محتجًا عليهم بـ**: ما أثبتوه وأقروا به من توحيد الربوبية وانفراد الله بها، **علىٰ ما أنكروه** من توحيد الإلهية والعبادة، وبـ: ما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة، **علىٰ ما أنكروه** من إعادة الموتىٰ، الذي هو أسهل من ذلك..

﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ من هو الخالق للأرض ومن عليها، من حيوان ونبات وجماد وبحار وأنهار وجبال، المالك لذلك، المدبر له؟

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فإنك إذا سألتهم عن ذلك، لا بد أن يقولوا: الله وحده.. فـ..

﴿قُلْ﴾ لهم إذا أقروا بذلك..

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أفلا ترجعون إلىٰ ما ذكركم الله به، مما هو معلوم عندكم، مستقر في فطركم، قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات.. والحقيقة أنكم إن رجعتم إلىٰ ذاكرتكم بمجرد التأمل علمتم أن مالك ذلك هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل.. ثم انتقل إلىٰ ما هو أعظم من ذلك، فقال..

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾ وما فيها من النيرات، والكواكب السيارات، والثوابت..

﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦﴾ الذي هو أعلىٰ المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ سيقرون بأن الله رب ذلك كله..

﴿قُلْ﴾ لهم حين يقرون بذلك..

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧﴾ عبادة المخلوقات العاجزة، وتتقون الرب العظيم كامل القدرة عظيم السلطان؟!.. وفي هذا من **لطف الخطاب**، من قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠] ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، **والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب**، ما لا يخفىٰ.. ثم انتقل إلىٰ إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال..

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ملك كل شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نبصره وما لا نبصره؟.. و(الملكوت) بـ صيغة مبالغة، بمعنىٰ المُلك..

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ عبادَه من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم..

﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ لا يقدر أحد أن يجير علىٰ الله، ولا يدفع الشر الذي قدَّره الله، بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه..

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨﴾..

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ سيقرون أنَّ الله المالك لكل شيء، المجير الذي لا يجار عليه..

﴿قُلْ﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزمًا لهم..

﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩] فأين تذهب عقولكم حيث عبدتم من علمتم أنهم لا مُلك لهم ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور؟!.. فالعقول التي دلتكم علىٰ هذا لا تكون إلا مسحورة، وهي -بلا شك- قد سحرها الشيطان بما زَيَّن لهم، وحسَّن لهم، وقلب الحقائق لهم، فَسَحر عقولَهم، كما سَحرت السحرةُ أعينَ الناس..

﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝٩٠ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٩٢﴾ [المؤمنون: ٩٠-٩٢]

﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ يقول تعالىٰ: بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق، المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي.. فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع؟! وليس عندهم ما يعوضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال..

﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝٩٠﴾..

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾ كَذِبٌ يُعرَفُ بخبر الله، وخبر رسله، ويُعرفُ بالعقل الصحيح.. ولهذا نبَّه تعالىٰ علىٰ الدليل العقلي علىٰ امتناع إلهين فقال..

﴿إِذٗا﴾ لو كان معه آلهة كما يقولون..

﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته، واستقلَّ بها، ولحرص علىٰ ممانعة الآخر ومغالبته..

﴿وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ فالغالب يكون هو الإله، وإلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول.. واعتبر ذلك بالشمس والقمر، والكواكب الثابتة، والسيارة، فإنها منذ خلقت وهي تجري علىٰ نظام واحد، وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدرة، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة علىٰ مصلحة أحد دون أحد، ولن ترىٰ فيها خللًا ولا تناقضًا ولا معارضة في أدنىٰ تصرف.. فهل يتصور أن يكون ذلك، تقدير إلهين ربين؟!

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ **قد نطقت بلسان حالها، وأفهمت ببديع أشكالها**: أن المدبر لها إله واحد، كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات في ربوبيته لها، وفي إلهيته لها.. فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته، كذلك لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة.. ولهذا نبه علىٰ **عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط**، فقال..

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، من الواجبات والمستحيلات والممكنات..

﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو ما نشاهد من ذلك..

﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾ ارتفع وعظم..

﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٩٢﴾ [المؤمنون:٩٠-٩٢] به من لا علم عنده إلا ما علمه الله.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ٩٣ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ٩٥﴾ [المؤمنون:٩٣-٩٥]

لما أقام تعالىٰ علىٰ المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يذعنوا لها.. حَقَّ عليهم العذاب، ووُعِدوا بنزوله، وأرشد الله رسولَه أن يقول..

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ٩٣﴾ أيُّ وقت أريتني عذابهم، وأحضرتني ذلك..

﴿رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩٤﴾ اعصمني وارحمني مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم.. واحمني أيضًا من العذاب الذي ينزل بهم.. لأن العقوبة العامة تعم -عند نزولها- العاصي وغيره.. قال الله في تقريب عذابهم..

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ٩٥﴾ [المؤمنون:٩٣-٩٥] ولكن إن أخرناه فلحكمة، وإلا فقدرتنا صالحة لإيقاعه فيهم.

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨]

هذا من مكارم الأخلاق، التي أمر الله رسوله بها فقال..

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، **مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته**، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإنَّ ذلك فضلٌ منك علىٰ المسيء.. **ومن مصالح ذلك**: أنه تخف الإساءة عنك في الحال وفي المستقبل، وأنه أدعىٰ لجلب المسيء إلىٰ الحق وأقرب إلىٰ ندمه وأسفه

ورجوعه بالتوبة عما فعل، وليتصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب.. قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ:٤٠] ، وقال تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥] أي: ما يوفق لهذا الخلق الجميل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥]..

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك.. وقد حلمنا عنهم وأمهلناهم وصبرنا عليهم، والحق لنا وتكذيبهم لنا.. فأنت -يا محمد- ينبغي لك أن تصبر علىٰ ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان، هذه وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر.. **وأما المسيء من الشياطين:** فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير، **فالوظيفة في مقابلته أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله فقال..**

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي اعتصم بحولك وقوتك، متبرئًا من حولي وقوتي..

﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾..

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨] **أعوذ بك من الشر الذي** يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسهم، **ومن الشر الذي** بسبب حضورهم ووسوستهم.. وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله.. **ويدخل فيها:** الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان، ومن مسه، ووسوسته.. فإذا أعاذ اللهُ عبدَه من هذا الشر وأجاب دعاءَه سَلِم من كل شرٍ ووُفِّق لكلِّ خير.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يخبر تعالىٰ عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأىٰ مآله، وشاهد قُبحَ أعماله..

﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩﴾ فيطلب الرجعة إلىٰ الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك يقول..

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله..

﴿كَلَّآۚ﴾ لا رجعة له ولا إمهال، قد قضىٰ الله أنهم إليها لا يرجعون..

﴿إِنَّهَا﴾ أي: مقالته التي تمنىٰ فيها الرجوع إلىٰ الدنيا..

﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضا غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لعاد لما نهي عنه..

﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ من أمامهم وبين أيديهم..

﴿بَرۡزَخٌ﴾ وهو الحاجز بين الشيئين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة.. وفي هذا البرزخ يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم..

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠] فليعدُّوا له عُدَّته، وليأخذوا له أُهُبَّته.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [المؤمنون:١٠١-١٠٤]

يخبر تعالىٰ عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم، من المزعجات والمقلقات..

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ إذا نفخ في الصور **نفخة البعث**، فحشر الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم..

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، التي هي أقوىٰ الأسباب، فغير الأنساب من باب أولىٰ..

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١﴾ وأنه لا يَسأل أحدٌ أحدًا عن حاله؛ لاشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقىٰ شقاوة لا سعادة بعدها؟.. قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس].. وفي القيامة مواضع يشتد كربها، ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر

فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر، من الخير والشر..

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت حسناته علىٰ سيئاته..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٢﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل..

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت سيئاته علىٰ حسناته، وأحاطت بها خطيئاته..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ كل خسارة، غير هذه الخسارة فإنها -بالنسبة إليها- سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة، لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التي يتمكن بها من السعادة الأبدية، ففوَّتها هذا النعيمَ المقيم، في جوار الرب الكريم..

﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين.. ثم ذكر تعالىٰ، سوء مصير الكافرين فقال..

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تغشاهم من جميع جوانبهم، حتىٰ تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لهبها عن وجوههم..

﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾ [المؤمنون:١٠١-١٠٤] قد عبست وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه.

🕮 الفوائد

هذا الوعيد إنما هو -كما ذكرنا- لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافرًا، فعلىٰ هذا لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنَّهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصىٰ، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها..

وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت علىٰ حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت علىٰ ذلك نصوص الكتاب والسنة.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا
شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧

﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾ [المؤمنون:١٠٥-١١٤]

فيقال لهم توبيخًا ولومًا..

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ تُدعون بها لتؤمنوا، وتُعرض عليكم لتنظروا..

﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾ ظلمًا منكم وعنادًا، وهي آياتٌ بينات، دالات على الحق والباطل، مبينات للمحق والمبطل، فحينئذ أقروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار..

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع..

﴿وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]..

﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام:٢٨]، ولم يبق الله لهم حجة، بل قطع أعذارهم، وعمرهم في الدنيا، ما يتذكر فيه المتذكر، ويرتدع فيه المجرم، فـ..

﴿قَالَ﴾ الله جوابًا لسؤالهم..

﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ وهذا القول -نسأله تعالى العافية- **أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون** في التخييب والتوبيخ والذل والخسار والتأييس من كل خير، والبشرى بكل شر.. وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم.. ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ **فجمعوا بين:** الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة.. والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة.. والتوسل إليه بربوبيته.. ومنته عليهم بالإيمان.. والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه.. وفي ضمنه، ما يدل علىٰ خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم.. فهؤلاء سادات الناس وفضلائهم..

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أيها الكفرة الأنذال ناقصو العقول والأحلام..

﴿سِخْرِيًّا﴾ تهزءون بهم وتحتقرونهم، حتىٰ اشتغلتم بذلك السفه..

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء بهم.. كما أن نسيانهم للذكر يحثهم علىٰ الاستهزاء.. **فكل من الأمرين يمد الآخر**، فهل فوق هذه الجراءة جراءة؟!

﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ علىٰ طاعتي، وعلىٰ أذاكم، حتىٰ وصلوا إلي..

﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤] الآيات..

﴿قَٰلَ﴾ لهم علىٰ وجه اللوم، وأنهم سفهاء الأحلام، حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة كلَّ شر أوصلهم إلىٰ غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون من الخير، الذي يوصلهم إلىٰ السعادة الدائمة ورضوان ربهم..

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾..

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كلامهم هذا مبني علىٰ استقصارهم جدًا لمدة مكثهم في الدنيا، وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره ولا يعينه، فلهذا قالوا..

﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ الضابطين لعدده، وأما هم ففي شغل شاغل وعذاب مذهل عن معرفة عدده.. فـ..

﴿قَٰلَ﴾ لهم..

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سواء عينتم عدده أم لا..

﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون:١٠٥-١١٤]..

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦]

﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الخلق..

﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ سدىٰ وباطلا، تأكلون وتشربون وتمرحون وتتمتعون بلذات الدنيا، ونترككم لا نأمركم، ولا ننهاكم ولا نثيبكم، ولا نعاقبكم؟ ولهذا قال..

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ لا يخطر هذا ببالكم..

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ تعاظم وارتفع عن هذا الظن الباطل، الذي يرجع إلىٰ القدح في حكمته...

﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فكونه مَلِكًا للخلق كلهم حقًا في صدقه، ووعده، ووعيده، مألوهًا معبودًا، لما له من الكمال..

﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦] فما دونه من باب أولىٰ.. يُمنع أن يخلقكم عبثًا.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون:١١٧-١١٨]

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ ومن دعا مع الله آلهة غيره..

﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ بلا بينة من أمره، ولا برهان يدل علىٰ ما ذهب إليه.. وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله، فليس له برهان علىٰ ذلك، بل دلَّت البراهين علىٰ بطلان ما ذهب إليه..

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ فأعرض عنها ظلمًا وعنادًا، فهذا سيُقدم علىٰ ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئًا، لأنه كافر..

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فكفرهم مَنَعَهُم من الفلاح..

﴿وَقُل﴾ داعيًا لربك مخلصًا له الدين..

﴿رَّبِّ اغْفِرْ﴾ لنا حتىٰ تنجينا من المكروه..

﴿وَٱرْحَمْ﴾ وارحمنا، لتوصِّلنا برحمتك إلىٰ كل خير..

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون:١١٧-١١٨] **فكل راحم للعبد فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.**

تم تفسير سورة (المؤمنون)، من فضل الله وإحسانه

تفسير سورة النور، وهي مدنية

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ [النور:١]

﴿سُورَةٌ﴾ عظيمة القدر..

﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان..

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قدَّرنا فيها ما قدَّرنا، من الحدود والشهادات وغيرها..

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أحكامًا جليلة، وأوامر وزواجر، وحِكَمًا عظيمة..

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ [النور:١] حين نبيِّن لكم، ونعلِّمكم ما لم تكونوا تعلمون.. ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال..

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور:٢-٣]

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ هذا الحكم في الزاني والزانية البِكرين..

﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ أنهما يُجلد كلٌّ منهما مائة جلدة.. وأما الثيب: فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة أن حده الرجم..

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ونهانا تعالىٰ أن تأخذنا رأفةٌ بهما في دين الله تمنعنا من إقامة الحد عليهم.. سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك..

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وأن الإيمان موجبٌ لانتفاء هذه الرأفة المانعة من

إقامة أمر الله.. فرحمته حقيقة بإقامة حدِّ الله عليه.. فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب..

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ وأَمَر تعالىٰ أن يَحضُرَ عذابَ الزانيين طائفةٌ، أي: جماعة من المؤمنين.. ليشتهر، ويحصل بذلك الخزي والارتداع.. وليشاهدوا الحد فعلًا، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل مما يُقوِّي بها العلم، ويستقر به الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزاد فيه ولا ينقص، والله أعلم..

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ هذا بيان لرذيلة الزنا، وأنه يدنس عرض صاحبه، وعرض من قارنه ومازجه، ما لا يفعله بقية الذنوب.. فأخبر أن الزاني لا يُقدِمُ علىٰ نكاحه من النساء إلا أنثىٰ زانية، تناسب حاله حالها..

﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ بالله، لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله..

﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ والزانية كذلك، لا ينكحها إلا زان أو مشرك..

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور:٢-٣] حرم عليهم أن ينكحوا زانيًا، أو ينكحوا زانيةً.

🕮 الفوائد

١- معنىٰ الآية: أن **من اتصف بالزنا**، من رجلٍ أو امرأة، **ولم يتب من ذلك، أنَّ المُقدِم علىٰ نكاحه**، مع تحريم الله لذلك، لا يخلو: إما **أن لا يكون ملتزمًا لحكم الله ورسوله.. فذاك لا يكون إلا مشركًا**.. وإما **أن يكون ملتزمًا لحكم الله ورسوله**، فأقدم علىٰ نكاحه مع علمه بزناه، فإن **هذا النكاح زنا، والناكح زان مسافح**، فلو كان مؤمنًا بالله حقًا لم يقدم علىٰ ذلك.

٢- هذا دليل صريح علىٰ: **تحريم نكاح الزانية** حتىٰ تتوب، **وكذلك إنكاح الزاني حتىٰ يتوب**.. فإن مقارنة الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، أشد الاقترانات والازدواجات، وقد قال تعالىٰ: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: قرناءهم.

٣- **فحرَّم الله ذلك لـ**: ما فيه من الشر العظيم.. وفيه من قلة الغيرة.. وإلحاق الأولاد الذين ليسوا من الزوج.. وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها.. مما بعضه كاف للتحريم.

٤ - في هذا دليل أن **الزاني ليس مؤمنًا**، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[(١)]، فهو وإن لم يكن مشركًا، فلا يطلق عليه اسم المدح، الذي هو **الإيمان المطلق**.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [النور:٤-٥]

لما عظَّم تعالىٰ أمر الزاني بوجوب جلده، وكذا رجمه إن كان محصنًا، وأنه لا تجوز مقارنته، ولا مخالطته علىٰ وجه لا يسلم فيه العبد من الشر.. بيَّن تعالىٰ تعظيم الإقدام علىٰ الأعراض بالرمي بالزنا فقال..

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ النساء الأحرار العفائف.. وكذاك الرجال، لا فرق بين الأمرين.. والمراد بالرمي: الرمي بالزِّنا، بدليل السياق..

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ علىٰ ما رموا به..

﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ رجال عدول، يشهدون بذلك صريحًا..

﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ بسوط متوسط، يؤلم فيه، ولا يبالغ بذلك حتىٰ يتلفه، لأن القصد التأديب لا الإتلاف.. وفي هذا تقدير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المقذوف كما قال تعالىٰ محصَنًا مؤمنًا، **وأما قذف غير المحصن، فإنه يوجب التعزير**..

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أي: لهم عقوبة أخرىٰ، وهو أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حُدَّ علىٰ القذف، حتىٰ يتوب، كما يأتي..

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ الخارجون عن طاعة الله، الذين قد كثر شرهم؛ **وذلك لـ:** انتهاك ما حرَّم الله.. وانتهاك عرض أخيه.. وتسليط الناس علىٰ الكلام بما تكلم به.. وإزالة الأخوَّة التي عقدها الله بين أهل الإيمان.. ومحبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.. وهذا دليل علىٰ **أن القذف من كبائر الذنوب**..

---

(١) أخرجه البخاري [٢٤٧٥]، ومسلم [٥٧] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ **فالتوبة في هذا الموضع أن يكذِّب القاذفُ نفسَه، ويقر أنَّه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه أن يكذِّب نفسه ولو تيقن وقوعه، حيث لم يأت بأربعة شهداء..**

﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ **فإذا تاب القاذف وأصلح عمله، وبدَّل إساءته إحسانًا زال عنه الفسق، وكذلك تُقبل شهادته علىٰ الصحيح..**

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ [النور:٤-٥] **يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب وأناب.. وإنما يُجلد القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء، إذا لم يكن زوجًا، فإن كان زوجًا، فقد ذُكِر بقوله..**

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [النور:٦-١٠]

وإنما كانت **شهادات الزوج علىٰ زوجته دارئة عنه الحد** لأن: الغالب أن الزوج لا يُقدِم علىٰ رمي زوجته التي يدنسه ما يدنسها إلا إذا كان صادقًا.. ولأن له في ذلك حقًا.. وخوفًا من إلحاق أولادٍ ليسوا منه به.. ولغير ذلك من الحِكَم المفقودة في غيره، فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ **الحرائر لا المملوكات..**

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ﴾ **علىٰ رميهم بذلك..**

﴿شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ **بأن لم يقيموا شهداء، علىٰ ما رموهم به..**

﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦﴾ **سماها شهادة؛ لأنها نائبة مناب الشهود، بأن يقول: (أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به)..**

﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧﴾ **يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة مؤكدًا تلك الشهادات، بأن يدعو علىٰ نفسه باللعنة إن كان كاذبًا.. وهل يقام عليها**

الحد بمجرد لعان الرجل ونكولها، أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل، أنه يقام عليها الحد، بدليل قوله..

﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾ إلىٰ آخره.. فلولا أنَّ العذاب وهو الحد قدّ وجب بلعانه لم يكن لعانها دارئًا له.. ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا﴾ [النور:٨]، أي: يدفع عنها العذاب، إذ قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها..

﴿أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨﴾..

﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩﴾ وتزيد في الخامسة -مؤكدةً لذلك- أن تدعو علىٰ نفسها بالغضب..

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام، أي: لأَحَلَّ بأحد المتلاعنين الكاذب منهما ما دعا به علىٰ نفسه..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [النور:٦-١٠] **ومن رحمته وفضله: ثبوت هذا الحكم الخاص** بالزوجين لشدة الحاجة إليه.. وأن بيَّن لكم شدةَ الزِّنا وفظاعته.. وفظاعة القذف به.. وأنْ شَرَعَ التوبةَ من هذه الكبائر وغيرها.

📖 الفـوائـد

١- **إذا تمَّ لعانُه سقط عنه حدُّ القذف،** ظاهر الآيات.

٢- **لو سمىٰ الرجلَ** الذي رماها به **فإنَّه يسقط حقه تبعًا لها.**

٣- **إذا تم اللعان بينهما: فُرِّق** بينهما إلىٰ الأبد، **وانتفىٰ الولد** الملاعن عليه.

وظاهر الآيات يدل علىٰ:

٤- اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان منه ومنها.

٥- واشتراط الترتيب فيها.

٦- وأن لا ينقص منها شيء.

٧- ولا يبدَّل شيء بشيء.

٨- وأنَّ اللعان مختص بالزوج إذا رمىٰ امرأته لا بالعكس.

٩- وأنَّ الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به، كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النور:١١-١٤]

لما ذَكَر فيما تقدَّم **تعظيمَ الرمي بالزنا عمومًا، صار ذلك كأنَّه مقدِّمة لهذه القصة،** التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا..

وهذه الآيات **نزلت في قصة الإفك** المشهورة، الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد..

وحاصلها:

أن النبي ﷺ **في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق..**

فانقطع عِقدُها، فانحبست في طَلَبِه، **ورحَّلوا جَمَلَها وهودَجها،** فلم يفقدوها..

ثم استقلَّ الجيشُ راحلًا وجاءت مكانهم، **وعلمت أنهم إذا فقدوها رجعوا إليها، فاستمروا في مسيرهم..**

وكان **صفوان بن المعطل السلمي،** من أفاضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قد عرَّس في أخريات القوم ونام،** فرأى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فعرفها..

فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، **ثم جاء يقود بها بعد ما نزل الجيش في الظهيرة..**

فلما رأى بعض المنافقين -الذين في صحبة النبي ﷺ في ذلك السفر- مجيء صفوان بها في هذه الحال، **أشاع ما أشاع..**

ووشىٰ الحديث، وتلقفته الألسن، حتىٰ **اغتر بذلك بعض المؤمنين**، وصاروا يتناقلون هذا الكلام..

وانحبس الوحي مدة طويلة عن الرسول ﷺ..

وبلغ الخبرُ عائشةَ بعد ذلك بمدة، **فحزنت حزنًا شديدًا**..

فأنزل الله تعالىٰ: براءتها في هذه الآيات.. **ووعظ** الله المؤمنين.. **وأعظم** ذلك.. **ووصاهم** بالوصايا النافعة..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ أي: الكذب الشنيع، وهو رمي أم المؤمنين..

﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين.. منهم المؤمن الصادق في إيمانه، ولكنه اغتر بترويج المنافقين.. ومنهم المنافق..

﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ لِمَا تضمَّن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها.. والتنويه بذكرها، حتىٰ تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ.. ولِمَا تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلىٰ يوم القيامة.. فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك.. **وإذا أراد الله أمرًا جعل له سببًا**.. ولذلك **جعل الخطاب عامًا** مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن **قدح بعضهم ببعض كقدح في أنفسهم**.. ففيه: أن المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، واجتماعهم علىٰ مصالحهم، كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه، فليكره من كل أحد أن **يقدح في أخيه المؤمن، الذي بمنزلة نفسه**، وما لم يصل العبد إلىٰ هذه الحالة، **فإنه من نقص إيمانه وعدم نصحه**..

﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ وهذا وعيدٌ للذين جاءوا **بالإفك**، وأنهم سيعاقبون علىٰ ما قالوا من ذلك.. وقد حدَّ النبي ﷺ منهم جماعة..

﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أي: معظم الإفك، وهو المنافق الخبيث عبد الله بن أبي بن سلول، لعنه الله..

﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.. **ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام**، فقال..

﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ **ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيرًا، وهو السلامة مما رَموا به، وأنَّ ما معهم من الإيمان المعلوم يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل..**

﴿وَقَالُواْ﴾ **بسبب ذلك الظن..**

﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾ **كذب وبهت من أعظم الأشياء وأبينها.. فهذا من الظن الواجب حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن مثل هذا الكلام، أن يبرئه بلسانه، ويكذِّب القائل لذلك..**

﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ﴾ **هلا جاء الرامون علىٰ ما رموا به..**

﴿بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ﴾ **عدول مرضيين..**

﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣﴾ **وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله؛ لأن الله حرَّم عليهم التكلَّمَ بذلك من دون أربعة شهود، ولهذا قال:** ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣]، **ولم يقل: (فأولئك هم الكاذبون).. وهذا كله من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام علىٰ رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق..**

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ **بحيث شَمَلكم إحسانه فيهما، في أمر دينكم ودنياكم..**

﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ﴾ **أي: خضتم..**

﴿فِيهِ﴾ **من شأن الإفك..**

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤﴾ [النور:١١-١٤] **لاستحقاقكم ذلك بما قلتم.. ولكن من فضل الله عليكم ورحمته أن شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.**

﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧ وَيُبَيِّنُ

ﭐللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور:١٥-٢٠]

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ تلقفونه، ويلقيه بعضكم إلىٰ بعض، وتستوشون حديثه، وهو قول باطل..

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم..

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك..

﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ وهذا فيه **الزجر البليغ عن تعاطي بعض الذنوب علىٰ وجه التهاون بها**، فإن العبد لا يفيده حسبانه شيئًا، ولا يخفف من عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقعته مرة أخرىٰ..

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ وهلا إذ سمعتم -أيها المؤمنون- كلام أهل الإفك..

﴿قُلْتُم﴾ منكرين لذلك، معظمين لأمره..

﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح..

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك من كلِّ سوء، وعن أن تبتلي أصفياءك بالأمور الشنيعة..

﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ كذب عظيم..

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: لنظيره، من رمي المؤمنين بالفجور، فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك.. ونعم المواعظ والنصائح من ربنا، فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له، علىٰ ما بيَّن لنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨]..

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ دلَّ ذلك علىٰ: أن **الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام** علىٰ المحرمات..

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ المشتملة على بيان الأحكام، والوعظ، والزجر، والترغيب، والترهيب، يوضحها لكم توضيحًا جليًّا..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٨﴾ كامل العلم، عام الحكمة.. فمن علمه وحكمته: أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعًا لمصالحكم في كل وقت..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ﴾ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة..

﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ موجع للقلب والبدن، **وذلك لـ:** غشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم.. فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، **فكيف بما هو أعظم من ذلك من إظهاره ونقله؟! وسواء كانت الفاحشة صادرة أو غير صادرة..** وكل هذا من **رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم**، كما صان دماءهم وأموالهم، **وأمرهم بما يقتضي المصافاة**، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه..

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝١٩﴾ فلذلك علمكم، وبيَّن لكم ما تجهلونه..

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ قد أحاط بكم من كل جانب..

﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ عليكم..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾ [النور:١٥-٢٠] لِمَا بيَّن لكم هذه الأحكام والمواعظ، والحكم الجليلة، ولِمَا أمهل من خالف أمره.. ولكن فضله ورحمته وأن ذلك وصفه اللازم، آثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي ما لن تحصوه أو تعدوه.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢١ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢﴾ [النور:٢١-٢٢]

ولما نهىٰ عن هذا الذنب بخصوصه، **نهىٰ عن الذنوب عمومًا** فقال..

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي: طرقه ووساوسه.. **وخطوات الشيطان يدخل فيها سائر المعاصي** المتعلقة بالقلب واللسان والبدن.. **ومن حكمته تعالىٰ**: أن بين **الحُكم**، وهو النهي عن اتباع خطوات الشيطان، **والحِكمَة** وهو بيان ما في المنهي عنه من الشر المقتضي، والداعي لتركه فقال..

﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ أي: الشيطان..

﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع، من الذنوب العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه..

﴿وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ وهو ما تنكره العقول ولا تعرفه.. فالمعاصي التي هي **خطوات الشيطان لا تخرج عن ذلك**، فنَهيُ الله عنها للعباد نعمةٌ منه، عليهم أن يشكروه ويذكروه؛ لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالرذائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها..

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ ما تطَهَّر من اتباع خطوات الشيطان؛ لأن الشيطان يسعىٰ هو وجنده في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميَّالة إلىٰ السوء، أمارة به، والنقص مُسْتَولٍ علىٰ العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خُلِّي وهذه الدواعي، ما زكىٰ أحدٌ بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات.. فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتزكىٰ منكم من تزكىٰ.. وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»(١) ولهذا قال..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ من يعلم منه أن يُزكىٰ بالتزكية، ولهذا قال..

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾..

﴿وَلَا يَأۡتَلِ﴾ لا يحلف..

---

(١) أخرجه مسلم [٢٧٢٢] وغيره من حديث زيد بن أرقم.

﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ﴾ كان من جملة الخائضين في الإفك (مِسطَح بن أُثَاثَة) وهو قريب لـ (أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ)، وكان (مسطح) فقيرًا من المهاجرين في سبيل الله، فَحَلَفَ أبو بكر أن لا ينفق عليه، لقوله الذي قال.. فنزلت هذه الآية، **ينهاه** عن هذا الحَلِف المتضمن لقطع النفقة عنه، **ويحثه** على العفو والصفح، **ويعده** بمغفرة الله إن غفر له، فقال..

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور:٢١-٢٢] إذا عاملتم عبيده بالعفو والصفح، عاملكم بذلك.. فقال أبو بكر -لما سمع هذه الآية-: بلىٰ، والله إني لأحب أن يغفر الله لي.. فرجع النفقة إلىٰ مسطح.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية دليل علىٰ:

١- النفقة علىٰ القريب.

٢- وأنه لا تُترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان.

٣- والحث علىٰ العفو والصفح، ولو جرىٰ عليه ما جرىٰ من أهل الجرائم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور:٢٣-٢٦]

ثم ذكر الوعيد الشديد علىٰ رمي المحصنات فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفائف عن الفجور..

﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ التي لم يخطر ذلك بقلوبهن..

﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ واللعنة لا تكون إلا علىٰ ذنب كبير، وأكَّد اللعنة

بأنها متواصلة عليهم في الدارين..

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحلَّ بهم شدة نقمته، وذلك العذاب يوم القيامة..

﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ فكلُّ جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار.. ولقد **عَدَل في العباد**، من جعل **شهودهم من أنفسهم**..

﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ﴾ جزاءهم على أعمالهم، الجزاء..

﴿ٱلۡحَقَّ﴾ الذي بالعدل والقسط، يجدون جزاءها موفرًا، لم يفقدوا منها شيئًا ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف:٤٩]..

﴿وَيَعۡلَمُونَ﴾ في ذلك الموقف العظيم..

﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى.. فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعده ووعيده، وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق، فلا ثَمَّ حق إلا في الله، وما مِن الله..

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ كل خبيث من الرجال والنساء والكلمات والأفعال، مناسب للخبيث، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له.. وكل طيب من الرجال والنساء والكلمات والأفعال، مناسب للطيب، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له.. فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته أن **الأنبياء** -خصوصًا أولي العزم منهم، خصوصًا سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق، **لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء**.. فالقدح في عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، **وهو المقصود بهذا الإفك** من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح، فكيف وهي هي؟! صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها.. ثم صرح

بذلك، بحيث لا يبقىٰ لمبطل مقالًا، ولا لشك وشبهة مجالًا فقال..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ والإشارة إلىٰ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أصلًا، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعًا..

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ تستغرق الذنوب..

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور:٢٣-٢٦] في الجنة، صادر من الرب الكريم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور:٢٧]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ يرشد الباري عباده المؤمنين أن **لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم بغير استئذان،** فإنَّ في ذلك عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول ﷺ، حيث قال: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»(١)، فبسبب الإخلال به، يقع البصر علىٰ العورات التي داخل البيوت، فإنَّ البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.. ومنها: أن ذلك يوجب الريبة مِن الداخل، ويُتهم بالشر، سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية يدل علىٰ الشر.. ومنع اللهُ المؤمنين من دخول غير بيوتهم (حَتَّىٰ يَسْتَأْنِسُوا) أي: يستأذنوا، سُمِّي الاستئذان استئناسًا؛ لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة..

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ﴾ وصفة ذلك، ما جاء في الحديث: «السلام عليكم،

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاستئذان المذكور..

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور:٢٧] لاشتماله علىٰ عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن دخل المستأذن.

---

(١) أخرجه البخاري [٦٢٤١]، ومسلم [٢١٥٦] وغيرهما من حديث سهل بن سعد الساعدي.

(٢) أخرجه أبو داود في [سننه/ ٥١٧٧- العصرية] وغيره من حديث ربعي بن حراش.. قال ابن حجر في [الفتح/ ١١/ ٦٢٨] سنده جيد.. وصححه الدارقطني.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور:٢٨-٢٩]

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾..

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ **فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإنَّ صاحب المنزل لم يمنعكم حقًا واجبًا لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا يأخذ أحدكم الكِبرُ والاشمئزازُ من هذه الحال..**

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ **أشدّ لتطهيركم من السيئات، وتنميتكم بالحسنات..**

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ **فيجازي كلَّ عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن وعدمه.. هذا الحكم في البيوت المسكونة،** سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، **وفي البيوت غير المسكونة** التي لا متاع فيها للإنسان.. **وأما البيوت التي ليس فيها أهلها وفيها متاع الإنسان** المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحدٌ يتمكن من استئذانه، **وذلك كبيوت الكراء وغيرها، فقد ذكرها بقوله..**

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم.. **دلَّ على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم،** وفيه حرج..

﴿أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ **وهذا من احترازات القرآن العجيبة،** فإنَّ قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور:٢٧] **لفظ عام في كل بيت ليس ملكًا للإنسان،** أخرج منه تعالى البيوت التي ليست ملكه وفيها متاعه وليس فيها ساكن، فأسقط الحرج في الدخول إليها..

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور:٢٨-٢٩] أحوالكم الظاهرة والخفية، وعلم مصالحكم.. فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون، من الأحكام الشرعية.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور:٣٠]

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أرشِد المؤمنين -وقل لهم- الذين معهم إيمان، يمنعهم من وقوع ما يخل بالإيمان..

﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ عن النظر إلىٰ العورات وإلىٰ النساء الأجنبيات، وإلىٰ المِردان الذين يُخاف بالنظر إليهم الفتنة، وإلىٰ زينة الدنيا التي تفتن وتوقع في المحذور..

﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ عن الوطء الحرام، في قُبُل أو دُبُر، أو ما دون ذلك، وعن التمكين من مسِّها، والنظر إليها..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحفظ للأبصار والفروج..

﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أطهر وأطيب، وأنمىٰ لأعمالهم، فإنَّ من حفظ فرجه وبصره، طَهُر من الخَبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم، الذي تطمع إليه النفس وتدعو إليه.. فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن غض بصره عن المحرم، أنار الله بصيرته.. ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته مع داعي الشهوة كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظًا.. فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه، وعمل الأسباب الموجبة لحفظه، لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج، إن لم يجتهد العبد في حفظهما، أوقعاه في بلايا ومحن.. ثم ذكَّرهم بعلمه بأعمالهم، ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور:٣٠]..

📖 الفوائد

تأمَّل كيف أَمَرَ بحفظ الفَرج مطلقًا، لأنَّه لا يباح في حالة من الأحوال..

وأما البصر فقال: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، أتىٰ بأداة (مِنْ) الدالة علىٰ التبعيض، فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة، كنظر الشاهد والعامل والخاطب، ونحو ذلك.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١]

لمَّا أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج، **أمر المؤمنات بذلك، فقال..**

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ عن النظر إلىٰ العورات والرجال، بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع..

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من التمكين من جماعها، أو مسها، أو النظر المحرم إليها..

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالثياب الجميلة والحلي.. وجميع البدن كله من الزينة.. ولما كانت الثياب الظاهرة لا بد لها منها، قال..

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: الثياب الظاهرة، التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلىٰ الفتنة بها..

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وهذا لكمال الاستتار.. ويدل ذلك علىٰ: **أن الزينة التي يحرم إبداؤها يدخل فيها جميع البدن**، كما ذكرنا..

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ ثم كرر النهي عن إبداء زينتهن، ليستثني منه قوله..

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجهن..

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ يشمل الأب بنفسه، والجدَّ وإن علا..

﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ويدخل فيه الأبناء وأبناء البعولة مهما نزلوا..

﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأم..

﴿أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلىٰ بعض مطلقًا.. ويحتمل أن الإضافة تقتضي الجنسية، أي: النساء المسلمات اللاتي من جنسكم.. ففيه دليل لمن قال: إن **المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذِّميَّة**..

﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ فيجوز **للمملوك** إذا كان كله للأنثىٰ أن **ينظر لسيدته**، ما دامت مالكة له كله، فإن زال الملك أو بعضه، لم يجز النظر..

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: أو الذين يتبعونكم ويتعلقون بكم من الرجال الذين لا إربة لهم في هذه الشهوة.. كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك.. وكالعِنِّين الذي لم يبق له شهوة، لا في فرجه، ولا في قلبه، فإنَّ هذا لا محذور من نظره..

﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ﴾ أي: الأطفال الذين دون التمييز، فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب.. **وعلَّل تعالىٰ ذلك بـ**: أنهم..

﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد.. **ودلَّ هذا: أن المُمَيِّز تستتر منه المرأة**، لأنه يظهر علىٰ عورات النساء..

﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ لا يضربن الأرض بأرجلهن، ليصوت ما عليهن من حلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلىٰ الفتنة.. ولما أمر تعالىٰ بهذه الأوامر الحسنة، ووصىٰ بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، **أمر الله تعالىٰ بالتوبة، فقال**..

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلىٰ التوبة.. ثم علق علىٰ ذلك الفلاح فقال..

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور:٣١] فلا سبيل إلىٰ الفلاح إلا بالتوبة.. وهي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلىٰ ما يحبه ظاهرًا وباطنًا.

🕮 الفوائد

١- يؤخذ من قوله ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ ونحوه، **قاعدة سد الوسائل**، وأن الأمر إذا كان مباحًا، ولكنه يفضي إلىٰ محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه

يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لمَّا كان وسيلة لعلم الزينة، مُنِع منه.

٢- **أن كل مؤمن محتاج إلىٰ التوبة،** لأن الله خاطب المؤمنين جميعًا.

٣- **الحث علىٰ الإخلاص بالتوبة في قوله** ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النور:٣١] أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾ [النور:٣٢-٣٣]

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ يأمر تعالىٰ الأولياء والأسياد، بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامىٰ وهم: من لا أزواج لهم من رجال، ونساء ثيب وأبكار، **فيجب علىٰ القريب وولي اليتيم أن يزوج من يحتاج للزواج ممن تجب نفقته عليه..** وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم كان **أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولىٰ..**

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ **يحتمل أن المراد بالصالحين:** صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء -وهو الذي لا يكون فاجرًا زانيًا- مأمور سيده بإنكاحه، جزاء له علىٰ صلاحه، وترغيبًا له فيه، ولأن الفاسد بالزنا منهي عن تزوجه، **فيكون مؤيدًا للمذكور في أول السورة،** أن نكاح الزاني والزانية محرم حتىٰ يتوب، ويكون **التخصيص بالصلاح في العبيد** والإماء دون الأحرار، **لكثرة وجود ذلك في العبيد عادة.. ويحتمل أن المراد بالصالحين:** الصالحون للتزوج، المحتاجون إليه، من العبيد والإماء، **يؤيد هذا المعنىٰ:** أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه قبل حاجته إلىٰ الزواج.. **ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما،** والله أعلم..

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾ أي: الأزواج والمتزوجين..

﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فلا يمنعكم ما تتوهمون من أنه إذا تزوج افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه.. وفيه: حث علىٰ التزوج، **ووعد للمتزوج بالغنىٰ** بعد الفقر..

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الخير عظيم الفضل..

﴿عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ بمن يستحق فضله الديني والدنيوي أو أحدهما، ممن لا يستحق، فيعطي كلًا ما علمَه، واقتضاه حكمُه..

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ **هذا حكم العاجز عن النكاح، أَمَره الله أن يستعفف،** أن يكف عن المحرَّم.. **ويفعل الأسباب التي تكفه عنه:** من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه.. ويفعل أيضًا كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[(1)].. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [النور:٣٣] أي: لا يقدرون نكاحًا، إما لفقرهم، أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم وليس لهم من قدرة علىٰ إجبارهم علىٰ ذلك.. وهذا التقدير أحسن من تقدير من قدَّر (لا يجدون مهر نكاح) وجعلوا (المضاف إليه) نائبًا مناب (المضاف)، فإنَّ في ذلك محذورين: **أحدهما:** الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف. **والثاني:** كون المعنىٰ قاصرًا علىٰ من له حالان، حالة غنىٰ بماله، وحالة عدم، فيخرج العبيد والإماء ومن إنكاحه علىٰ وليه، كما ذكرنا..

﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ **وَعدٌ للمستعفف** أن الله سيغنيه وييسر له أمره.. **وأمر له بانتظار الفرج،** لئلا يشق عليه ما هو فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ من ابتغىٰ وطلب منكم الكتابة، وأن يشتري نفسه، من عبيد وإماء، فأجيبوه إلىٰ ما طلب، وكاتبوه..

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ﴾ أي: في الطالبين للكتابة..

﴿خَيْرًا﴾ قدرة علىٰ التكسب، وصلاحًا في دينه، لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين،

(١) اخرجه البخاري [١٩٠٥]، ومسلم [١٤٠٠] وغيرهما.

مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه.. وربما جد واجتهد وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد.. فلذلك أمرَ اللهُ بالكتابة على هذا الوجه **أمر إيجاب،** كما هو الظاهر.. **أو أمر استحباب** على القول الآخر.. **وأمر بمعاونتهم على كتابتهم،** لكونهم محتاجين لذلك، بسبب أنهم لا مال لهم، فقال..

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ **يدخل في ذلك: أَمْرُ** سيده الذي كاتبه أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعونتهم.. ولهذا **جعل الله للمكاتَبين قِسطًا من الزكاة،** ورغَّب في إعطائه بقوله: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ [النور:٣٣]، أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منه، فأحسنوا لعباد الله، كما أحسن الله إليكم..

﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ﴾ أي: إماءكم..

﴿عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ أن تكون زانية..

﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال.. وأما **إذا لم ترد تحصنًا** فإنها تكون بغيًّا، يجب على سيدها منعها من ذلك.. وإنما **هذا نهي لِمَا كانوا يستعملونه في الجاهلية،** من كون السيد يجبر أمته على البغاء، ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال..

﴿لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ فلا يليق بكم أن **تكون إماؤكم خيرًا منكم،** وأعف عن الزنا، وأنتم تفعلون بهن ذلك، لأجل عرض الحياة، متاع قليل يعرض ثم يزول.. فكسبكم النزاهة والنظافة والمروءة -بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها- أفضل من كسبكم العرض القليل، الذي يكسبكم الرذالة والخسة.. ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال..

﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾ [النور:٣٢-٣٣] فليتب إلى الله، وليقلع عما صدر منه مما يغضبه.. فإذا فعل ذلك غفر الله ذنوبه، ورحمه **كما رحم نفسه** بفكاكها من العذاب، **وكما رحم أمته** بعدم إكراهها على ما يضرها.

🕮 الفـوائـد

مفهوم الآية الكريمة: أن العبد إذا لم يطلب الكتابة، لا يؤمر سيده أن يبتدئ بكتابته.. وأنه إذا لم يعلم منه خيرا، بأن علم منه عكسه، إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون بسبب ذلك كَلًّا علىٰ الناس، ضائعًا، وإما أن يخاف إذا أعتق وصار في حرية نفسه أن يتمكن من الفساد، فهذا لا يؤمر بكتابته، بل ينهىٰ عن ذلك؛ لما فيه من المحذور المذكور.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور:٣٤]

هذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات، التي تلاها علىٰ عباده، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحقها فقال..

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ واضحات الدلالة، علىٰ كل أمر تحتاجون إليه، من الأصول والفروع، بحيث لا يبقىٰ فيها إشكال ولا شبهة..

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وأنزلنا إليكم أيضًا ﴿مَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من أخبار الأوَّلين، الصالح منهم والطالح، وصفة أعمالهم، وما جرىٰ لهم وجرىٰ عليهم تعتبرونه مثالًا ومعتبرًا لمن فعل مثل أفعالهم أن يجازىٰ مثل ما جوزوا..

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور:٣٤] وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين، من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، يتعظ بها المتقون، فينكفون عما يكره الله إلىٰ ما يحبه الله.

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور:٣٥]

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ الحسي والمعنوي، وذلك **أنه تعالىٰ بذاته نور وحجابه**

-الذي لولا لطفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه- نور.. وبه استنار العرش، والكرسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة.. **وكذلك النور المعنوي** يرجع إلىٰ الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور.. فلولا نوره تعالىٰ لتراكمت الظلمات.. ولهذا: كل محل يفقد نوره فثم الظلمة والحصر..

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين..

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ كوة..

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك..

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ﴾ من صفائها وبهائها..

﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ مضيء إضاءة الدر..

﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجة الدرية..

﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون..

﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار..

﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس أول النهار.. وإذا انتفىٰ عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتَحسُن وتَطيب، ويكون أصفىٰ لزيتها، ولهذا قال..

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفائه..

﴿يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة..

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ نور النار، ونور الزيت.. **ووجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه علىٰ حالة المؤمن، ونور الله في قلبه: أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي**، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع.. فإذا وصل إليه **العلم والإيمان**، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال **النار في فتيلة ذلك المصباح**.. وهو **صافي القلب** من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من الكدورات، وذلك **بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية.. فيجتمع له**: نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور علىٰ نوره.. ولما كان هذا من نور الله تعالىٰ، وليس كل

أحد يصلح له ذلك، قال..

﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ **ممن يعلم زكاءه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو..**

﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ﴾ **ليعقلوا عنه ويفهموا، لطفًا منه بهم، وإحسانًا إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإنَّ الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علمًا واضحًا..**

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٣٥﴾ [النور:٣٥] **فعلمه محيط بجميع الأشياء.. فلتعلموا أنَّ ضربه الأمثال ضربُ من يعلم** حقائق الأشياء وتفاصيلها، وأنَّها مصلحة للعباد.. فليكن **اشتغالكم بتدبرها وتعقلها،** لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝٣٦﴾ [النور:٣٦]

ولما كان نور الإيمان والقرآن **أكثر وقوع أسبابه في المساجد، ذَكَرها مُنوِّهًا** بها فقال..

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ **يتعبد لله** ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ **عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد..**

﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ **أمر ووصىٰ..**

﴿أَن تُرۡفَعَ﴾ **هذان مجموع أحكام المساجد: فيدخل في رفعها:** بناؤها، وكنسها، وتنظيفها من النجاسة والأذىٰ، وصونها من المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله..

﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ **يدخل في ذلك:** الصلاة كلها، فرضها، **ونفلها،** وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، **وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها،** والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد.. ولهذا كانت **عمارة المساجد علىٰ قسمين: عمارة بنيان وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله،** من الصلاة وغيرها، **وهذا أشرف القسمين..** ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد، وجوبًا عند أكثر العلماء، أو استحبابًا عند آخرين.. **ثم مدح تعالىٰ عمارها بالعبادة فقال..**

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ **إخلاصًا..**

﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾ أول النهار..

﴿وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦﴾ [النور:٣٦] آخره.. **خص هذين الوقتين:** لشرفهما، ولتيسر السير فيهما إلىٰ الله وسهولته.. **ويدخل في ذلك:** التسبيح في الصلاة **وغيرها**، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادهما عند الصباح والمساء.

﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٨﴾ [النور:٣٧-٣٨]

﴿رِجَالٞ﴾ يسبح فيها الله رجال.. وأي رجال؟! ليسوا ممن يؤثر علىٰ ربه دنيا ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب مشغلة عنه..

﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ﴾ وهذا يشمل كلَّ تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله..

﴿وَلَا بَيۡعٌ﴾ من باب عطف الخاص علىٰ العام، لكثرة الاشتغال بالبيع علىٰ غيره.. فهؤلاء الرجال وإن اتجروا وباعوا واشتروا، فإن ذلك لا محذور فيه، لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها..

﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، **فما حال بينهم وبينها رفضوه**.. ولما كان ترك الدنيا شديدًا علىٰ أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوبًا لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتتكلف من تقديم حق الله علىٰ ذلك.. **ذكر ما يدعوها إلىٰ ذلك -ترغيبا وترهيبا- فقال..**

﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾ من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهَّل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه..

﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ والمراد بأحسن ما عملوا **أعمالهم الحسنة الصالحة**، لأنها أحسن ما عملوا، **لأنهم يعملون المباحات وغيرها**، فالثواب لا يكون إلا علىٰ العمل الحسن، كقوله تعالىٰ: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥]..

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم..

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٨﴾ [النور:٣٧-٣٨] **بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جدًا.**

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور:٣٩-٤٠]

هذان مثلان، ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدىً، وتحسر عامليها منها، فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بربهم وكذبوا رسله..

﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ بقاع، لا شجر فيه ولا نبت..

﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حسبان باطل، فيقصده ليزيل ظمأه..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ فندم ندمًا شديدًا، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه.. **كذلك أعمال الكفار، بمنزلة السراب** ترىٰ، ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالًا نافعة، فيغره صورتها، ويخلبه خيالها، ويحسبها هو أيضا أعمالًا نافعة؛ لهواه، وهو أيضا **محتاج إليها** بل مضطر إليها، **كاحتياج الظمآن للماء**، حتىٰ إذ قدم علىٰ أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئًا.. **والحال إنه لم يذهب، لا له ولا عليه، بل..**

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ لم يخف عليه من عملِه نقير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلًا ولا كثيرًا..

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٣٩﴾ فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه.. ومثَّلها الله **بالسراب الذي بقيعة**، أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا **مثال لقلوبهم**، لا خير فيها

ولا بر، فتزكو فيها الأعمال؛ وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.. **والمثل الثاني، لبطلان أعمال الكفار..**

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ **بعيد قعره، طويل مداه..**

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ **ظلمة البحر اللجي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جدا، بحيث أن الكائن في تلك الحال..**

﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ﴾ **مع قربها إليه، فكيف بغيرها؟! كذلك الكفار، تراكمت علىٰ قلوبهم الظلمات،** ظلمة **الطبيعة** التي لا خير فيها، وفوقها ظلمة **الكفر**، وفوق ذلك ظلمة **الجهل**، وفوق ذلك ظلمة **الأعمال** الصادرة عما ذكر.. فبقوا في الظلمة متحيرين، وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون.. وهذا **لأن الله تعالىٰ خذلهم، فلم يعطهم من نوره..**

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور:٣٩-٤٠] **لأن نفسه ظالمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور إلا ما أعطاها مولاها، ومنحها ربها.**

🕮 الفوائد

يحتمل أن هذين المثالين، لأعمال جميع الكفار، كل منهما، منطبق عليها، وعدَّدَهما لتعدد الأوصاف..

ويحتمل أنَّ كلَّ مثال لطائفة وفرقة..

فالأول للمتبوعين، والثاني للتابعين، والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ [النور:٤١-٤٢]

نبَّه تعالىٰ عبادَه علىٰ عظمته، وكمال سلطانه، وافتقار جميع المخلوقات له في

ربوبيتها، وعبادتها فقال..

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من حيوان وجماد..

﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ صافات أجنحتها، في جو السماء، تسبح ربها..

﴿كُلٌّ﴾ من هذه المخلوقات..

﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به.. وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، **وإما بإلهام منه تعالىٰ**، كسائر المخلوقات غير ذلك، **وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله..**

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها شيء.. وسيجازيهم بذلك.. فيكون على هذا **قد جمع بين علمه بأعمالها، وذلك بتعليمه**، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء.. **ويحتمل أن الضمير في قوله**: ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور:٤١] **يعود إلىٰ الله**، وأن الله تعالىٰ قد علِم عباداتهم، وإن لم تعلموا -أيها العباد- منها إلا ما أطلعكم الله عليه.. وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].. فلمَّا بين عبوديتهم وافتقارهم إليه من جهة العبادة والتوحيد، **بيَّن افتقارهم من جهة الملك والتربية والتدبير فقال..**

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ خالقهما ورازقهما، والمتصرف فيهما، في حكمه الشرعي والقدري في هذه الدار، وفي حكمه الجزائي، بدار القرار، بدليل قوله..

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ [النور:٤١-٤٢] مرجع الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور:٤٣]

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ألم تشاهد ببصرك، عظيمَ قدرة الله، وكيف..

﴿يُزْجِي﴾ يسوق..

﴿سَحَابًا﴾ قِطَعًا متفرقة..

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بين تلك القطع..

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ فيجعله سحابًا متراكمًا، مثلَ الجبال..

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ الوابل والمطر..

﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ يخرج من خلال السحاب، نقطا متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلئ بذلك الغدران، وتتدفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم..

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ وتارة ينزل الله من ذلك السحاب بَرَدًا يتلف ما يصيبه..

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي يحمد عليها..

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته..

﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٣﴾ [النور:٤٣] أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها علىٰ وجه يحصل به النفع وينتفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟!

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٤﴾ [النور:٤٤]

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ﴾ من حر إلىٰ برد، ومن برد إلىٰ حر، من ليل إلىٰ نهار، ومن نهار إلىٰ ليل، ويديل الأيام بين عباده..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٤﴾ [النور:٤٤] أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلىٰ الأمور المشاهدة الحسية.. فالبصير ينظر إلىٰ هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها.. والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٤٥﴾ [النور:٤٥]

ينبه عباده علىٰ ما يشاهدونه..

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ﴾ أنه خلق جميع الدواب التي علىٰ وجه الأرض..

﴿مِّن مَّآءٖۖ﴾ مادتها كلها الماء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء:٣٠]..

فالحيوانات التي تتوالد مادتها ماء النطفة، حين يلقح الذكر الأنثىٰ، **والحيوانات التي تتولد من الأرض** لا تتولد إلا من الرطوبات المائية كالحشرات، **لا يوجد منها شيء يتولد من غير ماء أبدًا**.. فالمادة واحدة ولكن **الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة**..

﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ كالحية ونحوها..

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾ كالآدميين، وكثير من الطيور..

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ﴾ كبهيمة الأنعام ونحوها.. فاختلافها -مع أنَّ الأصل واحد- يدل علىٰ نفوذ مشيئة الله، وعموم قدرته، ولهذا قال..

﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾ من المخلوقات، علىٰ ما يشاؤه من الصفات..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٤٥﴾ [النور:٤٥] كما أنزل المطر علىٰ الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد:٤]

﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤٦﴾ [النور:٤٦]

﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ﴾ لقد رحمنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات، أي: **واضحات الدلالة علىٰ**: جميع المقاصد الشرعية، والآداب المحمودة، والمعارف الرشيدة.. **فاتضحت** بذلك السبل، وتبين الرشد من الغي، والهدىٰ من الضلال.. **فلم يبق**

أدنىٰ شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنىٰ إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزيل من كمل علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ بعد ذلك ﴿مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]..

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ممن سبقت لهم سابقة الحسنىٰ، وقدم الصدق..

﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [النور:٤٦] طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلىٰ دار كرامته، متضمن العلم بالحق وإيثاره والعمل به.

📖 الفوائد

عمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه.

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور:٤٧-٥٠].

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ يخبر تعالىٰ عن حالة الظالمين، ممن في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم.. أنهم يقولون بألسنتهم ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة..

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ثم لا يقومون بما قالوا، ويتوَّلىٰ فريق منهم عن الطاعة توَّليًا عظيمًا، بدليل قوله ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٦]، فإنَّ المتولي قد يكون له نية عود ورجوع إلىٰ ما تولىٰ عنه، وهذا المتولي معرض لا التفات له، ولا نظر لما تولىٰ عنه.. وتجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعي الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان، وتجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصًا العبادات التي تشق علىٰ كثير من النفوس، كالزكوات، والنفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك..

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾..

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ **إذا صار بينهم وبين أحد حكومة، ودعوا إلىٰ حكم الله ورسوله..**

﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨﴾ يريدون أحكام الجاهلية، ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية علىٰ الأحكام الشرعية، لعلمهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع..

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ إلىٰ حكم الشرع..

﴿مُذۡعِنِينَ ٤٩﴾ وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك **لأجل موافقة أهوائهم، فليسوا ممدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين،** لأنَّ العبد حقيقة من يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسره ويحزنه، وأما **الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته،** ويقدم الهوىٰ علىٰ الشرع، **فليس بعبد علىٰ الحقيقة،** قال الله في لومهم علىٰ الإعراض عن الحكم الشرعي..

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ علة، أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته، فصار بمنزلة المريض، الذي يعرض عما ينفعه، ويقبل علىٰ ما يضره..

﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ شكوا، وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله، واتهموه أنه لا يحكم بالحق..

﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ يحكم عليهم حكمًا ظالمًا جائرًا، وإنما هذا وصفهم..

﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠﴾ [النور:٤٧-٥٠] وأما حكم الله ورسوله ففي غاية العدالة والقسط، وموافقة الحكمة ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

🕮 الفـوائـد

في هذه الآيات دليل علىٰ:

١- **أن الإيمان ليس هو مجرد القول حتىٰ يقترن به العمل،** ولهذا نفىٰ الإيمان عمن تولىٰ عن الطاعة.

٢- ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال.

٣- وأن من (لم) ينقد له دل علىٰ مرض في قلبه، وريبٍ في إيمانه.

٤- وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور:٥١-٥٢]

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، **ذكر حالة المؤمنين الممدوحين**، فقال..

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة، الذين صدَّقوا إيمانَهم بأعمالهم..

﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ حين يُدعون إلىٰ الله ورسوله ليحكم بينهم، سواء وافق أهواءهم أو خالفها..

﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا﴾ حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه..

﴿وَأَطَعْنَاۚ﴾ طاعة تامة، سالمة من الحرج..

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ حصر الفلاح فيهم؛ لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله.. ولمَّا ذَكَر فضلَ الطاعة في الحكم خصوصًا، ذكر فضلها عمومًا في جميع الأحوال، فقال..

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيُصَدِّق خبرهما ويمتثل أمرهما..

﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ أي: يخافه خوفًا مقرونًا بمعرفة، فيترك ما نهىٰ عنه، ويكف نفسه عما تهوىٰ، ولهذا قال..

﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بترك المحظور؛ لأن **التقوىٰ عند الإطلاق** يدخل فيها فعل المأمور، وترك المنهي عنه.. **وعند اقترانها** بالبر أو الطاعة -كما في هذا الموضع- تفسر بتوقي عذاب الله، بترك معاصيه..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه..

﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور:٥١-٥٢] بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلىٰ الثواب، لفعلهم أسبابه، **فالفوز محصور فيهم**.. وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة.

📖 الفـوائـد

اشتملت هذه الآية علىٰ:

الحق **المشترك** بين الله وبين رسوله، وهو: الطاعة المستلزمة للإيمان..

والحق **المختص بالله** وهو: الخشية والتقوىٰ..

وبقي **الحق الثالث المختص بالرسول**، وهو التعزير والتوقير..

كما **جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح** في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:٩].

﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣﴾ [النور:٥٣]

يخبر تعالىٰ عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين، ومَن في قلوبهم مرض وضعف إيمان..

﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أنهم يقسمون بالله..

﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾..

﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ فيما يستقبل، أو لئن نصصت عليهم حين خرجت..

﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ والمعنىٰ الأول أولىٰ.. قال الله رادًا عليهم..

﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ لا نحتاج إلىٰ إقسامكم ولا إلىٰ أعذاركم، فإنَّ الله قد نبَّأنا من أخباركم..

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ وطاعتكم معروفة، لا تخفىٰ علينا.. قد كنا نعرف منكم التثاقل والكسل من غير عذر، فلا وجه لعذركم وقسمكم.. إنما يحتاج إلىٰ ذلك من كان أمره

محتملًا وحاله مشتبهة، فهذا ربما يفيده العذر براءة.. وأما أنتم فكلا ولمَّا، وإنما ينتظر بكم ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته.. ولهذا **توعدهم بقوله**..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٥٣﴾ [النور:٥٣] **فيجازيكم عليها أتمَّ الجزاء، هذه حالهم في نفس الأمر.. وأما الرسول** عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **فوظيفته أن يأمركم وينهاكم،** ولهذا قال..

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٥٤﴾ [النور:٥٤]

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾..

﴿فَإِن﴾ امتثلوا كان حظكم وسعادتكم.. وإن..

﴿تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ﴾ من الرسالة، وقد أدَّاها..

﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ من الطاعة، وقد بانت حالكم وظهرت، فبان ضلالكم وغيكم واستحقاقكم العذاب..

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ إلىٰ الصراط المستقيم، قولًا وعملًا.. فلا سبيل لكم إلىٰ الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك لا يمكن، بل هو محال..

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٥٤﴾ [النور:٥٤] أي: تبليغكم البين الذي لا يبقي لأحدٍ شكًّا ولا شبهة.. وقد فعل ﷺ، بلَّغ البلاغ المبين.. وإنما الذي يحاسبكم ويجازيكم هو الله تعالىٰ.. فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور:٥٥]

هذا من أوعاده الصادقة، التي شوهد تأويلها ومخبرها..

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ **فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة..**

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها..**

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ **دلت هذه الآية: أن الله قد مكَّن من قبلنا، واستخلفهم في الأرض، كما قال موسىٰ لقومه:** ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩]، **وقال تعالىٰ:** ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥-٦]..

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ **وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها..**

﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ **ارتضاه لهذه الأمة لفضلها وشرفها.. ونعمته عليها بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين..**

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ **وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذىٰ كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جدا بالنسبة إلىٰ غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل.. فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تُشاهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث..**

﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ **يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا، ولا يخافون أحدًا إلا الله.. فقام صدر هذه الأمة من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون علىٰ غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام.. فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلىٰ قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله.. وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويديلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح..**

﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ التمكين والسلطنة التامة لكم، يا معشر المسلمين..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور:٥٥] الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير.. لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره وعدم وجود الأسباب المانعة منه، يدل علىٰ فساد نيته، وخبث طويته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٥٦ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٥٧﴾ [النور:٥٦-٥٧]

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأمر تعالىٰ بإقامة الصلاة، بأركانها وشروطها وآدابها، ظاهرًا وباطنًا..

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، وأعطاهم إياها، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم، ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة.. فهذان أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلىٰ العبيد، **ثم عطف عليهما الأمر العام**، فقال..

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء:٨٠]

﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ حين تقومون بذلك..

﴿تُرۡحَمُونَ ۝٥٦﴾ فمن أراد الرحمة فهذا طريقها.. ومن رجاها من دون إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الرسول، فهو متمن كاذب، وقد منته نفسه الأماني الكاذبة..

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فلا يغررك ما متعوا به في الحياة الدنيا، فإن الله، وإن أمهلهم فإنه لا يهملهم ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [لقمان:٢٤].. ولهذا قال هنا..

﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٥٧﴾ [النور:٥٦-٥٧] بئس المآل مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨﴾ [النور:٥٨]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ **أمر المؤمنين أن يستأذنهم مماليكهم..**

﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ **والذين لم يبلغوا الحلم منهم.. قد ذكر الله حكمته..**

﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ﴾ **وأنه ثلاث عورات للمستأذَن عليهم..**

﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ **وقت انتباههم قبل صلاة الفجر، فهذا -في الغالب- أن النائم يستعمل للنوم في الليل ثوبًا غير ثوبه المعتاد،** وأما نوم النهار، فلما كان في الغالب قليلًا قد **ينام فيه العبد بثيابه المعتادة،** قيده بقوله..

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ **أي: للقائلة، وسط النهار..**

﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ **وعند نومهم بالليل بعد العشاء..**

﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ **ففي ثلاثة هذه الأحوال يكون المماليك والأولاد الصغار كغيرهم،** لا يمكنون من الدخول إلا بإذن.. **وأما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال..**

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ **ليسوا كغيرهم، فإنهم يحتاج إليهم دائمًا، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال..**

﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ **يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم..**

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ **بيانًا مقرونًا بحكمته، ليتأكد ويتقوىٰ ويعرف به** رحمة شارعه وحكمته، ولهذا قال..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨﴾ [النور:٥٨] **له العلم المحيط بالواجبات والمستحيلات والممكنات..** والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطىٰ كلَّ مخلوق خلقه اللائق به، وأعطىٰ كلَّ حكمٍ شرعي حكمَه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بيَّنها وبيَّن مآخذها وحسنها.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩﴾ [النور:٥٩]

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ﴾ **وهو إنزال المني يقظةً أو منامًا..**

﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ﴾ **في سائر الأوقات..**

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ **هم الذين ذكرهم الله بقوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ [النور:٢٧] **الآية..**

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ **ويوضحها، ويفصل أحكامها..**

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩﴾ [النور:٥٩]..

🕮 الفـوائـد

في هاتين الآيتين فوائد:

١- منها: **أن السيد وولي الصغير مخاطبان بتعليم عبيدهم ومن تحت ولايتهم من الأولاد، العلم والآداب الشرعية**؛ لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾ [النور:٥٨] الآية، ولا يمكن ذلك إلا بالتعليم والتأديب، ولقوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ [النور:٥٨].

٢- ومنها: **الأمر بحفظ العورات، والاحتياط لذلك من كل وجه**، وأن المحل والمكان الذي هو مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهي عن الاغتسال فيه والاستنجاء، ونحو ذلك.

٣- ومنها: جواز **كشف العورة لحاجة**، كالحاجة عند النوم، وعند البول والغائط، ونحو ذلك.

٤- ومنها: **أن المسلمين كانوا معتادين للقيلولة** وسط النهار، كما اعتادوا نوم الليل، لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

٥- ومنها: **أن الصغير الذي دون البلوغ، لا يجوز أن يمكَّن من رؤية العورة، ولا يجوز**

أن تُرىٰ عورته، لأن الله لم يأمر باستئذانهم إلا عن أمر ما يجوز.

٦- ومنها: أن المملوك أيضا لا يجوز أن يرىٰ عورة سيده، كما أن سيده لا يجوز أن يرىٰ عورته، كما ذكرنا في الصغير.

٧- ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي، **أن يقرن بالحكم بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجردًا عن الدليل والتعليل**، لأن الله - لما بين الحكم المذكور- علله بقوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ [النور:٥٨].

٨- ومنها: **أن الصغير والعبد مخاطبان**، كما أن وليهما مخاطب لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ [النور:٥٨].

٩- ومنها: **أن ريق الصبي طاهر**، ولو كان بعد نجاسة، كالقيء، لقوله تعالىٰ: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ [النور:٥٨]، مع قول النبي ﷺ حين سئل عن الهرة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات»[1].

١٠- ومنها: جواز استخدام الإنسان مَن تحت يده من الأطفال علىٰ وجه معتاد، لا يشق علىٰ الطفل لقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ [النور:٥٨].

١١- ومنها: أن الحكم المذكور المفصَّل إنما هو لما دون البلوغ، فأما ما بعد البلوغ، فليس إلا الاستئذان.

١٢- ومنها: أن البلوغ يحصل بالإنزال، **فكل حكم شرعي رتب علىٰ البلوغ حصل بالإنزال**، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف هل يحصل البلوغ بالسن، أو الإنبات للعانة، والله أعلم.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [النور:٦٠]

---

(١) اخرجه مالك في [الموطأ/ ١/ ٣١] وغيره من حديث أبي قتادة.

﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة..

﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ لا يطمعن في النكاح، ولا يُطمع فيهن.. وذلك لكونها عجوزًا لا تشتهىٰ، أو دميمة الخِلقة لا تَشتهي ولا تُشتهىٰ..

﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم..

﴿أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: الثياب الظاهرة، كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ [النور:٣١].. فهؤلاء يجوز لهن أن يكشفن وجوههن لأمن المحذور منها وعليها.. ولما كان نفي الحرج عنهن في وضع الثياب ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء، دفع هذا الاحتراز بقوله..

﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ غير مظهرات للناس زينة، من تَجمُّل بثياب ظاهرة، وتستر وجهها، ومن ضرب الأرض برجلها ليعلم ما تخفي من زينتها.. لأن مجرد الزينة علىٰ الأنثىٰ ولو مع تسترها ولو كانت لا تشتهىٰ يفتن فيها، ويوقع الناظر إليها في الحرج..

﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ والاستعفاف: طلب العفة بفعل الأسباب المقتضية لذلك، من تزوج وترك لِمَا يخشىٰ منه الفتنة..

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات..

﴿عَلِيمٞ ٦٠﴾ [النور:٦٠] بالنيات والمقاصد، فليحذرن من كلِّ قول وقصد فاسد، وليَعلَمن أنَّ الله يُجازي علىٰ ذلك.

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦١﴾ [النور:٦١]

يخبر تعالىٰ عن منته علىٰ عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج، بل يسَّره غاية التيسير، فقال..

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾

ليس علىٰ هؤلاء جَناح في ترك الأمور الواجبة، التي تتوقف علىٰ واحدٍ منها.. وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف علىٰ بصر الأعمىٰ، أو سلامة الأعرج، أو صحة للمريض.. ولهذا المعنىٰ العام الذي ذكرناه أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد، كما قيد قوله..

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: حرج..

﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ بيوت **أولادكم**، وهذا موافق للحديث الثابت: «أنت ومالك لأبيك»[1]، والحديث الآخر: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم»[2].. **وليس المراد من قوله** ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ **بيت الإنسان نفسه**، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل الذي ينزه عنه كلام الله، ولأنه نفىٰ الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه فليس فيه أدنىٰ توهم..

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ وهؤلاء معروفون..

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ أي: البيوت التي أنتم **متصرفون فيها** بوكالة، أو ولاية، ونحو ذلك.. **وأما تفسيرها بالمملوك فليس بوجيه**، لوجهين: أحدهما: أن المملوك لا يقال فيه (ملكت مفاتحه) بل يقال: (ما ملكتموه)، أو (ما ملكت أيمانكم)؛ لأنهم مالكون له جملة، لا لمفاتحه فقط، والثاني: أن بيوت المماليك غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه؛ لأن المملوك وما ملكه لسيده، فلا وجه لنفي الحرج عنه..

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وهذا الحرج المنفي عن الأكل من هذه البيوت كل ذلك **إذا كان بدون إذن**.. **والحكمة فيه معلومة من السياق**، فإنَّ هؤلاء المسمِّين قد جرت العادة والعرف

---

(١) أخرجه ابن حبان في [صحيحه/ ٤١٠] وغيره من حديث عائشة.

(٢) أخرجه الترمذي في [جامعه/ ١٣٥٨] وغيره من حديث عائشة.

بالمسامحة في الأكل منها؛ لأجل القرابة القريبة، أو التصرف التام، أو الصداقة.. فلو قدِّر في أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح في الأكل المذكور، لم يجز الأكل، ولم يرتفع الحرج، نظرًا للحكمة والمعنىٰ..

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًاۚ﴾ فكلٌّ ذلك جائز، أَكْلُ أهل البيت الواحد جميعًا، أو أَكلُ كل واحد منهم وحده.. **وهذا نفي للحرج، لا نفي للفضيلة، وإلا فالأفضل الاجتماع علىٰ الطعام..**

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ نكرة في سياق الشرط، **يشمل بيت الإنسان وبيت غيره**، سواء كان في البيت ساكن أم لا، فإذا دخلها الإنسان..

﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فليسلم بعضكم علىٰ بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص واحد، من توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت من غير فرق بين بيت وبيت.. والاستئذان تقدَّم أنَّ فيه تفصيلًا في أحكامه.. **ثم مَدَح هذا السلام** فقال..

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: سلامكم بقولكم: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، أو (السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين) إذ تدخلون البيوت ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم..

﴿مُبَٰرَكَةً﴾ لاشتمالها علىٰ السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة..

﴿طَيِّبَةًۚ﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة وجلب مودة.. لمَّا بيَّن لنا هذه الأحكام الجليلة قال..

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ﴾ الدالات علىٰ أحكامه الشرعية وحكمها..

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٦١﴾ [النور:٦١] عنه فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة.. **فإن معرفة أحكامه الشرعية علىٰ وجهها، يزيد في العقل،** وينمو به اللب؛ لكون معانيها أجل المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك.

🕮 الفـوائـد

١- في هذه الآيات دليل علىٰ: قاعدة عامة كلية وهي: أن **(العرف والعادة مخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ)** فإنَّ الأصل أنَّ الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أنَّ الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، **فكلُّ مسألة تتوقف علىٰ الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.**

٢- وفيها دليل علىٰ: أن **الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره**، لأن الله سمَّىٰ بيته بيتًا للإنسان.

٣- وفيها دليل علىٰ: أن **المتصرف في بيت الإنسان**، كزوجته، وأخته ونحوهما، **يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.**

٤- وفيها دليل علىٰ **جواز المشاركة في الطعام**، سواء أكلوا مجتمعين، أو متفرقين، **ولو أفضىٰ ذلك إلىٰ أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.**

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ [النور:٦٢-٦٤]

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ **هذا إرشاد من الله** لعباده المؤمنين، أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ علىٰ أمر جامع، أي: من ضرورته أو من

مصلحته، أن يكونوا فيه جميعًا، كالجهاد، والمشاورة، ونحو ذلك من الأمور التي يشترك فيها المؤمنون، فإنَّ المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه وعدم تفرقهم..

﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ فالمؤمن بالله ورسوله حقًا، لا يذهب لأمر من الأمور، لا يرجع لأهله، ولا يذهب لبعض الحوائج التي يشذ بها عنهم..

﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ إلا بإذن من الرسول، **أو نائبه من بعده**، فجعل موجب الإيمان عدم الذهاب إلا بإذن.. ومدحهم علىٰ فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وَوَلِيِّ الأمر منهم، فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين: **أحدهما**: أن يكون لشأن من شئونهم، وشغل من أشغالهم، فأما من يستأذن من غير عذر، فلا يؤذن له.. **والثاني**: أن يشاء الإذن فتقتضيه المصلحة، من دون مضرة بالآذن، قال..

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم ذهابه مصلحة برأيه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له، ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر اللهُ رسولَه أن يستغفر له، لِمَا عسىٰ أن يكون مقصرًا في الاستئذان، ولهذا قال..

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ يغفر لهم الذنوب ويرحمهم، بأن جوَّز لهم الاستئذان مع العذر..

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم ودعائكم للرسول كدعاء بعضكم بعضًا، فإذا دعاكم فأجيبوه وجوبًا.. حتىٰ إنه تجب إجابة الرسول ﷺ في حال الصلاة، وليس أحد إذا قال قولًا يجب علىٰ الأمة قبول قوله والعمل به إلا الرسول؛ لعصمته، وكوننا مخاطبين باتباعه، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾ [الأنفال:٢٤].. وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضا، فلا تقولوا: (يا محمد) عند ندائكم، أو (يا محمد بن عبد الله) كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل من شرفه وفضله وتميزه ﷺ عن غيره، أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله..

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ لما مدح المؤمنين بالله ورسوله الذين إذا كانوا معه علىٰ أمرٍ جامع لم يذهبوا حتىٰ يستأذنوه.. توَّعد من لم يفعل ذلك وذهب من غير استئذان، فهو وإن خفي عليكم بذهابه علىٰ وجه خفيّ، وهو المراد بقوله: ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور:٦٣] أي: **يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون،** فالله يعلمهم، وسيجازيهم علىٰ ذلك أتم الجزاء، ولهذا توعدهم بقوله..

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يذهبون إلىٰ بعض شئونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلىٰ شأن من شئونه؟ وإنما ترك أمر الله من دون شغل له..

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك وشر..

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾..

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مَلِكًا وعَبيدًا، يتصرف فيهم بحكمه القدري، وحكمه الشرعي..

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ قد أحاط علمُه بما أنتم عليه، من خير وشر، وعلم جميع أعمالكم، أحصاها علمه، وجرىٰ بها قلمه، وكتبتها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون..

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في يوم القيامة..

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ يخبرهم بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها، إخبارًا مطابقًا لِمَا وقع منهم، ويستشهد عليهم أعضاءهَم، فلا يعدمون منه فضلًا أو عدلًا.. ولمَّا قيَّد علمَه بأعمالهم، **ذكر العموم بعد الخصوص**، فقال..

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [النور:٦٢-٦٤]..

تفسير سورة الفرقان، وهي مكية عند الجمهور

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان:١- ٢]

هذا بيان لعظمته الكاملة وتفرده بالوحدانية من كل وجه، وكثرة خيراته وإحسانه فقال..

﴿تَبَارَكَ﴾ تعاظم وكملت أوصافه، وكثرت خيراته..

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ الذي من أعظم خيراته ونِعَمِهِ أن نزَّل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام، والهُدىٰ والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة..

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ، الذي كمَّل مراتبَ العبودية، وفاق جميعَ المرسلين..

﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال للفرقان علىٰ عبده..

﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ ينذرهم بأسَ اللهِ ونِقَمِهِ، ويبيِّن لهم مواقعَ رضا الله من سخطه، حتىٰ إنَّ من قبل نذارته وعمل بها كان من الناجين في الدنيا والآخرة الذين حصلت لهم السعادة الأبدية والملك السرمدي، فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذي هذا من بعض إحسانه وبركاته..

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له التصرف فيهما وحده، وجميع من فيهما مماليك وعبيد له، مذعنون لعظمته، خاضعون لربوبيته، فقراء إلىٰ رحمته الذي..

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ وكيف يكون له ولد أو شريك وهو المالك وغيره مملوك، وهو القاهر وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه، والمخلوقون

مفتقرون إليه فقرًا ذاتيًا من جميع الوجوه؟ وكيف يكون له شريك في الملك ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا يتحركون أو يسكنون ولا يتصرفون إلا بإذنه، فتعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فلم يقدِّره حق قدره من قال فيه ذلك، ولهذا قال..

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ شمل العالم العلوي والعالم السفلي من حيواناته ونباتاته وجماداته..

﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان:١-٢] أعطىٰ كلَّ مخلوق منها ما يليق به ويناسبه من الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك، بحيث صار كلُّ مخلوق لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد لا يناسبه غير محله الذي هو فيه، قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلىٰ]، وقال تعالىٰ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠] ولمَّا بيَّن كماله وعظمته وكثرة إحسانه، كان ذلك مقتضيًا لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم المفرد بالإخلاص وحده لا شريك له، ناسب أن يذكر **بطلان عبادة ما سواه فقال..**

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ [الفرقان:٣]

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ من أعجب العجائب وأدل الدليل علىٰ سفههم ونقص عقولهم، بل أدل علىٰ ظلمهم وجراءتهم علىٰ ربهم أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة، في كمال العجز أنها لا تقدر علىٰ خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم..

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لا قليلًا ولا كثيرًا، لأنه نكرة في سياق النفي..

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ [الفرقان:٣] أي: بعثا بعد الموت.. فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها وفسادها وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء للخالق لسائر المخلوقات من غير مشاركة له في ذلك، الذي بيده النفع والضر والعطاء والمنع، الذي يحيي ويميت ويبعث من في القبور ويجمعهم ليوم النشور، وقد جعل لهم دارين: دار الشقاء والخزي والنكال لمن اتخذ معه آلهة أخرىٰ، ودار الفوز والسعادة والنعيم المقيم لمن

اتخذه وحده معبودا.. ولمَّا قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده، **قرر صحة الرسالة وبطلان قول من عارضها واعترضها** فقال..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ [الفرقان:٤-٦]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وقال الكافرون بالله الذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن والرسول..

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ إن هذا القرآن كذب كذبه محمد، وإفك افتراه على الله..

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾ وأعانه على ذلك قوم آخرون..

﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤﴾ فَرَدَّ الله عليهم ذلك بـ: أن هذا مكابرة منهم، وإقدام على الظلم والزور، الذي لا يمكن أن يدخل عقلَ أحد، وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول ﷺ وكمال صدقه وأمانته وبره التام، وأنه لا يمكنه لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه على ذلك فقد جاءوا بهذا القول ظلما وزورا..

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد..

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ هذا قصص الأولين وأساطيرهم التي تتلقاها الأفواه وينقلها كلُّ أحد، استنسخها محمد..

﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ وهذا القول منهم فيه عدة عظائم: منها: رميهم الرسول الذي هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب والجرأة العظيمة.. ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله بأنه كذب وافتراء.. ومنها: أن في ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه للخالق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام.. ومنها: أن الرسول قد عُلمت حالته، وهم أشد

الناس علما بها، أنه لا يكتب ولا يجتمع بمن يكتب له وقد زعموا ذلك.. فلذلك رد عليهم ذلك بقوله..

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أنزله من أحاط علمه بما في السماوات وما في الأرض، من الغيب والشهادة والجهر والسر، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء].. **ووجه إقامة الحجة عليهم**: أن الذي أنزله هو المحيط علمه بكل شيء، فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوق ويتقول عليه هذا القرآن، ويقول: هو من عند الله، وما هو من عنده، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم، ويزعم أن الله قال له ذلك، والله يعلم كل شيء، ومع ذلك فهو يؤيده وينصره علىٰ أعدائه، ويمكنه من رقابهم وبلادهم، **فلا يمكن أحدًا أن ينكر هذا القرآن إلا بعد إنكار علم الله**، وهذا لا تقول به طائفة من بني آدم سوىٰ الفلاسفة الدهرية.. **وأيضا**: فإن ذكر علمه تعالىٰ العام ينبههم ويحضهم علىٰ تدبر القرآن، وأنهم لو تدبروا لرأوا فيه من علمه وأحكامه ما يدل دلالة قاطعة علىٰ أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة، ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة من لطف الله بهم، أنه لم يدعهم وظلمهم بل دعاهم إلىٰ التوبة والإنابة إليه ووعدهم بالمغفرة والرحمة، إن هم تابوا ورجعوا فقال..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ أي: وصفه المغفرة لأهل الجرائم والذنوب، إذا فعلوا أسباب المغفرة وهي الرجوع عن معاصيه والتوبة منها..

﴿رَّحِيمًا ٦﴾ [الفرقان:٤-٦] بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة وقد فعلوا مقتضاها.. وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي.. وحيث محا ما سلف من سيئاتهم.. وحيث قبل حسناتهم.. وحيث أعاد الراجع إليه بعد شروده والمقبل عليه بعد إعراضه إلىٰ حالة المطيعين المنيبين إليه.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨ ٱنظُرۡ

﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا ۝١٠ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ [الفرقان:٧-١١]

﴿وَقَالُوا﴾ هذا من مقالة المكذبين للرسول الذين قدحوا بها في رسالته، وهو أنهم اعترضوا بأنه هلا كان مَلَكًا أو مليكًا، أو يساعده مَلَك فقالوا..

﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ﴾ ما لهذا الذي ادعىٰ الرسالة؟ تهكمًا منهم واستهزاء..

﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ وهذا من خصائص البشر، فهلا كان مَلَكًا لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلىٰ ما يحتاج إليه البشر..

﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ للبيع والشراء وهذا -بزعمهم- لا يليق بمن يكون رسولًا، مع أن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ﴾ [الفرقان:٢٠]..

﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ هلَّا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه..

﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها..

﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ مال مجموع من غير تعب..

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ﴾ فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق..

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ حملهم علىٰ القول ظلمهم لا اشتباه منهم..

﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨﴾ هذا! وقد علموا كمال عقله وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن.. ولمَّا كانت هذه الأقوال منهم عجيبة جدًا، قال تعالىٰ..

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ وهي أنه هلَّا كان مَلَكًا وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه ملك لأنه غير قادر علىٰ ما قال؟ أو أنزل عليه كنز؟ أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق؟ أو أنه كان مسحورا؟

﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ قالوا أقوالا متناقضة، كلها جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنىٰ شبهة تقدح في الرسالة، فبمجرد النظر

إليها وتصورها يجزم العاقل ببطلانها ويكفيه عن ردها، ولهذا أمر تعالىٰ بالنظر إليها وتدبرها، والنظر: هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟ ولهذا أخبر أنه قادر علىٰ أن يعطيك خيرًا كثيرًا في الدنيا فقال..

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ﴾ خيرًا مما قالوا، ثم فسَّره بقوله..

﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠﴾ مرتفعة مزخرفة، فقدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك ولكنه تعالىٰ -لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة- أعطىٰ منها أولياءه ورسله ما اقتضته حكمته منها، واقتراحُ أعدائهم بأنهم هلَّا رزقوا منها رزقًا كثيرًا جدًا ظلم وجراءة.. ولمَّا كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد، أخبر تعالىٰ أنها لم تصدر منهم لطلب الحق، ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعنتًا وظلمًا وتكذيبًا بالحق، فقالوا ما بقلوبهم من ذلك، ولهذا قال..

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾ والمكذب المتعنت الذي ليس له قصد في اتباع الحق، لا سبيل إلىٰ هدايته ولا حيلة في مجادلته وإنما له حيلة واحدة، وهي نزول العذاب به، فلهذا قال..

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾ [الفرقان:٧-١١] نارًا عظيمةً قد اشتد سعيرها، وتغيظت علىٰ أهلها واشتد زفيرها.

﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾ [الفرقان:١٢-١٤]

﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ قبل وصولهم ووصولها إليهم..

﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا﴾ عليهم..

﴿وَزَفِيرٗا ١٢﴾ تقلق منهم الأفئدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفًا منها وذعرًا، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لهبها لزيادة كفرهم وشرهم..

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾ وقت عذابهم، وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان، وتزاحم السكان، وتقرينهم بالسلاسل والأغلال، فإذا وصلوا لذلك

المكان النحس، وحبسوا في أشر حبس..

﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عَدَل فيهم الخالق، حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم..

﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾ [الفرقان:١٢-١٤] لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن.

﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦﴾ [الفرقان:١٥-١٦]

لمَّا بيَّن جزاءَ الظالمين ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال..

﴿قُلۡ﴾ لهم مبيِّنًا لسفاهة رأيهم واختيارهم الضار على النافع..

﴿أَذَٰلِكَ﴾ الذي وصفت لكم من العذاب..

﴿خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ التي زادُها تقوى الله، فمن قام بالتقوى فالله قد وعده إياها..

﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ﴾ على تقواهم..

﴿وَمَصِيرٗا ١٥﴾ مَوئِلًا يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائمًا أبدًا..

﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: يطلبون وتتعلق بهم أمانيهم ومشيئتهم، من المطاعم والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العاليات والجنات، والحدائق المرجحنة، والفواكه التي تسر ناظريها وآكليها من حسنها وتنوعها وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وبساتينها، **حيث شاءوا** يصرفونها، ويفجرونها أنهارًا من ماء غير آسن، وأنهارًا من لبن لم يتغير طعمه، وأنهارًا من خمرٍ لذة للشاربين، وأنهارًا من عسل مصفى، وروائح طيبة، ومساكن مزخرفة، وأصوات شجية، تأخذ من حسنها بالقلوب ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب.. وأعلى من ذلك كله التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم وسماع كلامه، والحظوة بقربه والسعادة برضاه، والأمن من سخطه..

﴿خَٰلِدِينَۚ﴾ واستمرار هذا النعيم ودوامه وزيادته علىٰ ممر الأوقات وتعاقب الآنات..

﴿كَانَ﴾ دخولها والوصول إليها..

﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦﴾ [الفرقان:١٥-١٦] يسأله إيَّاها، عباده المتقون بلسان حالهم ولسان مقالهم.. فأي الدارين المذكورتين خير وأولىٰ بالإيثار؟ وأي العامِلين -عمال دار الشقاء أو عمال دار السعادة- أولىٰ بالفضل والعقل والفخر يا أولي الألباب؟ لقد وضح الحق واستنار السبيل، فلم يبق للمفرط عذر في تركه الدليل.. فنرجوك يا من قضيت علىٰ أقوام بالشقاء وأقوام بالسعادة، أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنىٰ وزيادة، ونستغيث بك اللهم من حالة الأشقياء ونسألك المعافاة منها.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ١٧ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان:١٧-٢٠]

يخبر تعالىٰ عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة وتبريهم منهم، وبطلان سعيهم فقال..

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ أي: المكذبين المشركين..

﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ﴾ الله مخاطبًا للمعبودين علىٰ وجه التقريع لمن عبدهم..

﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ١٧﴾ هل أمرتموهم بعبادتكم وزينتم لهم ذلك، أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرؤوا أنفسهم من ذلك..

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ لا يليق بنا ولا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم ونعبدهم وندعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلىٰ عبادتك متبرئين من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحدًا بعبادتنا؟! هذا لا يكون، أو: سبحانك عن..

﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ وهذا كقول المسيح عيسىٰ بن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة:١١٦ - ١١٧] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠- ٤١]، ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦].. فلما نزَّهوا أنفسهم أن يدعُوا لعبادة غير الله، أو يكونوا أضلوهم، ذَكَروا السبب الموجب لإضلال المشركين، فقالوا..

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ في لذات الدنيا وشهواتها ومطالبها النفسية..

﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ اشتغالًا في لذات الدنيا، وإكبابًا علىٰ شهواتها، فحافظوا علىٰ دنياهم وضيعوا دينهم..

﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾﴾ بائرين، لا خير فيهم، ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار.. فذكروا المانع من اتباعهم الهدىٰ، وهو التمتع في الدنيا الذي صرفهم عن الهدىٰ، وعدم المقتضي للهدىٰ، وهو أنهم لا خير فيهم، فإذا عدم المقتضي ووجد المانع فلا تشاء من شر وهلاك إلا وجدته فيهم.. فلمَّا تبرؤوا منهم، قال الله توبيخًا وتقريعًا للعابدين..

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم أمروكم بعبادتهم، ورضوا فعلكم، وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبوكم في ذلك الزعم وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب..

﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا﴾ للعذاب عنكم، بفعلكم، أو بفداء، أو غير ذلك..

﴿وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ لعجزكم وعدم ناصركم.. هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين، كما رأيت، أسوأ حكم، وأشر مصير.. وأما المعاند منهم الذي عرف الحق وصدف عنه فقال في حقه..

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بترك الحق ظلمًا وعنادًا..

﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝١٩﴾ لا يقادِرُ قَدره ولا يبلغ أمره.. ثم قال تعالىٰ جوابًا لقول المكذبين: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧]..

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ فما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام، وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة.. وأما الغنىٰ والفقر فهو فتنة وحكمة من الله تعالىٰ كما قال..

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الرسول فتنة للمرسل إليهم، واختبار للمطيعين من العاصين.. والرسل فتناهم بدعوة الخلق.. والغنىٰ فتنة للفقير.. والفقير فتنة للغني.. وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار، دار الفتن والابتلاء والاختبار.. **والقصد من تلك الفتنة**..

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبة، فيثيبكم مولاكم، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾ [الفرقان:١٧-٢٠] يعلم أحوالكم، ويصطفي من يعلمه يصلح لرسالته، ويختصه بتفضيله، ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٢١ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٢٢ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان:٢١-٢٣]

﴿۞ وَقَالَ﴾ المكذبون للرسول، المكذبون بوعد الله ووعيده..

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد، ولا رجاء لقاء الخالق..

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ هلَّا نزلت الملائكة تشهد لك بالرسالة، وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلًا مستقلين، أو نرىٰ ربنا فيكلمنا ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟.. وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعتو..

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجرأوا هذه الجرأة، فمن أنتم يا فقراء ويا مساكين حتىٰ تطلبوا رؤية الله وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها علىٰ ذلك؟! وأي كبر أعظم من هذا؟!

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ قسوا وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار وأصلب من الحديد لا تلين للحق، ولا تصغي للناصحين.. فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم وآيات الله البينات بالإعراض والتكذيب والمعارضة، فأي عتو أكبر من هذا العتو؟! ولذلك بطلت أعمالهم واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، وحرموا غاية الحرمان..

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ التي اقترحوا نزولها..

﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وذلك أنهم لا يرونها مع استمرارهم علىٰ جرمهم وعنادهم إلا لعقوبتهم وحلول البأس بهم.. **فأوَّل ذلك عند الموت**: إذا تنزلت عليهم الملائكة قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].. **ثم في القبر**: حيث يأتيهم منكر ونكير، فيسألهم عن ربهم ونبيهم ودينهم، فلا يجيبون جوابًا ينجيهم، فيحلون بهم النقمة، وتزول عنهم بهم الرحمة.. **ثم يوم القيامة**: حين تسوقهم الملائكة إلىٰ النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم، ويباشرون عقابهم.. فهذا الذي اقترحوه وهذا الذي طلبوه إن استمروا علىٰ إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه.. وحينئذ يتعوذون من الملائكة ويفرون ولكن لا مفر لهم..

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]..

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ﴾ أي: أعمالهم التي رجوا أن تكون خيرًا لهم وتعبوا فيها..

﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢١-٢٣] أي: باطلًا مضمحلًا، قد خسروه وحرموا أجره وعوقبوا عليه، وذلك لفقده الإيمان، وصدوره عن مكذِّب لله ورسله.. فالعمل الذي يقبله الله ما صدر عن المؤمن المخلص المصدِّق للرسل المتبع لهم فيه.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤﴾ [الفرقان:٢٤]

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الذين آمنوا بالله، وعملوا صالحًا واتقوا ربهم..

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في ذلك اليوم الهائل كثير البلابل..

﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ من أهل النار..

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤﴾ [الفرقان:٢٤] مستقرهم في الجنة، وراحتهم التي هي القيلولة هو المستقر النافع والراحة التامة؛ لاشتمال ذلك علىٰ تمام النعيم الذي لا يشوبه كدر.. بخلاف أصحاب النار، فإن جهنم ساءت مستقرًا ومقيلًا.. وهذا من باب **استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء**؛ لأنه لا خير في مقيل أهل النار ومستقرهم، كقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان:٢٥-٢٩]

يخبر تعالىٰ عن عظمة يوم القيامة وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، ينزل من فوق السماوات، فتنفطر له السماوات وتشقق..

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ وتنزل ملائكة كل سماء، فيقفون صفًا صفًا، إما صفًا واحدًا محيطًا بالخلائق، وإمَّا كل سماء يكونون صفًا، ثم السماء التي تليها صفًا، وهكذا.. **القصد:** أنَّ الملائكة -علىٰ كثرتهم وقوتهم- ينزلون محيطين بالخلق، مذعنين لأمر ربهم، لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، **فما ظنك بالآدمي** الضعيف، خصوصًا الذي بارز مالكه بالعظائم، وأقدم علىٰ مساخطه، ثم قدِم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه

الملك الحق بالحكم الذي لا يجور، ولا يظلم مثقال ذرة ولهذا قال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦] لصعوبته الشديدة، وتعسر أموره عليه.. بخلاف المؤمن، فإنه يسير عليه خفيف الحمل ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾ [مريم]..

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة..

﴿ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لا يبقىٰ لأحد من المخلوقين مُلك، ولا صورة مُلك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم، والأحرار والعبيد، والأشراف وغيرهم.. **ومما يرتاح له القلب وتطمئن به النفس وينشرح له الصدر، أن أضاف المُلك في يوم القيامة لاسمه (الرحمن)**، الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمَّت كلَّ حي، وملأت الكائنات، وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتمَّ بها كل ناقص، وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه الأسماء الدالة علىٰ الغضب، وسبقت رحمته غضبه وغلبته، فلها السبق والغلبة، وخلق هذا الآدمي الضعيف وشرفه وكرمه ليتم عليه نعمته، وليتغمده برحمته، وقد حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه ينتظرون ما يحكم فيهم وما يجري عليهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك علىٰ الله إلا هالك ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة وحقت عليه كلمة العذاب..

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾..

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ بشركه وكفره وتكذيبه للرسل..

﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ تأسفًا وتحسرًا وحزنًا وأسفًا..

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾ طريقًا بالإيمان به وتصديقه واتباعه..

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ وهو الشيطان الإنسي أو الجني..

﴿خَلِيلًا ۝٢٨﴾ حبيبًا مصافيًا، عاديت أنصحَ الناس لي، وأبرهم بي، وأرفقهم بي، وواليت أعدىٰ عدو لي، الذي لم تفدني ولايته إلا الشقاء والخسار والخزي والبوار..

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ حيث زيَّن له ما هو عليه من الضلال بِخَدْعِهِ وتَسويله..

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان:٢٥-٢٩] يزين له الباطل، ويقبِّح له الحق، ويعده

الأماني، ثم يتخلىٰ عنه ويتبرأ منه، كما قال لجميع أتباعه حين قُضي الأمر، وفرغ الله من حساب الخلق: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾ [إبراهيم:٢٢].

الآية.. فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان، وليتدارك الممكن قبل أن لا يمكن، وليوال من ولايته فيها سعادته، وليعاد من تنفعه عداوته، وتضره صداقته.. والله الموفق.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان:٣٠-٣١]

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ مناديًا لربه وشاكيًا له إعراض قومه عمَّا جاء به، ومتأسفًا علىٰ ذلك منهم..

﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم..

﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه.. مع أنَّ الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال علىٰ أحكامه، والمشي خلفه.. قال الله مسليًّا لرسوله ومخبرًا أنَّ هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم فقال:..

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ﴾ من الذين لا يصلحون للخير، ولا يزكون عليه، يعارضونهم، ويردون عليهم، ويجادلونهم بالباطل..

من بعض فوائد ذلك: أن يعلو الحق علىٰ الباطل، وأن يتبين الحق ويتضح اتضاحًا عظيمًا؛ **لأن معارضة الباطل للحق مما تزيده وضوحًا وبيانًا**، وكمالَ استدلالٍ، وأن يتبيَّن ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة وبأهل الباطل من العقوبة.. فلا تحزن عليهم ولا تذهب نفسك عليهم حسرات..

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ يهديك فيحصل لك المطلوب، ومصالح دينك ودنياك..

﴿وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان:٣٠-٣١] ينصرك علىٰ أعدائك، ويدفع عنك كلَّ مكروه في أمر الدين والدنيا، فاكتف به وتوكل عليه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ۝٣٢﴾ [الفرقان:٣٢]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هذا من جملة مقترحات الكفار الذي توحيه إليهم أنفسهم، فقالوا..

﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ كما أنزلت الكتب قبله.. وأي محذور من نزوله علىٰ هذا الوجه؟! بل نزوله علىٰ هذا الوجه أكمل وأحسن، ولهذا قال..

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أنزلناه متفرقًا..

﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن، ازداد طمأنينة وثباتًا، وخصوصًا عند ورود أسباب القلق، فإن نزول القرآن عند حدوث السبب يكون له موقع عظيم وتثبيت كثير، أبلغ مما لو كان نازلًا قبل ذلك، ثم تذكَّره عند حلول سببه..

﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ۝٣٢﴾ [الفرقان:٣٢] مهلناه ودرجناك فيه تدريجًا.. وهذا كله يدل علىٰ اعتناء الله بكتابه القرآن، وبرسوله محمد ﷺ، حيث جعل إنزال كتابه جاريًا علىٰ أحوال الرسول ومصالحه الدينية.. ولهذا قال..

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ۝٣٣﴾ [الفرقان:٣٣]

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك..

﴿إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ۝٣٣﴾ [الفرقان:٣٣] أنزلنا عليك قرآنـًا جامعـًا للحق في معانيه، والوضوح والبيان التام في ألفاظه، فمعانيه كلها حق وصدق، لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظًا وأحسن تفسيرًا، مبيِّن للمعاني بيانًا كاملًا.

🕮 الفوائد

١- في هذه الآية دليل علىٰ: أنه ينبغي للمتكلم في العلم من محدث ومعلم وواعظ، أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، **كذلك العالم يدبر أمر الخلق**.. فكلَّما حدَث موجب أو

حصل موسم أتىٰ بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواعظ الموافقة لذلك.

٢- وفيه رد علىٰ المتكلِّفين من الجهمية ونحوهم، ممن يرىٰ أن كثيرًا من نصوص القرآن محمولة علىٰ غير ظاهرها، ولها معان غير ما يفهم منها، فإذًا -علىٰ قولهم- لا يكون القرآن أحسن تفسيرًا من غيره، وإنما التفسير الأحسن -علىٰ زعمهم- تفسيرهم الذي حرَّفوا له المعاني تحريفًا.

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾ [الفرقان:٣٤]

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ يخبر تعالىٰ عن حال المشركين الذين كذَّبوا رسوله وسوء مآلهم، وأنهم ﴿يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ أشنع مرأىٰ، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب ويجرونهم..

﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الجامعة لكلِّ عذابٍ وعقوبة..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين بهذه الحالة..

﴿شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ ممن آمن بالله وصدق رسله..

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾ [الفرقان:٣٤] وهذا من باب **استعمال أفضل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء**، فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في الدنيا إلىٰ الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلىٰ الوصول إلىٰ جنات النعيم.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ٣٥ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ٣٦ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا

لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان:٣٥-٤٠]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾..

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾..

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾.. **أشار تعالىٰ إلىٰ هذه القصص وقد بسطها في آيات أخر لـ:** يحذر المخاطبين من استمرارهم علىٰ تكذيب رسولهم فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين قريبًا منهم، ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم..

﴿وَعَادًا﴾..

﴿وَثَمُودَا۟﴾ ومنهم من يرون آثارهم عيانًا **كقوم صالح في الحِجر**..

﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾..

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾..

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ﴾ وكالقرية التي **أمطرت مطر السوء بحجارة من سجيل**..

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ﴾ يمرون عليهم مصبحين، وبالليل في أسفارهم.. **فإنَّ** أولئك الأمم ليسوا شرًا منهم، ورسلهم ليسوا خيرًا من رسول هؤلاء ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر:٤٣]..

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان:٣٥-٤٠] ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان -مع ما شاهدوا من الآيات- أنهم **كانوا لا يرجون بعثًا ولا نشورًا**، فلا يرجون لقاء ربهم ولا يخشون نكاله، فلذلك استمروا علىٰ عنادهم، وإلا فقد جاءهم من الآيات ما لا يبقي معه شك ولا شبهة ولا إشكال ولا ارتياب.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان:٤١-٤٣]

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ وإذا رآك يا محمد هؤلاء المكذبون لك المعاندون لآيات الله المستكبرون في الأرض، استهزءوا بك واحتقروك، وقالوا -علىٰ وجه الاحتقار والاستصغار-..

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ غير مناسب ولا لائق أن يبعث الله هذا الرجل..

وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم وقلبهم الحقائق، فإنَّ كلامهم هذا يفهم أن الرسول -حاشاه- في غاية الخسة والحقارة، وأنه لو كانت الرسالة لغيره لكان أنسب ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].. فهذا الكلام لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عنادًا، وهو متجاهل، قصده ترويج ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به.. وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ وجده رجل العالم وهمامهم ومقدمهم في العقل والعلم واللب والرزانة، ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والعفة والشجاعة والكرم وكل خلق فاضل.. وأن المحتقر له والشانئ له قد جمع من السفه والجهل والضلال والتناقض والظلم والعدوان ما لا يجمعه غيره، وحسبه جهلًا وضلالًا أن يقدح بهذا الرسول العظيم والهمام الكريم.. **والقصد من قدحهم** فيه واستهزائهم به **تصلبهم علىٰ باطلهم وغرورًا لضعفاء العقول**.. ولهذا قالوا..

﴿إِن كَادَ﴾ هذا الرجل..

﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ بأن يجعل الآلهة إلهًا واحدًا..

﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لأضلَّنا، زعموا -قبحهم الله- أن الضلال هو التوحيد، وأن الهدىٰ ما هم عليه من الشرك فلهذا تواصوا بالصبر عليه ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص:٦].. وهنا قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:٤٢]، والصبر يحمد في المواضع كلها، إلا في هذا الموضع، فإنه صبر علىٰ أسباب الغضب وعلىٰ الاستكثار من حطب جهنم.. وأما المؤمنون فهم كما قال الله عنهم: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].. ولما كان هذا حكمًا منهم بأنهم المهتدون والرسول ضال، وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم توعدهم

بالعذاب وأخبر أنهم في ذلك الوقت..

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ علمًا حقيقيًا..

﴿حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ﴾ هو..

﴿أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾ [الفرقان] الآيات.. وهل فوق ضلال من جعل إلهه معبوده هواه؟! فما هويه فعله.. فلهذا قال..

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ ألا تعجب من حاله وتنظر ما هو فيه من الضلال؟ وهو يحكم لنفسه بالمنازل الرفيعة؟

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣﴾ [الفرقان:٤١-٤٣] لست عليه بمسيطر مسلَّط، بل إنما أنت منذر، وقد قمت بوظيفتك، وحسابه على الله.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ
إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ [الفرقان:٤٤]

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ﴾ ثم سجَّل تعالى على ضلالهم البليغ بأن سلبهم العقول والأسماع..

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وشبههم في ضلالهم بالأنعام السائمة التي لا تسمع إلا دعاءً ونداءً، صم بكم عمي فهم لا يعقلون..

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ [الفرقان:٤٤] بل هم أضل من الأنعام؛ لأن الأنعام يهديها راعيها، فتهتدي وتعرف طريق هلاكها، فتجتنبه، وهي أيضًا أسلم عاقبة من هؤلاء.. فتبيَّن بهذا أن الرامي للرسول بالضلال أحق بهذا الوصف، وأنَّ كل حيوان بهيم فهو أهدى منه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا
ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦﴾ [الفرقان:٤٥-٤٦]

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك..

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ كمال قدرة ربك وسعة رحمته..

﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أنه مد على العباد الظل وذلك قبل طلوع الشمس..

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾..

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ على الظل..

﴿دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ فلولا وجود الشمس لما عرف الظل، فإن الضد يعرف بضده..

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان:٤٥-٤٦] فكلَّما ارتفعت الشمس تقلَّص الظلُّ شيئًا فشيئًا، حتىٰ يذهب بالكلية.. فتوالي الظل والشمس علىٰ الخلق الذي يشاهدونه عيانًا، وما يترتب علىٰ ذلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وتعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك.. من أدل دليل علىٰ قدرة الله وعظمته وكمال رحمته وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبود المحمود المحبوب المعظم، ذو الجلال والإكرام.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان:٤٧]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ من رحمته بكم ولطفه أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتىٰ تستقروا فيه..

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ وتهدؤوا بالنوم وتسبت حركاتكم، أي: تنقطع عند النوم، فلولا الليل لما سكن العباد، ولا استمروا في تصرفهم، فضرهم ذلك غاية الضرر.. ولو استمر أيضًا الظلام لتعطلت عليهم معايشهم ومصالحهم..

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان:٤٧] ولكنه جعل النهار نشورًا، ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم، فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان:٤٨-٥٠]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ هو وحده الذي رحم عباده، وأدرَّ عليهم رزقه، بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته، وهو المطر، فثار بها السحاب وتألف، وصار كسفًا، وألقحته وأدرته بإذن آمرها والمتصرف فيها، ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله، وليستعدوا له قبل أن يفاجئهم دفعة واحدة..

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ يطهر من الحدث والخبث، ويطهر من الغش والأدناس..

﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا﴾ وفيه بركة من بركته، أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتًا، فتختلف أصناف النوابت والأشجار فيها مما يأكل الناس والأنعام..

﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ نسقيكموه أنتم وأنعامكم.. أليس الذي أرسل الرياح المبشرات، وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل من السماء ماء طهورًا مباركا فيه رزق العباد ورزق بهائمهم، هو الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك معه غيره؟!

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ولما ذكر تعالىٰ هذه الآيات العيانية المشاهدة وصرفها للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه..

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان:٤٨-٥٠] مع ذلك أبي أكثر الخلق إلا كفورًا؛ لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان:٥١-٥٢]

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ يخبر تعالىٰ عن نفوذ مشيئته.. وأنه لو شاء لبعث في كل قرية نذيرًا، أي: رسولًا ينذرهم ويحذرهم، فمشيئته غير قاصرة عن ذلك، ولكن اقتضت حكمته ورحمته بك وبالعباد -يا محمد- أن أرسلك إلىٰ جميعهم، أحمرهم وأسودهم عربيهم وعجميهم إنسهم وجنهم..

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في ترك شيء مما أرسلت به، بل ابذل جهدك في تبليغ ما أرسلت به..

﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ بالقرآن..

﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾ [الفرقان:٥١-٥٢] لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت فابذل جهدك واستفرغ وسعك، ولا تيأس من هدايتهم ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾ [الفرقان:٥٣]

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان، البحر العذب وهي الأنهار السارحة علىٰ وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد..

﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا﴾ حاجزا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منها..

﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾ [الفرقان:٥٣] حاجزًا حصينًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ۝٥٤﴾ [الفرقان:٥٤]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾ وهو الله وحده لا شريك له الذي خلق الآدمي من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة وجعلهم أنسابًا وأصهارًا متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل علىٰ كمال اقتداره لقوله..

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ۝٥٤﴾ [الفرقان:٥٤] ويدل علىٰ أن عبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة لقوله..

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ۝٥٥﴾ [الفرقان:٥٥]

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ يعبدون أصنامًا وأمواتًا، لا تضر ولا تنفع، ويجعلونها أندادًا لمالك النفع والضرر والعطاء والمنع.. مع أن الواجب عليهم أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم، ذابين عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية..

﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان:٥٥] فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد أعداء لله، فالكافر عاونها وظاهرها على ربها، وصار عدوًا لربه مبارزًا له في العداوة والحرب.. هذا وهو الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو -بجهله- مستمر على هذه المعاداة والمبارزة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان:٥٦-٦٠]

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ يخبر تعالى: أنه ما أرسل رسوله محمدًا ﷺ مسيطرًا على الخلق، ولا جعله مَلَكًا ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله ﴿مُبَشِّرٗا﴾ يبشر من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل..

﴿وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾﴾ ينذر من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل.. وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة وما تحصل به النذارة من الأوامر والنواهي..

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ وإنك -يا محمد- لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجرًا، حتى يمنعهم ذلك من اتباعك ويتكلفون من الغرامة..

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾﴾ إلا من شاء أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله فهذا، وإنَّ رغبتكم فيه فلست أجبركم عليه، وليس أيضًا أجرًا لي عليكم، وإنما هو

راجع لمصلحتكم وسلوككم للسبيل الموصلة إلىٰ ربكم.. ثم أمره أن يتوكل عليه ويستعين به فقال..

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ﴾ الذي له الحياة الكاملة المطلقة..

﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ اعبده وتوكَّل عليه في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق..

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ يعلمها ويجازي عليها.. فأنت ليس عليك من هداهم شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم، وإنما ذلك كله بيد الله..

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ بعد ذلك..

﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأجملها..

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ استوىٰ علىٰ عرشه الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء، فاستوىٰ علىٰ أوسع المخلوقات بأوسع الصفات.. **فأثبت بهذه الآية: خلقه للمخلوقات، واطلاعه علىٰ ظاهرهم وباطنهم، وعلوه فوق العرش، ومباينته إياهم..**

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته ما تستعدون به من معرفته.. فعرفه العارفون وخضعوا لجلاله.. واستكبر عن عبادته الكافرون واستنكفوا عن ذلك.. ولهذا قال..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ وَحدَه الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم..

﴿قَالُوا۟﴾ جحودًا وكفرًا..

﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بزعمهم الفاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله وهو يدعو معه إلهًا آخر، يقول: (يا رحمن) ونحو ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]، فأسماؤه تعالىٰ كثيرة لكثرة أوصافه وتعدد كماله، فكلُّ واحدٍ منها دلَّ علىٰ صفة كمال..

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ لمجرد أمرك إيَّانا.. وهذا مبني منهم علىٰ التكذيب بالرسول واستكبارهم عن طاعته..

﴿وَزَادَهُمْ﴾ دعوتهم إلىٰ السجود للرحمن..

﴿نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان:٥٦-٦٠] هربًا من الحق إلىٰ الباطل وزيادة كفر وشقاء.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان:٦١-٦٢]

كرر تعالىٰ في هذه السورة الكريمة قوله:﴿ تَبَارَكَ ﴾ ثلاث مرات: لأن معناها كما تقدَّم أنَّها تدل علىٰ: عظمة الباري.. وكثرة أوصافه.. وكثرة خيراته وإحسانه..

وهذه السورة فيها: من الاستدلال علىٰ **عظمته** وسعة سلطانه ونفوذ مشيئته وعموم علمه وقدرته وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته.. وفيها ما يدل علىٰ سعة رحمته وواسع جوده **وكثرة خيراته الدينية والدنيوية** ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن فقال..

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ وهي النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة فإنَّها رجوم للشياطين..

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ فيه النور والحرارة وهو الشمس..

﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ فيه النور، لا الحرارة.. وهذا من أدلة عظمته، وكثرة إحسانه، فإنَّ ما فيها من الخلق الباهر والتدبير المنتظم والجمال العظيم دال علىٰ عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع دليل علىٰ كثرة خيراته..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يذهب أحدهما فيخلفه الآخر، هكذا أبدًا لا يجتمعان ولا يرتفعان..

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر، ويستدل بهما علىٰ كثير من

المطالب الإلهية، ويشكر الله علىٰ ذلك..

﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان:٦١-٦٢] ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وله وِردٌ من الليل أو النهار، فمن فاته ورده من أحدهما أدركه في الآخر.. وأيضا فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل والذكر والغفلة والقبض والبسط والإقبال والإعراض.. فجعل الله الليل والنهار يتوالىٰ علىٰ العباد ويتكرران ليحدث لهم الذكر والنشاط والشكر لله في وقت آخر.. ولأن أوراد العبادات تتكرر بتكرر الليل والنهار، فكما تكررت الأوقات أحدث للعبد همة غير همته التي كسلت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها.. فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمده، فلولا ذلك لذوىٰ غرس الإيمان ويبس.. فلله أتم حمد وأكمله علىٰ ذلك.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟
سَلَٰمًا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا ۝٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا
۝٦٧ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠
وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾ [الفرقان:٦٣-٧١]

ثم ذكر من جملة كثرة خيره منته علىٰ عباده الصالحين وتوفيقهم للأعمال الصالحات التي أكسبتهم المنازل العاليات في غرف الجنات فقال..

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ **العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته** فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون ﴿إِن كُلُّ مَن فِى

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:٩٣].. **وعبودية لألوهيته** وعبادته ورحمته، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه، **وهي المراد هنا**.. ولهذا أضافها إلىٰ اسمه (الرحمن)، إشارة إلىٰ أنهم إنَّما وصلوا إلىٰ هذه الحال بسبب رحمته.. فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم..

﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ ساكنين متواضعين لله والخلق فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده..

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ خطاب جهل بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف..

﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ خاطبوهم خطابًا يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله.. وهذا مدح لهم بالحلم الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزانة العقل الذي أوصلهم إلىٰ هذه الحال..

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾ يكثرون من صلاة الليل، مخلصين فيها لربهم، متذللين له، كما قال تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٦- ١٧]..

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾ ادفعه عنَّا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وقع منا مما هو مقتض للعذاب..

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥﴾ ملازمًا لأهلها بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه..

﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ وهذا منهم علىٰ وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب، وليتذكروا منة الله عليهم، فإن صرف الشدة بحسب شدتها وفظاعتها يعظم وقعها ويشتد الفرح بصرفها..

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ النفقات الواجبة والمستحبة..

﴿لَمۡ يُسۡرِفُواْ﴾ بأن يزيدوا علىٰ الحد، فيدخلوا في قسم التبذير وإهمال الحقوق الواجبة..

﴿وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ فيدخلوا في باب البخل والشح..

﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم..

﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الإسراف والتقتير..

﴿قَوَامًا ۝٦٧﴾ يبذلون في الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي من غير ضرر ولا ضرار.. وهذا من عدلهم واقتصادهم..

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ بل يعبدونه وحده، مخلصين له الدين حنفاء، مقبلين عليه، معرضين عما سواه..

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهي نفس المسلم والكافر المعاهد..

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، والكافر الذي يحل قتله..

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون:٦]..

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الشرك بالله، أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو الزنا، فسوف..

﴿يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾ ثم فسره بقوله..

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ﴾ في العذاب..

﴿مُهَانًا ۝٦٩﴾ فالوعيد **بالخلود لمن فعلها كلها** ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله.. وكذلك **الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة**، لكونها إما شرك وإما من أكبر الكبائر.. وأما **خلود القاتل والزاني** في العذاب فإنه لا يتناوله الخلود؛ لأنه قد دلَّت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن ولو فعل من المعاصي ما فعل.. ونص تعالى على **هذه الثلاثة لأنها من أكبر الكبائر**: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان والزنا فيه فساد الأعراض..

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود..

﴿وَآمَنَ﴾ بالله إيمانًا صحيحًا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات..

﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله..

﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانًا، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس

السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة، تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية.. وورد في ذلك **حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه فعددها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: (يا رب إن لي سيئات لا أراها هاهنا)**(١)..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة..

﴿رَّحِيمًا ۝٧٠﴾ بعباده، حيث دعاهم إلىٰ التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفقهم لها، ثم قَبِلَها منهم..

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾ [الفرقان:٦٣-٧١] فليعلم أن توبته في غاية الكمال؛ لأنها رجوع إلىٰ الطريق الموصل إلىٰ الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فليخلص فيها وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة.. **فالمقصود من هذا:** الحث علىٰ تكميل التوبة وإيقاعها علىٰ أفضل الوجوه وأجلها، ليُقدم علىٰ من تاب إليه فيوفيه أجره بحسب كمالها.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝٧٢ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ۝٧٧﴾ [الفرقان:٧٢-٧٧]

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ لا يحضرون الزور، أي: القول والفعل المحرم.. فيجتنبون جميع المجالس المشتملة علىٰ الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة.. كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير، والصور، ونحو ذلك.. وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن

(١) أخرجه مسلم [١٩٠] وغيره من حديث أبي ذر.

باب أولىٰ وأحرىٰ أن لا يقولوه ويفعلوه.. **وشهادة الزور داخلة في قول الزور تدخل في هذه الآية بالأولوية..**

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم..

﴿مَرُّواْ كِرَامًا ۝٧٢﴾ نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا أن الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة، فربأوا بأنفسهم عنه.. وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ [الفرقان:٧٢] إشارة إلىٰ أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه..

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها..

﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣﴾ لم يقابلوها بالإعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝١٥﴾ [السجدة:١٥] يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذانا سامعة وقلوبًا واعية، فيزداد بها إيمانهم ويتم بها إيقانهم وتحدث لهم نشاطًا، ويفرحون بها سرورًا واغتباطًا..

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾ قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات..

﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ تقر بهم أعيننا.. وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفنا من هممهم وعلو مرتبتهم أنهم لا تقر أعينهم حتىٰ يروهم مطيعين لربهم عالمين عاملين.. وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه **دعاء لأنفسهم**؛ لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم فقالوا﴿ هَبْ لَنَا ﴾.. بل دعاؤهم يعود إلىٰ **نفع عموم المسلمين**؛ لأن بصلاح من ذُكِر يكون سببًا لصلاح كثير ممن يتعلق بهم وينتفع بهم..

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ أوصلنا يا ربنا إلىٰ هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين.. وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يقتدىٰ بأفعالهم، ويُطمئن لأقوالهم، ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون

ويهتدون.. **ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به**، وهذه الدرجة -درجة الإمامة في الدين- لا تتم إلا بالصبر واليقين كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، **فهذا الدعاء يستلزم**: من الأعمال، والصبر علىٰ طاعة الله، وعن معصيته وأقداره المؤلمة، ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلىٰ درجة اليقين، خيرًا كثيرًا، وعطاءً جزيلًا، وأن يكونوا في أعلىٰ ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل.. ولهذا، لما كانت هممهم ومطالبهم عالية، كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات فقال..

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: المنازل الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهىٰ وتلذه الأعين.. وذلك بسبب صبرهم نالوا ما نالوا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤] ولهذا قال هنا..

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً﴾ من ربهم، ومن ملائكته الكرام، ومن بعض علىٰ بعض..

﴿وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾ ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات..

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.. ولما كان الله تعالىٰ قد أضاف هؤلاء العباد إلىٰ رحمته واختصهم بعبوديته لشرفهم وفضلهم، ربما توهم متوهم أنه وأيضًا غيرهم، فلِمَ لا يدخل في العبودية؟ فأخبر تعالىٰ أنه لا يبالي ولا يعبأ بغير هؤلاء، وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ما عبأ بكم ولا أحبكم فقال..

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان:٧٢-٧٧]

أي: عذابا يلزمكم لزوم الغريم لغريمه وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

📖 الفوائد

الحاصل: أن الله وصفهم بـ:

الوقار والسكينة والتواضع له ولعباده.

وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق.

والعفو عن الجاهلين، والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان.

وقيام الليل والإخلاص فيه.

والخوف من النار، والتضرع لربهم أن ينجيهم منها.

وإخراج الواجب والمستحب في النفقات، والاقتصاد في ذلك.

وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولىٰ.

والسلامة من كبائر الذنوب.

والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته.

والعفة عن الدماء والأعراض والتوبة عند صدور شيء من ذلك.

وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية، ولا يفعلونها بأنفسهم.

وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولي وفعلي.

وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها، والتفهم لمعانيها والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها.

وأنهم يدعون الله تعالىٰ بأكمل الدعاء، في الدعاء الذي ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم.

ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم؛ لأن من حرص علىٰ شيء ودعا الله فيه لا بد أن يكون متسببا فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلىٰ الدرجات الممكنة لهم وهي درجة الإمامة والصديقية.

فلله ما أعلىٰ هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب، وأزكىٰ تلك النفوس وأطهر تلك القلوب وأصفىٰ هؤلاء الصفوة وأتقىٰ هؤلاء السادة.. ولله فضل الله عليهم ونعمته ورحمته التي جللتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلىٰ هذه المنازل.. ولله منة الله علىٰ عباده أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هيئاتهم وبين لهم هممهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشتاقوا إلىٰ الاتصاف بأوصافهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي من

عليهم وأكرمهم الذي فضله في كل زمان ومكان، وفي كل وقت وأوان، أن يهديهم كما هداهم ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم.. فاللهم لك الحمد وإليك المشتكىٰ وأنت المستعان وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا ولا نقدر علىٰ مثقال ذرة من الخير إن لم تيسر ذلك لنا، فإنا ضعفاء عاجزون من كل وجه.

نشهد أنك إن وكلتنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين وكلتنا إلىٰ ضعف وعجز وخطيئة، فلا نثق يا ربنا إلا برحمتك التي بها خلقتنا ورزقتنا وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة وصرفت عنا من النقم، فارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك فلا خاب من سألك ورجاك.

تم تفسير سورة (الفرقان)

فلله الحمد والثناء والشكر أبدًا

تفسير سورة الشعراء، وهي مكية عند الجمهور

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء:١-٩]

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ يشير الباري تعالىٰ إشارة تدل علىٰ التعظيم لآيات الكتاب المبين البيِّن الواضح.. الدال علىٰ جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقىٰ عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به، لوضوحه ودلالته علىٰ أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحكمها، وتعليقها بمناسبها.. فكان رسول الله ﷺ ينذر به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم.. فيهتدي بذلك عباد الله المتقون.. ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء.. فكان يحزن حزنًا شديدًا، علىٰ عدم إيمانهم، حرصًا منه علىٰ الخير، ونصحا لهم.. فلهذا قال تعالىٰ عنه..

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ مهلكها وشاق عليها..

﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإنَّ الهداية بيد الله، وقد أديت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية، حتىٰ ننزلها، ليؤمنوا بها، فإنه كاف شاف، لمن يريد الهداية، ولهذا قال..

﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾ من آيات الاقتراح..

﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ﴾ أعناق المكذبين..

﴿لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ ولكن لا حاجة إلىٰ ذلك، ولا مصلحة فيه، فإنه إذ ذاك الوقت يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع الإيمان بالغيب، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام:١٥٨] الآية..

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم..

﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ بقلوبهم وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدَث، الذي جرت العادة أنه يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن غيره؟ وهذا لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم المواعظ، ولهذا قال..

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بالحق، وصار التكذيب لهم سجية، لا تتغير ولا تتبدل..

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ سيقع بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حقت عليهم، كلمة العذاب.. قال الله منبها علىٰ التفكر الذي ينفع صاحبه..

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ ن جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ﴾ علىٰ إحياء الله الموتىٰ بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها..

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي.. العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات..

﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء:١-٩] الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلىٰ كل حي.. الرحيم بالسعداء، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾ [الشعراء:١٠-١٤]

أعاد الباري تعالىٰ، قصة موسىٰ وثناها في القرآن ما لم يثن غيرها.. لكونها مشتملة علىٰ حِكَم عظيمة، وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرىٰ، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن فقال..

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ واذكر حالة موسىٰ الفاضلة، وقت نداء الله إياه، حين كلَّمه ونبَّأه وأرسله فقال..

﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ الذين تكبروا في الأرض، وعلوا علىٰ أهلها وادعىٰ كبيرهم الربوبية..

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ قل لهم، بلين قول، ولطف عبارة..

﴿أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ الله الذي خلقكم ورزقكم، فتتركون ما أنتم عليه من الكفر.. فقال موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، معتذرًا من ربه، ومبيِّنًا لعذره، وسائلًا له المعونة علىٰ هذا الحِمل الثقيل..

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ [طه: ٢٥-٣٠]..

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ فأجاب الله طلبته ونبأ أخاه هارون كما نبأه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤] أي معاونا لي علىٰ أمري أن يصدقوني..

﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ في قتل القبطي..

﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: ١٠-١٤]..

﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: ١٥-٢٢]

﴿قَالَ كَلَّا﴾ لا يتمكنون من قتلك، فإنا سنجعل لكما سلطانًا، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا

بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص:٣٥] ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسىٰ مع منابذته له غاية المنابذة، وتسفيه رأيه وتضليله وقومه..

﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الدالة علىٰ صدقكما وصحة ما جئتما به..

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ أحفظكما وأكلؤكما..

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ أرسلنا إليك لتؤمن به وبنا وتنقاد لعبادته وتذعن لتوحيده..

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ فكف عنهم عذابك وارفع عنهم يدك ليعبدوا ربهم ويقيموا أمر دينهم.. فلما جاءا فرعون وقالا له ما قال الله لهما لم يؤمن فرعون ولم يلن، وجعل يعارض موسىٰ فـ..

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ ألم ننعم عليك ونقم بتربيتك منذ كنت وليدًا في مهدك ولم تزل كذلك..

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾..

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ وهي قتل موسىٰ للقبطي، حين استغاثه الذي من شيعته، علىٰ الذي من عدوه ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥] الآية..

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا، وسبيلك سبيلنا، في الكفر، فأقر علىٰ نفسه بالكفر، من حيث لا يدري.. فـ..

﴿قَالَ﴾ موسىٰ..

﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي..

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ حين تراجعتم بقتلي، فهربت إلىٰ مدين، ومكثت سنين، ثم جئتكم..

﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾..

فالحاصل: أن اعتراض فرعون علىٰ موسىٰ، اعتراض جاهل أو متجاهل، فإنه جعل المانع من كونه رسولًا أن جرىٰ منه القتل.. فبيَّن له موسىٰ أن قتله كان علىٰ وجه الضلال والخطأ، الذي لم يقصد نفس القتل، وأن فَضلَ الله تعالىٰ غير ممنوع منه أحد، فلم منعتم ما

منحني الله من الحكم والرسالة؟!.. بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء:١٨] وعند التحقيق يتبيَّن **أن لا منَّة لك فيها، ولهذا قال موسىٰ..**

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَاءِيلَ ۝٢٢﴾ [الشعراء:١٥-٢٢] **تدلي عليَّ** بهذه المنة **لأنك سخَّرت بني إسرائيل**، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، **وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها عليَّ نعمة**.. فعند التصور، يتبين أن **الحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل**، وعذبتهم وسخرتهم بأعمالك، **وأنا قد سلمني الله من أذاك، مع وصول أذاك لقومي**، فما هذه المنة التي تبت بها وتدلي بها؟!

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ۝٢٩﴾ [الشعراء:٢٤-٢٩]

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٣﴾ وهذا إنكار منه لربِّه، ظلمًا وعلوًا، مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسىٰ..

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية.. ومن جملة ذلك: أنتم أيها المخاطبون، فكيف تنكرون خالق المخلوقات، وفاطر الأرض والسماوات..

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾ فـ..

﴿قَالَ﴾ فرعون..

﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ متجرهمًا، ومعجبًا لقومه..

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥﴾ ما يقول هذا الرجل، فـ..

﴿قَالَ﴾ موسىٰ..

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦﴾ تعجبتم أم لا، استكبرتم أم أذعنتم.. ف..

﴿قَالَ﴾ فرعون معاندًا للحق، قادحًا بمن جاء به..

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧﴾ حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالَفنا فيما ذهبنا إليه.. **فالعقل عنده وأهل العقل**: من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجد، وأنهم بأنفسهم خلقوا من غير خالق.. **والعقل عنده**: أن يعبد المخلوق الناقص من جميع الوجوه.. **والجنون عنده**: أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي، والمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، ويدعو إلىٰ عبادته.. وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤] ف..

﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مجيبًا لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين..

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من سائر المخلوقات..

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾ فقد أديت لكم من البيان والتبيين ما يفهمه كلُّ من له أدنىٰ مسكة من عقل، فما بالكم تتجاهلون فيما أخاطبكم به؟!.. وفيه إيماء وتنبيه إلىٰ أن **الذي رميتم به موسىٰ من الجنون أنه داؤكم**، فرميتم أزكىٰ الخلق عقلًا وأكملهم علمًا بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين، **حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات**، خالق الأرض والسماوات وما بينهما، فإذا جحدتموه فأي شيء تثبتون؟! وإذا جهلتموه، فأي شيء تعلمون؟! وإذا لم تؤمنوا به وبآياته، فبأي شيء -بعد الله وآياته- تؤمنون؟! تالله، إن المجانين الذين بمنزلة البهائم أعقل منكم، وإن الأنعام السارحة أهدىٰ منكم.. **فلما خنقت فرعون الحجة، وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة**..

﴿قَالَ﴾ متوعدًا لموسىٰ بسلطانه..

﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩﴾ [الشعراء:٢٤-٢٩] زعم -قبحه الله- أنه قد طمع في إضلال موسىٰ، وأن لا يتخذ إلهًا غيرَه، وإلا فقد تقرر أنه هو ومن معه علىٰ بصيرة من أمرهم.. ف..

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٧]

﴿قَالَ﴾ له موسىٰ..

﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ آية ظاهرة جلية، علىٰ صحة ما جئت به، من خوارق العادات..

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١﴾..

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾ ذَكَرُ الحيَّات..

﴿مُّبِينٌ ۝٣٢﴾ ظاهرٌ لكل أحد، لا خيال، ولا تشبيه..

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه..

﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣﴾ لها نور عظيم، لا نقص فيه لمن نظر إليها..

﴿قَالَ﴾ فرعون..

﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ معارضًا للحق، ومن جاء به..

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ موَّه عليهم؛ لعلمه بضعف عقولهم.. أنَّ هذا من جنس ما يأتي به السحرة؛ لأنه من المتقرر عندهم أن السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس.. وخوَّفهم أن قصده بهذا السحر التوصل إلىٰ إخراجهم من وطنهم، ليجدُّوا ويجتهدوا في معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم..

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥﴾ أن نفعل به؟

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أَخِّرهُما..

﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦﴾ جامعين للناس..

﴿يَأۡتُوكَ﴾ أولئك الحاشرون..

﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ۝٣٧﴾ [الشعراء:٣٠-٣٧] ابعث في جميع مدنك، التي هي مقر العلم، ومعدن السحر، من يجمع لك كل ساحر ماهر، عليم في سحره، فإن الساحر يقابل بسحر من جنس سحره.. وهذا من لطف الله: أن يُرِي العبادَ بطلان ما موَّه به فرعونُ الجاهلُ الضال المضل، أن ما جاء به موسىٰ سحر.. قيَّضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم، فيظهر الحقُّ علىٰ الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسىٰ، وأنه ليس بسحر.. فَعَمِل فرعونُ برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ۝٤٣ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾ [الشعراء:٣٩-٤٨]

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٣٨﴾ قد واعدهم إياه موسىٰ، وهو يوم الزينة، الذي يتفرغون فيه من أشغالهم..

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ۝٣٩﴾ نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود..

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾ قالوا للناس: اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسىٰ، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فنتبعهم، ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر.. فلو وُفِّقُوا للحق لقالوا: (لعلنا نتبع المحق منهم، ولنعرف الصواب)، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك، إلا قيام الحجة عليهم..

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ ووصلوا لفرعون..

﴿قَالُوٓاْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤١﴾ لموسىٰ؟

﴿قَالَ نَعَمۡ﴾ لكم أجر وثواب..

﴿وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٢﴾ عندي.. وَعَدَهم الأجرَ والقُربةَ منه؛ ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسىٰ.. **فلما اجتمعوا للموعد**، هم وموسىٰ، وأهل مصر، **وعظهم موسىٰ وذكَّرهم** وقال: ﴿وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ [طه:٦١].. فتنازعوا وتخاصموا، ثم شجعهم فرعون، وشجَّع بعضهم بعضًا.. فـ..

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ۝٤٣﴾ ألقوا كلَّ ما في خواطركم إلقاؤه، ولم يقيده بشيء دون شيء، لجزمه ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق..

﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ﴾ فإذا هي حيات تسعىٰ، وسحروا بذلك أعين الناس..

﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾ فاستعانوا بعزة عبد ضعيف عاجز من كل وجه، إلا أنه قد تجبر، وحصل له صورة ملك وجنود، فغرتهم تلك الأبهة، ولم تنفذ بصائرهم إلىٰ حقيقة الأمر.. أو أن هذا قسم منهم بعزة فرعون، والمقسم عليه أنهم غالبون..

﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ﴾ تبتلع وتأخذ..

﴿مَا يَأۡفِكُونَ ۝٤٥﴾ فالتفت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي، لأنها إفك وكذب وزور، وذلك كله باطل لا يقوم للحق، ولا يقاومه.. فلما رأىٰ السحرة هذه الآية العظيمة، تيقنوا -لعلمهم- أن هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله، ومعجزة تنبئ بصدق موسىٰ، وصحة ما جاء به..

﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦﴾ لربهم..

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾ [الشعراء:٣٩-٤٨] وانقمع الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه ببطلانه.. ووضح الحق وظهر، حتىٰ رأىٰ ذلك الناظرون بأبصارهم.. ولكن أبىٰ فرعون إلا عتوًا وضلالًا وتماديًا في غيه وعنادًا، فـ..

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء:٤٩-٥١]

﴿قَالَ﴾ للسحرة..

﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ يتعجب.. ويُعجِّب قومه من: جَراءتهم عليه، وإقدامهم علىٰ الإيمان من غير إذنه ومؤامرته..

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ هذا.. وهو الذي جمع السحرة، وملأه الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم.. وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسىٰ ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاءوا من السحر بما يحير الناظرين ويهيلهم.. ومع ذلك، فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم وقفوا علىٰ بطلانه.. فلا يستنكر علىٰ أهل هذه العقول أن لا يؤمنوا بالحق الواضح، والآيات الباهرة.. لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان إنه علىٰ خلاف حقيقته، صدَّقوه..

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.. ثم تَوعَّد السحرةَ فقال..

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ اليد اليمنىٰ والرجل اليسرىٰ، كما يفعل بالمفسد في الأرض..

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ لتختزوا، وتذلوا..

﴿قَالُوا۟﴾ فقال السحرة حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته..

﴿لَا ضَيْرَ﴾ لا نبالي بما توعدتنا به..

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ من الكفر والسحر، وغيرهما..

﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء:٤٩-٥١] بموسىٰ، من هؤلاء الجنود.. فثبتهم الله وصبرهم.. **فيحتمل:** أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به، لسلطانه، واقتداره إذ ذاك.. **ويحتمل:** أن الله منعه منهم.. ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين علىٰ كفرهم.. يأتيهم موسىٰ بالآيات البيِّنات، وكلما جاءتهم آية وبلغت منهم كلَّ مبلغ وعدوا موسىٰ وعاهدوه

لئن كشف الله عنهم ليؤمنن به، وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم ينكثون.. فلما يئس موسىٰ من إيمانهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وآن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرهم، ويمكِّن لهم في الأرض، أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ..

﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء:٥٢-٦٣]

﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ..

﴿أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ﴾ اخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم..

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ سيتبعكم فرعون وجنوده.. ووقع كما أخبر، فإنهم لمَّا أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسىٰ..

﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ يجمعون الناس، ليوقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعًا لقومه..

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: بني إسرائيل..

﴿لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾..

﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ونريد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد، الذين أَبِقُوا مِنَّا..

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ الحذر علىٰ الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة.. فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم ونفير عام، لم يتخلف منهم سوىٰ أهل الأعذار، الذين منعهم العجز.. قال الله تعالىٰ..

﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾﴾ بساتين مصر وجناتها الفائقة.. وعيونها المتدفقة.. وزروع قد ملأت أراضيهم، وعَمُرَت بها حاضرتُهم وبواديهم..

﴿وَكُنُوزٍ﴾..

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ يعجب الناظرين، ويلهي المتأملين.. تمتعوا به دهرًا طويلًا، وقضوا بلذته وشهواته عمرًا مديدًا، علىٰ الكفر والفساد، والتكبر علىٰ العباد، **والتيه العظيم**..

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ هذه البساتين والعيون، والزروع، والمقام الكريم..

﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يؤتي المُلك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويذلُّ من يشاء بمعصيته..

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ اتبع قومُ فرعون قومَ موسىٰ وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين، علىٰ غيظ وحنق قادرين..

﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ﴾ أي: رأىٰ كلٌّ منهما صاحبه..

﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ﴾ شاكين لموسىٰ وحزنين..

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ فـ..

﴿قَالَ﴾ موسىٰ، مثبتًا لهم، ومخبرًا لهم بوعد ربه الصادق..

﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون..

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم..

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه..

﴿فَانفَلَقَ﴾ اثني عشر طريقًا..

﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ﴾ الجبل..

﴿الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء:٥٢-٦٣] فدخله موسىٰ وقومه..

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء:٦٦-٦٨]

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ في ذلك المكان..

﴿ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤﴾ فرعون وقومه، قربناهم وأدخلناهم في ذلك الطريق، الذي سلك منه موسىٰ وقومه..

﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥﴾ استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد..

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦﴾ لم يتخلف منهم عن الغرق أحد..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ عظيمة، علىٰ صدق ما جاء به موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وبطلان ما عليه فرعون وقومه..

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧﴾ مع هذه الآيات المقتضية للإيمان، لفساد قلوبكم..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨﴾ [الشعراء:٦٦-٦٨] بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجَّىٰ موسىٰ، ومن معه أجمعين.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ
أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ
يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ
تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧
ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ
يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ
ٱلدِّينِ ٨٢ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي
ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦
وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ
٨٩ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ٩١ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ
تَعۡبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ٩٣ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤
وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ٩٥ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ
مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩ فَمَا لَنَا مِن

شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الشعراء:٦٩-١٠٤]

﴿وَٱتۡلُ﴾ واتل يا محمد..

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ علىٰ الناس..

﴿نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ نبأ إبراهيم الخليل، وخبره الجليل.. **في هذه الحالة بخصوصها**، وإلا فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها، **هذا النبأ المتضمن لرسالته، ودعوته قومه**، ومحاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه.. ولذلك **قيده بالظرف** فقال..

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ﴾ متبجحين بعبادتهم..

﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا﴾ ننحتها ونعملها بأيدينا..

﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ مقيمين علىٰ عبادتها في كثير من أوقاتنا.. فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم، مبينًا لعدم استحقاقها للعبادة..

﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم، ويزيلون عنكم كل مكروه؟!

﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها.. فلا تسمع دعاءً، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسَّرها وقال: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٣] قالوا له: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٥] أي: هذا أمر متقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك.. **فلجأوا إلىٰ تقليد آبائهم الضالين**، فـ..

﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ فتبعناهم علىٰ ذلك، وسلكنا سبيلهم، وحافظنا علىٰ عاداتهم، فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم: **أنتم وآباءكم كلكم خصوم في الأمر**، والكلام مع الجميع واحد..

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾ فليضروني بأدنىٰ شيء من الضرر، وليكيدوني، فلا يقدرون..

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ هو المنفرد بنعمة الخلق، ونعمة

الهداية للمصالح الدينية والدنيوية.. **ثم خصص منها بعض الضروريات فقال..**

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ فهذا هو وحده المنفرد بذلك.. فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة.. وتترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب.. فهذا دليل قاطع، وحجة باهرة، لا تقدرون أنتم وآباؤكم علىٰ معارضتها.. فدل علىٰ اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدىٰ والرشد.. قال الله تعالىٰ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام:٨٠] الآيات.. **ثم دعا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ربَّه فقال..**

﴿رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا﴾ علمًا كثيرًا، أعرف به الأحكام، والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام..

﴿وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣﴾ من إخوانه الأنبياء والمرسلين..

﴿وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٍ فِى ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٨٤﴾ اجعل لي ثناءَ صدق، مستمر إلىٰ آخر الدهر.. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العِلم والحُكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبًا مقبولًا معظَّمًا، مثنًىٰ عليه في جميع الملل، في كل الأوقات، قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِى ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨١﴾ [الصافات: ٧٨- ٨١]..

﴿وَٱجۡعَلۡنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥﴾ من أهل الجنة، التي يورثهم الله إياها.. فأجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم..

﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦﴾ وهذا الدعاء بسبب الوعد الذي قال لأبيه: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة:١١٤]..

﴿وَلَا تُخۡزِنِى يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ۝٨٧﴾ بالتوبيخ علىٰ بعض الذنوب، والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك الـ..

﴿يَوۡمَ﴾ الذي..

﴿لَا يَنفَعُ﴾ فيه..

﴿مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾ فهذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي ينجو به من العقاب ويستحق جزيلَ الثواب.. **والقلب السليم معناه** الذي سَلِمَ من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار علىٰ البدعة والذنوب.. **ويلزم من سلامته مما ذُكِرَ**: اتصافه بأضدادها، من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله، وهواه تابعًا لما جاء عن الله.. **ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم** وما فيه من الثواب والعقاب فقال..

﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ قُرِّبَت..

﴿ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٩٠﴾ ربهم، الذين امتثلوا أوامره واجتنبوا زواجره واتقوا سخطه وعقابه..

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ﴾ برزت واستعدت بجميع ما فيها من العذاب..

﴿لِلۡغَاوِينَ ۝٩١﴾ الذين أوضعوا في معاصي الله، وتجرأوا علىٰ محارمه، وكذَّبوا رسله، وردوا ما جاءوهم به من الحق..

﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣﴾ بأنفسهم، أي فلَم يكن من ذلك من شيء، **وظَهَر** كذبهم وخزيهم، **ولاحت** خسارتهم وفضيحتهم، **وبان** ندمهم، **وضل** سعيهم..

﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾ ألقوا..

﴿فِيهَا﴾ في النار..

﴿هُمۡ﴾ ما كانوا يعبدون..

﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ ۝٩٤﴾ العابدون لها..

﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ۝٩٥﴾ من الإنس والجن، الذين أزَّهم إلىٰ المعاصي أزًّا وتسلَّط عليهم بشركهم وعدمِ إيمانهم، فصاروا من دعاته والساعين في مرضاته، وهم ما بين داع لطاعته ومجيب لهم ومقلد لهم علىٰ شركهم..

﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ۝٩٦﴾ أي: جنود إبليس الغاوون لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها..

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ في العبادة والمحبة والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه.. فتبين لهم حينئذ ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها.. وهم **لم يسووهم برب العالمين إلا في العبادة**، لا في الخلق، بدليل قولهم ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إنهم مقرون أن الله رب العالمين كلِّهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم..

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ عن طريق الهدىٰ والرشد، ودعانا إلىٰ طريق الغي والفسق..

﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩﴾ وهم الأئمة الذين يدعون إلىٰ النار..

﴿فَمَا لَنَا﴾ حينئذ..

﴿مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠﴾ يشفعون لنا لينقذونا من عذابه..

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ أي: قريب مصاف، ينفعنا بأدنىٰ نفع، كما **جرت العادة بذلك في الدنيا**.. فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلىٰ الدنيا ليعملوا صالحًا..

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلىٰ الدنيا، وإعادة إليها..

﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢﴾ لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب.. هيهات هيهات، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم ووصفنا..

﴿لَءَايَةً﴾ لكم..

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ مع نزول الآيات..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤﴾ [الشعراء:٦٩-١٠٤]..

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ
وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ۝١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١١٥

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء:١٠٥-١٢٢]

يذكر تعالىٰ: **تكذيبَ قوم نوح** لرسولهم نوح.. وما ردَّ عليهم وردوا عليه.. **وعاقبة الجميع**، فقال..

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ جميعهم.. وجعل تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين، لأنهم كلهم اتفقوا علىٰ دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم تكذيب بجميع ما جاءوا به من الحق.. كذّبوه..

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب..

﴿نُوحٌ﴾ وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يشمئزوا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه.. فقال لهم: مخاطبًا بألطف خطاب، كما هي طريقة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم..

﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ الله تعالىٰ، فتتركون ما أنتم مقيمون عليه، من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده..

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ فكونه رسولًا إليهم بالخصوص يوجب لهم تلقي ما أرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا الله تعالىٰ علىٰ أن خصهم بهذا الرسول الكريم، وكونه أمينًا يقتضي أنه لا يتقول علىٰ الله، ولا يزيد في وحيه، ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره..

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ فيما آمركم به، وأنهاكم عنه، فإنَّ هذا هو الذي يترتب علىٰ كونه رسولًا إليهم، أمينًا، فلذلك رتَّبه بالفاء الدالة علىٰ السبب، **فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع** فقال..

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتتكلفون من المغرم الثقيل..

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٩﴾ أرجو بذلك القرب منه، والثواب الجزيل.. وأما أنتم فمُنيتي ومنتهىٰ إرادتي منكم النصح لكم، وسلوككم الصراط المستقيم..

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠﴾ كرر ذلك عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لتكريره دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك، كما قال تعالىٰ ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤] وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ٦﴾ [نوح: ٥-٦] الآيات.. ف..

﴿۞ قَالُوٓاْ﴾ ردًا لدعوته، ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة..

﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ١١١﴾ كيف نتبعك ونحن لا نرىٰ أتباعك إلا أسافل الناس وأراذلهم، وسقطهم.. بهذا يعرف **تكبرهم** عن الحق، **وجهلهم** بالحقائق.. **فإنهم لو كان قصدهم الحق لقالوا** -إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته-: بيِّن لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلىٰ ذلك.. ولو تأملوا حق التأمل، **لعلموا أن أتباعه هم الأعلون**، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، **وأن الأرذل من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار**، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبىٰ الانقياد لدعوة الرسل الكُمَّل.. **وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل يعرف فساد ما عنده بقطع النظر عن صحة دعوىٰ خصمه**: فقوم نوح لما سمعنا عنهم أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء:١١١] فبنوا علىٰ هذا الأصل -الذي كل أحد يعرف فساده- ردَّ دعوته، عرفنا أنهم ضالون مخطئون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.. ف..

﴿قَالَ﴾ نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ١١٣﴾ أعمالهم وحسابهم علىٰ الله.. إنما عليَّ التبليغ.. وأنتم دعوهم عنكم، إن كان ما جئتكم به الحق فانقادوا له، وكل له عمله..

﴿وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٤﴾ كأنهم -قبحهم الله- طلبوا منه أن يطردهم عنه، تكبرًا وتجبرًا، ليؤمنوا فقال: ﴿وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما

يستحقون الإكرام القولي والفعلي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]..

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله ومجتهد في نصح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله.. فاستمر نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ دعوتهم ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا.. فلم يزدادوا إلا نفورًا.. و..

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ من دعوتك إيَّانا إلىٰ الله وحده..

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ لنقتلك شر قتلة، بالرمي بالحجارة، كما يُقتل الكلب.. فتبًا لهم ما أقبح هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم بشر مقابلة، لا جرم لمَّا انتهىٰ ظلمهم واشتد كفرهم دعا عليهم نبيهم بدعوة أحاطت بهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦] الآيات.. وهنا..

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أهلك الباغي منا.. وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة ولهذا قال..

﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾..

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة..

﴿ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ من الخلق والحيوانات..

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بعد نوح ومن معه من المؤمنين..

﴿ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ جميع قومه..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ نجاة نوح وأتباعه وإهلاك من كذَّبه..

﴿لَءَايَةًۖ﴾ دالة علىٰ صدق رسلنا، وصحة ما جاءوا به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم..

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر بعزه أعداءه فأغرقهم بالطوفان..

﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء:١٠٥-١٢٢] بأوليائه حيث، نجَّىٰ نوحًا ومن معه من أهل الإيمان.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ
﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم
بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا
خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء:١٢٣-١٤٠]

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ كذبت القبيلة المسماة عادًا، رسولهم هودًا.. وتكذيبهم له تكذيب لغيره، لاتفاق الدعوة..

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب..

﴿هُودٌ﴾ بلطف وحسن خطاب..

﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ الله، فتتركون الشرك وعبادة غيره..

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناء بكم، وأنا أمين، تعرفون ذلك مني، رتب علىٰ ذلك قوله..

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾ أدوا حق الله تعالىٰ، وهو التقوىٰ.. وأدوا حقي بطاعتي فيما آمركم به، وأنهاكم عنه، فهذا موجب لأن تتبعوني وتطيعوني.. وليس ثَمَّ مانع يمنعكم من الإيمان..

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فلست أسألكم علىٰ تبليغي إياكم، ونصحي لكم،أجرًا، حتىٰ تستثقلوا ذلك المَغرَم..

﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ الذي ربَّاهم بنعمه، وأدرَّ عليهم فضله وكرمه، خصوصًا ما ربَّىٰ به أولياءه وأنبياءه..

﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مدخل بين الجبال..

﴿ءَايَةً﴾ علامة..

﴿تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾ تفعلون ذلك عبثًا لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم..

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: بركا ومجابي للمياة..

﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩﴾ والحال أنه لا سبيل إلىٰ الخلود لأحد..

﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم﴾ بالخلق..

﴿بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾ قتلًا وضربًا، وأخذ أموال.. وكان الله تعالىٰ قد أعطاهم قوة عظيمة.. وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم علىٰ طاعة الله.. ولكنهم فخروا، واستكبروا، وقالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].. واستعملوا قوتهم في معاصي الله، وفي العبث والسفه، فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك..

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ واتركوا شرككم وبطركم..

﴿وَأَطِيعُونِ ١٣١﴾ حيث علمتم أني رسول الله إليكم، أمين ناصح..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم﴾ أعطاكم..

﴿بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢﴾ بما لا يُجهل ولا يُنكر من الإنعام..

﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٍ﴾ من إبل وبقر وغنم..

﴿وَبَنِينَ ١٣٣﴾ وكثرة نسل.. كثَّر أموالكم، وكثَّر أولادكم، خصوصًا الذكور أفضل القسمين..

﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٣٤﴾ هذا تذكيرهم بالنعم.. ثم ذكرهم حلول عذاب الله، فقال..

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٣٥﴾ إني -من شفقتي عليكم وبري بكم- أخاف أن ينزل بكم عذاب يوم عظيم، إذا نزل لا يرد، إن استمريتم علىٰ كفركم وبغيكم.. فـ..

﴿قَالُواْ﴾ معاندين للحق مكذبين لنبيهم..

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ الجميع علىٰ حد سواء.. وهذا غاية العتو، فإنَّ قومًا بلغت بهم الحال إلىٰ أن صارت مواعظ الله -التي تذيب الجبال الصم الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي الألباب- وجودها وعدمها عندهم علىٰ حد سواء، لقوم انتهىٰ ظلمهم، واشتد شقاؤهم، وانقطع الرجاء من هدايتهم، ولهذا قالوا..

﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ هذه الأحوال والنعم ونحو ذلك..

﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ عادة الأولين، تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه أحوال الدهر.. لا أن هذه محن ومنح من الله تعالىٰ، وابتلاء لعباده..

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾ وهذا إنكار منهم للبعث.. أو تنزُّل مع نبيهم وتهكم به، إننا علىٰ فرض أننا نبعث، فإننا كما أدرّت علينا النعم في الدنيا، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بُعثنا..

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ صار التكذيبُ سجيةً لهم وخلقًا، لا يردعهم عنه رادع..

﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧﴾ [الحاقة:٦-٧]..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ علىٰ صدق نبيِّنا هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه من الشرك والجبروت..

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ مع وجود الآيات المقتضية للإيمان..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي أهلك بقوته قومَ هود، علىٰ قوتهم وبطشهم..

﴿ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾ [الشعراء:١٢٣-١٤٠] بنبيه هود، حيث نجَّاه ومن معه من المؤمنين.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ
أَمِينٞ ١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ
طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا
تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ
مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ قَالَ
هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ
عَظِيمٖ ١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا
كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩﴾ [الشعراء:١٤١-١٥٩]

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ القبيلة المعروفة في مدائِن الحِجر..

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ كذَّبوا صالحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الذي جاء بالتوحيد، الذي دعت إليه المرسلون.. فكان تكذيبهم له تكذيبًا للجميع..

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ برفق ولين..

﴿أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ﴾ في النسب..

﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ الله تعالىٰ، وتدعون الشرك والمعاصي..

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ربكم، أرسلني إليكم، لطفًا بكم ورحمة، فتَلَقُّوا رَحمَتَه بالقبول، وقَابِلُوها بالإذعان..

﴿أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾ تعرفون ذلك مني..

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾ وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي، وبما جئت به..

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتقولون: يمنعنا من اتباعك أنك تريد أخذ أموالنا..

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ لا أطلب الثواب إلا منه..

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ أي: نضيد كثير.. أي: أتحسبون أنكم تتركون في هذه الخيرات والنعم سدىٰ، تتنعمون وتتمتعون كما تتمتع الأنعام، وتتركون سدىٰ لا تؤمرون ولا تنهون، وتستعينون بهذه النعم علىٰ معاصي الله..

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ بلغت بكم الفراهة والحذق إلىٰ أن اتخذتم بيوتًا من الجبال الصم الصلاب..

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ الذين تجاوزوا الحد..

﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ الذين وَصفُهُم ودَأْبُهُم الإفساد في الأرض، بعمل المعاصي والدعوة إليها، إفسادًا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون؛ لأنه شر محض.. وكأن أناسًا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم، موضعون في الدعوة لسبيل الغي، فنهاهم صالح عن الاغترار بهم، ولعلهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨].. فلم يفد فيهم هذا النهي والوعظ شيئًا ف..

﴿قَالُوٓاْ﴾ **لصالح..**

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣﴾ **أي قد سحرت، فأنت تهذي بما لا معنىٰ له..**

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ **فأي فضيلة فقتنا بها حتىٰ تدعونا إلىٰ اتباعك؟!**

﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤﴾ **هذا.. مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه من أكبر الآيات البينات علىٰ صحة ما جاء به وصدقه، ولكنهم من قسوتهم سألوا آيات الاقتراح التي في الغالب لا يفلح من طلبها؛ لكون طلبه مبنيًا علىٰ التعنت لا علىٰ الاسترشاد.. ف..**

﴿قَالَ﴾ **صالح..**

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ﴾ **تخرج من صخرةٍ صماء ملساء، ترونها وتشاهدونها بأجمعكم..**

﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝١٥٥﴾ **تشرب ماءَ البئر يومًا، وأنتم تشربون لبنها، ثم تَصدُر عنكم اليومَ الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر..**

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ **بعقر أو غيره..**

﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥٦﴾ **فخرجت واستمرت عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا واستمروا علىٰ طغيانهم..**

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ۝١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ **وهي صيحة نزلت عليهم، فدمرتهم أجمعين..**

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ **علىٰ صدق ما جاءت به رسلنا، وبطلان قول معارضيهم..**

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٥٩﴾ [الشعراء:١٤١-١٥٩]..

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٤ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ۝١٦٦ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ۝١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ۝١٦٩ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝١٧١ ثُمَّ دَمَّرۡنَا

ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٧٥]

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ قال لهم.. وقالوا كما قال من قبلهم، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم..

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ وكانوا - مع شركهم - يأتون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، يختارون نكاح الذكران، المستقذر الخبيث، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم، لإسرافهم وعدوانهم، فلم يزل ينهاهم حتىٰ..

﴿قَالُوا۟﴾ له..

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ من البلد.. فلما رأىٰ استمرارهم عليه..

﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ المبغضين له، الناهين عنه، المحذرين..

﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ من فعله وعقوبته.. فاستجاب الله له..

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ الباقين في العذاب وهي امرأته..

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ﴾ حجارة من سجيل..

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ أهلكهم الله عن آخرهم..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٧٥]..

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟
بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ

أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٩١]

﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ أصحاب الأيكة: أي البساتين الملتفة أشجارها، وهم أصحاب مدين، فكذَّبوا نبيهم شعيبًا، الذي جاء بما جاء به المرسلون..

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ الله تعالىٰ، فتتركون ما يسخطه ويغضبه، من الكفر والمعاصي..

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ يترتب علىٰ ذلك..

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾ أن تتقوا الله وتطيعون..

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.. وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكاييل والموازين، فلذلك قال لهم..

﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أتموه وأكملوه..

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكيال والميزان..

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ بالميزان العادل، الذي لا يميل..

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾..

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ أي: الخليقة الأولين.. فكما انفرد بخلقكم وخلق من قبلكم من غير مشارك له في ذلك.. فأفردوه بالعبادة والتوحيد.. وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم، فقابلوه بشكره..

﴿قَالُوٓا۟﴾ له، مكذِّبين له، رادين لقوله..

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾ فأنت تهذي وتتكلم كلام المسحور، الذي غايته أن لا يؤاخذ به..

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا﴾ فليس فيك فضيلة اختصصت بها علينا، حتىٰ تدعونا إلىٰ اتباعك.. وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة، التي لم يزالوا، يدلون بها ويصولون، ويتفقون عليها، لاتفاقهم علىٰ الكفر، وتشابه قلوبهم.. وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ [إبراهيم:١١]..

﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦﴾ وهذا جراءة منهم وظلم، وقول زور، قد انطووا علىٰ خلافه.. فإنَّه ما من رسول من الرسل واجه قومه ودعاهم وجادلهم وجادلوه، إلا وقد أظهر الله علىٰ يديه من الآيات ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصًا شعيبًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، الذي يسمىٰ خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، فإن قومه قد تيقنوا صدقه، وأن ما جاء به حق.. ولكن إخبارهم عن ظَنِّ كَذِبه، كَذِبٌ منهم..

﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قطع عذاب تستأصلنا..

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾ كقول إخوانهم ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢].. أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح، التي لا يلزم تتميم مطلوب من سألها..

﴿قَالَ﴾ شعيبٌ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨﴾ أي: نزول العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست أنا الذي آتي بها وأنزلها بكم، وليس علي إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت، وإنما الذي يأتي بها ربي، العالم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم..

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ صار التكذيب لهم وصفًا، والكفر لهم ديدنًا، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب..

﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ أظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها مستلذين لظلها غير الظليل.. فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾ لا كَرَّة لهم إلىٰ الدنيا، فيستأنفوا العمل، ولا يُفَتَّرُ

عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ دالة علىٰ صدق شعيب، وصحة ما دعا إليه، وبطلان رد قومه عليه..

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ مع رؤيتهم الآيات، لأنهم لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي امتنع بقدرته عن إدراك أحد، وقَهَر كلَّ مخلوق.. ومن عزته أن أهلك أعداءه حين كذَّبوا رسله..

﴿الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٩١] الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها: جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلىٰ ما لا نهاية له.. ومن رحمته، أن نجَّىٰ أولياءه ومن اتبعهم من المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-٢٠٣]

لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف دعوهم، وما ردوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم، وصارت لهم العاقبة.. ذكر هذا الرسول الكريم، والنبي المصطفىٰ العظيم وما جاء به من الكتاب، الذي فيه هداية لأولي الألباب فقال..

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ فالذي أنزله فاطر الأرض والسماوات، المربي جميع العالم، العلوي والسفلي.. وكما أنه رباهم بهدايتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم، فإنه يربيهم أيضا، بهدايتهم لمصالح دينهم وأخراهم.. ومن أعظم ما رباهم به إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي اشتمل علىٰ الخير الكثير، والبِر الغزير، وفيه من الهداية، لمصالح الدارين،

والأخلاق الفاضلة، ما ليس في غيره.. وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢] **من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، لا من غيره، مقصودًا فيه نفعكم** وهدايتكم..

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم ﴿ٱلۡأَمِينُ﴾ الذي قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص..

﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ يا محمد..

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ تهدي به إلىٰ طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق الغي..

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ﴾ وهو أفضل الألسنة.. بلغة من بُعِث إليهم، وباشر دعوتهم أصلًا..

﴿مُّبِينٖ ١٩٥﴾ اللسان البين الواضح.. **وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم**: فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، علىٰ أفضل الخلق، علىٰ أفضل بُضعة فيه وهي قلبه، علىٰ أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو: اللسان العربي المبين..

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ قد بَشَّرت به كتبُ الأولين وصدَّقته، وهو لمَّا نَزَل طبَّق ما أَخبَرت به، صدَّقها، بل جاء بالحق، وصدق المرسلين..

﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً﴾ علىٰ صحته، وأنه من الله..

﴿أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ الذي قد انتهىٰ إليهم العلم، وصاروا أعلمَ الناس، وهم أهل الصنف، **فإنَّ كلَّ شيء يحصل به اشتباه يرجع فيه إلىٰ أهل الخبرة والدراية**، فيكون قولُهم حجة علىٰ غيرهم، كما عرف السحرة الذين مهروا في علم السحر صدق معجزة موسىٰ، وأنه ليس بسحر، فقول الجاهلين بعد هذا، لا يؤبه به..

﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨﴾ الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرون علىٰ التعبير لهم كما ينبغي..

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩﴾ يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندري ما يدعو إليه، فليحمدوا ربهم، أن جاءهم علىٰ لسان أفصح الخلق، وأقدرهم علىٰ التعبير عن المقاصد بالعبارات الواضحة، وأنصحهم، وليبادروا إلىٰ التصديق به، وتلقيه بالتسليم والقبول..

ولكن تكذيبهم له من غير شبهة، إن هو إلا محض الكفر والعناد، وأمر قد توارثته الأمم المكذبة، فلهذا قال..

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٢٠٠﴾ أدخلنا التكذيب وأنظمناه في قلوب أهل الإجرام، كما يدخل السلك في الإبرة، فَتَشَرَّبته وصار وصفًا لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم، فلذلك..

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٢٠١﴾ علىٰ تكذيبهم..

﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٠٢﴾ يأتيهم علىٰ حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم..

﴿فَيَقُولُواْ﴾ إذ ذاك..

﴿هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ۝٢٠٣﴾ [الشعراء:١٩٢-٢٠٣] يطلبون أن يُنظروا ويُمهلوا.. والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يُفتَّر ساعة.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٢٠٤ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [الشعراء:٢٠٤-٢٠٧]

﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ الذي هو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يستهان به، ولا يحتقر..

﴿يَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٢٠٤﴾ فما الذي غرَّهم؟! هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟! أم عندهم قوة يقدرون علىٰ دفعه أو رفعه إذا نزل؟! أم يعجزوننا ويظنون أننا لا نقدر علىٰ ذلك؟!

﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥﴾ أفرأيت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين، يتمتعون في الدنيا..

﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦﴾ من العذاب..

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [الشعراء:٢٠٤-٢٠٧] من اللذات والشهوات، أي: أيُّ شيء يغني عنهم ويفيدهم، وقد مضت وبطلت واضمحلت وأُعقِبَت تَبِعَاتُها، وضوعف لهم العذاب عند طول المدة.. **القصد**: أنَّ الحذر من وقوع العذاب واستحقاقهم له.. **وأما تعجيله وتأخيره، فلا أهمية تحته**، ولا جدوىٰ عنده.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء:٢٠٨-٢١٢]

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ **يخبر تعالىٰ عن كمال عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكًا وعذابًا، إلا بعد أن يعذر بهم، ويبعث فيهم النذر بالآيات البينات، ويدعونهم إلىٰ الهدىٰ، وينهونهم عن الردىٰ، ويذكّرونهم بآيات الله، وينبهونهم علىٰ أيامه في نعمه ونقمه..**

﴿ذِكۡرَىٰ﴾ **لهم وإقامة حجة عليهم..**

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ **فنهلك القرىٰ قبل أن ننذرهم، ونأخذهم وهم غافلون عن النذر، كما قال تعالىٰ:** ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥]، ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء:١٦٥].. **ولما بيَّن تعالىٰ كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة نقص، وحماه -وقت نزوله، وبعد نزوله- من شياطين الجن والإنس فقال..**

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ **لا يليق بحالهم ولا يناسبهم..**

﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ **ذلك..**

﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء:٢٠٨-٢١٢] **قد أُبعدوا عنه، وأُعدت لهم الرجوم لحفظه.. ونزل به جبريل، أقوىٰ الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله:** ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء:٢١٣-٢١٦]

﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ **ينهىٰ تعالىٰ رسوله أصلًا وأمَته أسوةً له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين..**

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدي، لكونه شركًا ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].. والنهي عن الشيء أمر بضده، **فالنهي عن الشرك أمر بإخلاص العبادة لله** وحده لا شريك له، محبة، وخوفا، ورجاء، وذلا وإنابة إليه في جميع الأوقات.. ولمَّا أمره بما فيه كمال نفسه، **أمره بتكميل غيره**، فقال..

﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي.. **وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس**، كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له: (أحسن إلىٰ قرابتك)، فيكون هذا خصوصًا دالًا علىٰ التأكيد، وزيادة الحق.. **فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي**، فدعا سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكَّرهم ووعظهم، ولم يُبْق ﷺ من مقدوره شيئًا من نصحهم وهدايتهم إلا فعله، فاهتدىٰ من اهتدىٰ، وأعرض من أعرض..

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحببك إليهم، وحسن خلقك، والإحسان التام بهم.. **وقد فعل ﷺ ذلك**، كما قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد.. **فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كَلًا علىٰ المسلمين**، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول فظيعه؟! وإن رأىٰ منهم معصية أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة من المفاسد وتعطيل المصالح ما حصل، **ومع ذلك تجده محتقرًا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة**، وقد كمَّل نفسه ورفعها، وأُعجب بعمله.. فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخَدعِه له، **ولهذا قال الله لرسوله**..

﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ﴾ في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بخفض الجناح، ولين الجانب..

﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦﴾ [الشعراء:٢١٣-٢١٦] بل تبرأ من عملهم، **فعظهم عليه** وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه، وتوبتهم منه.. وهذا لدفع احترازِ وَهم من يتوهم، أن قوله ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾ [الحجر: ٨٨] للمؤمنين، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدَفَع هَذا بهذا والله أعلم.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨
وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠]

أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به: الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور.. **فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه فقال..**

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧﴾ **والتوكل:** هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه.. **فإنه عزيز رحيم، بعزته:** يقدر على إيصال الخير، ودفع الشر عن عبده.. **وبرحمته به:** يفعل ذلك.. ثم نبَّهه على **الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان** فقال..

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨﴾ يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك..

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ وتقلبك راكعًا وساجدًا.. **خصَّها بالذكر:** لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه خشع وذل وأكملها، وبتكميلها يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات على اختلافها وتشتتها وتنوعها..

﴿ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠] الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة.. **فاستحضار العبد رؤية الله** له في جميع أحواله، **وسمعه** لكل ما ينطق به، **وعلمه** بما ينطوي عليه قلبه من الهم والعزم والنيات، **مما يعينه على منزلة الإحسان.**

﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢
يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ

﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ
مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٧]

هذا جوابٌ لمن قال من مكذِّبي الرسول: (إنَّ محمدًا ينزل عليه شيطان).. وقول من قال: (إنه شاعر).. فقال..

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة..

﴿عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ بصفة الأشخاص، الذين تنزل عليهم الشياطين..

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ أي: كذاب، كثير القول للزور، والإفك بالباطل..

﴿أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ في فعله، كثير المعاصي.. هذا الذي تنزل عليه الشياطين، وتُناسبُ حالُه حالَهم..

﴿يُلْقُونَ﴾ عليه..

﴿السَّمْعَ﴾ الذي يسترقونه من السماء..

﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ أكثر ما يلقون إليه كذب، فيصدُق واحدة ويكذب معها مائة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته وعدم علمه.. فهذه صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيهم له.. وأما محمد ﷺ، فحاله مباينة لهذه الأحوال أعظم مباينة، لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين بر القلب، وصدق اللهجة، ونزاهة الأفعال من المحرم.. والوحي الذي ينزل عليه من عند الله، ينزل محروسًا محفوظًا، مشتملًا علىٰ الصدق العظيم، الذي لا شك فيه ولا ريب، فهل يستوي -يا أهل العقول- هذا وأولئك؟ وهل يشتبهان، إلا علىٰ مجنون، لا يميز، ولا يفرق بين الأشياء؟ فلما نزَّهه عن نزول الشياطين عليه، برَّأه أيضًا من الشعر فقال..

﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ هل أنبئكم أيضًا عن حالة الشعراء، ووصفهم الثابت، فإنهم..

﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ عن طريق الهدىٰ، المقبلون علىٰ طريق الغي والردىٰ، فهم في أنفسهم غاوون، وتجد أتباعهم كلَّ غاو ضال فاسد..

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ غوايتهم وشدة ضلالهم..

﴿أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ﴾ من أودية الشعر..

﴿يَهِيمُونَ ٢٢٥﴾ فتارة في مدح، وتارة في قدح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرىٰ يسخرون، ومرة يمرحون، وآونة يحزنون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون علىٰ حال من الأحوال..

﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦﴾ **هذا وصف الشعراء: أنهم تخالف أقوالُهم أفعالَهم،** فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق، قلت: هذا أشد الناس غرامًا، وقلبه فارغ من ذاك، وإذا سمعته يمدح أو يذم، قلت: هذا صدق، وهو كذب، وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يحم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها علىٰ الفرسان، وتراه أجبن من كل جبان، هذا وصفهم.. **فانظر، هل يطابق حالةَ الرسول محمد** ﷺ، الراشد البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد، الذي قد استقام علىٰ الهدىٰ، وجانب الردىٰ، ولم تتناقض أفعاله ولم تخالف أقوالُه أفعالَه؟! الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهىٰ إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدَق، ولا أمر بشيء إلا كان أولَ الفاعلين له، ولا نهىٰ عن شيء إلا كان أول التاركين له.. **فهل تناسب حالُه حالةَ الشعراء، أو يقاربهم؟!** أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه، فصلوات الله وسلامه علىٰ هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، الذي ليس بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال.. **ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنىٰ منهم..**

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من آمن بالله ورسوله..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وعمل صالحًا..

﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ وأكثر من ذكر الله..

﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم، **فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة،** وآثار إيمانهم؛ لاشتماله علىٰ مدح أهل الإيمان، والانتصار من أهل الشرك والكفر، والذَّبِّ عن دين الله، وتبيين العلوم النافعة، والحث علىٰ الأخلاق الفاضلة..

﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٧] ينقلبون إلىٰ موقف وحساب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، إلا أحصاها، ولا حقًّا إلا استوفاه.

والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة النمل، وهي مكية

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى
ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم
مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ
بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ
إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ
مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ
ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ
بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ
١٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ [النمل:١-١٣]

ينبه تعالىٰ عباده علىٰ عظمة القرآن ويشير إليه إشارةً دالةً علىٰ التعظيم فقال..

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾ **هي أعلىٰ الآيات، وأقوىٰ البينات، وأوضح** الدلالات، **وأبينها** علىٰ أجل المطالب، **وأفضل** المقاصد، وخير الأعمال وأزكىٰ الأخلاق.. **آيات تدل علىٰ**: الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل عمل وَخِيمٍ، وخُلُقٍ ذَمِيم.. **آيات** بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيِّرة مبلغ الشمس

للأبصار.. **آيات** دلَّت علىٰ الإيمان، ودعت للوصول إلىٰ الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة علىٰ طِبق ما كان ويكون.. **آيات دعت** إلىٰ معرفة الرب العظيم بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا وأفعاله الكاملة.. **آيات** عرفتنا برسله وأوليائه، ووصفتهم حتىٰ كأننا ننظر إليهم بأبصارنا.. ولكن مع هذا **لم ينتفع بها كثير من العالمين**، ولم يهتد بها جميع المعاندين، **صونًا لها عن من لا خير فيه** ولا صلاح ولا زكاء في قلبه.. وإنما **اهتدىٰ بها من خصهم الله بالإيمان**، واستنارت بذلك قلوبهم، وصفت سرائرهم، **فلهذا قال**..

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ تهديهم إلىٰ سلوك الصراط المستقيم وتبيِّن لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه، وتبشرهم بثواب الله المرتَّب علىٰ الهداية لهذا الطريق.. **ربما قيل**: لعله يكثر مدَّعو الإيمان، فهل يُقبل من كلِّ أحد ادَّعىٰ أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق.. **فلذلك** بيَّن تعالىٰ **صفة المؤمنين** فقال..

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فرضَها ونفلَها، **فيأتون بأفعالها الظاهرة** من أركانها وشروطها وواجباتها بل ومستحباتها، **وأفعالها الباطنة** وهو الخشوع الذي روحها ولبها، باستحضار قرب الله، وتدبر ما يقول المصلي ويفعله..

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لمستحقيها..

﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ قد بلغ معهم الإيمان إلىٰ أن وصل إلىٰ درجة اليقين، وهو العلم التام الواصل إلىٰ القلب، الداعي إلىٰ العمل.. **ويقينهم بالآخرة يقتضي** كمال سعيهم لها، وحَذَرَهم من أسباب العذاب، وموجبات العقاب، وهذا أصلُ كلِّ خير..

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ويُكذِّبون بها ويُكذِّبون من جاء بإثباتها..

﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤﴾ حائرين مترددين، مؤثرين سخطَ الله علىٰ رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق فرأوا الباطل حقًا والحق باطلًا..

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أشدُّه وأسوأه وأعظمه..

﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾ حَصَرَ الخَسَارَ فيهم؛ لكونهم **خَسِروا أنفسهم وأهليهم** يوم القيامة، **وخَسِرُوا الإيمانَ** الَّذي دعتهم إليه الرسل..

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ وإنَّ هذا القرآن الذي ينزل عليك وتتلقفه وتتلقنه..

﴿مِن لَّدُنْ﴾ ينزل من عند..

﴿حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياءَ مواضعها، وينزلها منازلها..

﴿عَلِيمٍ ۝٦﴾ بأسرار الأمور وبواطنها، كظواهرها.. وإذا كان من عند﴿ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ عُلِمَ أنَّه كُلُّه حِكمة، ومصالح للعباد، مِنَ الذي هو أعلم بمصالحهم منهم..

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ إلىٰ آخر قصته.. يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسىٰ بن عمران.. ابتداء الوحي إليه واصطفائه برسالته وتكليم الله إياه.. وذلك أنه لمَّا مَكَث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من مَديَن متوجهًا إلىٰ مصر، فلمَّا كان في أثناء الطريق ضلَّ، وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم..

﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أبصرت نارًا من بعيد..

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق..

﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ تستدفئون، وهذا دليلٌ علىٰ أنَّه تائه ومشتد برده هو وأهله..

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ﴾ ناداه الله تعالىٰ..

﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وأخبره أن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته أن جعله الله موضعًا لتكليم الله لموسىٰ وندائه وإرساله..

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾ عن أن يُظَنَّ به نقصٌ أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله..

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ أخبَره اللهُ: أنَّه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له، كما في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه:١٤]..

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء وأذعنت له كلُّ المخلوقات.. ومن عزته: أن تعتمد عليه، ولا تستوحش من انفرادك وكثرة أعدائك وجبروتهم، فإنَّ نواصيهم بيد الله، وحركاتهم وسكونهم بتدبيره..

﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ في أمره وخلقه.. ومن حكمته: أن أرسل عبده موسىٰ بن عمران، الذي عَلِم اللهُ منه أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه..

﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ فألقاها..

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ وهو ذَكَرُ الحيَّات، سريع الحركة..

﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ ذُعرًا من الحية التي رأىٰ، علىٰ مقتضىٰ الطبائع البشرية.. فقال الله له..

﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ وقال في الآية الأخرىٰ:.. ﴿أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ [القصص:٣١]..

﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠﴾ لأنَّ جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصَّهم اللهُ برسالته واصطفاهم لوحيه لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله، خصوصًا عند زيادة القرب منه والحظوة بتكليمه..

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة، بسبب ما أسدىٰ من الظلم، وما تقدَّم له من الجُرم.. وأما المرسلون فما لهم وللوحشة والخوف..

﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾ ومع هذا من ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب وأناب فبدَّل سيئاته حسنات، ومعاصيه طاعات..

﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١﴾ فإن الله غفور رحيم.. فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته؛ فإنه يغفر الذنوب جميعًا، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها..

﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ﴾ لا برص ولا نقص، بل بياض يبهر الناظرين شعاعه..

﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾ هاتان الآيتان: انقلاب العصا حية تسعىٰ، وإخراج اليد من الجيب فتخرج بيضاء، في جملة تسع آيات، تذهب بها وتدعو فرعون وقومه..

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢﴾ فسقوا بشركهم وعتوهم وعلوهم علىٰ عباد الله واستكبارهم في الأرض بغير الحق.. فذهب موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ فرعون وملئه، ودعاهم إلىٰ الله تعالىٰ، وأراهم الآيات..

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ مضيئة، تدل علىٰ الحق، ويُبصَرُ بها كما تُبصرُ الأبصارُ بالشمس..

﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر بل قالوا..

﴿مُّبِينٞ ١٣﴾ [النمل:١-١٣] ظاهرٌ لكل أحد، وهذا من أعجب العجائب، الآيات

المبصرات والأنوار الساطعات تُجعل من بين الخزعبلات وأظهر السحر! هل هذا إلا من أعظم المكابرة وأوقح السفسطة؟!

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل:١٤]

﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ كفروا بآيات الله جاحدين لها..

﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ ليس جحدهم مستندًا إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم ويقينهم بصحتها..

﴿ظُلْمًا﴾ منهم لحق ربهم ولأنفسهم..

﴿وَعُلُوًّا﴾ على الحق، وعلى العباد، وعلى الانقياد للرسل..

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل:١٤] أسوأ عاقبة، دمرهم الله، وغرقهم في البحر وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل:١٥-١٩]

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ يذكر في هذا القرآن وينوه بمنته على داود وسليمان ابنه بالعلم الواسع الكثير، بدليل التنكير، كما قال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي

﴿ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٨- ٧٩] الآية..

﴿وَقَالَا﴾ شاكرين لربهما منته الكبرىٰ بتعليمهما..

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ فحَمِدَا اللهَ علىٰ جعلهما من المؤمنين، أهلِ السعادة، وأنهما كانا من خواصهم.. **ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء**.. وداود وسليمان من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم الخمسة، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام الذين نوَّه الله بذكرهم، ومَدَحَهُم في كتابه مدحًا عظيمًا، فحمدوا الله علىٰ بلوغ هذه المنزلة.. وهذا **عنوان سعادة العبد، أن يكون شاكرًا لله علىٰ نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرىٰ جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها، بل يرىٰ أنها تستحق عليه شكرًا كثيرًا**.. **فلما مدحهما مشترَكين، خصَّ سليمان** بما خصه به؛ لكون الله أعطاه مُلكًا عظيمًا، **وصار له من الماجريات** ما لم يكن لأبيه صلىٰ الله عليهما وسلم فقال..

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ ورث **علمه ونبوته**، فانضم علمُ أبيه إلىٰ علمِه، فلعله تعلم من أبيه ما عنده من العلم مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه، كما تقدم من قوله ففهمناها سليمان..

﴿وَقَالَ﴾ شكرًا لله وتبجحًا بإحسانه وتحدثًا بنعمته..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ فكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يفقه ما تقول وتتكلم به، كما راجع الهدهد وراجعه، وكما فهم قول النملة للنمل كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ..

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾ أعطانا الله من النعم ومن أسباب الملك ومن السلطنة والقهر ما لم يؤته أحدًا من الآدميين، ولهذا دعا ربه فقال: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾ [ص:٣٥]، **فَسَخَّر اللهُ له الشياطين** يعملون له كل ما شاء من الأعمال التي يعجز عنها غيرهم، **وسَخَّر له الريحَ** غُدوها شهر ورواحها شهر..

﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ الذي أعطانا اللهُ وفضَّلنا واختصَّنا به..

﴿لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٦﴾ **الواضح الجلي، فاعترفَ أكملَ اعترافٍ بنعمة الله تعالىٰ..**

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾ **جمع له جنودَه الكثيرة الهائلة** المتنوعة: من بني آدم، ومن الجن، والشياطين، ومن الطيور..

﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾ **يدبَّرون، ويرِد أوَّلُهم علىٰ آخرهم، وينظَّمون غايةَ التنظيم في سيرهم ونزولهم وحلهم وترحالهم، قد استعدَّ لذلك وأعدَّ له عدته.. وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره، لا تقدر علىٰ عصيانه، ولا تتمرد عنه، قال تعالىٰ:** ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ [ص:٣٩] أي: أعط بغير حساب.. **فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره..**

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ **منبِّهة لرفقتها وبني جنسها..**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨﴾ **فنصحت** هذه النملة.. **وأسمعت** النملَ: **إما بنفسها ويكون الله قد أعطىٰ النمل أسماعًا خارقة للعادة،** لأن التنبيه للنمل الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة من أعجب العجائب، **وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل ثم سرىٰ الخبر** من بعضهن لبعض حتىٰ بلغ الجميع، وأمرتهن بالحذر، والطريق في ذلك وهو دخول مساكنهن.. **وعرفت** حالة سليمان وجنوده وعظمة سلطانه، **واعتذرت عنهم** أنهم إن حطموكم فليس عن قصد منهم ولا شعور، **فسمع سليمان** عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قولَهَا وفَهِمَه..

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ **إعجابًا منه بفصاحتها ونصحها وحسن تعبيرها.. وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،** الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلىٰ التبسم.. كما كان الرسول ﷺ جل ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل علىٰ خفة العقل وسوء الأدب.. وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه يدل علىٰ شراسة الخلق والجبروت، والرسل منزهون عن ذلك..

﴿وَقَالَ﴾ شاكرًا لله الذي أوصله إلىٰ هذه الحال..

﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ ألهمني ووفقني..

﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ **فإنَّ النعمة علىٰ الوالدين نعمة علىٰ الولد..** فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته الدينية والدنيوية عليه وعلىٰ والديه..

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ ووفقني أن أعمل صالحًا ترضاه، لكونه موافقًا لأمرك، مخلصًا فيه، سالمًا من المفسدات والمنقصات..

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ التي منها الجنة..

﴿فِي﴾ جملة..

﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ۝١٩﴾ [النمل:١٥-١٩] فإنَّ الرحمة مجعولة للصالحين، علىٰ اختلاف درجاتهم ومنازلهم.. **فهذا نموذج ذكَره اللهُ من حالة سليمان عند سماعه خطابَ النملة ونداءها.**

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۝٢٠
لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدْتُ
امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا
تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ۝٢٦﴾ [النمل:٢٠-٢٦]

ثم ذكر نموذجا آخر من مخاطبته للطير فقال..

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ دلَّ هذا علىٰ كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتىٰ إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطيور والنظر هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنىٰ للآية..

﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به لكونه خفيًا بين هذه الأمم الكثيرة؟

﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۝٢٠﴾ أم علىٰ بابها بأن كان غائبا من غير إذني ولا أمري؟ فحينئذ تغيظ عليه وتوعده فقال..

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون القتل..

﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ حجة واضحة علىٰ تخلُّفه.. وهذا من **كمال ورعه وإنصافه**، أنه لم يقسم علىٰ مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل؛ لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح، فلذلك استثناه لورعه وفطنته..

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ثم جاء.. وهذا يدل علىٰ **هيبة جنوده منه**، وشدة ائتمارهم لأمره، حتىٰ إن هذا الهدهد الذي خلفه العذر الواضح لم يقدر علىٰ التخلف زمنًا كثيرًا..

﴿فَقَالَ﴾ لسليمان..

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ عندي العلم، علم ما أحطت به علىٰ علمك الواسع وعلىٰ درجتك فيه..

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن..

﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ خبر متيقن.. ثم فسر هذا النبأ فقال..

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ تملك قبيلة سبأ، وهي امرأة..

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يؤتاه الملوك، من الأموال والسلاح والجنود والحصون والقلاع ونحو ذلك..

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ كرسي مُلكِها، الذي تجلس عليه، عرش هائل، وعِظَم العروش تدل علىٰ عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورىٰ..

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هم مشركون يعبدون الشمس..

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فرأوا ما عليه هو الحق..

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾..

﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ لأن الذي يرىٰ أنَّ الذي عليه حق لا مطمع في هدايته حتىٰ تتغير عقيدته.. ثم قال..

﴿أَلَّا﴾ هلا..

﴿يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعلم الخفي الخبيء في أقطار السماوات وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات وبذور النباتات وخفايا الصدور..

ويخرج خبء الأرض والسماء بإنزال المطر وإنبات النباتات، **ويخرج خبء الأرض** عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض، ليجازيهم بأعمالهم..

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾..

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ **لا تنبغي العبادة والإنابة والذل والحب إلا له؛ لأنه المألوه لِمَا له** من الصفات الكاملة، والنعم الموجبة لذلك..

﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل:٢٠-٢٦] **الذي هو سقف المخلوقات، وَوَسِعَ** الأرضَ والسماوات.. فهذا المَلك عظيم السلطان، كبير الشأن، هو الذي يُذَلُّ له ويُخضع ويُسجد له ويركع.. فسَلِم الهدهدُ حين أَلقَىٰ إليه هذا النبأَ العظيم، وتعجب سليمانُ كيف خفي عليه؟!

📖 الفـوائـد

لم يصنع شيئا من قال: إنه تفقدَّ الطير لينظر أين الهدهد منها ليدله علىٰ بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإنَّ هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال علىٰ بطلانه.

أما العقلي: فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات أن هذه الحيوانات كلها ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك لذَكَره الله؛ لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي: فلو أريد هذا المعنىٰ لقال: (وطلب الهدهد لينظر له الماء فلما فقده قال ما قال)، أو (فتش عن الهدهد)، أو (بحث عنه)، ونحو ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها.

وأيضا: فإن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يحتاج ولا يضطر إلىٰ الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ، وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف -مع ذلك- يحتاج إلىٰ الهدهد؟!

وهذه التفاسير التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يعرف غيرها، **تنقل هذه الأقوال عن بني**

إسرائيل مجردة، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة وتطبيقها علىٰ الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مسلِّمًا للمتقدم حتىٰ يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع.

واللبيب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب الله به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها علىٰ ألفاظه العربية المعروفة المعاني التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالًا منقولة عن غير رسول الله ﷺ ردها إلىٰ هذا الأصل، فإن وافقته قبلها لكون اللفظ دالا عليها، وإن خالفته لفظا ومعنىٰ أو لفظا أو معنىٰ ردها وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلا معلوما مناقضا لها، وهو ما يعرفه من معنىٰ الكلام ودلالته.

والشاهد: أن تفقد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ للطير، وفقده الهدهد يدل علىٰ كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه وكمال فطنته حتىٰ فقد هذا الطائر الصغير.

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٢٧-٣٧]

﴿۞ قَالَ﴾ مثبتًا لكمال عقله ورزانته..

﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ وسيأتي نصه..

﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ استأخر غير بعيد..

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾ إليك وما يتراجعون به.. فذهب به فألقاه عليها فـ..

﴿قَالَتۡ﴾ لقومها..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩﴾ جليل المقدار، من أكبر ملوك الأرض.. ثم بيَّنت مضمونه فقالت..

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾ لا تكونوا فوقي بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري وأقبلوا إلي مسلمين.. وهذا في غاية الوجازة مع البيان التام، فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه والبقاء علىٰ حالهم التي هم عليها، والانقياد لأمره، والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه، ودعوتهم إلىٰ الإسلام.. وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب.. فَمِن حَزمِهِا وعَقلِها أن جمعت كبارَ دولتها ورجالَ مَملكَتِهَا، و..

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ أخبروني ماذا نجيبه به؟ وهل ندخل تحت طاعته وننقاد؟ أم ماذا نفعل؟

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢﴾ ما كنت مستبدة بأمر دون رأيكم ومشورتكم..

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ إن رددت عليه قولَه ولم تدخلي في طاعته فإنَّا أقوياء علىٰ القتال.. فكأنهم مالوا إلىٰ هذا الرأي الذي لو تمَّ لكان فيه دمارهم.. ولكنهم أيضًا لم يستقروا عليه بل قالوا..

﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾ الرأي ما رأيت.. لعلمهم بعقلها وحزمها ونصحها لهم..

﴿فَٱنظُرِي﴾ نظر فكر وتدبر..

﴿مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾ فـ..

﴿قَالَتۡ﴾ لهم مقنعة لهم عن رأيهم، ومبينة سوء مغبة القتال..

﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ قتلًا وأسرًا ونهبًا لأموالها، وتخريبًا لديارها..

﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾ جعلوا الرؤساء السادة أشراف الناس من الأذلين.. أي: فهذا رأي غير سديد.. وأيضًا فلست بمطيعة له قبل الاختبار وإرسال من يكشف عن أحواله ويتدبرها، وحينئذ نكون علىٰ بصيرة من أمرنا.. فقالت..

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ٣٥﴾ منه.. هل يستمر على رأيه وقوله؟ أم تخدعه الهدية وتتبدل فكرته؟ وكيف أحواله وجنوده؟ فأرسلت له هديةً مع رسلٍ من عقلاء قومها وذوي الرأي منهم..

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ جاءه الرسل بالهدية..

﴿قَالَ﴾ منكرًا عليهم ومتغيظًا على عدم إجابتهم..

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ فليست تقع عندي موقعًا ولا أفرح بها، قد أغناني الله عنها وأكثر عليَّ النعم..

﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ٣٦﴾ لحبكم للدنيا، وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله.. ثم أوصى الرسولَ من غير كتاب؛ لِمَا رأى من عقله، وأنه سينقل كلامه على وجهه فقال..

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بهديتك..

﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم﴾ لا طاقة لهم..

﴿بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ٣٧﴾ [النمل:٢٧-٣٧] فرجع إليهم وأبلغهم ما قال سليمان، وتجهزوا للمسير إلى سليمان، وعَلم سليمان أنهم لابد أن يسيروا إليه.. ف..

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ٤٠ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ٤١ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ٤٣ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٤﴾ [النمل:٣٩-٤٤]

﴿قَالَ﴾ لمن حضره من الجن والإنس:..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨﴾ لأجل أن نتصرَّف فيه قبل أن يُسلموا، فتكون أموالهم محترمة..

﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ والعفريت: هو القوي النشيط جدًا..

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينه وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر، شهران ذهابًا وشهران إيابًا.. ومع ذلك يقول هذا العفريت: أنا التزم بالمجيء به علىٰ كِبره وثقله وبُعده..

﴿قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه..

﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩﴾.. والمعتاد من المجالس الطويلة أن تكون معظم الضحىٰ، نحو ثلث يوم، هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك أو أكثر، وهذا المَلك العظيم الذي عند آحاد رعيته هذه القوة والقدرة وأبلغ من ذلك أن..

﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قال المفسرون: هو رجل عالم صالح عند سليمان يقال له: (آصف بن برخيا) كان يعرف اسم الله الأعظم الذي إذا دعا الله به أجاب وإذا سُئل به أعطىٰ..

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ بأن يدعو الله بذلك الاسم، فيحضر حالًا، وأنه دعا الله، فحضر.. فالله أعلم، هل هذا المراد؟ أم أن عنده عِلمًا من الكتاب يقتدر به علىٰ جلب البعيد وتحصيل الشديد..

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ سليمان..

﴿مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ حمد الله تعالىٰ علىٰ إقداره ومُلكه وتيسير الأمور له، و..

﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ ليختبرني بذلك.. فلم يغتر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بمُلكه وسلطانه وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل عَلِم أنَّ ذلك اختبار من ربِّه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة.. ثم بيَّن أنَّ هذا الشكر لا ينتفع اللهُ به، وإنَّما يرجع نفعُه إلىٰ صاحبه فقال..

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾..

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن أعماله..

﴿كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ كثير الخير، يعم به الشاكرَ والكافرَ، إلا أنَّ شكر نعمه داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها، ثم..

﴿قَالَ﴾ لمن عنده..

﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ غيروه بزيادة ونقص، ونحو ذلك..

﴿نَنظُرْ﴾ مختبرين لعقلها..

﴿أَتَهْتَدِي﴾ للصواب، ويكون عندها ذكاءٌ وفطنة تليق بمُلكها..

﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١﴾..

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ قادمةً على سليمان، عرض عليها عَرشَها، وكان عهدُها به قد خلفته في بلدها، و..

﴿قِيلَ﴾ لها..

﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي: أنه استقر عندنا أنَّ لك عرشًا عظيمًا، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها، لم تقل (هو) لوجود التغيير فيه والتنكير، ولم تنف أنه هو، لأنها عرفته، فأتت بلفظ محتمل للأمرين، صادق على الحالين.. فقال سليمان متعجبًا من هدايتها وعقلها، وشاكرًا لله أن أعطاه أعظم منها..

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أي: الهداية والعقل والحزم من قَبل هذه الملكة..

﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.. **ويحتمل**: أن هذا من قول ملكة سبأ: (وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه وزيادة اقتداره من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة فأذعنا له وجئنا مسلمين له خاضعين لسلطانه).. قال الله تعالى..

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: عن الإسلام، وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب ببصيرة القلب..

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ۝٤٣﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين

والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم من أندر ما يكون، فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر.. ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهر العقول..

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ فأمرها أن تدخل الصرح، وهي **المجلس المرتفع المتسع**، وكان مجلسًا من قوارير تجري تحته الأنهار.. ف..

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ماء؛ لأن القوارير شفافة، يُرى الماء الذي تحتها كأنه بذاته يجري ليس دونه شيء..

﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ للخياضة، وهذا أيضا من عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تُستدع إلا للإكرام، وأن مُلكَ سليمان وتنظيمَه قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء بعد ما رأت ما رأت.. فلما استعدت للخوض..

﴿قَالَ﴾ قيل لها..

﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملس..

﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ فلا حاجة منك لكشف الساقين.. فحينئذ لمَّا وصلت إلى سليمان وشاهدت ما شاهدت وعلمت نبوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها.. و..

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل:٣٩-٤٤] فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ وما جرى لها مع سليمان.. وما عدا ذلك من الفروع المولدة والقصص الإسرائيلية فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الجزم بها على الدليل المعلوم عن المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذلك، فالحزم كل الحزم الإعراض عنها، وعدم إدخالها في التفاسير.. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى

ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ
مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا
وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ
وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل:٤٥-٥٣]

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ يخبر تعالىٰ أنه أرسل..

﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ القبيلة المعروفة..

﴿أَخَاهُمۡ﴾ في النسب..

﴿صَٰلِحًا﴾ وأنه أمرهم..

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان..

﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ منهم المؤمن، ومنهم الكافر وهم معظمهم..

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ لم تبادرون فعل السيئات وتحرصون عليها..

﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ قبل فعل الحسنات التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟! والحال أنه لا موجب لكم إلىٰ الذهاب لفعل السيئات..

﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم وتدعوه أن يغفر لكم..

﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ فإنَّ رحمة الله تعالىٰ قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب هو من المحسنين..

﴿قَالُواْ﴾ لنبيهم صالح مكذبين ومعارضين..

﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ زعموا -قبحهم الله- أنهم لم يروا علىٰ وجه صالح خيرًا، وأنه هو ومن معه من المؤمنين صاروا سببًا لمنع بعض مطالبهم الدنيوية، فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم صالح..

﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ ما أصابكم إلا بذنوبكم..

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ بالسراء والضراء والخير والشر لينظر هل تقلعون وتتوبون

أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابلوه به..

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ التي فيها صالح، الجامعة لمعظم قومه..

﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح..

﴿قَالُوا۟﴾ قد استعدوا لمعاداة صالح والطعن في دينه ودعوة قومهم إلىٰ ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٠-١٥٢].. فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة حتىٰ إنهم من عداوتهم..

﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر..

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ نأتيه ليلًا هو وأهله فلنقتلنهم..

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ إذا قام علينا وادعىٰ علينا أنا قتلناه..

﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ ننكر ذلك وننفيه ونحلف..

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فتواطئوا علىٰ ذلك..

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ دبَّروا أمرهم علىٰ قتل صالح وأهله علىٰ وجه الخِفية حتىٰ من قومهم، خوفًا من أوليائه..

﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بنصر نبينا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين..

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ هل حصل مقصودهم، وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم؟ أم انتقض عليهم الأمر؟ ولهذا قال..

﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ أهلكناهم واستأصلنا شأفتهم.. فجاءتهم صيحة عذاب، فأهلكوا عن آخرهم..

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ قد تهدمت جدرانها علىٰ سقوفها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من نازليها..

﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله وبغيهم في الأرض..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الحقائق، ويتدبرون وقائع الله في أوليائه وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أنَّ عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأنَّ عاقبة الإيمان

والعدل النجاة والفوز، ولهذا قال..

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾ [النمل:٤٥-٥٣] أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسله.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾ [النمل:٥٤-٥٨]

﴿وَلُوطًا﴾ واذكر عبدنا ورسولنا لوطًا، ونبأه الفاضل..

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ حين قال لقومه داعيًا إلىٰ الله وناصحًا..

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة الشنعاء التي تستفحشها العقول والفطر، وتستقبحها الشرائع..

﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾ ذلك، وتعلمون قبحه، فعاندتم وارتكبتم ذلك، ظلمًا منكم، وجرأةً علىٰ الله.. ثم فسّر تلك الفاحشة فقال..

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ﴾ كيف توصلتم إلىٰ هذه الحال، صارت شهوتكم للرجال وأدبارهم محل الغائط والنجو والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء من المحال الطيبة التي جبلت النفوس إلىٰ الميل إليها، وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح واستقبحتم الحسن..

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ متجاوزون لحدود الله، متجرئون علىٰ محارمه..

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ قبول ولا انزجار ولا تذكر وادكار.. إنما كان جوابهم المعارضة والمناقضة والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين بالإجلاء عن وطنه، والتشريد عن بلده.. فما كان جواب قومه..

﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ فكأنه قيل: ما نقمتم منهم وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج؟ فقالوا..

﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور.. فقبَّحهم الله، جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات.. ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به حتىٰ وصلوا إلىٰ إخراجه.. **والبلاء موكل بالمنطق،** فهم قالوا: ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢]، ومفهوم هذا الكلام: (وأنتم متلوثون بالخبث والقذارة المقتضي لنزول العقوبة بقريتكم ونجاة من خرج منها).. ولهذا قال تعالىٰ..

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٥٧﴾ وذلك لمَّا جاءته الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومُه، فجاءوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب دونهم، واشتدَّ الأمر عليه.. ثم أخبرته الملائكة عن جلية الحال، وأنهم جاءوا لاستنقاذه وإخراجه من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم وأن موعدهم الصبح، وأمروه أن يسري بأهله ليلًا.. إلا امرأته فإنه سيصيبها ما أصابهم.. فخرج بأهله ليلًا فنجوا.. وصبَّحهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارةً من سجيل منضود، مسومةً عند ربك.. ولهذا قال هنا..

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٥٨﴾ [النمل:٥٤-٥٨] بئس المطر مطرهم، وبئس العذاب عذابهم؛ لأنهم أُنذروا وخُوِّفوا فلم ينزجروا ولم يرتدعوا، فأحلَّ اللهُ بهم عقابه الشديد.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ
ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩﴾ [النمل:٥٩]

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الذي **يستحق كمال الحمد** والمدح والثناء؛ لكمال أوصافه، وجميل معروفه وهباته، وعدله وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين..

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ وسلَّمَ أيضًا علىٰ عباده الذين تخيرهم واصطفاهم علىٰ العالمين، من الأنبياء والمرسلين، وصفوة الله من العالمين.. وذلك لرفع ذكرهم

وتنويهًا بقدرهم، وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب..

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [النمل:٥٩] وهذا استفهام قد تقرر وعُرِف.. أي: الله الرب العظيم كامل الأوصاف عظيم الألطاف خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه، وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير؟! فالله خير مما يشركون.. ثم ذكر تفاصيل ما به يُعرف ويتعين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق، وعبادة ما سواه هي الباطل فقال..

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل:٦٠]

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أمن خلق السماوات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والملائكة..

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك..

﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ لأجلكم..

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ بساتين..

﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حسن منظر من كثرة أشجارها وتنوعها وحسن ثمارها..

﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ﴾ لولا منة الله عليكم بإنزال المطر..

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ فعل هذه الأفعال حتىٰ يعبد معه ويشرك به؟

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل:٦٠] به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنَّه وحده خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ [النمل:٦١]

هل الأصنام والأوثان الناقصة من كل وجه التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع خير..

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنىٰ والحرث والبناء والذهاب والإياب..

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ جعل في خلال الأرض أنهارًا ينتفع بها العباد في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم..

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالًا ترسيها وتثبِّتها لئلا تميد، وتكون أوتادًا لها لئلا تضطرب..

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ البحر المالح والبحر العذب..

﴿حَاجِزًا﴾ يمنع من اختلاطهما، فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزًا من الأرض، جعل مجرىٰ الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار فيحصل منها مقاصدها ومصالحها..

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فعل ذلك حتىٰ يعدل به الله ويشرك به معه..

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ [النمل:٦١] فيشركون بالله تقليدًا لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم لم يشركوا به شيئًا.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [النمل:٦٢]

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هل يجيب المضطرب الذي أقلقته الكروب وتعسر عليه المطلوب واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده؟!

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ ومن يكشف السوء، أي: البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده؟

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء مَن قَبلكم، كما أنه سيميتكم ويأتي بقوم بعدكم.. أإله مع الله يفعل هذه الأفعال؟! لا أحد يفعل مع الله شيئًا من ذلك حتىٰ بإقراركم أيها المشركون.. ولهذا كانوا إذا مسَّهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين؛ لعلمهم أنه وحده المقتدر علىٰ دفعه وإزالته..

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢] قليل تذكركم وتدبركم للأمور التي إذا تذكرتموها ادَّكرتم ورجعتم إلىٰ الهدىٰ، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما ارعويتم ولا اهتديتم.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل:٦٣]

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل ولا معلم يرىٰ، ولا وسيلة إلىٰ النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها..

﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ بين يدي المطر، فيرسلها فتثير السحاب، ثم تؤلفه، ثم تجمعه، ثم تلقحه، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر..

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده الذي انفرد به؟ فلِمَ أشركتم معه غيرَه وعبدتم سواه؟

﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل:٦٣] تعاظم وتنزه وتقدس عن شركهم وتسويتهم به غيره.

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل:٦٤]

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ من هو الذي يبدأ الخلق وينشئ المخلوقات ويبتدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض بالمطر والنبات؟

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك ويقدر عليه؟

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم ودليلكم علىٰ ما قلتم..

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل:٦٤] وإلا فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة

له في شيء من ذلك، فذلك مجرد دعوىٰ صدقوها بالبرهان، وإلا فاعرفوا أنكم مبطلون لا حجة لكم، فارجعوا إلىٰ الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة علىٰ أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل:٦٥-٦٩]

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ يخبر تعالىٰ أنه المنفرد بعلم غيب السماوات والأرض كقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩]، وكقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ﴾ [لقمان:٣٤] إلىٰ آخر السورة.. فهذه الغيوب ونحوها اختصَّ اللهُ بعلمها فلم يعلمها مَلَكٌ مقرَّب ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ثم أخبر تعالىٰ عن ضعف علم المكذبين بالآخرة منتقلا من شيء إلىٰ ما هو أبلغ منه فقال..

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وما يدرون..

﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ متىٰ البعث والنشور والقيام من القبور، أي: فلذلك لم يستعدوا..

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِۚ﴾ بل ضعف، وقل ولم يكن يقينًا، ولا علمًا واصلًا إلىٰ القلب وهذا أقل وأدنىٰ درجة للعلم ضعفه ووهاؤه..

﴿بَلْ﴾ ليس عندهم علم قوي ولا ضعيف وإنَّما..

﴿هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ﴾ أي: من الآخرة، والشك زال به العلم؛ لأنَّ العلم بجميع مراتبه لا يجامع الشك..

﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا﴾ من الآخرة..

﴿عَمُونَ ۝٦٦﴾ قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها، ولهذا قال..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧﴾ هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة..

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث..

﴿نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي: فلم يجئنا ولا رأينا منه شيئا..

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾ أي: قصصهم وأخبارهم التي تقطع بها الأوقات وليس لها أصل ولا صدق فيها.. فانتقل في الإخبار عن أحوال المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متىٰ وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عمىٰ، ثم الإخبار بإنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه، أي: وبسبب هذه الأحوال ترحل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا علىٰ معاصي الله وسهل عليهم تكذيب الحق والتصديق بالباطل واستحلوا الشهوات علىٰ القيام بالعبادات، فخسروا دنياهم وأخراهم.. ثم نبههم علىٰ صدق ما أخبرت به الرسل فقال..

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٦٩﴾ [النمل:٦٥-٦٩] فلا تجدون مجرمًا قد استمر علىٰ إجرامه، إلا وعاقبته شر عاقبة، وقد أحلَّ الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝٧٠
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٧١ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن
يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٧٢﴾ [النمل:٧٠-٧٢]

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ لا تحزن يا محمد علىٰ هؤلاء المكذبين وعدم إيمانهم، فإنك لو علمت ما فيهم من الشر وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأس ولم تحزن..

﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝٧٠﴾ ولا يضق صدرك ولا تقلق نفسك بمكرهم فإنَّ

مكرهم سيعود عاقبته عليهم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]..

﴿وَيَقُولُونَ﴾ ويقول المكذِّبون بالمعاد وبالحق الذي جاء به الرسول مستعجلين للعذاب:..

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإنَّ وقوعه ووقته قد أجلَّه الله بأجله وقدَّره بقدر، فلا يدل عدم استعجاله علىٰ بعض مطلوبهم.. ولكن -مع هذا- قال تعالىٰ محذِّرًا لهم وقوع ما استعجلوه..

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ قرب منكم وأوشك أن يقع بكم..

﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النمل:٧٠-٧٢] من العذاب.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النمل:٧٣-٧٥]

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ينبه عباده علىٰ سعة جوده وكثرة أفضاله ويحثهم علىٰ شكرها..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ومع هذا فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر واشتغلوا بالنعم عن المنعم..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ أي: تنطوي عليه..

﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ فليحذروا من عالم السرائر والظواهر وليراقبوه..

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خفية وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي..

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النمل:٧٣-٧٥] قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلىٰ أن تقوم الساعة، فكلُّ حادث يحدث جلي أو خفي إلا وهو مطابق لما كُتِبَ في اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ [النمل:٧٦-٧٨]

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ وهذا خبر عن **هيمنة القرآن علىٰ الكتب السابقة**، وتفصيله وتوضيحه لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقصَّه هذا القرآن قصًّا زال به الإشكال، وبيَّن به الصواب من المسائل المختلف فيها.. وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح وإزالة كلِّ خلاف وفصَّل كلَّ مشكل كان أعظم نعم الله علىٰ العباد، ولكن ما كلُّ أحد يقابل النعمة بالشكر.. ولهذا بين أن نفعه ونوره وهداه مختص بالمؤمنين فقال..

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾ من الضلالة والغي والشبه..

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ تنثلج له صدورهم وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية..

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين علىٰ تدبره، المتفكرين في معانيه، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح..

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ﴾ إن الله تعالىٰ سيفصل بين المختصين وسيحكم بين المختلفين بحكمه العدل وقضائه القسط، فالأمور وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين لخفاء الدليل أو لبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع حين يحكم الله فيها..

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الخلائق فأذعنوا له..

﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ [النمل:٧٦-٧٨] بجميع الأشياء.. العَلِيمُ بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلًا بما علمه فيه.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل:٧٩-٨١]

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ اعتمد علىٰ ربك في: جلب المصالح.. ودفع المضار.. وفي تبليغ الرسالة وإقامة الدين وجهاد الأعداء..

﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾ الواضح، والذي علىٰ الحق يدعو إليه، ويقوم بنصرته أحق من غيره بالتوكل، فإنه يسعىٰ في أمر مجزوم به معلوم صدقه لا شك فيه ولا مرية.. وأيضا فهو حق في غاية البيان لا خفاء به ولا اشتباه، وإذا قمت بما حملت وتوكلت علىٰ الله في ذلك فلا يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم فلهذا قال..

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصًا..

﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾ فإنَّه يكون أبلغ في عدم إسماعهم..

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]..

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٨١﴾ [النمل:٧٩-٨١] هؤلاء الذين ينقادون لك، الذين يؤمنون بآيات الله وينقادون لها بأعمالهم واستسلامهم، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٣٦﴾ [الأنعام:٣٦].

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ [النمل:٨٢]

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا وقع علىٰ الناس القول الذي حتَّمه الله وفَرض وقته..

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ خارجة..

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أو دابة من دواب الأرض ليست من السماء، وهذه الدابة..

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ تكلم العباد..

﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ [النمل:٨٢] لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله، فإظهار الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة؛ ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون.. وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة، كما تكاثرت بذلك الأحاديث.. ولم يأت دليل يدل علىٰ كيفيتها، ولا من أي نوع هي.. وإنما

دلت الآية الكريمة علىٰ أن الله يخرجها للناس، وأنَّ هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة علىٰ صدق ما أخبر الله به في كتابه والله أعلم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل:٨٣-٨٥]

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ يخبر تعالىٰ عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن الله يجمعهم، ويحشر من كلِّ أمة من الأمم فوجًا وطائفة..

﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ يجمع أولهم علىٰ آخرهم، وآخرَهم علىٰ أولهم، ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ وحضروا..

﴿قَالَ﴾ لهم موبخًا ومقرِّعًا..

﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ أي: الواجب عليكم التوقف حتىٰ ينكشف لكم الحق، وأن لا تتكلموا إلا بعلم، فكيف كذبتم بأمر لم تحيطوا به علما؟!

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ يسألهم عن علمهم وعن عملهم، فيجد عليهم تكذيبًا بالحق، وعملهم لغير الله أو علىٰ غير سنة رسولهم..

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه وتوجهت عليهم الحجة..

﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل:٨٣-٨٥] لأنه لا حجة لهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل:٨٦]

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة والنعمة الجَسيمة، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار، هذا بظلمته ليسكنوا فيه ويستريحوا

من التعب ويستعدوا للعمل، وهذا بضيائه لينتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل:٨٦] علىٰ كمال وحدانية الله وسبوغ نعمته.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل:٨٧-٨٨]

يخوف تعالىٰ عباده ما أمامهم من يوم القيامة، وما فيه من المحن والكروب، ومزعجات القلوب فقال..

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ﴾ بسبب النفخ فيه..

﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ انزعجوا وارتاعوا وماج بعضهم ببعض خوفًا مما هو مقدمة له..

﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ﴾ ممن أكرمه الله وثبته وحفظه من الفزع..

﴿وَكُلٌّ﴾ من الخلق عند النفخ في الصور..

﴿أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ صاغرين ذليلين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].. ففي ذلك اليوم يتساوىٰ الرؤساء والمرءوسون في الذل والخضوع لمالك الملك..

﴿وَتَرَى﴾ ومن هَولِه أنَّك ترىٰ..

﴿الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ لا تفقد شيئًا منها، وتظنها باقية علىٰ الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأهوال كلَّ مبلَغ، وقد تفتت، ثم تضمحل، وتكون هباءً منبثًا.. ولهذا قال..

﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ﴾ من خفتها وشدة ذلك الخوف، وذلك..

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل:٨٧-٨٨] فيجازيكم بأعمالكم.. ثم بين كيفية جزائه فقال..

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل:٨٩-٩٠]

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ اسم جنس، يشمل كلَّ حسنة قولية أو فعلية أو قلبية..

﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ هذا أقل التفضيل..

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ من الأمر الذي فزع الخلق لأجله، آمنون وإن كانوا يفزعون معهم..

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ اسم جنس يشمل كل سيئة..

﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ ألقوا في النار على وجوههم ويقال لهم..

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل:٨٩-٩٠]..

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل:٩١-٩٣]

قل لهم يا محمد..

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ أي: مكة المكرمة..

﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وأنعم على أهلها، فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول..

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ من العلويات والسفليات، أتى به لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده..

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ أبادر إلى الإسلام.. وقد فعل ﷺ فإنَّه أول هذه الأمة إسلامًا وأعظمها استسلامًا..

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟﴾ وأمرت أيضا ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟﴾ عليكم..

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ لتهتدوا به وتقتدوا وتعلموا ألفاظه ومعانيه فهذا الذي عليَّ وقد أديته..

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ نفعه يعود عليه، وثمرته عائدة إليه..

﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝٩٢﴾ وليس بيدي من الهداية شيء..

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الذي له الحمد في الأولىٰ والآخرة ومن جميع الخلق، خصوصًا أهل الاختصاص والصفوة من عباده، فإنَّ الذي ينبغي أن يقع منهم من الحمد والثناء علىٰ ربهم أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم وكمال قربهم منه وكثرة خيراته عليهم..

﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ معرفة تدلكم علىٰ الحق والباطل، فلا بدَّ أن يريكم من آياته ما تستنيرون به في الظلمات ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال: ٤٢]..

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾ [النمل:٩١-٩٣] بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال وسيحكم بينكم حكمًا تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة (النمل) بفضل الله وإعانته وتيسيره

ونسأله تعالىٰ أن لا تزال ألطافه ومعونته مستمرة علينا وواصلة منه إلينا، فهو أكرم الأكرمين وخير الراحمين وموصل المنقطعين ومجيب السائلين.

ميسر الأمور العسيرة، وفاتح أبواب بركاته والمجزل في جميع الأوقات هباته، ميسر القرآن للمتذكرين ومسهل طرقه وأبوابه للمقبلين وممد مائدة خيراته ومبراته للمتفكرين والحمد لله رب العالمين.

وصل الله علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير سورة القصص، وهي مكية

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص:١-٤]

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ﴾ الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم..

﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ لكلِّ أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال، فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين، وجلاها للعباد، ووضحها.. ومن جملة ما أبان، قصة موسىٰ وفرعون، فإنه أبداها، وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع فقال..

﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فإنَّ نبأهما غريب، وخبرهما عجيب..

﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣﴾ فإليهم يساق الخطاب ويوجه الكلام، حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به علىٰ تدبُّر ذلك وتلقِّيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون به إيمانًا ويقينًا، وخيرًا إلىٰ خيرهم.. وأما من عداهم فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، وصانه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجابًا أن يفقهوه.. فأول هذه القصة..

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، **فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلين فيها**..

﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره، وسطوته..

﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ وتلك الطائفة، هم بنو إسرائيل، الذين فضَّلهم الله علىٰ العالمين، الذين ينبغي له أن يكرمهم ويجلهم، ولكنه استضعفهم، بحيث إنه رأىٰ أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أراده فيهم، فصار لا يبالي بهم، ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلىٰ أنه..

﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ خوفًا من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص:١-٤] الذين لا قصد لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٣﴾ [القصص:٥-١٣]

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل من ناوأهم..

﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع استضعاف، بل لا بد من تمكين في

الأرض، وقدرة تامة..

﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهذه الأمور كلها، قد تعلقت بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته..

﴿وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وكذلك نريد أن ﴿نُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيره..

﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ التي بها صالوا وجالوا، وعلوا وبغوا..

﴿مِنۡهُم﴾ من هذه الطائفة المستضعفة..

﴿مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾ من إخراجهم من ديارهم.. ولذلك كانوا يسعون في قمعهم، وكسر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم، الذين هم محل ذلك.. فكل هذا قد أراده الله، وإذا أراد أمرًا سهل أسبابه، ونهج طرقه، وهذا الأمر كذلك، فإنه قدَّر وأجرىٰ من الأسباب -التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه- ما هو سبب موصل إلىٰ هذا المقصود.. **فأول ذلك:** لما أوجد اللهُ رسولَه موسىٰ، الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي علىٰ يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة، التي يُذَبِّحون بها الأبناء..

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ أوحىٰ إلىٰ أمه أن ترضعه، ويمكث عندها..

﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ﴾ بأن أحسست أحدًا تخافين عليه منه أن يوصله إليهم..

﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي: نيل مصر، في وسط تابوت مغلق..

﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧﴾ فبشرها بأنه سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله اللهُ رسولًا.. وهذا من أعظم البشائر الجليلة، وتقديم هذه البشارة لأم موسىٰ ليطمئن قلبها، ويسكن روعها.. فإنها خافت عليه، وفعلت ما أُمِرَت به، ألقته في اليم، فساقه الله تعالىٰ..

﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وجدانه..

﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدوًا لهم وحزنًا يحزنهم.. بسبب أن **الحذر لا ينفع من القدر**، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل قيَّض الله أن يكون زعيمهم، يتربىٰ تحت أيديهم، وعلىٰ نظرهم، وبكفالتهم..

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ فأردنا أن نعاقبهم علىٰ خطئهم

ونكيد هم، جزاء على مكرهم وكيدهم.. فلما التقطه آل فرعون، حنَّن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة (آسية بنت مزاحم)..

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ﴾ هذا الولد..

﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ أبقه لنا، لِتقرَّ به أعيننا، ونستر به في حياتنا..

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا..

﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ أو نرقيه منزلة أعلىٰ من ذلك، نجعله ولدًا لنا، ونكرمه، ونجله.. فقدَّر الله تعالىٰ، أنه **نفع امرأة فرعون**، التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرة عين لها، وأحبته حبًا شديدًا، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتىٰ كبُر، ونبأه الله وأرسله، فبادرت إلىٰ الإسلام والإيمان به، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا وأرضاها.. قال الله تعالىٰ هذه المراجعات والمقاولات في شأن موسىٰ..

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ ما جرىٰ به القلم، ومضىٰ به القدر، من وصوله إلىٰ ما وصل إليه.. **وهذا من لطفه تعالىٰ**، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله شأن آخر.. ولما فقدت موسىٰ أمه، حزنت حزنًا شديدًا..

﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ وأصبح فؤادها فارغًا من القلق الذي أزعجها، علىٰ مقتضىٰ الحالة البشرية، مع أن الله تعالىٰ نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده..

﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ بما في قلبها..

﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ فثبتناها، فصبرت، ولم تبد به..

﴿لِتَكُونَ﴾ بذلك الصبر والثبات..

﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت ازداد بذلك إيمانه.. ودل ذلك علىٰ أن **استمرار الجزع** مع العبد، دليل علىٰ **ضعف إيمانه**..

﴿وَقَالَتۡ﴾ أم موسىٰ..

﴿لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ اذهبي فقصي الأثر عن أخيك، وابحثي عنه، من غير أن يحس بك أحدٌ، أو يشعروا بمقصودك، فذهبت تقصه..

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ أبصرته على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه.. وهذا من **تمام الحزم والحذر**، فإنها لو أبصرته وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه عقوبة لأهله..

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ ومن لطف الله بموسى وأمه أن منعه من قبول ثدي امرأة.. فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعلَّ أحدا يطلبه، فجاءت أخته، وهو بتلك الحال..

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ وهذا جُلُّ غرضهم، فإنهم أحبوه حبًا شديدًا، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت.. فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على الترغيب في أهل هذا البيت بتمام حفظه وكفالته والنصح له، بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت..

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ كما وعدناها بذلك..

﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك..

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فأريناها بعض ما وعدناها به عيانًا، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص:٥-١٣] فإذا رأوا السبب متشوشًا، شوش ذلك إيمانُهم، لعدم علمهم الكامل أن الله تعالى **يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة بين يدي الأمور العالية**، والمطالب الفاضلة.. فاستمر موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمّه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليها.

📖 الفـوائـد

١- ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ **عند التدبر والتأمل**: تجد في طي ذلك من **المصالح لبني إسرائيل**، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته، بحيث إنه **صار من كبار المملكة**.. وبالطبع، إنه **لا بد أن يحصل منه**

مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف -الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلىٰ ما قص الله علينا بعضه- **أن صار بعض أفراده ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض**، كما سيأتي بيانه.. **وهذا مقدمة للظهور**، فإنَّ الله تعالىٰ من سنته الجارية أن جعل الأمور تمشي علىٰ **التدريج** شيئًا فشيئًا، ولا تأتي دفعة واحدة.

٢- تأمل هذا اللطف وصيانة نبيه موسىٰ من الكذب في منطقه، وتيسير الأمر الذي صار به التعلق بينه وبين أمه، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها **أُمًّا**، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله، صدقًا وحقًا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص:١٤-٢١]

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب..

﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ كملت فيه تلك الأمور..

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس..

﴿وَعِلْمًاۚ﴾ كثيرًا..

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ١٤﴾ في عبادة الله.. المحسنين لخلق الله، نعطيهم علمًا وحكمًا بحسب إحسانهم.. ودلَّ هذا على كمال إحسان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ إما وقت القائلة، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار..

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ يتخاصمان ويتضاربان..

﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ من بني إسرائيل..

﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦۖ﴾ القبط..

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ لأنه قد اشتهر وعلم الناس أنه من بني إسرائيل.. واستغاثته لموسى دليلٌ على أنه بلغ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مبلغًا يُخاف منه ويُرجى من بيت المملكة والسلطان..

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثة الإسرائيلي..

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ﴾ أماته من تلك الوكزة، لشدتها وقوة موسى.. فندم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على ما جرى منه، و..

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ﴾ من تزيينه ووسوسته..

﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ١٥﴾ فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البيِّنة، وحرصه على الإضلال.. ثم استغفر ربه..

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ خصوصًا للمخبتين المبادرين للإنابة والتوبة، كما جرى من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. ف..

﴿قَالَ﴾ موسى..

﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالتوبة والمغفرة، والنعم الكثيرة..

﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ معينًا ومساعدًا..

﴿لِّلْمُجْرِمِينَ ١٧﴾ لا أُعين أحدًا على معصية.. وهذا وعد من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بسبب منة الله عليه، أن لا يعين مجرمًا، كما فعل في قتل القبطي.. وهذا يفيد أن النِّعم تقتضي من العبد

فعل الخير وترك الشر..

﴿فَأَصۡبَحَ﴾ فلمَّا جرىٰ منه قتل الذي هو من عدوه أَصْبَحَ..

﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ هل يشعر به آل فرعون، أم لا؟.. وإنما خاف لأنه قد علم أنه لا يتجرأ أحدٌ علىٰ مثل هذه الحال سوىٰ موسىٰ من بني إسرائيل.. فبينما هو علىٰ تلك الحال..

﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ علىٰ عدوه..

﴿يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ﴾ علىٰ قبطي آخر..

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ موبِّخًا له علىٰ حاله..

﴿إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨﴾ بيِّن الغواية، ظاهر الجراءة..

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ﴾ موسىٰ..

﴿بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾ له وللمخاصم المستصرخ.. أي: لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسىٰ.. فأخذته الحمية، حتىٰ همَّ أن يبطش بالقبطي..

﴿قَالَ﴾ له القبطي زاجرًا له عن قتله..

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض، قتل النفس بغير حق..

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾ وإلا فلو أردت الإصلاح لحِلت بيني وبينه من غير قتل أحد.. فانكفَّ موسىٰ عن قتله، وارعوىٰ لوعظه وزجره.. وشاع الخبرُ بما جرىٰ من موسىٰ في هاتين القضيتين، حتىٰ تراود ملأ فرعونَ وفرعونُ علىٰ قتله، وتشاوروا علىٰ ذلك..

﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ وقيَّض اللهُ ذلك الرجلَ الناصح، وبادرهم إلىٰ الإخبار لموسىٰ بما اجتمع عليه رَأْيُ ملئهم..

﴿يَسۡعَىٰ﴾ ركضًا علىٰ قدميه، من نصحه لموسىٰ، وخوفه أن يوقعوا به قبل أن يشعر، فـ..

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ﴾ يتشاورون فيك..

﴿لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ﴾ عن المدينة..

﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾ فامتثل نصحه..

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أن يوقع به القتل، ودعا الله.. و..

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص:١٤-٢١] فإنه قد تاب من ذنبه، وفعله غضبًا من غير قصدٍ منه للقتل.. فتوعَّدُهُمْ له ظلمٌ منهم وجراءة.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ٢٤ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ٢٨﴾ [القصص:٢٢-٢٨]

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قاصدًا بوجهه مَديَن، وهو جنوبي فلسطين، حيث لا مُلك لفرعون..

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ وسط الطريق، المختصر، الموصل إليها بسهولة ورفق.. فهداه الله سواء السبيل، فوصل إلىٰ مدين..

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة..

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ دون تلك الأمة..

﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ غنمهما عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهم، وعدم مروءتهم عن السقي لهما..

﴿قَالَ﴾ لهما موسىٰ..

﴿مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ ما شأنكما بهذه الحالة..

﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتىٰ يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا..

﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ لا قوة له علىٰ السقي، فليس فينا قوة نقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء، فَرَقَّ لهما موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ورحمهما..

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالىٰ، فلمَّا سقىٰ لهما.. وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار، بدليل قوله..

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ مستريحًا لذلك الظلال بعد التعب..

﴿فَقَالَ﴾ في تلك الحالة، مسترزقًا ربه..

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسره لي.. وهذا **سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال**.. فلم يزل في هذه الحالة داعيًا ربه متملقًا.. وأما المرأتان فذهبتا إلىٰ أبيهما، وأخبرتاه بما جرىٰ.. فأرسل أبوهما إحداهما إلىٰ موسىٰ، فجاءته..

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ وهذا **يدل علىٰ**: كرم عنصرها، وخُلُقِها الحسن، فإنَّ الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصًا في النساء.. **ويدل علىٰ**: أن موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن فيما فعله من السقي بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يُستحىٰ منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما أوجب لها الحياء منه، فـ..

﴿قَالَتۡ﴾ له..

﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ لا ليمُنَّ عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك علىٰ إحسانك.. فأجابها موسىٰ..

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلىٰ أن وصل إليه..

﴿قَالَ﴾ مُسَكِّنًا روعه، جابرًا قلبه..

﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ ليذهب خوفك وروعك، فإنَّ الله نجاك منهم، حيث وصلت إلىٰ هذا المحل، الذي ليس لهم عليه سلطان..

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ إحدىٰ ابنتيه..

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ اجعله أجيرًا عندك، يرعىٰ الغنم ويسقيها..

﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ إن موسىٰ أولىٰ من استؤجر، فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر من جمعهما، أي: **القوة والقدرة** علىٰ ما استؤجر عليه، **والأمانة** فيه بعدم الخيانة.. **وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولىٰ للإنسان عملًا** بإجارة أو غيرها.. فإنَّ الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأمَّا باجتماعهما فإنَّ العمل يتمُّ ويكمل.. وإنما **قالت ذلك لأنها** شاهدت من قوة موسىٰ عند السقي لهما ونشاطه ما عَرَفَت به قوتَه، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجىٰ نفعهما، وإنما قصده بذلك وجه الله تعالىٰ..

﴿قَالَ﴾ صاحب مدين لموسىٰ..

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أي: تصير أجيرًا عندي..

﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ ثماني سنين..

﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك..

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالًا شاقة، وإنما استأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه..

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ فَرَغَّبَه في: سهولة العمل، وفي حسن المعاملة.. **وهذا يدلُّ علىٰ**: أن الرجل الصالح ينبغي له أن **يحسِّن خُلُقَه** مهما أمكنه، وأنَّ **الذي يُطلب منه أبلغ** من غيره.. فـ..

﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مجيبًا له فيما طلبه منه..

﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تمَّ فيما بيني وبينك..

﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها..

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾ [القصص:٢٢-٢٨] حافظٌ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدنا عليه.

🕮 الفـوائـد

هذا الرجل أبو المرأتين صاحب مدين، **ليس بشعيب النبي المعروف**، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإنَّ هذا قول لم يدل عليه دليل..

وغاية ما يكون، أن **شعيبًا** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين،** فأين الملازمة بين الأمرين؟!

وأيضًا: فإنه **غير معلوم أن موسىٰ أدرك زمان شعيب**، فكيف بشخصه؟! ولو كان ذلك الرجلُ شعيبًا لذكره الله تعالىٰ، ولَسَمَّته المرأتان.

وأيضًا: فإنَّ شعيبًا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قد أهلك اللهُ قومَه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد **أعاذ اللهُ المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم بمنعهما عن الماء**، وصدَّ ماشيتهما حتىٰ يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما.

وما كان شعيب ليرضىٰ أن يرعىٰ موسىٰ عنده ويكون خادمًا له، وهو أفضل منه وأعلىٰ درجة، والله أعلم.. إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسىٰ فلا منافاة.

وعلىٰ كل حال لا يعتمد علىٰ أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ
ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ
تَصۡطَلُونَ ٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ
ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠ وَأَنۡ أَلۡقِ
عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ
وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ٣١ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ

سُوٓءٍ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ
فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا
فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا
يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا
سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص:٢٩-٣٥]

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ **يحتمل أنه قضىٰ الأجل الواجب، أو الزائد عليه كما هو الظن بموسىٰ ووفائه.. اشتاق إلىٰ الوصول إلىٰ أهله ووالدته وعشيرته ووطنه، وعلم من طول المدة أنهم قد تناسوا ما صدر منه..**

﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ **قاصدًا مصر..**

﴿ءَانَسَ﴾ **أبصر..**

﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ **وكان قد أصابهم البرد، وتاهوا الطريق..**

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ **فأُخبر بألوهيته وربوبيته.. ويلزم من ذلك: أن يأمره بعبادته وتألهه، كما صرح به في الآية الأخرىٰ** ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤]..

﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ **فألقاها..**

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ **تسعىٰ سعيًا شديدًا، ولها سورة مُهيلة..**

﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ **ذكَرُ الحيات العظيم..**

﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ **أي: يرجع، لاستيلاء الروع علىٰ قلبه.. فقال الله له..**

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ﴾ **وهذا أبلغ ما يكون في التأمين وعدم الخوف.. فإن قوله:** ﴿أَقۡبِلۡ﴾ **يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله وهو لم يزل في الأمر المخوف، فقال:** ﴿وَلَا تَخَفۡ﴾ **أمر له بشيئين: إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف..**

ولكن يبقىٰ احتمال: وهو أنه **قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن** من المكروه، فقال..

﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ٣١﴾ فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه.. فأقبل موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئنًا، واثقًا بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه.. فهذه آية، أراه الله إياها قبل ذهابه إلىٰ فرعون، ليكون علىٰ يقين تام، فيكون أجرأ له، وأقوىٰ وأصلب.. **ثم أراه الآية الأخرىٰ** فقال..

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ﴾ أدخلها..

﴿فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ فَسَلَكَها وأخرجها، كما ذكر الله تعالىٰ..

﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ ضُمَّ جناحك -وهو عضدك- إلىٰ جنبك، يزول عنك الرهب والخوف..

﴿فَذَٰنِكَ﴾ انقلاب العصا حية.. وخروج اليد بيضاء من غير سوء..

﴿بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ حجتان قاطعتان من الله..

﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾ فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نفعت، فـ..

﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، معتذرًا من ربه، وسائلًا له المعونة علىٰ ما حمله، وذاكرًا له الموانع التي فيه، ليزيل ربُّه ما يحذره منها..

﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا﴾ أي..

﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا﴾ معاونًا ومساعدًا..

﴿يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ فإنَّه مع تضافر الأخبار يقوىٰ الحق.. فأجابه الله إلىٰ سؤاله فـ..

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ نعاونك به ونقويك.. ثم أزال عنه محذور القتل، فقال..

﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ تسلطًا وتمكنًا من الدعوة، بالحجة والهيبة الإلهية من عدوهما لهما..

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ وذلك بسبب آياتنا، وما **دلت** عليه من الحق، وما **أزعجت** به من باشرها ونظر إليها، **فهي التي بها حصل لكما السلطان**، واندفع بها عنكم كيدً عدوِّكم، وصارت لكم أبلغ من الجنود، أولي العَدَدِ والعُدَدِ..

﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ٣٥﴾ [القصص:٢٩-٣٥] وهذا وعدٌ لموسىٰ في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلىٰ بلده بعد ما كان شريدًا.. فلم تزل الأحوال تتطور، والأمور تنتقل، حتىٰ أنجز الله له موعودَه، ومكَّنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه، الغلبة والظهور.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٣٧ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ٣٨ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ٤٢ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ [القصص:٣٦-٤٣]

فذهب موسىٰ برسالة ربه..

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ واضحات الدلالة علىٰ ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء..

﴿قَالُوا۟﴾ علىٰ وجه الظلم والعلو والعناد..

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ [طه:٧١]، هذا وهو الذكي غيرُ الزكي، الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصَّه اللهُ علينا، وقد علم ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الإسراء:١٠٢]، ولكن الشقاء غالب..

﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦﴾ وقد كَذَبوا في ذلك، فإنَّ الله أرسلَ يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قبل موسىٰ، كما قال تعالىٰ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ [غافر:٣٤]..

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين زعموا أنَّ الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدىٰ..

﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ أي: إذا لم تفد المقابلة معكم، وتبيين الآيات البينات، وأبيتم إلا التمادي في غيكم، واللجاج علىٰ كفركم.. فالله تعالىٰ العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم..

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾ فصار عاقبة الدار لموسىٰ وأتباعه، والفلاح والفوز، وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك..

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ متجرئًا علىٰ ربه، ومموهًا علىٰ قومه السفهاء، أخفَّاء العقول..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثَمَّ إلهٌ غيري لعلمته.. فانظر إلىٰ هذا الورع التام من فرعون!، حيث لم يقل: (ما لكم من إله غيري)، بل تورَّع وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾.. وهذا **لأنه عندهم العالم الفاضل،** الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه.. **فلما قال هذه المقالة التي قد تحتمل أن ثَمَّ إلها غيره، أراد أن يحقق النفي،** الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لـ (هامان)..

﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ليجعل له لبنًا من فخار..

﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾ بناءً..

﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كَذِبَ موسىٰ.. **فانظر هذه الجراءة العظيمة علىٰ الله، التي ما بلغها آدمي**: كذَّب موسىٰ، وادَّعىٰ أنه إله، ونفىٰ أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلىٰ إله موسىٰ، **وكل هذا ترويج.. ولكن العجب من هؤلاء الملأ** الذين يزعمون أنهم **كبار المملكة**، المدبِّرون لشئونها، **كيف لعب هذا الرجل بعقولهم**، واستخف أحلامهم، **وهذا لفسقهم** الذي صار صفةً راسخة فيهم، فَسَد دينُهم، ثم تبع ذلك **فساد عقولهم**.. فنسألك اللهم الثبات علىٰ الإيمان، وأن لا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وتهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب..

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ استكبروا علىٰ عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا علىٰ رسل الله، وما جاءوهم به من الآيات، فكذَّبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلىٰ منها وأفضل..

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فلذلك تجرأوا، وإلا فلو علموا أو ظنوا أنَّهم يرجعون إلىٰ الله، لَمَا كان منهم ما كان..

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم..

﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ كانت شر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية..

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ﴾ جعلنا فرعونَ وملأَه من الأئمة الذين يُقتدي بهم ويُمشي خلفَهم إلىٰ دار الخزي والشقاء..

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير..

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ﴾ وأتبعناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة، يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم.. وهذا أمرٌ مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم..

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ المبعَدين، المستقذرة أفعالهم.. الذين اجتمع عليهم مقت الله، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم..

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة..

﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الذين كان خاتمتهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده.. وهذا دليل علىٰ أنَّه بعد نزول التوراة، انقطع الهلاكُ العام، وشَرَع جهاد الكفار بالسيف..

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ كتاب الله الذي أنزله علىٰ موسىٰ فيه بصائر للناس، أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فتقوم الحُجَّة علىٰ العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية له إلىٰ الصراط المستقيم، ولهذا قال..

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص:٣٦-٤٣]..

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص:٤٤-٥٠]

ولما قصَّ اللهُ علىٰ رسوله ما قصَّ من هذه الأخبار الغيبية.. نبَّه العبادَ علىٰ أنَّ هذا خبرٌ إلاهي محض، ليس للرسول طريق إلىٰ علمه إلا من جهة الوحي، ولهذا قال..

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي: بجانب الطور الغربي..

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ وقت قضائنا لموسىٰ الأمر..

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٤٤﴾ علىٰ ذلك، حتىٰ يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق..

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾ فاندرس العلم، ونُسِيَت آياته.. فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلىٰ ما علَّمناك وأوحينا إليك..

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا﴾ مقيمًا..

﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ تعلمهم وتتعلم منهم، حتىٰ أُخبرت بما أُخبرت من شأن موسىٰ في مدين..

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٤٥﴾ ولكنَّ ذلك الخبر الذي جئت به عن موسىٰ أَثَرٌ من آثار إرسالنا إياك، وَوَحْيٌ لا سبيل لك إلىٰ علمه، بدون إرسالنا..

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ موسىٰ، وَأمرناه أن يأتي القوم الظالمين، ويبلغهم رسالتنا، ويريهم من آياتنا وعجائبنا ما قصصنا عليك.. **والمقصود: أن الماجريات التي جرت لموسىٰ** عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي، من غير زيادة ولا نقص، **لا يخلو من أحد أمرين: إما أن تكون حضرتها** وشاهدتها، أو ذهبت إلىٰ محالِّها **فتعلمتها** من أهلها، فحينئذ قد لا يدل ذلك علىٰ أنك رسول الله، إذ الأمور التي يخبر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكنَّ هذا قد عُلِمَ وتُيُقِّن أنه ما كان وما صار، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك.. **فتعين الأمر الثاني، وهو: أن هذا جاءك من قِبَلِ الله** ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحةُ رسالتك، ورحمةُ الله بك للعباد، ولهذا قال..

﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي: العرب وقريش.. فإن الرسالة عندهم لا تُعرف وقتَ إرسال الرسول وقبلَه بأزمان متطاولة..

﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٦﴾ تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه.. فإذا كنت بهذه المنزلة، كان الواجب عليهم المبادرة إلىٰ الإيمان بك، وشكر هذه النعمة، التي لا يُقادَرُ قدرُها، ولا يُدرك شكرُها.. **وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا لغيرهم،** فإنه عربي، والقرآن الذي أنزل عليه عربي، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته إليهم أصلًا ولغيرهم تبعًا، كما قال تعالىٰ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس:٢] ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]..

﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ من الكفر والمعاصي..

﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ فأرسلناك يا محمد، لدفع حجتهم، وقطع مقالتهم..

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه..

﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ وهو القرآن، الذي أوحيناه إليك..

﴿قَالُواْ﴾ مكذبين له، ومعترضين بما ليس يُعترض به..

﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ أنزل عليه كتاب من السماء جملةً واحدةً.. أي: فأمَّا ما دام ينزل متفرقًا فإنَّه ليس من عند الله.. وأيُّ دليل في هذا؟! وأيُّ شبهة أنه ليس من عند الله حين نزل مُفرَّقًا؟ بل من كمال هذا القرآن واعتناء الله بمن أنزل عليه أن نزل متفرَّقًا، ليثبِّتُ اللهُ به فؤادَ رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].. **وأيضا: فإن قياسهم علىٰ كتاب موسىٰ قياس قد نقضوه**، فكيف يقيسونه علىٰ كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟! ولهذا قال..

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي: القرآن والتوراة، تعاونا في سحرهما، وإضلال الناس..

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨﴾ فثبت بهذا أنَّ القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، **وهذا شأن كل كافر**، ولهذا صرَّح أنَّهم كفروا بالكتابين والرسولين.. ولكن هل كفرهم بهما كان طلبًا للحق، واتباعًا لأمر عندهم خير منهما، أم مجرد هوىً؟ قال تعالىٰ ملزمًا لهم بذلك..

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾ من التوراة والقرآن..

﴿أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٩﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما.. فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله مثل هذين الكتابين، عِلمًا وهدىً وبيانًا ورحمةً للخلق.. وهذا من **كمال الإنصاف من الداعي** أن قال: أنا مقصودي الحق والهدىٰ والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل علىٰ ذلك، الموافق لكتاب موسىٰ، فيجب علينا جميعًا الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدىً وحقًّا، فإن جئتموني بكتاب من عند الله هو أهدىٰ منهما

اتبعته، وإلا فلا أترك هدىٰ وحقًا قد عَلِمتُه لغير هدىٰ وحق..

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتابٍ أهدىٰ منهما..

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلىٰ حق يعرفونه، ولا إلىٰ هدىٰ، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم..

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدىٰ والصراط المستقيم الموصل إلىٰ الله وإلىٰ دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلىٰ سلوك الطرق الموصلة إلىٰ الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدىٰ، فهل أحدٌ أضل ممن هذا وصفه؟! ولكن ظلمه وعدوانه وعدم محبته للحق، هو الذي أوجب له أن يبقىٰ علىٰ ضلاله ولا يهديه الله، فلهذا قال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٠﴾ [القصص:٤٤-٥٠] الذين صار الظلم لهم وصفًا، والعناد لهم نعتًا.. جاءهم الهدىٰ فرفضوه، وعرض لهم الهوىٰ فتبعوه، سدوا علىٰ أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائهم وهلاكهم يترددون.

الفوائد

في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص:٥٠] دليل علىٰ **أن كل من لم يستجب للرسول**، وذهب إلىٰ قول مخالف لقول الرسول، **فإنه لم يذهب إلىٰ هدىٰ، وإنما ذهب إلىٰ هوىٰ.**

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾ [القصص:٥١]

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئًا فشيئًا، رحمة بهم ولطفًا..

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾ [القصص:٥١] حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها.. **فصار نزوله متفرقا رحمة بهم، فَلِم اعترضوا علىٰ ما هو من مصالحهم؟!**

فصل في ذكر بعض الفوائد والعبر
في هذه القصة العجيبة

١- فمنها: أن آيات الله تعالىٰ وعَبَره وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، **فعلىٰ حسب إيمان العبد تكون عبرته**، وإن الله تعالىٰ إنما يسوق القَصَص لأجلهم.. وأما غيرهم فلا يعبأ الله بهم، وليس لهم منها نور وهدىٰ.

٢- ومنها: أن الله تعالىٰ **إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه**، وأتىٰ بها شيئًا فشيئًا **بالتدريج، لا دفعة واحدة**.

٣- ومنها: أن **الأمة المستضعفة**، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، **لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلىٰ أعلىٰ الأمور**، خصوصًا إذا كانوا مظلومين.. كما استنقذ اللهُ أُمَّة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

٤- ومنها: أن **الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به**، لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها **ولا يكون لها إمامة** فيه.

٥- ومنها: **لطفُ الله بأم موسىٰ**، وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

٦- ومنها: أن الله **يُقدِّر علىٰ عبده بعض المشاق، لينيله سرورًا أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شرًا أكثر منه**.. كما قدَّر علىٰ أم موسىٰ ذلك الحزن الشديد، والهمَّ البليغ، الذي هو وسيلة إلىٰ أن يصل إليها ابنها، علىٰ وجه تطمئن به نفسها، وتقر به عينها، وتزداد به غبطة وسرورا.

٧- ومنها: أن **الخوف الطبيعي من الخلق، لا ينافي الإيمان** ولا يزيله.. كما جرىٰ لأم موسىٰ ولموسىٰ من تلك المخاوف.

٨- ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من **أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات**، والتثبيت من الله عند المقلقات.. كما قال تعالىٰ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليزداد إيمانها بذلك ويطمئن قلبها.

٩- ومنها: أن من **أعظم نعم الله علىٰ عبده**، وأعظم معونة للعبد علىٰ أموره، تثبيت الله إياه، **وربط جأشه وقلبه عند المخاوف**، وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك **يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب**، بخلاف من استمر قلقه وروعه، وانزعاجه، فإنه يضيع فكره، ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

١٠- ومنها: أن العبد -ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه- فإنه **لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها**، ولا يكون ذلك منافيًا لإيمانه بخبر الله.. فإنَّ الله قد وعد أمَّ موسىٰ أن يردَّه عليها، ومع ذلك اجتهدت علىٰ رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

١١- ومنها: جواز **خروج المرأة في حوائجها**، وتكليمها للرجال، من غير محذور.. كما جرىٰ لأخت موسىٰ وابنتي صاحب مدين.

١٢- ومنها: جواز **أخذ الأجرة علىٰ الكفالة والرضاع**، والدلالة علىٰ من يفعل ذلك.

١٣- ومنها: **أن الله من رحمته بعبده الضعيف** الذي يريد إكرامه، **أن يريه من آياته**، ويشهده من بيناته، ما يزيد به إيمانه.. كما رد الله موسىٰ علىٰ أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

١٤- ومنها: **أن قتل الكافر الذي له عهد** بعقد أو عرف، **لا يجوز**.. فإن موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عدَّ قتله القبطي الكافر ذنبًا، واستغفر الله منه.

١٥- ومنها: **أنَّ الذي يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين** الذين يفسدون في الأرض.

١٦- ومنها: **أن من قتل النفوس بغير حق**، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهييب أهل المعاصي، **فإنه كاذب في ذلك**.. وهو مفسد كما حكىٰ الله قول القبطي ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ علىٰ وجه التقرير له، لا الإنكار.

١٧- ومنها: **أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، علىٰ وجه التحذير** له من شر يقع فيه، **لا يكون ذلك نميمة**، بل قد يكون واجبًا.. كما أخبر ذلك الرجل لموسىٰ، ناصحًا له ومحذِّرًا.

١٨- ومنها: أنه **إذا خاف القتل والتلف في الإقامة**، فإنه لا يلقي بيده إلىٰ التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل **يذهب عنه**، كما فعل موسىٰ.

١٩- ومنها: **أنه عند تزاحم المفسدتين**، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما، أنه **يرتكب الأخف** منهما والأسلم.. كما أن موسىٰ لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يُقتل،

أو يذهب إلىٰ بعض البلدان البعيدة، التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدله غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولىٰ، فتبعها موسىٰ.

٢٠- ومنها: أن **الناظر في العلم عند الحاجة إلىٰ التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه**، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحقَّ ويبحث عنه، **فإن الله لا يخيب مَنْ هذه حاله**... كما خرج موسىٰ تلقاء مدين فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٢١- ومنها: أن الرحمة بالخلق، **والإحسان علىٰ من يعرف ومن لا يعرف، من أخلاق الأنبياء**.. وأن من الإحسان: سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

٢٢- ومنها **استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها**، ولو كان الله عالمًا لها؛ لأنه تعالىٰ، يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته.. كما قال موسىٰ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾.

٢٣- ومنها أن **الحياء -خصوصًا من الكرام-** من الأخلاق الممدوحة.

٢٤- ومنها: **المكافأة علىٰ الإحسان** لم يزل دأب الأمم السابقين.

٢٥- ومنها: **أن العبد إذا فعل العمل لله تعالىٰ، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد** بالقصد الأول، أنه **لا يلام** علىٰ ذلك.. كما قبل موسىٰ مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه علىٰ عوض.

٢٦- ومنها: **مشروعية الإجارة**، وأنها تجوز علىٰ رعاية الغنم ونحوها مما لا يقدر العمل، وإنما مرده العرف.

٢٧- ومنها أنه تجوز **الإجارة بالمنفعة**، ولو كانت المنفعة بُضعًا.

٢٨- ومنها أن **خطبة الرجل لابنته** الرجل الذي يتخيره، لا يلام عليه.

٢٩- ومنها: أن **خير أجير** وعامل يعمل للإنسان، أن يكون **قويًا أمينًا**.

٣٠- ومنها: **أنَّ من مكارم الأخلاق، أن يُحَسِّن خلقه لأجيره**، وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل، لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٣١- ومنها: **جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد**.. لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

٣٢- ومنها: **ما أجرىٰ الله علىٰ يد موسىٰ من الآيات البينات**، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسىٰ وهارون، من فرعون، ومن الغرق.

٣٣- ومنها: **أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إمامًا في الشر**، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته.. كما أن **من أعظم نعمة أنعم الله بها علىٰ عبده، أن يجعله إماما في الخير** هاديًا مهديًا.

٣٤- ومنها: ما فيها من **الدلالة علىٰ رسالة محمد** ﷺ، حيث أخبر بذلك تفصيلًا مطابقًا، وتأصيلًا موافقًا، قصَّه قصًّا، صدق به المرسلين، وأيَّد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة دَرَسَ فيها شيئًا من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم، ووحي أنزله عليه الكريم المنان، لينذر به قوما جاهلين، وعن النذر والرسل غافلين.

فصلوات الله وسلامه، علىٰ من مجرد خبره ينبئ أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة، أنه من عند الله..

كيف وقد تطابق علىٰ صحة ما جاء به وصدقه خبر الأولين والآخرين..

والشرع الذي جاء به من رب العالمين..

وما جبل عليه من الأخلاق الفاضلة، التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلىٰ الخلق درجة..

والنصر المبين لدينه وأمته، حتىٰ بلغ دينه مبلغ الليل والنهار، **وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار، بالسيف والسنان**، وقلوبهم بالعلم والإيمان..

ولم تزل الأمم المعاندة والملوك الكفرة المتعاضدة، ترميه بقوس واحدة، وتكيد له المكايد، وتمكر لإطفائه وإخفائه، وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها، لا يزداد إلا نموًا، ولا آياته وبراهينه إلا ظهورًا..

وكل وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة لِلعَالَمِينَ، وهداية لِلعَالَمِينَ، ونور وبصيرة للمتوسمين. والحمد لله وحده.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص:٥٢-٥٥]

يذكر تعالىٰ عظمة القرآن وصدقه وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه ويؤمنون به ويقرون بأنه الحق..

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ وهم أهل التوراة، والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا..

﴿هُم بِهِۦ﴾ بهذا القرآن ومن جاء به..

﴿يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾..

﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ استمعوا له وأذعنوا، و..

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله علىٰ الأخبار الصادقة، والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة.. **وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم وينفع قولهم: لأنهم** لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة، **لأنهم** أهل الصنف وأهل الكتب.. **وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق علىٰ شبهة،** فضلا عن الحجة: **لأنهم** ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾ [الإسراء:١٠٧] الآيات..

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣﴾ فلذلك ثبتنا علىٰ ما مَنَّ الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبُه بهذا الكتاب إيمانَه بالكتاب الأول..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين آمنوا بالكتابين..

﴿يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ أجرًا علىٰ الإيمان الأول، وأجرًا علىٰ الإيمان الثاني..

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ علىٰ الإيمان، وثبتوا علىٰ العمل، فلم تزعزعهم عن ذلك شبهة، ولا ثناهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة..

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ومن خصالهم الفاضلة التي من آثار إيمانهم الصحيح، أنهم (يَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ)، دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتىٰ للمسيء إليهم بالقول والفعل، يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل.. لعلمهم بفضيلة هذا الخُلق العظيم، وأنه لا يُوَفَّق له إلا ذو حظ عظيم..

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤﴾..

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ﴾ من جاهل خاطبهم به..

﴿أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ﴾ مقالة عباد الرحمن أولي الألباب..

﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ كُلٌّ سَيُجازَىٰ بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء.. ولزم من ذلك أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون، من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه..

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ لا تسمعون منَّا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضىٰ جهلكم، فإنَّكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم، فإننا ننزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه..

﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾ [القصص:٥٢-٥٥] من كل وجه.

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [القصص:٥٦]

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ يخبر تعالىٰ أنك يا محمد -وغيرك من باب أولىٰ- لا تقدر علىٰ هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإنَّ هذا أمر غير مقدور للخلق، هداية للتوفيق، وخلق الإيمان في القلب..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ وإنما ذلك بيد الله سبحانه تعالىٰ، يهدي من يشاء..

﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [القصص:٥٦] وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه علىٰ ضلاله.

🕮 الفـوائـد

إثبات الهداية للرسول في قوله تعالىٰ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ:٥٢] فتلك هداية البيان والإرشاد.. فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له.. وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقهم بالفعل، فحاشا وكلا.

ولهذا، لو كان قادرًا عليها، لهدىٰ من وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنَّه **أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام ما هو أعظم مما فعله معه عمه**، ولكن الهداية بيد الله تعالىٰ.

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص:٥٧-٥٩]

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ يخبر تعالىٰ أن المكذبين من قريش وأهل مكة، يقولون للرسول ﷺ..

﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإنَّ الناس قد عادوك وخالفوك، فلو تابعناك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة.. وهذا الكلام منهم يدل علىٰ **سوء الظن بالله تعالىٰ**، وأنه لا ينصر دينه ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أنَّ الباطل سيعلو علىٰ الحق.. قال اللهُ مبيِّنًا لهم حالةً هم بها دون الناس، وأن الله اختصهم بها، فقال..

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أولم نجعلهم متمكنين ممكنين في حرمٍ يكثره المنتابون ويقصده الزائرون، قد احترمه البعيد والقريب، فلا يهاج أهله، ولا ينتقصون بقليل ولا كثير.. والحال أن كل ما حولهم من الأماكن قد حف بها

الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين.. فَلْيَحْمَدُوا ربهم على هذا الأمن التام، الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير الذي يجيء إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون، ولْيَتَّبِعُوا هذا الرسول الكريم، ليتم لهم الأمن والرغد..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾.. وإياهم وتكذيبه، والبطر بنعمة الله، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفًا، وبعد عزهم ذلًا وبعد غناهم فقرًا، ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلهم، فقال..

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ فخرَّت بها، وألهتها، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسل، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم النقمة..

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لتوالي الهلاك والتلف عليهم، وإيحاشها من بعدهم..

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾ للعباد، نميتهم ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم إلينا، فنجازيهم بأعمالهم.. ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم، بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال..

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بكفرهم وظلمهم..

﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها ينتجعها، ولا تخفى عليه أخبارها..

﴿رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم، بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة، والأطراف النائية، فإنَّ ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم..

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾ [القصص:٥٧-٥٩] بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة.. **والحاصل**: أنَّ الله لا يعذب أحدًا إلا بظلمه، وإقامة الحجة عليه.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٖ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٞ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٦١﴾ [القصص:٦٠-٦١]

هذا حض من الله لعباده علىٰ **الزهد في الدنيا** وعدم الاغترار بها، وعلىٰ **الرغبة في الأخرىٰ، وجعلها مقصود العبد** ومطلوبه..

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٖ﴾ يخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق من الذهب والفضة والحيوانات والأمتعة والنساء والبنين والمآكل والمشارب واللذات..

﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كلها متاع الحياة الدنيا وزينتها، أي: يتمتع به وقتًا قصيرًا، متاعًا قاصرًا، محشوًّا بالمنغصات، ممزوجًا بالغصص..

﴿وَزِينَتُهَاۚ﴾ ويُزيَّن به زمانًا يسيرًا للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعًا، وينقضي جميعًا، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم، والخيبة والحرمان..

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من النعيم المقيم، والعيش السليم..

﴿خَيْرٞ وَأَبْقَىٰٓۚ﴾ أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبدًا، ومستمر سرمدًا..

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠﴾ أفلا يكون لكم عقول بها تَزِنون أيَّ الأمور أولىٰ بالإيثار، وأيَّ الدارين أحق للعمل لها.. فدلَّ ذلك أنه **بحسب عقل العبد يؤثر الأخرىٰ علىٰ الدنيا**، وأنه ما آثر أحدٌ الدنيا إلا لنقص في عقله، ولهذا نبَّه العقول علىٰ الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال..

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنٗا﴾ هل يستوي مؤمن ساع للآخرة سعيها، قد عمل علىٰ وعد ربه له، بالثواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم..

﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ من غير شك ولا ارتياب، لأنه وعد من كريم صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، لعبد قام بمرضاته وجانب سخطه..

﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنياه عن آخرته، ولم يرفع بهدىٰ الله رأسًا، ولم ينقد للمرسلين،

فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك..

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٦١﴾ [القصص:٦٠-٦١] للحساب، وقد علم أنه لم يقدِّم خيرًا لنفسه، وإنما قدَّم جميع ما يضره، وانتقل إلىٰ دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلىٰ ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه ما هو أولىٰ بالاختيار، وأحق الأمرين بالإيثار.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ۝٦٤ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ [القصص:٦٢-٦٦]

هذا إخبار من الله تعالىٰ، عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، وعن عبادة الله وإجابة رسله، فقال..

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ينادي من أشركوا به شركاء يعبدونهم، ويرجون نفعهم، ودفع الضرر عنهم، فيناديهم ليبين لهم عجزها وضلالهم..

﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ وليس لله شريك، ولكنَّ ذلك بحسب زعمهم وافترائهم، ولهذا قال..

﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾ فأين هم بذواتهم، وأين نفعهم وأين دفعهم؟ ومن المعلوم أنَّه يتبين لهم في تلك الحال أن الذي عبدوه ورجوه باطل مضمحل في ذاته، وما رجوا منه، فيقرون علىٰ أنفسهم بالضلالة والغواية.. ولهذا..

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ الرؤساء والقادة، في الكفر والشر، مقرين بغوايتهم وإغوائهم..

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ التابعون..

﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ﴾ كُلُّنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب..

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ﴾ من عبادتهم، أي: نحن براء منهم ومن عملهم..

﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين..

﴿وَقِيلَ﴾ لهم..

﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ علىٰ ما أملتم فيهم من النفع، فأمروا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج، الذي يضطر فيه العابد إلىٰ من عبده..

﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ لينفعوهم، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء..

﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة..

﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ الذي سيحل بهم عيانًا بأبصارهم بعد ما كانوا مكذِّبين به، منكرين له..

﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤﴾ لَمَا حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلىٰ صراط الجنة، كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا..

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ هل صدقتموهم واتبعتموهم، أم كذبتموهم وخالفتموهم؟

﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾ [القصص:٦٢-٦٦] لم يحيروا عن هذا السؤال جوابًا، ولم يهتدوا إلىٰ الصواب.. ومن المعلوم أنه **لا ينجىٰ في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح**، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد.. ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم في ماذا يجيبون به، ولو كان كذبا.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾ [القصص:٦٧]

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ لما ذكر تعالىٰ سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم.. ذكر **الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالىٰ**، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحًا متبعًا فيه للرسل..

﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ من جمع هذه الخصال..

﴿مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾ [القصص:٦٧] الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب، فلا سبيل إلىٰ الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القصص:٦٨-٧٠]

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ **هذه الآيات فيها: عموم** خلقه لسائر المخلوقات.. **ونفوذ** مشيئته بجميع البريات..

﴿وَيَخْتَارُ﴾ **وانفراده** باختيار من يختاره ويختصه من الأشخاص، والأوامر والأزمان والأماكن..

﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ وأنَّ أحدًا ليس له من الأمر والاختيار شيء..

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾ وأنه تعالىٰ **منزَّه عن كل ما يشركون** به، من الشريك، والظهير، والعوين، والولد، والصاحبة، ونحو ذلك، مما أشرك به المشركون..

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾ وأنه **العالِم** بما أكنته الصدور وما أعلنوه..

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ وأنه **وحده المعبود** المحمود في الدنيا والآخرة، علىٰ ما له من صفات الجلال والجمال، وعلىٰ ما أسداه إلىٰ خلقه من الإحسان والإفضال..

﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ وأنه **هو الحاكم في الدارين، في الدنيا**: بالحكم القدري الذي أثره جميع ما خلق وذرأ، والحكم الديني الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي، **وفي الآخرة**: يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال..

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القصص:٦٨-٧٠] فيجازي كلًا منكم بعمله، من خير وشر.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ

عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧١-٧٣]

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا امتنان من الله علىٰ عباده، يدعوهم به إلىٰ شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمته النهار: ليبتغوا من فضل الله، وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم في ضيائه، والليل: ليهدأوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده.. فهل أحد يقدر علىٰ شيء من ذلك؟! فلو جعل..

﴿عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ مواعظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو جعل..

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾..

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧١-٧٣] مواقع العبر، ومواضع الآيات، فتستنير بصائركم، وتسلكوا الطريق المستقيم.

🕮 الفـوائـد

١- قال في الليل ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وفي النهار ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.. **لأن سلطان السمع أبلغ في الليل** من سلطان البصر، وعكسه النهار.

٢- في هذه الآيات: تنبيه إلىٰ **أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه**، ويستبصر فيها، **ويقيسها بحال عدمها**، فإنه إذا وازن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنة.. بخلاف من جرىٰ مع العوائد، ورأىٰ أن هذا أمر لم يزل مستمرًا، ولا يزال.

وعمي قلبه عن الثناء علىٰ الله بنعمه، ورؤية افتقاره إليها في كل وقت.. فإن هذا لا يحدث له فكرة شكر ولا ذكر.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص:٧٤-٧٥]

﴿وَيَوْمَ﴾ ينادي اللهُ المشركين به العادلين به غيره، الذين يزعمون أنَّ له شركاء يستحقون أن يُعبدوا، وينفعون ويضرون.. فإذا كان يوم القيامة أراد الله أن يظهر جراءتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم لأنفسهم، فـ..

﴿يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦]..

﴿وَنَزَعْنَا﴾ فإذا حضروا وإياهم، نزع..

﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المكذبة..

﴿شَهِيدًا﴾ يشهد علىٰ ما جرىٰ في الدنيا، من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المنتخبين.. أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدىٰ للخصومة عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإياهم علىٰ طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة..

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم ودليلكم علىٰ صحة شرككم، هل أمرناكم بذلك؟ هل أمَرَتكم رسلي؟ هل وجدتم ذلك فى شيء من كتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئًا من الإلهية؟ هل ينفعونكم، أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذا إن كان فيهم أهلية، وليروكم إن كان لهم قدرة..

﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ حينئذ بطلان قولهم وفساده، و..

﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ تعالىٰ، قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حجتهم، وأفلجت حجة الله..

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص:٧٤-٧٥] من الكذب والإفك، واضمحل وتلاشىٰ وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص:٧٦-٨٢]

يخبر تعالىٰ عن حالة قارون وما فَعَل وفُعِلَ به، ونُصِحَ ووُعِظَ، فقال..

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ من بني إسرائيل، الذين فُضِّلوا علىٰ العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة..

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ ولكن قارون هذا، بغىٰ علىٰ قومه وطغىٰ، بما أوتيه من الأموال العظيمة المطغية..

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ كنوز الأموال شيئًا كثيرًا..

﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ والعصبة من العشرة إلىٰ التسعة إلىٰ السبعة، ونحو ذلك.. أي: حتىٰ أن مفاتح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟!

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان..

﴿لَا تَفۡرَحۡۖ﴾ لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فـ..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ بها، المنكبين علىٰ محبتها..

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر علىٰ مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات..

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقىٰ ضائعًا، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعًا لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك..

﴿وَأَحۡسِن﴾ إلىٰ عباد الله..

﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ بهذه الأموال..

﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ بل يعاقبهم علىٰ ذلك، أشد العقوبة.. فـ..

﴿قَالَ﴾ قارون رادًا لنصيحتهم، كافرًا بنعمة ربه..

﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي.. أو علىٰ علم من الله بحالي، يعلم أني أهل لذلك.. فَلِم تنصحوني علىٰ ما أعطاني الله تعالىٰ؟.. قال تعالىٰ مبينًا أن عطاءه ليس دليلًا علىٰ حسن حالة المعطىٰ..

﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ﴾ فما المانع من إهلاك قارون، مع مُضِيِّ عادتنا وسنتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك؟!

﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾ بل يعاقبهم الله، ويعذبهم علىٰ ما يعلمه منهم، فهم وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة، فليس قولهم مقبولًا، وليس ذلك دافعًا عنهم من العذاب شيئًا؛ لأن ذنوبهم غير خفية، فإنكارهم لا محل له.. فلم يزل قارون مستمرًا علىٰ عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحًا بطرًا قد أعجبته نفسه، وغره ما أوتيه من الأموال..

﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم..

﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه.. وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها.. فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت بِزَّتُهُ القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، **كلٌ تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة**.. فـ..

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهىٰ رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها..

﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها..

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ وصدقوا.. **إنه لذو حظ عظيم**، لو كان الأمر منتهيًا إلىٰ رغباتهم، **وأنه ليس وراء الدنيا دار أخرىٰ**، فإنه قد أعطي منها ما به غاية التنعم بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك علىٰ جميع مطالبه، **فصار هذا الحظ العظيم بحسب همتهم**.. وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهىٰ مطلبها، لَمِنْ أدنىٰ الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنىٰ صعود إلىٰ المرادات العالية والمطالب الغالية..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلىٰ باطن الدنيا، حين نظر أولئك إلىٰ ظاهرها..

﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالهم..

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ العاجل من لذة العبادة ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه.. والآجل من الجنة وما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين..

﴿خَيۡرٞ﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه..

﴿لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ﴾ فهذه حقيقة الأمر..

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ، فما يُلَقَّىٰ ذلك ويوفق له..

﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ الذين حبسوا أنفسهم علىٰ طاعة الله، وعن معصيته، وعلىٰ

أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.. فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وازَّيَّنت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب..

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثاثه، ومتاعه..

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة، وعصبة، وخدم، وجنود..

﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ جاءه العذاب، فما نصر ولا انتصر..

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾..

﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم..

﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يضيق الرزق على من يشاء.. فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون ليس دليلًا على خير فيه، وأننا غالطون في قولنا ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.. و..

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته..

﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ فصار هلاك قارون: عقوبة له.. وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأوَّل..

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص:٧٦-٨٢] لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣]

لما ذكر تعالى قارون وما أوتيه من الدنيا، وما صار إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ رَغَّبَ تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالسبب الموصل إليها فقال..

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله، التي قد جمعت كلَّ

نعيم، واندفع عنها كلّ مكدِّر ومنغِّص..

﴿نَجۡعَلُهَا﴾ دارًا وقرارًا..

﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض علىٰ عباد الله، والتكبر عليهم وعلىٰ الحق..

﴿وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي.. فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، **لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلىٰ الله**، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.. وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال..

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣] أي: حالة الفلاح والنجاح التي تستقر وتستمر لمن اتقىٰ الله تعالىٰ.. وغيرهم وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب.. وعُلِمَ من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص:٨٤]

يخبر تعالىٰ عن مضاعفة فضله، وتمام عدله فقال..

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ شرط فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها، فهذا لم يجيء بالحسنة.. والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالىٰ وحق عباده..

﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾ أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرىٰ ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام:١٦٠]، هذا التضعيف للحسنة لا بد منه.. وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١] بحسب حال العامل وعمله، ونفعه ومحله ومكانه..

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهي كل ما نهىٰ الشارع عنه، نَهْيَ تحريم..

﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص:٨٤] كقوله تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص:٨٥-٨٨]

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبيَّن فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالَمين، والدعوة لأحكام جميع المكلَّفين..

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلىٰ معاد، يُجازىٰ فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيئون بمعصيتهم.. وقد بيَّنت لهم الهدىٰ، وأوضحت لهم المنهج، فإن تبعوك فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أَبوا إلا عصيانك والقدح بما جئت به من الهدىٰ، وتفضيل ما معهم من الباطل علىٰ الحق، فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة علىٰ الأعمال من العَالِم بالغيب والشهادة، والمحق والمبطل.. ولهذا قال..

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ وقد عُلِم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون..

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ لم تكن متحريًا لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعدًا له، ولا متصديًا..

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب، الذي رَحِمَ به العالمين، وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكَّاهم وعلَّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي

ضلال مبين.. فإذا علمت أنه أنزل إليك رحمة منه، علمت أن جميع ما أمر به ونهىٰ عنه، فإنه رحمة وفضل من الله، فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفته أصلح وأنفع..

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾ معينا لهم علىٰ ما هو من شُعَب كفرهم.. ومن جملة مظاهرتهم: أن يقال في شيء منه إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة..

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم ولا يخدعنك عنها، ولا تتبع أهواءهم..

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي اجعل الدعوة إلىٰ ربك منتهىٰ قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فارفضه، من رياء، أو سمعة، أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإنَّ ذلك داع إلىٰ الكون معهم، ومساعدتهم علىٰ أمرهم، ولهذا قال..

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٨٧﴾ لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه، التي هي جميع المعاصي..

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ بل أخلص لله عبادتك، فإنه..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا أحد يستحق أن يُؤلَّه ويُحب ويُعبد، إلا الله الكامل الباقي الذي..

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وإذا كان كلُّ شيء هالكًا مضمحلًا سواه، فعبادة الهالك الباطل باطلة ببطلان غايتها، وفساد نهايتها..

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ في الدنيا والآخرة..

﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلىٰ غيره..

﴿تُرْجَعُونَ ۝٨٨﴾ [القصص:٨٥-٨٨] فإذا كان ما سوىٰ الله باطلًا هالكًا، والله هو الباقي، الذي لا إله إلا هو، وله الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع الخلائق كلهم، ليجازيهم بأعمالهم.. تعيَّن علىٰ من له عقل، أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعمل لما يقربه ويدنيه، ويحذر من سخطه وعقابه، وأن يُقدِم علىٰ ربه غير تائب، ولا مقلع عن خطئه وذنوبه.

تم تفسير سورة (القصص)

ولله الحمد والثناء والمجد دائمًا أبدًا

تفسير سورة العنكبوت، وهي مكية

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١-٣]

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ **يخبر تعالىٰ عن تمام حكمته**.. وأن **حكمته لا تقتضي** أن كل من قال (إنه مؤمن) وادعىٰ لنفسه الإيمان أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه.. فإنهم **لو كان الأمر كذلك لم يتميز الصادق** من الكاذب، والمحق من المبطل..

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ ولكن **سنته وعادته** في الأولين وفي هذه الأمة، **أن يبتليهم** بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنىٰ والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل.. ونحو ذلك من **الفتن التي ترجع كلها إلىٰ فتنة الشبهات** المعارضة للعقيدة، **والشهوات المعارضة للإرادة**..

﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١-٣] فمن كان **عند ورود الشبهات** يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق، وعند ورود **الشهوات** الموجبة والداعية إلىٰ المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضىٰ الإيمان، ويجاهد شهوته، دلَّ ذلك علىٰ صدق إيمانه وصحته.. ومن كان **عند ورود الشبهات** تؤثر في قلبه شكًّا وريبًا، **وعند اعتراض الشهوات** تصرفه إلىٰ المعاصي أو تصدفه عن الواجبات، دلَّ ذلك علىٰ عدم صحة إيمانه وصدقه.. **والناس في هذا المقام درجات** لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر.. فنسأل الله تعالىٰ أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا علىٰ دينه.. فالابتلاء **والامتحان للنفوس بمنزلة الكير**، يُخرج خَبَثَها وطِيبَها.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت:٤]

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ **أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنايات أن أعمالهم ستهمل، وأن الله سيغفل عنهم، أو يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل عليهم عملها؟!..**

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت:٤] **ساء حكمهم، فإنه حكم جائر؛ لـ: تضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله وهم أضعف شيء وأعجزه.**

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت:٥-٦]

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ **يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته..**

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾ **أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب.. فتزود للقائه، وسر نحوه، مستصحبًا الرجاء، مؤملا الوصول إليه..**

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ **ولكن ما كل من يَدَّعِي يُعْطَىٰ بدعواه، ولا كل من تمنىٰ يُعطىٰ ما تمناه.. فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات.. فمن كان صادقًا في ذلك أناله ما يرجو.. ومن كان كاذبًا لم تنفعه دعواه.. وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح..**

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ **نفسَه وشيطانَه، وعدوَّه الكافر..**

﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ﴾ **لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه..**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت:٥-٦] **والله غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بُخْلا عليهم.**

🕮 الفـوائـد

قد عُلِم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلَّف فيها إلىٰ جهاد..

لأن نفسه تتثاقل بطبعها عن الخير.. وشيطانه ينهاه عنه.. وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي.. وكل هذا معارضات تحتاج إلىٰ مجاهدات وسعي شديد.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ [العنكبوت:٧]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: أنَّ الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح..

﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ سيكفر الله عنهم سيئاتهم؛ لأنَّ الحسنات يذهبن السيئات..

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ [العنكبوت:٧] وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد؛ لأنه يعمل المباحات أيضـًا، وغيرها.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [العنكبوت:٨]

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ وأمرنا الإنسان ووصيناه بوالديه حُسنًا، أي: ببرهما والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظ علىٰ ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله..

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وليس لأحدٍ عِلمٌ بصحة الشرك بالله.. وهذا تعظيم لأمر الشرك..

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ﴾..

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [العنكبوت:٨] فأجازيكم بأعمالكم.. فبروا والديكم، وقدِّموا طاعتهما، إلا علىٰ طاعة الله ورسوله، فإنها مقدمةٌ علىٰ كل شيء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝٩﴾ [العنكبوت:٩]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من آمن بالله وعمل صالحًا..

﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝٩﴾ [العنكبوت:٩] فإن الله وعده أن يدخله الجنة في جملة عباده

الصالحين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.. كل علىٰ حسب درجته ومرتبته عند الله.. فالإيمان الصحيح والعمل الصالح **عنوان علىٰ سعادة صاحبه**، وأنه من أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله تعالىٰ.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾ [العنكبوت:١١]

لما ذكر تعالىٰ أنه لا بد أن يمتحن من ادَّعىٰ الإيمان؛ ليظهر الصادق من الكاذب، بيَّن تعالىٰ أنَّ **من الناس فريقًا لا صبر لهم علىٰ المحن**، ولا ثبات لهم علىٰ بعض الزلازل فقال..

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ بضرب، أو أخذ مال، أو تعيير، ليرتدَّ عن دينه، وليراجع الباطل..

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ **يجعلها صادَّةً له عن الإيمان والثبات عليه**، كما أنَّ العذاب صادٌّ عما هو سببه..

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ **لأنَّه موافق للهوىٰ**.. فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١]..

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ حيث أخبركم بهذا الفريق، الذي حاله كما وصف لكم، **فتعرفون بذلك كمال علمه** وسعة حكمته..

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾ [العنكبوت:١١] فلذلك قدَّر مِحنًا وابتلاء ليظهر علمُه فيهم، **فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرده**، لأنهم قد يحتجون علىٰ الله أنهم لو ابتُلُوا لَثبَتُوا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٢ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝١٣﴾ [العنكبوت:١٢-١٣]

يخبر تعالىٰ عن **افتراء الكفار** ودعوتهم للمؤمنين إلىٰ دينهم.. وفي ضمن ذلك **تحذير المؤمنين من الاغترار بهم** والوقوع في مكرهم، فقال..

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ فاتركوا دينكم أو بعضه واتبعونا في ديننا، فإنَّنا نضمنُ لكم الأمر..

﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ وهذا الأمرُ ليس بأيديهم، فلهذا قال..

﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ لا قليلٌ ولا كثيرٌ..

﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ فهذا التحمُّل ولو رضي به صاحبُه فإنَّه لا يفيد شيئًا؛ فإنَّ الحقَّ لله، والله تعالىٰ لم يمكِّن العبدَ من التصرف في حقه إلا بأمره وحُكمِه، وحُكمُه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم].. ولما كان قوله: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ **قد يتوهم منه أيضًا أن الكفار الداعين إلىٰ كفرهم** -ونحوهم ممن دعا إلىٰ باطله- **ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبوه**، دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه، قال مخبرًا عن هذا الوهم..

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أثقال ذنوبهم التي عملوها..

﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي الذنوب **التي بسببهم ومن جرَّائهم**.. فالذنب الذي فعله التابع لكل من التابع والمتبوع حصته منه؛ هذا: لأنه فعله وباشره، والمتبوع: لأنه تسبب في فعله ودعا إليه.. كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالمباشرة، وللداعي أجره بالتسبب..

﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت:١٢-١٣] من الشر وتزيينه، وقولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت:١٤]

يخبر تعالىٰ عن **حُكمِهِ وحِكمَتِهِ في عقوبة الأمم المكذِّبة**..

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ وأن اللهَ أرسل عبده ورسوله نوحًا عليه الصلاة السلام..

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يدعوهم إلىٰ التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الأنداد والأصنام..

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ نبيًا داعيًا..

﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ وهو لا يَنِي بدعوتهم، ولا يفتر في نصحهم، يدعوهم ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهارًا.. فلم يرشُدوا ولم يهتدوا، بل استمروا علىٰ كفرهم وطغيانهم.. حتىٰ دعا عليهم نبيهم نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، مع شدَّة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]..

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ الماء الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض بشدة..

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت:١٤] مستحقون للعذاب.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت:١٥]

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ الذين ركبوا معه، أهله ومن آمن به..

﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ السفينة.. أو قصة نوح..

﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت:١٥] يعتبرون بها علىٰ: أنَّ من كذَّب الرسلَ آخرُ أمرِه الهلاك.. وأنَّ المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجا، ومن كلِّ ضيق مخرجا.. وجعل اللهُ أيضًا السفينة -أي: جنسها- آيةً للعالمين، يعتبرون بها رحمةَ ربهم، الذي قيَّض لهم أسبابها، ويسَّر لهم أمرها، وجعلها تحملهم وتحمل متاعهم من محل إلىٰ محل ومن قُطرٍ إلىٰ قُطرٍ.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ
وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ
وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ
ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن

يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت:١٦-٢٢]

﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾ يذكر تعالىٰ أنه أرسل خليله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ قومه، يدعوهم إلىٰ الله، فقال لهم..

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحِّدوه، وأخلصوا له العبادة، وامتثلوا ما أمركم به..

﴿وَٱتَّقُوهُۖ﴾ أن يغضب عليكم، فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي..

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ عبادة الله وتقواه..

﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من ترك ذلك.. وهذا من باب **إطلاق (أفعل التفضيل) بما ليس في الطرف الآخر منه شيء**، فإنَّ ترك عبادة الله وترك تقواه لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيرًا للناس؛ لأنه لا سبيل إلىٰ نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، **وكلُّ خيرٍ يوجد في الدنيا والآخرة فإنَّه من آثار عبادة الله وتقواه**..

﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ ذلك.. فاعلموا الأمور وانظروا ما هو أولىٰ بالإيثار.. **فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه، نهاهم عن عبادة الأصنام**، وبيَّن لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال..

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ **تنحتونها** وتخلقونها بأيديكم، **وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتختلقون الكذب بالأمر بعبادتها** والتمسك بذلك..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلىٰ عبادته..

﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ فكأنه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة، لا تملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وأن من هذا وصفه لا يستحق أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال مثقال ذرةٍ من العبادة والتأله.. **والقلوب لا بد أن تطلب معبودًا تألهه** وتسأله حوائجها، فقال -حاثًا لهم علىٰ من يستحق العبادة-..

﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ فإنَّه هو المُيسِّر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياه..

﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ وحده لا شريك له، لكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير..

﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ وحده، لكون جميع ما وصل ويصل إلىٰ الخلق من النِعَم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النِقَم عنهم فهو الدافع لها..

﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾ يجازيكم علىٰ ما عملتم، وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم.. فاحذروا القدوم عليه وأنتم علىٰ شرككم، وارغبوا فيما يقربكم إليه، ويثيبكم -عند القدوم- عليه..

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾..

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾ يوم القيامة..

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم:٢٧]..

﴿قُلۡ﴾ لهم، إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء..

﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم..

﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ **فإنكم ستجدون:** أمما من الآدميين والحيوانات، **لا تزال توجد شيئًا فشيئًا..** وتجدون النبات والأشجار، **كيف تحدث وقتًا بعد وقت..** وتجدون السحاب والرياح ونحوها، **مستمرة في تجددها..** بل **الخلق دائما في بدء وإعادة.. فانظر إليهم وقت موتتهم الصغرىٰ** -النوم- وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، **ثم إنهم لم يزالوا علىٰ ذلك طول ليلهم، حتىٰ انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم،** وبعثوا من موتتهم، قائلين: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[1].. ولهذا قال..

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ﴾ بعد الإعادة..

﴿يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ وهي النشأة التي لا تَقبل موتًا ولا نومًا، وإنَّما هو الخلود والدوام في إحدىٰ الدارين..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ فقدرته تعالىٰ لا يعجزها شيء.. وكما قَدَر بها علىٰ

(١) أخرجه البخاري [٦٣١٢] وغيره من حديث حذيفة.

ابتداء الخلق، فقدرته علىٰ الإعادة من باب أولىٰ وأحرىٰ..

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ **هو المنفرد بالحكم الجزائي** وهو: **إثابة الطائعين** ورحمتهم.. **وتعذيب** العاصين والتنكيل بهم..

﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ **ترجعون إلىٰ الدار، التي بها تجري عليكم أحكام عذابه** ورحمته.. **فاكتسبوا** في هذه الدار ما هو من أسباب رحمته من الطاعات.. **وابتعدوا** من أسباب عذابه، وهي المعاصي..

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ يا هؤلاء المكذِّبون المتجرؤن علىٰ المعاصي، لا تحسبوا أَنَّه مغفولٌ عنكم، أو معجزون لله في الأرض ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم، وما زَيَّنَت لكم أنفُسُكم وخَدَعَتكُم من النجاة من عذاب الله، فلستم بمعجزين اللهَ في جميع أقطار العالم..

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يتولاكم، فيحصل لكم مصالحَ دينكم ودنياكم..

﴿وَلَا نَصِيرٖ ٢٢﴾ [العنكبوت:١٦-٢٢] ينصركم، فيدفع عنكم المكاره.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣﴾ [العنكبوت:٢٣]

يخبر تعالىٰ مَن هم الذين زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وأنهم الذين كفروا به وبرسله، وبما جاءوهم به..

﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ وكذَّبوا بلقاء الله.. فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك قَدِموا علىٰ ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي، **لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك**، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ فلذلك لم يعملوا سببًا واحدًا يحصلون به الرحمة، **وإلا لو طمعوا في رحمته لعملوا لذلك أعمالًا.. والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان: إياس الكفار** منها وتركهم جميع سبب يقربهم منها، **وإياس العصاة**، بسبب كثرة جناياتهم أَوحَشَتهُم فَمَلَكَت قلوبَهم، فأحدث لها الإياس..

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٣﴾ [العنكبوت:٢٣] أي: مؤلم موجع.. **وكأنَّ هذه الآيات معترضات بين كلام إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ **لقومه، وردهم عليه،** والله أعلم بذلك.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥﴾ [العنكبوت:٢٤-٢٥]

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن﴾ **فما كان مجاوبة قوم إبراهيم إبراهيم حين دعاهم إلىٰ ربه قبول دعوته، والاهتداء بنصحه، ورؤية نعمة الله عليهم بإرساله إليهم، وإنما كان مجاوبتهم له شر مجاوبة..**

﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ **أشنع القتلات، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فألقوه في النار..**

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٤﴾ **فيعلمون: صحة ما جاءت به الرسل.. وبِرَّهُمْ ونصحهم.. وبطلان قول من خالفهم وناقضهم.. وأن المعارضين للرسل كأنهم تواصوا وحثَّ بعضُهم بعضًا علىٰ التكذيب..**

﴿وَقَالَ﴾ **لهم إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه..**

﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ **أي: غاية ذلك مودة في الدنيا، ستنقطع وتضمحل..**

﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ **يتبرأ كلٌّ من العابدين والمعبودين من الآخر** ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦].. **فكيف تتعلقون بمن يُعلَم أنَّه سيتبرأ من عابديه ويلعنهم؟!**

﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ﴾ **وأن مأوىٰ الجميع، العابدين والمعبودين..**

﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥﴾ [العنكبوت:٢٤-٢٥] وليس أحد ينصرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم عقابه.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ [العنكبوت:٢٦-٢٧]

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ أي: لم يزل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يدعو قومه، وهم مستمرون علىٰ عنادهم.. إلا أنه آمن له بدعوته (لوط)، الذي نبأه الله وأرسله إلىٰ قومه، كما سيأتي ذكره..

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم حين رأىٰ أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئا..

﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ أي: هاجرٌ أرض السوء، ومهاجر إلىٰ الأرض المباركة، وهي الشام..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي له القوة، وهو يقدر علىٰ هدايتكم..

﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٦﴾ ولكنه حَكِيمٌ، ما اقتضت حكمته ذلك..

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ بعد ما هاجر إلىٰ الشام..

﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا علىٰ ذريته.. حتىٰ خُتِموا بالنبي محمد ﷺ وعليهم أجمعين.. وهذا من **أعظم المناقب والمفاخر**، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريَّته، وعلىٰ أيديهم اهتدىٰ المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون..

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ من الزوجة الجميلة **فائقة الجمال**.. **والرزق** الواسع.. **والأولاد** الذين بهم قرَّت عينه.. **ومعرفة الله** ومحبته، والإنابة إليه..

﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ [العنكبوت:٢٦-٢٧] بل هو ومحمد صلىٰ الله عليهما وسلم أفضل الصالحين علىٰ الإطلاق، وأعلاهم منزلة.. **فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.**

📖 **الفـوائـد**

لما اعتزلهم وفارقهم، وهم بحالهم، **لم يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب**، بل ذكر اعتزاله إياهم، وهجرته من بين أظهرهم..

فأما ما يذكر في الإسرائيليات: أنَّ الله تعالىٰ فتح علىٰ قومه باب البعوض، فشرب دماءَهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم.. فهذا يتوقف الجزم به علىٰ الدليل الشرعي، ولم يوجد.. فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة..

ولكن **لعل من أسرار ذلك:** أن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ من أرحم الخلق وأفضلهم وأحلمهم وأجلِّهم، فلم يدع علىٰ قومه كما دعا غيره، ولم يكن الله ليجري بسببه عذابًا عامًا.. **ومما يدل علىٰ ذلك**، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه، والله أعلم بالحال.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ
أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ
فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا
جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ
أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ
لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن
جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ۖ وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا
تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا
مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت:٢٨-٣٥]

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ فأرسل الله لوطًا إلىٰ قومه، وكانوا مع شركهم، قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور، وتقطيع السبيل، وفشو المنكرات في مجالسهم، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبيَّن لهم قبائحها في نفسها، وما تئول إليه من العقوبة البليغة، فلم يرعووا ولم يذكروا...

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم، و..

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم..

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ فمروا بإبراهيم قبل، وبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط..

﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾..

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ ف..

﴿قَالُوا۟﴾ له..

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾..

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ثم مضوا حتىٰ أتوا لوطا..

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ فساءه مجيئهم..

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ بحيث إنه لم يعرفهم، وظنَّ أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم من قومه..

﴿وَقَالُوا۟﴾ له..

﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ وأخبروه أنهم رسل الله..

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾..

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ أي: عذابًا..

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤﴾ فأمروه أن يسري بأهله ليلًا.. فلمَّا أصبحوا قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتىٰ أبادتهم وأهلكتهم.. فصاروا سَمَرًا من الأسمار، وعبرة من العِبر.

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً﴾ تركنا من ديار قوم لوط آثارًا بيِّنة..

﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ [العنكبوت:٢٨-٣٥] العِبر بقلوبهم، فينتفعون بها ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨].

🕮 الفـوائـد

تقدَّم أنَّ لوطا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ آمن لإبراهيم، وصار من المهتدين به..

وقد ذكروا **أنه ليس من ذرية إبراهيم**، وإنما هو ابن أخي إبراهيم..

فقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾وإن كان عامًا، فلا يناقض كون لوط نبيًا رسولًا وهو ليس من ذريته..

لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء علىٰ الخليل، وقد أخبر أن لوطًا اهتدىٰ علىٰ يديه، **ومن اهتدىٰ علىٰ يديه أكمل ممن اهتدىٰ من ذريته، بالنسبة إلىٰ فضيلة الهادي**[1]، والله أعلم.

---

(١) نعم! هذا يصح إن لم يكن (لوطًا) عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مهتديًا قبل ذلك، ولم يهتد إلا علىٰ يد (إبراهيم) عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو ما يلزم من قول المصنف.. ويصح أيضًا إذا لم يكن هناك أنبياء قبل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.. ولفظ الآية عام في ذرية إبراهيم فقط ولا يدخل فيها من ليس من ذريته، فـ(إبراهيم) عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ نفسه لا يدخل فيها.
والصحيح: أنَّ لوطًا كان مهتديًا ونبيًا، وإيمانه بـ(إبراهيم) عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن قبله ضلال، وهذا كما آمن (يحيىٰ) بابن خالته (عيسىٰ) عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ، وقد كان نبيًا قبل ذلك.. كما أنَّ هناك أنبياء قبل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كـ(آدم)، و(نوح) وغيرهما مما لم يذكره الله..
والجواب الصحيح -والله تعالىٰ أعلم-: أنَّ جَعْلَ النبوة في ذرية (إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ) بعد أن يولد لـ(إبراهيم)، وليس قبلَ ذلك، والآية صريحة في ذكر الذرية، فلا إشكال أصلًا..
والفائدة من اعتراض قصة إبراهيم بـ ذكر (إيمان لوط): كما هو ظاهر في الآية، أنه لم يؤمن من قوم إبراهيم إلا (لوط) عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ، وهو من الرجال، ولم يؤمن من النساء إلا زوجته كما في الحديث الوارد في الصحيح: «أن إبراهيم حين مر علىٰ ذلك الجبار، فسأل إبراهيمَ عن سارة، ما هي منه؟ فقال: هي أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له: إنك: أختي، فلا تكذبيني، فإنه ليس علىٰ وجه
=

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت:٣٦-٣٨]

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ﴾ وأرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة المشهورة..

﴿شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له..

﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له..

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ ونهاهم عن الإفساد في الأرض، ببخس المكاييل والموازين، والسعي بقطع الطرق..

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾..

= الأرض أحدٌ مؤمن غيرك وغيري».. قال أبو حيان [ت٧٤٥]: لم يؤمن بإبراهيم أحدٌ من قومه إلا لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حين رأىٰ النار لم تحرقه.اهـ..

وظهر لي -والله تعالىٰ أعلم- كأن في الآية إشارة إلىٰ منزلة أبي بكر رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه، فقد كان أوَّل من آمن من الرجال بنبينا محمد ﷺ.

هذا! ولو كان المراد ما اقتضاه قول المصنف، لقال: (فآمن لوط)، ولكن لمَّا قال تعالىٰ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ظهر المقصود من كونه آمن برسالته..

وقد صرَّح بمخالفة ما اقتضاه قول المصنف أبو السعود [ت٩٨٢] فقال: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي: صدَّقه في جميع مقالاتِه، لا في نُبُوتِه وما دعا إليه من التَّوحيدِ فقط، **فإنَّه كان منزَّهـًا عن الكُفر.. وما قيل إنَّه آمنَ له حين رَأىٰ النَّارَ لم تحرقْهُ:** ينبغي أنْ يُحملَ علىٰ ما ذكرنا، أو علىٰ أنْ يُرادَ بالإيمانِ الرُّتبةَ العاليةَ منه، وهي التي لا يرتقِي إليها إلاَّ هممُ الأفرادِ الكُمَّل.اهـ

وبنحو ذلك قال الألوسي [ت١٢٥٠]: وما قيل: إنه آمن له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين رأىٰ النار لم تحرقه ضعيف رواية وكذا دراية؛ **لأنه بظاهره يقتضي عدم إيمانه قبل،** وهو غير لائق به عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وحمله بعضهم علىٰ..اهـ ثم ذكر نحو تأويل أبي السعود المتقدِّم.. والله تعالىٰ وحده أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٣٧﴾..

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود..

﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ وقد علمتم قصصهم.. وتبين لكم بشيء تشاهدونه بأبصاركم..

﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ﴾ وآثارهم التي بانوا عنها.. وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم..

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ حتىٰ ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل..

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العنكبوت:٣٦-٣٨]..

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت:٣٩-٤٠]

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وكذلك قارون، وفرعون، وهامان، حين بعث الله إليهم موسىٰ بن عمران، بالآيات البينات، والبراهين الساطعات..

﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض علىٰ عباد الله فأذلوهم، وعلىٰ الحق فردوه.. فلم يقدروا علىٰ النجاء حين نزلت بهم العقوبة..

﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩﴾ الله، ولا فائتين، بل سلَّموا واستسلموا..

﴿فَكُلًّا﴾ من هؤلاء الأمم المكذِّبة..

﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ علىٰ قدره، وبعقوبة مناسبة له..

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ عذابًا يحصبهم، كقوم عاد، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم، و﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًاۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]..

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كقوم صالح..

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كقارون..

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾ كفرعون وهامان وجنودهما..

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ ما ينبغي ولا يليق به تعالىٰ..

﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ أن يظلمهم؛ لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق..

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت:٣٩-٤٠] منعوها حقَّها التي هي بصدده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضروها غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم ينفعونها.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤٢ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت:٤١-٤٣]

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ **هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره..** يقصد به التعزز والتَّقَوِّي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده.. فإنَّ مثله..

﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾ يقيها من الحر والبرد والآفات..

﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ﴾ أضعفها وأوهاها..

﴿لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾ فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفًا، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم ازدادوا ضعفًا إلىٰ ضعفهم، ووهنا إلىٰ وهنهم.. فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوها عليهم، وتخلوا هم عنها، علىٰ أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم علىٰ طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل.. فـ..

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ حقيقة العلم حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبرأوا منهم، ولتولوا الربَّ القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبدُه وتوكل عليه كفاه مئونة

دينه ودنياه، وازداد قوة إلىٰ قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله.. **ولما بيَّن نهاية ضعف آلهة المشركين، ارتقىٰ من هذا إلىٰ ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء،** بل هي مجرد أسماء سموها، وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق يتبين للعاقل بطلانها وعدمها، ولهذا قال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ﴾ **إنه تعالىٰ يعلم -وهو عالم الغيب والشهادة- أنهم ما يدعون من دون الله شيئًا موجودًا، ولا إلهًا له حقيقة، كقوله تعالىٰ:** ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ [النجم:٢٣]، وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦]..

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ **الذي له القوة جميعًا، التي قهر بها جميع المخلوقات..**

﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٤٢﴾ **الذي يضع الأشياء مواضعها، الذي أحسن كلَّ شيء خلقه، وأتقن ما أمره..**

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾ **لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم.. لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنىٰ المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس..**

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ **ولكن** ﴿مَا يَعْقِلُهَآ﴾ **بفهمها وتدبرها، وتطبيقها علىٰ ما ضربت له، وعقلها في القلب..**

﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت:٤١-٤٣] **أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلىٰ قلوبهم.**

🕮 الفوائد

هذا مدح للأمثال التي يضربها..

وحثٌّ علىٰ تدبرها وتعقلها..

ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان علىٰ أنه من أهل العلم.. فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالِمين..

والسبب في ذلك: أنَّ الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، **فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها،** لاعتناء الله

بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، **فيبذلون جهدهم في معرفتها.. وأما من لم يعقلها،** مع أهميتها، فإنَ ذلك دليل على أنه **ليس من أهل العلم، لأنه** إذا لم يعرف المسائل المهمة، **فعدم معرفته غيرها من باب أولى** وأحرى.. ولهذا **أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين** ونحوها.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [العنكبوت:٤٤]

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هو تعالى المنفرد بخلق السماوات، على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها، وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة..

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها..

﴿بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ وكل ذلك خلقه بالحق، أي: لم يخلقها عبثًا ولا سدى، ولا لغير فائدة، وإنما خلقها، ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا من حكمته وقهره وتدبيره ما يدلهم على أنه وحده معبودهم ومحبوبهم وإلههم..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ على كثير من المطالب الإيمانية..

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [العنكبوت:٤٤] **إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عِيانًا.**

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٥]

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم.. **ومعنى تلاوته: اتباعه،** بامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، **وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه،** فصار **تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه..** وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، عُلِم أن **إقامة الدين كله داخلة في تلاوة الكتاب،** فيكون قوله..

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرفها، وآثارها الجميلة، وهي..

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ **والفحشاء**: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس.. **والمنكر**: كل معصية تنكرها العقول والفطر.. **ووجه كون الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر**: أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوىٰ رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة مداومتها والمحافظة عليها علىٰ هذا الوجه تُنهي عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها..

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ وثَمَّ **في الصلاة مقصود أعظم** من هذا وأكبر، وهو **ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن**.. فإن الله تعالىٰ، إنما خلق الخلق لعبادته، **وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها**، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾.. **ويحتمل**: أنه لمَّا أمر بالصلاة ومَدَحها، أخبر أن **ذكره تعالىٰ خارج الصلاة أكبر من الصلاة**، كما هو قول جمهور المفسرين.. لكن الأول أولىٰ؛ لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها -كما تقدم- بنفسها من أكبر الذكر..

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٥] من خير وشر، **فيجازيكم علىٰ ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.**

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت:٤٦]

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ **ينهىٰ تعالىٰ** عن مجادلة أهل الكتاب، **إذا كانت من غير بصيرة** من المجادل، **أو بغير قاعدة** مرضية.. وأن لا يجادلوا..

﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بحسن خلق ولطف ولين كلام.. ودعوة إلىٰ الحق وتحسينه.. ورد عن الباطل وتهجينه.. بأقرب طريق موصل لذلك.. وأن لا يكون القصدُ منها مجرَّد المجادلة والمغالبة وحب العلو.. بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ﴾ **إلا من ظلم من أهل الكتاب**، بأن ظهر من قصده وحاله أنه

لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة.. فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع..

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب **مبنية على:** **الإيمان** بما أنزل إليكم وأنزل إليهم.. وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم.. وعلى أن الإله واحد.. **ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل،** كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم، من حق وباطل، **فهذا ظلم، وخروج عن الواجب وآداب النظر..**

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦﴾ [العنكبوت:٤٦] منقادون مستسلمون لأمره.. ومن آمن به واتخذه إلها، وآمن بجميع كتبه ورسله، وانقاد لله واتبع رسله، فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق، فهو الشقي.

🕮 الفوائد

إنَّ الواجب: أن يرد ما مع الخصم من الباطل، **ويقبل ما معه من الحق،** ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافرًا.

وأيضًا: فإن بناء مناظرة أهل الكتاب على هذا الطريق، **فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، وبالرسول الذي جاء به..** فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية التي اتفقت عليها الأنبياء والكتب، وتقررت عند المتناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ قد بينتها ودلت عليها وأخبرت بها، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها، والرسل كلهم، وهذا من خصائص الإسلام.. **فأما أن يقال:** نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني، دون الكتاب الفلاني وهو الحق الذي صدق ما قبله، فهذا ظلم وجور، وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب، لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها، المصدق لما بين يديه من التوراة، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن.

وأيضا: فإنَّ كل طريق تثبت به نبوة أيِّ نبي كان، فإنَّ مثلها وأعظم منها، دالة على نبوة محمد ﷺ، وكل شبهة يقدح بها في نبوة محمد ﷺ، فإن مثلها أو أعظم منها، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره، فإذا ثبت بطلانها في غيره، فثبوت بطلانها في حقه ﷺ أظهر وأظهر.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت:٤٧-٤٨]

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد، هذا..

﴿ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ الكريم، المبيِّن كلَّ نبأ عظيم، الداعي إلىٰ كل خُلقٍ فاضل، وأمرٍ كاملٍ، المصدِّق للكتب السابقة، المخبِر به الأنبياء الأقدمون..

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فعرفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسدٌ وهوىٰ..

﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ لأنهم تيقنوا صدقه، بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقبيح، والصدق والكذب..

﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الموجودين..

﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ إيمانًا عن بصيرة، لا عن رغبته ولا رهبته..

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾ الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له.. **وهذا حصر لمن كفر به، أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق**، وإلا فكل من له قصد صحيح فإنه لا بد أن يؤمن به، لما اشتمل عليه من البينات، لكلِّ من له عقل، أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.. **ومما يدل علىٰ صحته**، أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومُه صدقَه وأمانته ومدخَلَه ومخرجه وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطًا، ولا يقرأ خطًا مكتوبًا، فإتيانه به في هذه الحال، من أظهر البيِّنات القاطعة، التي لا تقبل الارتياب أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال..

﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ﴾ أي: تقرأ..

﴿مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا﴾ لو كنت بهذه الحال..

﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت:٤٧-٤٨] فقالوا: تعلَّمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها.. فأما وقد نزل علىٰ قلبك، كتابًا جليلًا تحديت به الفصحاء والبلغاء، الأعداء الألداء، أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثتهم أنفسهم

بالمعارضة، لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأنَّ كلام أحدٍ من البشر، لا يبلغ أن يكون مجاريًا له أو على منواله، ولهذا قال..

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت:٤٩]

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: ﴿بَلْ﴾ هذا القرآن..

﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ لا خفيات..

﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والكُمَّل منهم.. فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلمًا، ولهذا قال..

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت:٤٩] **لأنه لا يجحدها إلا جاهل:** تكلَّم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته.. **وإما متجاهل:** عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت:٥٠- ٥٢]

﴿وَقَالُوا۟﴾ واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به..

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ واقترحوا عليه نزول آيات عيَّنوها، كقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء:٩٠] الآيات.. فتعيين الآيات ليس عندهم، ولا عند الرسول ﷺ، فإنَّ في ذلك تدبيرًا مع الله.. وأنه لو كان كذلك، وينبغي أن يكون كذلك، وليس لأحد من الأمر شيء.. ولهذا قال..

﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إن شاء أنزلها أو منعها..

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.. **وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل،** فإذا حصل المقصود -بأي: طريق- **كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلمًا وجورًا،** وتكبرًا على الله وعلى الحق.. بل لو قُدِّر أن تنزل تلك الآيات، **ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها، كان ذلك ليس بإيمان،** وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فآمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات.. فأيُّ فائدة حصلت في إنزالها، على التقدير الفرضي؟!.. ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه، فقال..

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾ في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به..

﴿أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وهذا **كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات والدلالات الباهرات شيء كثير:** فإنَّه كما تقدم **إتيان الرسول به بمجرده وهو أمي،** من أكبر الآيات على صدقه..

ثم **عجزهم عن معارضته،** وتحديه إياهم آية أخرى.. ثم **ظهوره، وبروزه جهرًا علانية،** يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو **في وقت قلَّ فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه،** فلم يُخفِه، ولم يثن ذلك عزمه، بل صرح به على رءوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟!..

ثم **إخباره عن قصص الأولين،** وأنباء السابقين، والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع..

ثم **هيمنته على الكتب المتقدمة،** وتصحيحه للصحيح، ونَفْيُ ما أدخل فيها من التحريف والتبديل..

ثم **هدايته لسواء السبيل،** في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل (ليته لم يأمر به)، ولا نهى عن شيء فقال العقل: (ليته لم ينه عنه)، بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول..

ثم **مسايرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان،** بحيث لا تصلح الأمور إلا به..

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل علىٰ طلب الحق، **فلا كفىٰ الله من لم يكفه القرآن، ولا شفىٰ الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدىٰ به واكتفىٰ، فإنه خير له فلذلك قال..**

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية..

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ فأنا قد استشهدته، فإن كنتُ كاذبًا، أَحَلَّ بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني وينصرني وييسر لي الأمور، فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته -وأنتم لم تسمعوه ولم تروه- لا تكفي دليلًا فإنه..

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن جملة معلوماته حالي وحالكم، ومقالي لكم، فلو كنت متقولًا عليه، مع علمه بذلك، وقدرته علىٰ عقوبتي، لكان قدحًا في علمه وقدرته وحكمته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥﴾ [الحاقة]..

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٥٢﴾ [العنكبوت:٥٠- ٥٢] حيث هم خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. وحيث فاتهم النعيم المقيم.. وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۝٥٤ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥﴾ [العنكبوت:٥٣-٥٥]

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ يخبر تعالىٰ عن جهل المكذِّبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون -استعجالًا للعذاب، وزيادة تكذيب: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨]؟.. يقول تعالىٰ..

﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ مضروب لنزوله، ولم يأت بعد..

﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ بسبب تعجيزهم لنا وتكذيبهم الحق، فلو آخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ولكن -مع ذلك- فلا يستبطئون نزوله..

﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم﴾ فإنه سيأتيهم..

﴿بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٣﴾ فوقع كما أخبر الله تعالىٰ.. لما قَدِموا لـ (بدر) بَطِرين مفاخرين، ظانين أنهم قادرون علىٰ مقصودهم، فأهانهم الله، وقتل كبارَهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق فيهم بيتٌ إلا أصابته تلك المصيبة، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون..

﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾.. هذا، وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي، فإن أمامهم العذاب الأخروي، الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا أو أمهل..

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤﴾ ليس لهم عنها معدل ولا متصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب، هو العذاب الشديد..

﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٥﴾ [العنكبوت:٥٣-٥٥]

فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذابًا، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾ [العنكبوت:٥٦-٥٩]

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بي وصدَّقوا رسولي..

﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦﴾ فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلىٰ أرض أخرىٰ، حيث كانت العبادة لله وحده، فأماكن العبادة ومواضعها واسعة، والمعبود واحد..

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧﴾ **والموت لا بد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلىٰ ربكم..**

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ **فيجازي من أحسن عبادته، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح.. بإنزاله الغرف العالية..**

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ **والمنازل الأنيقة الجامعة لما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين..**

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ **وأنتم فيها خالدون.. فـ..**

﴿نِعۡمَ﴾ **تلك المنازل، في جنات النعيم..**

﴿أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨﴾ **لله..**

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على عبادة الله.. **فصبرهم على عبادة الله يقتضي**: بذل الجهد والطاقة في ذلك، **والمحاربة العظيمة للشيطان** الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك..

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾ [العنكبوت:٥٦-٥٩] في ذلك.. **وتوكلهم يقتضي**: شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها.. **ونص على التوكل، وإن كان داخلا في الصبر،** لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ [العنكبوت:٦٠]

﴿وَكَأَيِّن﴾ **أي: الباري تبارك وتعالى، قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم، قويهم وعاجزهم، فكم..**

﴿مِّن دَآبَّةٖ﴾ **في الأرض، ضعيفة القوى، ضعيفة العقل..**

﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ ولا تدخره، بل لم تزل لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها الرزق، في كل وقت بوقته..

﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ **فكلكم عيال الله**، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتدبيركم..

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ [العنكبوت:٦٠] فلا يخفى عليه خافية.. ولا تهلك دابة من

عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود:٦].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٢ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٣﴾ [العنكبوت:٦١-٦٣]

هذا استدلال علىٰ المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة.. **وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية..**

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فأنت لو سألتهم من خلق السماوات والأرض..

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾..

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ وحده، ولاعْتَرَفُوا بعجز الأوثان ومن عبدوه مع الله علىٰ شيء من ذلك..

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾ فاعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلىٰ من أقروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبِّر شيئًا..

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٢﴾..

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ ومن نزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾..

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ قل: الحمد لله الذي بين الهدىٰ من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموفقون.. وقل: الحمد لله الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، وبسط الرزق علىٰ من يشاء، وضيقه علىٰ من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم..

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٣﴾ [العنكبوت:٦١-٦٣] وسَجَّل عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء، ضعفاء الأحلام.. فهل تجد أضعفَ عقلًا وأقلَّ بصيرة ممن أتىٰ إلىٰ حَجر، أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب الخالق الرازق، النافع الضار.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٦٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٦٨ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت:٦٤-٦٩]

يخبر تعالىٰ عن **حالة الدنيا والآخرة**.. وفي ضمن ذلك: **التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرىٰ**، فقال..

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ في الحقيقة..

﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، **بسبب ما جعل الله فيها** من الزينة واللذات، والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلة الباطلة.. ثم تزول سريعًا، وتنقضي جميعًا، ولم يحصل منها محبُها إلا علىٰ الندم والحسرة والخسران..

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ﴾ وأما الدار الآخرة، فإنها دار ﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الكاملة.. **التي من لوازمها**، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، **لأنها أبدان وقوىٰ خلقت للحياة**، وأن يكون موجودًا فيها كلُّ ما تُكمَّل به الحياة، وتتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المآكل، والمشارب، والمناكح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر..

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٦٤﴾ لما آثروا الدنيا علىٰ الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب.. **فدل ذلك علىٰ أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة علىٰ الدنيا**، لما يعلمونه من حالة الدارين..

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ألزم تعالىٰ المشركين بإخلاصهم لله تعالىٰ في حالة الشدة، عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يتركون إذًا أندادَهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له..

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ فلما زالت عنهم الشدة، ونجّىٰ من أخلصوا له الدعاءَ إلىٰ البرِّ..

﴿إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٦٥﴾ أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال عنهم مشقة.. فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء والشدة، واليسر والعسر، ليكونوا مؤمنين به حقًا، مستحقين ثوابه، مندفعا عنهم عقابه..

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ ولكنَّ شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم، بالنجاة من البحر، **ليكون عاقبته كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة..**

﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ﴾ وليكملوا تمتعهم في الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم..

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٦٦﴾ حين ينتقلون من الدنيا إلىٰ الآخرة، شدة الأسف وأليم العقوبة.. ثم امتن عليهم بحَرَمِه الآمن..

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وأنهم أهله في أمن وسعة ورزق..

﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ والناس من حولهم يتخطفون ويخافون.. أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف..

﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ وهو ما هم عليه من الشرك، والأقوال، والأفعال الباطلة..

﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ هم..

﴿يَكۡفُرُونَ ۝٦٧﴾ فأين ذهبت عقولهم، وانسلخت أحلامهم، حيث آثروا الضلال علىٰ الهدىٰ، والباطل علىٰ الحق، والشقاء علىٰ السعادة.. وحيث كانوا أظلم الخلق..

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلىٰ الله..

﴿أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ﴾ على يد رسوله محمد ﷺ.. ولكنَّ هذا الظالم العنيد أمامه جهنم..

﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٦٨﴾ يؤخذ بها منهم الحق، ويخزون بها، وتكون منزلهم الدائم، الذين لا يخرجون منه..

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته..

﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون..

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت:٦٤-٦٩] بالعون والنصر والهداية.

🕮 الفوائد

١ - دل هذا على: أن **أحرى الناس بموافقة الصواب** أهل الجهاد.

٢ - وعلى أن: **من أحسن فيما أُمِر به أعانه الله** ويسر له أسباب الهداية.

٣- وعلى أن: **من جدَّ واجتهد في طلب العلم الشرعي**، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم.. **فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله**، بل هو أحد نَوْعَي الجهاد، الذي **لا يقوم به إلا خواص الخلق**، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة (العنكبوت)

بحمد الله وعونه

فهرس المحتويات

تفسير سورة براءة ٣
تفسير سورة يونس ٨٥
تفسير سورة هود ١٣٨
تفسير سورة يوسف ١٩٢
تفسير سورة الرعد ٢٤٨
تفسير سورة إبراهيم ٢٧٣
تفسير سورة الحجر ٢٩٨
تفسير سورة النحل ٣١٧
تفسير سورة بني إسرائيل ٣٧٥
تفسير سورة الكهف ٤٢٥
تفسير سورة مريم ٤٨٥
تفسير سورة طه ٥٢١
تفسير سورة الأنبياء ٥٦٨
تفسير سورة الحج ٦١١
تفسير سورة المؤمنون ٦٥٢
تفسير سورة النور ٦٩٠
تفسير سورة الفرقان ٧٣٧
تفسير سورة الشعراء ٧٧٠

تفسير سورة النمل ٨٠٧

تفسير سورة القصص ٨٣٩

تفسير سورة العنكبوت ٨٨١

فهرس المحتويات ٩١٣